

العدد ٥٤٩ السنة ٤٨ - جمادى الآخر ١٤٣٠ هـ - حزيران ٢٠٠٩ م

الصداق القيرواني

افتتاحية العدد

الدكتور رياض نعسان آغا
وزير الثقافة

كلمة العدد

هل مات الشعر؟
د. علي القيم رئيس التحرير



«مناجاة» للفنان محمد قباوة

الإبداع

كتاب الشهر

الهجرة إلى المجتمع الرقمي
عرض وتقديم: محمد سليمان حسن

حوار العدد مع الروائية: لينا هويان الحسن





العـدد ٥٤٩ السـنة ٤٨ - جمادى الآخر ١٤٣٠ هـ - حزيران ٢٠٠٩ م



- ترحب مجلة المعرفة بإسهامات الكُتّاب والمفكّرين العرب في مجمل قنوات المعرفة الإنسانية
- يفضّل أن تتراوح حجم المقال بين ١٥٠٠ - ٤٠٠٠ كلمة وحجم البحث بين ٤٠٠٠ - ٦٠٠٠ كلمة
- يُراعى في الإسهامات أن تكون موثقة بالإشارات المرجعية وفق الترتيب التالي :

اسم المؤلف - عنوان الكتاب - مكان الطباعة وتاريخها - رقم الصفحة مع ذكر اسم المحقّق في حال الكتاب محقّقاً ، واسم المترجم في حال الكتاب مترجماً

ترجو المجلّة من كتّابها أن يقرنوا إسهاماتهم بتعريف موجز لهم

- ترجو المجلّة أن تردها الإسهامات منضّدة على الحاسوب ومراجعة من قِبل كاتبها
- تلتزم المجلّة بإعلام الكتّاب عن قبول إسهاماتهم خلال شهر من تاريخ تسلّمها . ولا تُعاد لأصحابها
- يُرجى توجيه المراسلات إلى المجلّة على العنوان التالي :

الجمهورية العربية السورية - دمشق - الروضة - رئيس تحرير مجلّة المعرفة - تلفاكس ٣٣٣٦٩٦٣

سعرُ النسخةِ ٢٥ ل.س أو ما يُعادلها
تُضافُ إليها أجرة البريد خارجَ القطر

www.moc.gov.sy

الإشراف الطباعي : مطابع وزارة الثقافة

في هذا العدد

كلمة الوزارة

الصداق القيرواني

الدكتور رياض نعسان آغا
وزير الثقافة

كلمة العدد

هل مات الشعر؟

د. علي القيّم
رئيس التحرير



الإبداع

شعر :

قصة :

آفاق المعرفة

حوار العدد

متابعات

كتاب الشهر

آخر الكلام



الدكتور رياض نعسان آغا
وزير الثقافة

الصداق القيرواني

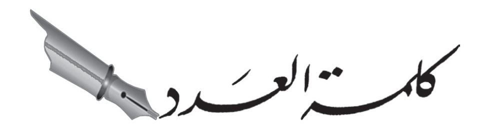
أتيح لي أن أشارك في إطلاق احتفالية القيروان عاصمة للثقافة العربية لعام ٢٠٠٩، وكنت أتأمل المدينة بدهشة من عظمة الإرادة الإسلامية التي جعلت الفاتحين يبنون مدينة إسلامية صرفة خالصة بعد خمسين عاماً فقط من الهجرة، فإذا اقتطعنا منها أحد عشر عاماً كان فيها رسول الله صلى

الله عليه وسلم لا يزال يبني دولة الإسلام الأولى في المدينة المنورة وفي الجزيرة العربية، فإن المسلمين إذن حرروا كل بلاد الشام والعراق ووصلوا إلى أذربيجان وأرمينيا وخراسان وانطلقوا إلى ما خلفها في الشرق بعد مرور تسع سنين على وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد انطلقت جيوشهم في اتجاه الغرب إلى مصر وفتحتها سنة عشرين هجرية، وبعد عامين انطلق عقبة بن نافع لمتابعة فتح المغرب العربي وخلال ثلاثين عاماً كان المسلمون قد أنجزوا مشروعاً ضخماً وصلوا فيه إلى بناء أول مدينة إسلامية هي القيروان. ولقد جلست في صحن جامع عقبة أتأمل صرحاً ضخماً من صروح هذه الثقافة التي لا تزال حية إلى اليوم، وقد أتاحت لي هذه الزيارة أن أتعرف أكثر إلى مكانة القيروان في تاريخنا وفكرنا العربي الإسلامي، وكان أكثر ما أثار اهتمامي أن أستذكر ما يسمى (الصداق القيرواني) الذي اختصت به نساء القيروان في فقههن، ومنه ما يسمى (الجعل التحريمي)، وقد اشتهر هذا النوع من عقد الزواج حتى بات يكتفى بأن يذكر العاقد على امرأة قوله (على شرط نساء القيروان)، وكن قد حفظن لأنفسهن حق أن يشترطن في ملحق عقد النكاح شروطاً تضاف إليه كحق الزوجة بتطليق نفسها (أي أن تكون العصمة في يدها) أو حقها باشتراط ألا يتزوج امرأة أخرى، فإن فعل فإن لها حق تطليق الزوجة الجديدة، ويسمونه التمليك، وعلى الرغم من الاختلافات الفقهية حول شروط عقد النكاح، فإن نساء القيروان جعلنه مدرستهن الفقهية، وقد عزز موقفهن كون أساتذة الفقه في القيروان كانوا من كبار صحابة رسول الله

والتابعين، وممن درسوا على الإمام مالك بن أنس، وأسسوا المذهب المالكي، ولم تكن نساء القيروان بمعزل عن التفقه والاجتهاد، فقد برزت منهن نساء فقيهات مشهورات، مثل خديجة بنت الإمام سحنون بن سعيد التنوخي، وهو شامي من أهل حمص، وكانت ابنته خديجة قد أخذت الفقه عنه، وباتت تعلم النساء وترشدهن، وهي مدفونة في فسقيه الأغالبة إلى جوار قبر أبيها وقبر الصحابي أبي زمعة البلوي رضي الله عنه. وكذلك كانت أسماء بنت أسد بن الفرات التي اشتهرت بالرواية على مذهب أبي حنيفة، وفاطمة الفهرية أم البنين التي بنت جامع القرويين في فاس، ومثلهن كثيرات عبرن عن مكانة عالية لدور المرأة في الإسلام. ولقد قرأت دراسة وافية عن الشرط القيرواني قدمتها الباحثة نرجس دبش تحت عنوان «قراءة تاريخية في مسألة فقهية». تناولت فيها الشرط القيرواني وأشارت إلى مرجعياته الفقهية التي لا يتسع المجال هنا لاستعراضها، ولابد من التأكيد على أن الشروط القيروانية لم تكن من مفسدات العقد وإن كانت موضع خلاف فقهي، فلا يحق للمرأة مثلاً أن تشترط على الزوج ألا يعاشرها معاشرة الأزواج أو أن يشترط أحد الزوجين عدم الإنجاب، ولا يحق للزوج أن يشترط على المرأة أن تنفق على نفسها من مالها الخاص، فمثل هذه الشروط تجعل عقد الزواج فاسداً، فأما القيروانيات فقد اشترطن ما لا ينكره إجماع الفقهاء وما لا يقبله كثير منهم، فمنهن من اشترطت على زوجها أن ينفق على أولاد لها من زوج سابق، ومنهن من اشترطت ألا يتزوج بثانية، وبما أن القضاء لا يمنع الزواج الثاني فقد ملّكت

نفسها حق الطلاق إذا فعل، ومنهن من تملكن حق تطليق سواهن من زوجات بعدهن، ولم تكن هذه الشروط تأتي في صيغة العقد المؤسس وإنما كانت شبه ملاحق عليه، لكن المسلمين في المشرق والمغرب تعارفوا على تسمية هذا النوع من عقود النكاح بقولهم (على الطريقة القيروانية)، وأحسب أن ما حققته نساء القيروان منذ قرون بعيدة هو الذي أسس لما نالته المرأة التونسية من خصوصية في قوانين الأحوال الشخصية اليوم.







هل مات الشعر؟

د. علي القيّم
رئيس التحرير

في خريف عام ١٩٩٩، كان لي شرف المشاركة، وتمثيل المجموعة العربية، في اجتماعات المؤتمر العام للمنظمة العالمية للتربية والعلوم والثقافة «اليونسكو» في باريس، لجنة التراث والثقافة (اللجنة الرابعة) حيث قامت المنظمة بإجراء استقصاء دولي، بمساعدة البروفيسور «ألكسندر بلوخ» الأمين العام الدولي السابق لرابطة القلم، والمستشار الفخري لدى «اليونسكو» شمل

خمسين منظمة وطنية ودولية وإقليمية متخصصة في الشعر، وتمَّ استلام ثلاثين رداً، وكان الهدف من هذا الاستقصاء، الذي جرى عن طريق استبيان، استطلاع رأي أوساط الشعراء، في مختلف المناطق الجغرافية الثقافية، عن الطريقة التي يمكن أن يعلن بها عن هذا اليوم، وقد اقترحت الخيارات الثلاثة الآتية:

- إعلان يوم دولي للشعر في تاريخ ثابت كل سنة.

- الاحتفال باليوم العالمي للشعر في تواريخ تتطابق مع تاريخ اليوم الوطني للشعر المعتمد أصلاً في كل بلد.

- تنظيم مناسبة عالمية للاحتفاء بالشعر كل سنة في دولة عضو في منظمة اليونسكو.

وفي اجتماع خاص، ضمّ مجموعة من كبار الشعراء في العالم، تمَّ فيه دراسة أوضاع الشعر في نهاية القرن الماضي على نحو منفصل، وطرحت فيه الاعتبارات التالية:

١- يوجد في عالم اليوم تعطش لبعض الاحتياجات الجمالية، ويمكن للشعر أن يلبي هذه الاحتياجات إذا اعترف بدوره الاجتماعي في مجال التواصل بين البشر حيث يشكل أداة لإيقاظ الوعي والتعبير عنه.

٢- يشهد العالم منذ عشرين عاماً، حركة حقيقية لصالح الشعر، وأصبحت الأنشطة الشعرية تتكاثر في مختلف الدول الأعضاء في «اليونسكو» ويزداد الشعراء عدداً.

٣- كل هذا يعبّر عن حاجة اجتماعية تدفع الشبيبة، على الأخص، إلى العودة إلى المنابع، وتشكيل وسيلة، يمكنهم بها مواجهة الذات، بينما يشدّهم العالم الخارجي إليه بقوة بعيداً عن ذواتهم.

٤- تمثّل هذه الحركة الاجتماعية، عودة إلى اكتشاف القيم المتوارثة، والتقليد الشفوي، وقبول الكلمة المنطوقة، كعنصر بارز، يعزز البعد الاجتماعي لدى الإنسان، ويجعله أكثر انسجاماً مع نفسه..

إن جميع من استشيروا بهذا المشروع المهم، أبدوا اهتماماً بالغاً بقيام «اليونسكو» لهذه المبادرة العالمية لدعم الشعر، التي تؤدي إلى الاعتراف بالحركات الشعرية الوطنية والإقليمية والدولية، وإعطائها دفعة جديدة، وينبغي لهذه المبادرة أن تستهدف أساساً دعم التنوع اللغوي، من خلال التعبير الشعري ، وبعد تحليل مختلف الأشكال التي يمكن أن تتخذها هذه المبادرة.. تمَّ الاتفاق على إعلان الحادي والعشرين من شهر آذار، يوماً عالمياً للشعر، ليشكّل إطاراً للأنشطة والجهود المضطلع بها على مختلف الأصعدة من أجل دعم الشعر..

❁ ❁ ❁

لقد كان الهدف من يوم الشعر العالمي الذي بدأ الاحتفال به من عام /٢٠٠٠/ تشجيع ما يلي:

- الجهود التي يبذلها صغار الناشرين في سوق الكتاب، عن طريق نشر عدد متزايد من الدواوين للشعراء الشباب.

- العودة إلى أسلوب الإلقاء الشعري، أو ما يعرف بالعروض الحيّة، نظراً لأن أمسيات إلقاء الشعر، تلقى –اليوم- إقبالاً متزايداً.

- إقامة حوارات بين الشعر وغيره من الفنون مثل: المسرح والرقص والموسيقى والرسم، وبين موضوعات راهنة في عالم اليوم.

- القيام بمناسبة اليوم العالمي للشعر، بالربط بين أنواع الفنون كافة، وبين الفلسفة التي تقترب من الفن كثيراً، لتسليط الضوء من جديد على عبارة «ديلاكروا» الفنان الإسباني الشهير، الذي قال في مذكراته: «لا يوجد فن بلا شعر».

- تحسين نظرة الإعلام إلى الشعر، بحيث لا يعتبر فن القصيدة، فناً ولىّ عهده، بل فناً يتيح للمجتمع بأكمله العودة إلى اكتشاف هويته، والتأكيد عليها.

واليوم بعد مرور نحو عشر سنوات على قرار منظمة «اليونسكو»، هل استطاع عشاق

الشعر ورواده أن يغيّروا من واقع الحال شيئاً؟ وهل نفض الشعر جناحيه وعاد إلى الحياة، بعد أن كادت تطويه إلى الأبد قاطرة ابتدعتها حضارات العجلة «الحديثة» حسب تعبير شاعرنا الكبير الأستاذ سليمان العيسى، في ندوة أقمناها احتفاء بيوم الشعر العالمي يوم ٢٢ آذار الماضي؟! أردناها تحية ومحبة وأمسية ناقشنا فيها جملة من الأمور والمواضيع حول حال الشعر في هذه الأيام بشكل عام، وحال القصيدة، وموت القصيدة العمودية، وتدهور قراءة الشعر، وتراجع دورا النقد الشعري ، وتدريس الشعر في مراحل التعليم المختلفة..

معارض الكتاب في شتى أصقاع الوطن العربي، تقدّم الدلائل الواضحة، على تراجع الشعر، وبروز الرواية.. هناك من يقول إن الناس أصبحت تحب سماع الشعر، ولا تحب قراءته؟ وإن أغلب الدواوين التي تنشر في هذه الأيام، لا علاقة لها بالشعر، وإن تهافت أكثر الشعراء، وراء أوهام الحداثة، منع شعرهم من أن يصبح مقبولاً ومحترماً، وإن قصيدة النثر كان لها دورها البارز في ابتعاد الجمهور عن الشعر، وإن ابتعاد الشعراء عن الوزن والقافية والموسيقى، جعل كتاباتهم عبارة عن كلام مرصوص فوق بعض، وإن عالم النشر الإلكتروني، قد غيرّ مفاهيم النشر[1]..

يقولون الجمهور اختلف، فلم يعد كتلة واحدة، فلكل شاعر جمهوره وعشاقه، وتأثيره، فكثير من الشباب والفتيات يبحثون عن سبل لتعويض الإحساس بالإشباع النفسي والعاطفي، فيجدونه في شعر نزار قباني، وكثير منهم يبحثون عن الشاعر ككائن آدمي، فيجدونه في محمود درويش وعمر أبو ريشة، وسليمان العيسى ويوسف الخطيب وصلاح عبد الصبور وغيرهم..

يرى الناقد المصري الكبير صلاح فضل: «أن الشعر منذ أن دخل مرحلة الحداثة،

---

(١) شارك في هذه الندوة الشعراء الأساتذة: سليمان العيسى- يوسف الخطيب- خالد أبو خالد- أحمد يوسف داود.

قد تخلّى -بشكل واضح- عن وظيفته الإعلامية، التي كان يعبّر عنها بشكل مباشر عن الضمير القومي، ورؤية الجماهير، وقد أصبح تلقيّه -تقريباً- مقصوراً على صفوة المثقفين والمهتمين بالحركة الشعرية، والمتابعين لتطورها، ولم ينج من ذلك سوى شعر العاميّة، الذي ظلّ محتفظاً بقاعدته الشعبية العريضة، وبجمهوره الواسع».

❁ ❁ ❁

أنصار قصيدة النثر يقولون في معرض الدفاع عنها، إن ظهورها كان بمثابة تطور في الأنواع الأدبية، وإنها كانت خروجاً عن النمط والمتن السائد، وكانت خطوة ضرورية في الشعر العربي، فهي بمثابة الزلزال الذي فجّر أرض الكتابة العربية، وإن التحوّل إلى قصيدة النثر، كان ضرورياً من أجل التعبير عن الواقع، وإن القصيدة النثرية صارت تحتوي تقاطعات فنية وأدبية متعددة، بحيث أن الشاعر قد أصبح يعتمد على ميراث مختلف عن الميراث الذي اعتمدت عليه قصيدة التفعيلة (سردية- بصرية).. لقد تقدم المعنى، وتراجع الشكل والإيقاع التقليديين، ونشأت علاقات أوسع في الرؤية، وحرية التعبير.. إنه إيقاع الحياة الجديد بكل ما فيه من متغيرات وتقنيات متسارعة..

وهناك من يقول، لماذا هذا الصراع المزعوم بين القديم والحداثة، وشعر التفعيلة، وشعر النثر، فالشعرية العربية لم تعرف الثبات والجمود في مسيرتها الطويلة، بل إن أهم ما يميزها، أنها تجدد نفسها لتتوافق مع ظرفها التاريخي والحضاري، وكانت ترحل من زمن إلى آخر، حاملة ركائزها الأساسية، ثم تضيف إليها أو تحذف منها، أو تعدّل فيها، وفق الشرط الحضاري المصاحب لها.. والمدقق في تتابع المراحل الشعرية، يلحظ أن كل مرحلة كانت بمثابة رد فعل لما سبقها، (جماعة أبولو- جماعة شعر)، وهنا لا بد من الإشارة إلى الاتهام الكبير الذي وجه إلى شعراء هذه المراحل.. لقد عطلّوا الشعر، وأضروه، وأبعدوا الجمهور عن الشعر، بانغلاق عوالمهم، وإن الشعراء اللاحقين احتاجوا إلى زمن للتحرر من تركتهم الثقيلة.

أمسيات الشعر وملتقياته التي أقيمت مؤخراً في عدة عواصم عربية، أثبتت بما لا يقبل الشك وجود صراع أجيال عدة على صدارة المشهد الشعري العربي، حيث ظهر بشكل واضح أن تجاور الأجيال بات مستحيلاً، مثلما استحال تجاور الأشكال المختلفة للقصيدة، وهذا ما لمسناه في أمسيات دمشق الشعرية، وملتقى القاهرة الثاني للشعر العربي، وفعاليات الملتقى الأول لقصيدة النثر، وملتقى مهرجان دبي وغيرها، وأعتقد أن هذا الواقع لا يسر أحداً من النقّاد والمتابعين لشؤون القصيدة ومسارها، والتجديد والإبداع والحداثة لا ترتبط بعمر معيّن، فمهرجان القاهرة الثاني للشعر العربي، الذي خلت أمسياته تقريباً من شعراء وباحثين تقل أعمارهم عن الخمسين عاماً، أهدى أعماله للشاعر خليل مطران، باعتباره «رمزاً للتجديد والتجريب في الشعر العربي الحديث».

الشعر ما زال موجوداً، ومأساته في بعض من يتعاطاه وينظمه ويتعامل معه، وقد وصلت مأساته ذروتها في الصراع بين أنماطه وأنواعه، خاصة بين التفعيلة وقصيدة النثر، وهو ليس صراعاً تقنياً خالصاً، كما يرجون له، وإنما هو صراع بين هيئات اجتماعية متناقضة..

كثيرون ممن أعرفهم من الأدباء والشعراء والنقاد، في زمن الإحباطات المتكررة التي مرت على أمتنا العربية، فقدوا إيمانهم بصدقية المناسبات التكريمية الخاصة والعامة على اختلاف أنواعها، ومنها يوم الشعر العالمي، في زمن يعيش فيه عزلة وكآبة، وليس من يحميه من وحشته، لا بيوت الشعر ولا مهرجاناتها ولا أمسياته ولا فعالياته.. والمطلوب أن يجد من يحميه في قلوبنا وفي وجودنا، بعيداً عن التأثيرات السلبية التي خلقتها الطبيعة المادية والاستهلاكية للعصر الراهن..

عودة الحياة للشعر، كما في عصوره الذهبية، تحتاج إلى منهج مدروس ومتكامل، يأخذ على عاتقه إعادة فتح قنواته في تواصلنا وحوارنا اليومي مع أنفسنا والآخر..

زمن القصيدة لم ينتهِ، كما يحاول البعض أن يوهمنا، وشاعرنا الراحل الكبير محمود درويش، قبل أن يرحل وجه نصائح إلى الشعراء الشباب، نجدها مناسبة لكل مبدع يرسم خطواته في مسار طويل:

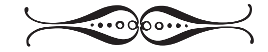
«لا تصدق خلاصاتنا، وانسها
وابتدئ من كلامك أنت، كأنك
أول من يكتب الشعر،
أو آخر الشعراء!
إن قرأت لنا، فلكي لا تكون امتداداً
لأهوائنا،
بل لتصحيح أخطائنا في كتاب الشقاء.
الحقيقة بيضاء، فاكتب عليها
بحبر الغراب،
والحقيقة سوداء، فاكتب عليها
بضوء السراب!
إن أردت مبارزة النسر
حلّق مَعَه
إن عشقتَ فتاة فكن أنت
لا هي
من يشتهي مصرعه
إن أطلت التأمل في وردة
لن تزحزحك العاصفة
القصيدة في الزمن الصعب

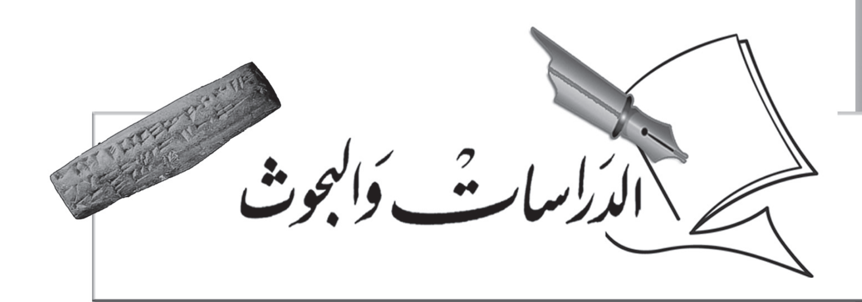
زهرٌ جميلٌ على مقبرة!

لا نصيحة في الحب، لكنها التجربة

لا نصيحة في الشعر، لكنها الموهبة».

ختاماً، نقول لكل مشكك، الشعر لا يموت، كان منذ عصور الجاهلية، أحد أهم قنوات التواصل مع الآخر، وكان أجمله يشيع الحب والجمال، وينشر السلام والمحبة بين بني البشر.. في عالم اليوم، نريد للشعر أن يصلح ما أفسدته أخلاقيات «العولمة» ومتغيرات العصر، نريد للشعر أن يبعث الإرادة في النفوس، ويضيء متاهات دروبنا المظلمة، ويعيد إحساسنا بالمدى والندى والجمال..




الدراسات والبحوث



«الغرب» أمام إشكالية عريقة متجددة

د. طيب تيزيني ❁

منــذ أن نشأ «الغرب الحديث» وتبلور مع ظهور وتطور المجتمع الصناعي الرأسمالي، راحت تــبرز «مشكلة» في المنظومة الثقافية لهذا المجتمع وجدت طريــق نمائهــا واستفحالها بقوة متصاعدة، بحيــث انعطف باتجاه التحول إلى «إشكاليــة» تفرض نفسها على المجتمع بــكل أو بمعظم حقوله؛ مؤسِّسة -بذلــك- لقانونية تحويل العلم إلى قوة إنتاج مباشرة، دونما مرافق أو وسيط أو ضابط. فهذه الحلقات الثلاث، التي تمثلت بالفلسفة والعلوم الاجتماعية

❁ فيلسوف ومفكر عربي سوري

العمل الفني: الفنان قحطان الطلاع.

والإنسانية، راحت تغيب عن مسيرة العلوم الطبيعية وملحقاتها، بقدْر ما تعاظمت علاقة هذه الحلقات بالثورة الصناعية ثم بالثورة التكنولوجية العلمية، وصولاً إلى ثورتيّ الاتصالات والمواصلات الراهنة بل لعلنا نلاحظ أن قدْراً كبيراً من العلوم الاجتماعية والإنسانية النظرية أخذ يعاني من التهميش والإقصاء لصالح تلك الطبيعية وملحقاتها. وقد قاد ذلك في عقود تالية إلى نشأة «العقل التجريبي» الموظَّف في خدمة التقدم الصناعي والتكنولوجي.

في تلك البنية التاريخية تعمقت اتجاهات المجتمع الاستهلاكي، التي أسَّست لما نتعرف عليه، في هذا السياق، تحت مصطلح (الإنسان الاقتصادي)؛ بدأ بيد مع بروز دعوات تكرّس نهاية الإنسان وحضارة الغرب «المادية» معاً.ولم تخرج فلسفات التشاؤم والعبث واللاجدوى عن التوجه النقدي السلبي الصارم لـ«حضارة الغرب»، التي راح النظر إليها بمثابتها حالة ولجت لحظة الاستنفاد التاريخي والجفاف البنيوي؛ مَمّا استدعى ظهور «النوستالجي- الحنين البائس إلى الماضي»؛ خصوصاً مع تصاعد الحروب والأزمات الكبرى والصغرى، التي أحدثت ملايين من المهووسين والمذلولين والمهانين، وضيقت على البشر، ودفعتهم إلى مواجهة «مصائرهم» بكيفية أو بأخرى. سنأتي على ذلك عبّر محطات وسياقات متعددة، ودالّة في عمومها الحاسم.

قد يلاحظ كثيرون أو قليلون من الباحثين أن الإشكالية التي واجهتها وتواجهها الثقافة «الغربية» أو «المتقدمة» عموماً تمثلت في أحد جوانبها الكبرى بالعلاقة بين الثقافة والعلم. أما هذه العلاقة فتبلورت في الصيغة التالية: كيف يمكن ضبّط اتجاهات التقدم العلمي بمساعدة الثقافة ذات النزعة الإنسانية، وعبّر لجمّ النتوءات الثقافية العرقية أو ذات النزوع الهيميني وغيرها مّما يدخل في هذا الاعتبار؟ وضروريٌّ أن يُقال، ها هنا، بأن هذه الإشكالية أفصحت عن نفسها يداً بيد مع ظهور العلم الحديث وتطوره وتعاظم اتجاهات مخاطره. وبهذا المعنى، يتضح أن هذه الأخيرة راحت تبرز مع تعمُّق اقتران العلم بالصناعة الحديثة، في وجهها الحربي تحديداً. ويمكن توسيع هذه الفكرة باتجاه القول بأن ذلك أثّر -كذلك وبعمق- على الإنتاج الفلسفي والفكري عموماً، حيث ظهرت فكرة «المصير» و«المال» وما يلّفعها من آراء سوداوية تشاؤمية.

كان ذلك بمثابة مهماز أشعل في الثقافة الغربية منذ القرن العشرين، خصوصاً، أسئلة ثقافية تحولت على موضوعات

صحيحة من الثقافة المذكورة. وإذ كان الأمر كذلك، فقد راح يبدو أن الإشكالية، العظمى على الأقل، في نطاق هذه الثقافة هي ما يتجلّى بينها وبين العلم؛ مِمّا عمّق الأسئلة الأخلاقية المصيرية، وأسهم في إنتاج نمط من الفلسفة يجد نفسه معْنياً بذلك، على وجه التحديد؛ وكانت الفلسفة الوجودية أحد تعبيرات ذلك. وإذا استطاع الباحث التأكيد على ذلك كله، فليس بمستطاعه أن يختزل الموقف كله بذلك، أي بالإشكالية المذكورة. في هذه الحال، يمكن وضع اليد على إشكالية أخرى أو إشكاليات أخرى، تبرز منها -على وجه التحديد- إشكالية العلاقة بين الثقافة والسلطة. وإذا ظهرت هذه الأخيرة -مع تعاظم مخاطر الحروب ودور العلم في إثارتها وتعميقها وتعميق عنصر المأساة الإنسانية في الضمير الغربي- إلا أن ذلك لم يُلغ الإشكاليات الأخرى.

في سياق ذلك، نضع يدنا على أن بروز إشكالية الثقافة والعلم في الفكر الغربي الحديث أفصح عن نفسه في ظل الهيمنة المتعاظمة للعلاقات الرأسمالية الصناعية في المجتمعات الغربية، وبقيادة طبقة رأسمالية متصاعدة بقوة وبوتائر متدفقة من الليبرالية إلى الاستعمار والإمبريالية فالنظام العالمي الجديد- العولمي- المسلح بكل أنماط القدرة على التدمير والغزو والتخريب، التي تتجلى راهناً في أكثر الحروب شناعة ووقاحة في تخطيّ «كل المحرّمات»؛ نعني الحرب الأمريكية على العراق. ومن شأن ذلك أن يلفت النظر إلى أن إشكالية الثقافة والعلم المذكورة سابقاً إنما هي أيضاً -والحال كذلك- إشكالية السلطة المهيمنة وعلاقتها بالثقافة وبالعلم، معاً؛ ومن ثم، فهي لا تقتصر على ذلك الشِّقّ من المسألة. وبهذا القدر من المسألة، يغدو القول التالي غير كاف، وهو إن «المشكلة الكبرى، التي تواجهها الثقافة في المجتمعات المتقدمة صناعياً، هي تحديد موقف الثقافة إزاء التقدم العلمي والتقني». إن هذا القول- وهو للمفكر الصديق فؤاد زكريا: انظر كتابه خطاب إلى العقل العربي ١٩٨٧، يتضح حين يضعه في علاقة مع المشكلة، التي تواجهها الثقافة «في عالمنا، العالم الثالث». فهو يتابع قوله ذلك، معلناً: «أما في العالم الثالث فإن المشكلة الحقيقية التي تواجهها الثقافة هي تحدي السلطة، لاتحدي العلم».

إزاء ذلك، نرى أن وضع التقابل بين الغرب والعالم الثالث في المسألة المَعنية هنا، هو الذي أثار ملاحظتنا النقدية، على نحو الخصوص. وإذا كان تحدي العلم للثقافة في الغرب قد ظهر كبيراً وعميقاً وشاملاً،



فإنه ظل يُخفي ويستضمر تحدي السلطة للثقافة. ثم، إذا وضعنا المسألة في إطار راهننا، فإنها يمكن أن تكتسب طابعاً دراميا خطيراً: ما الموقف من الحروب، التي اشتعلت في الفترة القصيرة المنصرمة في يوغوسلافيا وأفغانستان والعراق، ولبنان؟ هل تختزل المسألة هنا بعلاقة مضطربة بين الثقافة الغربية والعلم والتكنولوجيا؟ أولا يقف وراء ذلك مَنْ أشعل تلك الحروب، وعمل على زرع ثقافة الرعب، بعد أن أسس لثنائية الإرهاب والديموقراطية؟ ونحن بتنا نعلم اسم مرجعية هذه الحروب، وهو «المجمّع الصناعي العسكري» بإشراف مجموعات من السياسيين، يمكن النظر إلى فئة منهم قائمة في حقول اقتصادية وسياسية واستراتيجية، ومالية كبرى من الدولة والمجتمع الأميركي.

ومع التأكيد على أن مصطلح «الغرب» يمكن أن يضلّل في البحث العلمي، إذا ما أخذ على عواهنه (ذلك أن الغرب غربان أو أكثر بمقتضى التصنيف السياسي والثقافي والاجتماعي والاقتصادي)، فإن ما يطفو على السطح خصوصاً ويكتسب طابعاً عمومياً بقدر أو بآخر، يتمثل في ما ينتجه النظام السياسي والاقتصادي والثقافي المهيمن؛ مِمّا قد ينطوي على الأوجه الأخرى من التعبيرات عن المجتمع «الغربي»، التي

يحاول ذلك النظـام أن يعمّم الاعتقاد بأنه هـو الناطق باسمها. ومن ذلك، يصح القول بأن النص الذي نشـره الدكتور فؤاد زكريا، ما كان مطالبـاً باستشراف المرحلة العولمية مـن النظام الغربي الجديـد الراهن، الذي تضيق العلاقة فيه بـين السلطة السياسية والعلم والثقافة، إلى درجـة عالية؛ وإنْ كنا مخوَّلين بالقول بأن هذه العلاقة كانت دائماً موجودة وفاعلة في النظام المذكور.

وثمـة وجه آخر مـن المسألة، التي نحن بصددهـا، ولعلهـا تعمـق رؤيتنـا لمّا نحن بصدده فالنظام الجديد جاء مبشِّراً بـ«نهاية التاريـخ العام وبداية التاريخ العولمي كحلقة قصوى من تاريخ العالم»؛ وفي سياق ذلك، جاء مبشراً بـ«نهاية السياسة والمساومة السياسية والدبلوماسية»، انطلاقاً مـن أن العالم الآن يقوم على قدم واحدة مهيمنة، هي الأميركية وهذا من شأنـه الإشارة إلى أنه (أي النظام المذكور) عمَّق بكيفية هائلة وخطرة إشكالية العلاقـة بـين السلطة السياسيـة والثقافة والعلـم، ليس في عالم الغـرب وحده، وإنما كذلك على صعيد العالم كله. لقد أصبح العالم كلـه ساحة حرب محتملـة، تحمل معها من الجديد ما يدخل، كذلك، في نطاق إشكالية تلك العلاقة.

ويبـدو أن الوقـوف في وجـه النتوءات الجديدة الخطيرة المرافقـة للنظام العالمي الجديد يمثل واحداً من احتمالات الاحتفاظ بعلاقـة متوازنة بين الأطراف الثلاثة المأتي عليها، السلطة السياسيـة والثقافة والعلم؛ مع ملاحظة أن ذلك لم يعدْ يتجلى في الغرب وحـده، بل دخـل كذلك إلى العـالم الثالث، والعـالم العربـي ضمنه، عبْر جهـود القوى الغربيـة العاتية لتعميم المشكلات والمخاطر في العالم. وفي سبيـل التدقيق التاريخي في ذلك، يحسن العودة إلى لحظة منصرمة من لحظاته الدّالة.

كان الفيلسوف الألمـاني أزفالد شبنجلر قـد كتب كتابـه الشهير «أفـول الغرب» في مرحلـة ما بـين ١٩١٨ و١٩٢٢، فدشّن فيه نمطاً من الكتابة التاريخية الحضارية ترتكز على أساسين اثنين حاسمين، هما «التشاؤم البطـولي»، و«الثأريـة الانتقامية المضادة». ومن المهم أن يعرف هنا تاريخ ولادته وموته، ومن ثم تحديد مرحلة نشاطه الرئيس. فهو ولـد عام ١٨٨٠ ومات عام ١٩٣٦، فعاش - مـن ثم- في مرحلة دقيقة مـن تطور ألمانيا الحديث، وهو تطور قاد إلى حربين عالميتين، أثرتا على العالم برمتـه. والملاحظ أن ذلك التطور كان ينحو -في حالات أساسية- نحوَ تقـدم كبير على الصعيـد الصناعي، ولكنْ نحوَ تحـول سياسي يكاد يكون ضئيلاً جداً،

خصوصاً على الصعيد الخارجي الدولي.

لقد تبلــورت تلك العلاقــة النّاشزة بين الاقتصـــادي والسياســـي، حيـــث انطلقت التوجهات الاستعمارية الألمانية إلى الخارج، فوجــدت نفسها أمام حصار من قبل الدول الاستعماريـــة العريقة والسبّاقة إلى امتلاك السوق العالمية تحت شعار البحث عن «مجال حيـــوي»، في الخـــارج بعد استنفـــاد السوق الداخلي. وكانـــت بريطانيا في مقدمة تلك الـــدول: لقد تحولـــت (أي ألمانيـــا) إلى قوة اقتصادية داخلية متصاعدة، ولكنْ في سياق قوة سياسية خارجية قزمة. ومن ثم، نشأت تطلعات لإنتاج توازن بين الحقلين المذكورين. ولكن كيف؟ جاء الجواب السياسي النظري متأخراً نسبياً عن الجواب العملي. أما شْتراوس وزيـــر الدفـــاع لاحقاً فقـــد أعطى الجواب المطلوب، وربما غير المُصرَّح به عيْناً: الحرب ضد بلدان التخلف والتقدم كلتيهما، أسواقها ووضعها في خدمة الاستعمار الألماني، وذلك في سياق مـــن التنافس التناحري القاتل مع الدول الكبرى، في حينه.

كان شبنجلـــر قـــد عاش بعضـــ نتائج الانكســـار الألماني في الحرب العالمية الأولى، وخصوصـــاً اتفاقية فرســـاي، التي اعتُبرت مُذلّة للألمان، وبكيفية محددة لِمن يملك شيئاً من «الروح الفرديـــة»، التي تنتج الثقافات- الحضارات، برأيه- وتعتبر العنصر المبدع في تاريخ الشعوب «المتميزة»، لقد «أفل الغرب»، المجسَّـــد خصوصاً بـ«الـــروح الألمانية»؛ ممّا أفسح الطريق أمام عناصر «الثأر الانتقامي» وتصويب الموقف. أما في مقدمة هذه العناصر فتقع «النزعـــة القيصرية» المستفْرِدة للقرار السياسي والعسكري والثقافي الحضاري أولاً، وفتح الطريق أمام «الإمبريالية الاستعمارية» بمثابتها «مصيراً» ألمانياً وطريقاً على الألمان أن يسلكوه ثانياً. وبذلك، يبدو «أفول الغرب» بمثابة إدانة ودعوة في آن: إدانة للتخثُّر الذي أصاب «الروح الفردية» الألمانية، ودعوة إلى مواجهة ذلك التخثر عبر استعادة تلك الروح المهدورة. وبصيغـــة وبدلالة أخريين، يُفصح ذلـــك «الأفـــول» عـــن هويته مـــن حيث هو سقوط للنخبة المجتمعيـــة العليا المستحوذة علـــى «الروح» المَعنية، وعلـــى إمكانية قيادة التاريخ الألماني من موقعها.

ولعلنـــا إذا عدنا إلى الفـــترة التاريخية، التي تعاظمت فيها هذه الأفكار ذات الأصول الإيديولوجيـــة الشبنجلرية وغيرها، لاحظنا أن هذه الفـــترة ذاتها هـــي، كذلك، مرحلة ظهور أفكار أخرى تلحّ على أهمية «العامة» من الناس وعلى ضرورة إنتاج مجتمع إنساني جديـــد، يقوم على العدالة والسلم والحرية. ومـــن ثم، أمكـــن إدراك العلاقـــة القوية أو

الضعيفة القائمة بين الشبنجلرية وبين العنصرية النازية العسكرية القادمة. وإذا كان جمع من الباحثين في تاريخ الثقافة والإيديولوجيا والفلسفة يرون في كتاب «أفول الغرب» دعوة إلى إعادة بناء هذا الأخير عبر توجيه نقد مزدوج: باتجاه «الروح الفردية المبدعة» والمتفرّدة بالإنتاج الحضاري في إطار مجتمع مؤسَّس على علاقات رأسمالية متقدمة؛ وباتجاه «العامة الغوغاء». بوصفها فِعلَ السقوط الحضاري ومنطلقه، نقول، إذا كان هؤلاء يرون الأمر على هذا النحو، فإن منظومة جديدة من المفاهيم أصبح الأخذ بها ضرورياً للدخول في حضارة إنسانية جديدة. ويبرز في مقدمة ذلك مفاهيم التعددية الحضارية والثقافية والإقرار بها، عبْر نِدّية تامة بين الأطراف جميعاً، إضافة إلى المشاركة الفعلية من قِبل هؤلاء في خلق عالم جديد يقوم على الحرية والعدالة والسلم والمساواة.

وكما يتضح، فإن مهمة القراءة النقدية العقلانية تصبح من دواعي الإنتاج المعرفي الجديد، الذي يقود إلى مثل ذلك العالم، وفي هذا، تجد الشعوب أنفسها أمام ضرورة المشاركة من أجل إنجازه: إن استحقاقات المجتمع أو المجتمعات المعرفية الجديدة (وهو مصطلح يحتاج التدقيق) يمكن توظيفها في خدمة هذا المشروع الأكثر نبلاً في عصرنا.

كتب عالم الاجتماع الراحل هربرت مركوز عام ١٩٦٤ كتابه الشهير: «الإنسان ذو البعد الواحد»، حين كانت مرحلة السبعينيات تبرز من خلال إشكالية ستنشر في سنوات قادمة بكيفية مثيرة، خصوصاً في بلدان أوروبة الغربية. تلك الكيفية اتضحت ملامحها عام ١٩٦٨، حين هبّت انتفاضة الطلبة والشباب عموماً، يطالب روّداها بكسر الحصار الكثيف، الذي راح يفرضه المجتمع الأوروبي، ومعه بلدان اشتراكية غارقة في البيروقراطية، في حينه، على معظم فئات الشعوب المعنية. والملفت أن تناقضاً كان يُفصح عن نفسه، في هذا السياق، بصيغةِ تعاظم البيروقراطية بمثابتها ظاهرة تبلورت في قطاعات الدولة والمجتمع، يداً بيد مع اتّضاح اتجاهات كبرى للفساد والإفساد، خصوصاً في المؤسسات الثقافية والعلمية بدعم من مؤسسات اقتصادية راحت توغل في الجمود والانغلاق وفي سطوتها على الدولة، أما هذه الأخيرة فقد برزت بصفتها يد الدولة الرأسمالية الضّابطة لمصالحها في الغرب، ويد الدولة باعتبارها الحلقة الطّولى للحزب في الشرق (وفق المبدأ القائل بأن الحزب الشمولي هو وحده الذي يقود الدولة والمجتمع).

جاء ذلك في إطار بروز وتطور «الثورة العلمية التكنولوجية»، التي وإن أخذت تفرض التغيير المجتمعي، إلا أنها أتت على حساب التطور الثقافي والاجتماعي والإنساني والعلمي، وراحت تفرض التقدم التكنولوجي على كل حقول المجتمعات المعنية. وظهر ذلك أكثر مع تقلّص مفاهيم الإنسان والعقل (الفكر) والتقدم البشري والتاريخ إلى مفهوم مركزي هو التقدم التكنولوجي.

في ذلك الحين ظهر كتاب هربرت ماركوز المشار إليه، ليقدم أطروحة أراد لها أن تكون منطلقاً لتقيد ذلك التقدم، أما هذه الأطروحة فرآها ماثلةً في إقالة «الإنسان» وإقصائه من موقعه، وفي تحوّل الدولة إلى غول (لوثايان) يلتهم المجتمع والأفراد وفي السياق نفسه، كان كارل بوبر قد تحدث عن «المجتمع المغلق»، بوصفه تعبيراً عن واقع الحال المذكور، وعن «المجتمع المفتوح»بمثابة البديل. ومع أن ما قدمه ماركوز وبوبر لم يتوغّل في آليات الاستغلال الاقتصادي والتهميش السياسي والاغتراب الثقافي الفكري، إلا أن ذلك أعطى ثماراً تجسّدت في تحركات مجتمعية كانت الفئات الوسطى، وبصورة خاصة جمهور الطلبة الواسع فيها، حامله الاجتماعي، وذلك في وجه تلك الآليات ومن يهيمن عليها ويقودها، ضمن الدولة ومعها حيتان الاقتصاد الجشعة ومن يمثلها في مختلف الحقول.

إن «الإنسان ذا البعد الواحد» إنما هو كائن تُستنفد طاقاته في اللهاث وراء تقدمه الاقتصادي بصيغة استهلاك متقطع الأنفاس، وغالباً يكون ملوثاً بالعرق والأسى والشعور بالكآبة والاحتقار الذاتي. هذا الاستهلاك كان عاملاً رئيساً في تضخّم إشكالية الإنسان عبر استبداله، أي الإنسان الاجتماعي الطامح إلى تحقيق ثلاثية الكرامة والكفاية المادية، بـ«الإنسان الاقتصادي». ومع ذلك،؟أفصح هذا الإنسان عن أنه وإنْ راح يجد معناه وبعده التاريخي في «الاقتصاد الاستهلاكي»، إلا أن «اقتصاديته» راحت هي نفسها تُخترق من موقع حيتان الدولة والاقتصاد الرأسمالي عموماً، بحيث أدرك أنه هدف للإقصاء عن الإنتاج الاقتصادي المكرَّس لسدِّ حاجات الكتلة المجتمعية العظمى، فهي –من ثم– صفة لا معادلَ اجتماعياً لها في حياته، وإذا كان ذلك قد كوّن أحد أجنحة كيان المجتمع الاستهلاكي المذكور، إلا أن جناحاً آخر له سيبرز بقوة، ويصبح من علامات هذا المجتمع؛ نعني «انغلاق» فئاته وطبقاته ووحداته الاجتماعية: إنه عُزوف عما يمنح الإحسان المذكور أفقاً مفتوحاً ممكناً باتجاه

الحقول، التي عليــه أن يتوغل فيها. وحيث يكون ذلك، يغدو ممكناً التحدث عن إنسان تاريخي مقاوم.

إن مــا يحــدث في المجتمعــات الغربية الراهنة راح الكثــير من القيّمين عليه يرون أنــه إنما هو أمــر على تنــوع مظاهره، إلا أنه يمكن أن يتلخصــ فيما راح يتحول إلى مُعجميــة يومية في حيــاة الناس. فالإعلام العام والخاصــ (مثلاً في ألمانيــا) مشغول بشكل كبير بالحديث عن اليورو، والضرائب، والإنفــاق المالي، والمسابقــات اليومية، التي تُقدّم الوعود لِمَنْ ينتمي إلى الفئات الوسطى والقاع الاجتماعي بالسعادة والرفاه وتجاوز الأزمة؛ هذا مع بروز واضح وعلني لظاهرة الدعــارة بمثابتها (وظيفة Job). وراح ذلك كله يتجه كذلك حتى نحو ذوي الكفاية مِمّن ينتمي إلى ما فوق تلك الفئات ويفرض عليهم نمطاً مــن السلوك والتفكــير: إنه التنميط بعينــه، الذي يتبلور الآن في ما يقدمه بعض الإعلام هناك على أنــه «المطلب الشعبي». بتحقيق حدود مفتوحــة من امتلاك للثروة المالية. إن اليورو يصبح الإله الجديد، الذي يثير العواطف والعقول.

مع هذا وذاك، راحــت تظهر بقوة، وإن بخجل ظاهرة النازية الجديدة، التي تطالب بطرد الأجانــب، اعتقاداً بأنهــم هم سبب البطالة المتعاظمة والإفقار المطّرد. ولاندري إلى متى تستمر هــذه العملية الكبيرة، التي لخصها المتظاهرون الفرنسيون منذ أسابيع، حــين خرجوا في باريس برقم هائل (مليوني متظاهر)، وخاطبوا دولة النخبة: لماذا تسعون إلى حــلّ الأزمة عبر منح الشركات المتضررة المليــارات من اليورو، وتدعون الشعب عارياً إلا من العار.

قبل بضعة أشهر دخلنا رحاب عام ٢٠٠٩، ويكــون كذلك قد انقضى أربعون عاماً على انتفاضة أو انتفاضــات الطلبة في عدد من البلــدان الأوروبية، خصوصــاً منها فرنسا وألمانيــا وإنكلترا. وربمــا كان هذا الحدث «القارّي» قد دخل تاريــخ الحياة السياسية في تلك البلــدان، ويمكن أن يظهر في سياق الدراســات الطلابية السياسيــة والثقافية؛ وانتهــى الأمر دون جلبــة. لكنه لم يمر على هذا النحو في ألمانيا وغيرها. فمع الإندفاعة القوية، التي تحققها الأزمة المالية في أوروبة وأمريــكا الآن، تتتالى التعبــيرات السوسيو ثقافية والاقتصادية عــن هذه الأزمة بأفق الراهن المأزوم، ولكن كذلك بنمط أو بأنماط من الذاكــرة التاريخية. وقد يكون الحدثان التاريخيان التاليان في مقدمة تلك الأنماط: الأزمــة الاقتصاديــة الكــبرى (الأم) عــام ١٩٢٩، وهي التي قادت إلى الحرب العالمية

الأولى؛ والأزمة التي فتحتّها انتفاضة الطلبة خصوصاً بين عامي ١٩٦٨ و ١٩٦٩، وهي التي رفعت مستوى الكفاح من أجل الديموقراطية، ومن أجل القيام بإصلاحات عميقة في النظام المدرسي والجامعي الأوروبي.

ومن المعروف أن الانتفاضة المذكورة لم تقتصر على مطالب تتعلق بالنظام المذكور، بل راحت تنمو في اتجاهين آخرين، هما السياسي والاقتصادي، وامتدت في سياق ذلك وذاك باتجاه المسألة الجنسية والعلاقات بين الشباب من الجنسين. وقد اهتم بهذه المسألة الأخيرة وبغيرها جموع من المثقفين والمفكرين، ومشوا في ظلها ودافعوا عنها. وكان من بين هؤلاء، على سبيل المثال، الفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر وصديقته سيمون دي بوفوار، التي كتبت من الدارسات والأدب الروائي ما ألهب عقول الشباب وقلوبهم، في حينه. أما في ألمانيا فقد ظهر الاهتمام الإعلامي بـ «انتفاضة الطلبة» قبل حلول أربعينيتها. وكان من ذلك ما قامت به مجلة Der Sriegel، حين نشرت منذ حين حواراً واسعاً مع ستة عشر رجلاً وامرأة، كانوا قد شاركوا في أحداث «الانتفاضة الشبابية» عام ١٩٦٨ ضمن منطقة Bremen؛ وكانوا في حينه فتياناً وفتيات.

وتنقل المجلة رأياً للإعلامي المحافظ، في حينه، رودلف هرمان، الذي كتب معلناً: لقد صدعت انتفاضةُ ١٩٦٨ من القيم أكثر مما فعله الرايخ الثالث (النازي). كما كتبت صحف ألمانية حالية -حيث تُعْلمنا مجلة «دِر شبيجل» - هاجمت أحد كبار مُحركي الانتفاضة وهو دويتشكه وزملاؤه، حيث وصفتهم بـ«صِبْية السياسة». أما الآراء التي قدّمها الفتيان- الكبار فقط تراوحت بين الثناء على ما شاركوا فيه وبين انتقاده. لكن الآراء الجادة التي عبّر عنها فريق منهم، تمثلت في النقاط التالية: لقد قمنا بالانتفاضة، لأننا كنا نهدف إلى تغيير العالم. أمّا الآن فبعضنا أصبح قضاة ومحاميي دفاع، ليس يأساً وإنما لتغيّر ظروف الفعل السياسي. ويشير أحدهم إلى أنه يعيش الآن، كما كان يأمل في حينه.ولكنه يقدّر أنه لا يعيش «في سجن». ويذكر آخرٌ بأنهم كانوا يحملون مشاريع وأتوبيات كثيرة جميلة؛ لم يتحقق شيء منها، بل هنالك من المشاريع ما يسعى الآن إلى تدمير الإنسانية عموماً وخصوصاً.

في ذلك الحقل، برزت في الحوار ثلاث مسائل تركت أصداء واضحة وربما قوية في أوروبة، وفي العالم العربي كذلك. أما أولاها فتبرز في نقدٍ مركّز للنظام الرأسمالي الحالي،

ويأتي جواباً على سؤال مدير الحوار: أسألكم عن كيفية عيْشكم في علاقات المجتمع الرأسمالي، وفي سياق ما كنتم تحلمون به في انتفاضتكم؟ تجيب على ذلك السيدة تِسّي قائلة: ببساطة، الرأسمالية الصناعية دمرت العائلة الكبيرة. والآن، يبرز السؤال فيما إذا كانت الرأسمالية قادرة على إنهاء العائلات الصغيرة. ويتتابع الحوار في المسألة الثانية، وتتصل بالعائلة والتربية. فيطرح السيد ماتّياس رأيه القائل بأن طبيعة العمل وتقسيم العمل في النظام الصناعي الراهن يعيشان حالة متنامية من تفتيت وتفريد البِنى العائلية، بحيث تفقد العائلة بنيتها، ويفقد العمل متعته ومغزاه الإنساني؛ وذلك على نحو الاقتصاد الرأسمالي فيه -وهذا ما تقوله السيدة إرميلا- موقعاً استراتيجياً وهدفاً لهجوم العائلة عليه.

أخيراً، تظهر المسألة الثالثة، وتعلن عن نفسها بشخص الجنس والعلاقة الجنسية بين الفريقين. وشارك في مناقشتها السيد الأخير (ماتيّاس)، حيث يقول: ثمة حقيقة واضحة هي إن العلاقات الجنسية ذات الطابع المتحرر بانفتاح أكثر، تحولت إلى نسيج سوقي (من السوق) من خلال الرأسمالية، وذلك على نحوٍ مُؤّذ، وهذا ليست مسؤوليتنا نحن. وتتدخل السيدة كِرستا قائلة معترضة: لا، بل هذا هو السوق.

ولعلنا نرى أن تلك المنظومة الفكرية «الانتفاضية الطلابية» تحاول أن تشق طريقها في السجال الفكري والإيديولوجي والأخلاقي، الذي أخذ يتسع في العالم الغربي العولمي الراهن، حتى على أيدي مجموعات من الليبراليين، غير المنتمين إلى ما أصبح ذا حضور كثيف تحت عنوان: الليبرالية الجديدة المتوحشة، التي يرى البعض أنها تعيش الآن إرهاصات هزيمتها.

برز التعليم العالي بروزاً ملحوظاً متصاعداً مع التبشيرات الكثيرة المغرية، التي أخذت تلوح بها وتقدمها مرحلة السبعينيات من القرن المنصرم، أي المرحلة التي طرحت نفسها تحت عنوان مُلفت، هو الثورة العلمية التكنولوجية وتحويل العلم إلى قوة إنتاجية مباشرة. وقد لوحظ أن هذا العنوان أتى متوافقاً مع التقدم الاقتصادي، الذي كانت وتائره تُعلن عن نفسها، بقدْر أو بآخر، في النظامين الرأسمالي والاشتراكي، في حينه. ومن نتائج ذلك أن الحديث عن العلوم والتقدم العلمي راح يأخذ بُعداً جديداً، تمثل في التأكيد على الجانب المادي الإنتاجي المباشر في كلا النظامين المذكورين، وكذلك في بلدان أخرى ضمن «العالم الثالث»، الذي اعتبرت البلدان العربية من ضمنه. وفي سياق ذلك، ظهرت كتابات متلاحقة يبحث

فيهـا أصحابها في مفاهيـم الزمن والإنتاج الاقتصادي والجدوى الاقتصادية وغيره.

وقـد بـرز مـن تلـك الكتابـات كتاب أصـدره المفكـر الفرنسي روجيـه غارودي بعنوان: ماركسية القـرن العشرين. في هذا الكتاب قدم المؤلـف نقداً مركّزاً للماركسية (ولغيرهـا)، مُنطلقاً في ذلك من أنها توقفت عن نقدهـا الذاتي، وتحولـت في كثير من أوجهها وحقولهـا إلى نظرية تأملية منعزلة عن راهنيـة الواقع المفتوح. وجاء في تدعيم نقده هذا على التحولات الكبيرة، التي أتتْ في نطاق الثورة التقنية العلمية الجديدة.

وتحدث غـارودي عن الزمن، الذي كان يستغرقـه تحويـل اكتشاف علمـي ما إلى معطيـات إنتاجية مباشرة؛ بـدءاً مما كان يحـدث قبل قـرون، حيـث كان الاكتشاف العلمي (مثل الضغط الحراري) يظل زمناً، طويلاً أحياناً، خـارج التطبيق العلمي، إلى أن يأتـي زمن تـبرز الحاجة فيـه إلى مثل ذلـك الاكتشـاف، أي إلى تحويله لمعطيات اقتصادية تضخها باتجاه النظام الإنتاجي، التكنولوجي العلمي. ومن شأن هذا أن يعني أن الزمـن ما بين الكشـف العلمي النظري وبين تطبيقـه راح يتضاءل بكيفية لا سابقة لها، وتطرح على البشر أسئلة جديدة.

ويمكن أن نسجل ظاهرة نموذجية أخذتْ ترافـق تلـك المعادلة القائمـة على جدلية الاكتشـاف النظري وضـرورة تطبيقه آنياً، وتتحـول (أي الظاهـرة) إلى مطلب صريح في المنظومـة العلمية. وقد قاد ذلك كله إلى ظهـور العنوان الذي ذكرنـاه للثورة التقنية العلمية، وهو تحويـل العلم إلى قوة إنتاجية مباشرة. وراح الأمر يبدو كأنما هو قائم على فـنّ الاستيلاد الإنتاجي التقني من النظري العلمي، ليس عبْر مخاضٍ يمتد إلى «تسعة أشهر»، بل عبْر أيام، بقدرٍ أو بآخر. نعم، لقد أصبح الشـقّ الثاني (الإنتاجي التقني) سيّد الموقف، وهدفاً مباشراً وذا بُعد واحد للعلم النظري. وهكذا جرى الحديث على «العقل العلمـي» أو «العمليّاتي»، كما يقول البعض: وهو قول وإنْ لم يكن دقيقاً في مصطلحه، إلا أنه يُشير إلى الدلالة المطلوبة منه: لقد أُطيح بالعقـل النظري وخصوصية فعلـه وآلياته وإشكالياتـه الداخلية، مـع أسئلته المعقّدة وغير المُستسهلـه، لصالح عقل آلي في بنيته ووظائفه وآفاقه.

ومـن السهل نسبياً، والحـال كذلك، أن نتفهم انتفاضة العلماء والباحثين المحافظين علـى تقاليـد البحـث العلمـي ومفاهيمه ومقولاتـه، ومـن ضمنها مفهـوم «العقل»، مأخـوذاً بصفته «الفكـرَ» النظري النقدي، الذي لا يستثني نفسه من النقد. وهنا يمكنه

تفهم بعض ما قامت به «ما بعد الحداثة» في رفضها لذلك العقل، دون تقديم البديل.

ها هنا، نضع يدنا على الإشكالية الواردة فيما يُعتبر إصلاحاً في التعليم العالي الألماني، وربما كذلك الأوروبي (مع تحفّظ أوّلي في بعض حقول ذلك الإصلاح على صعيد بعض البلدان الأوروبية). فلقد حُوّل مطلب تحويل العلم إلى قوة إنتاجية مباشرة إلى مدخل لتدمير أو إضعاف تلك التقاليد العلمية، ومعها، مثلاً، نظرية العلم ونظرية المعرفة وخصوصيتها.

لقد اتضح في ذلك، حين وقفتُ على نظام الدراسات العليا هناك من داخله، وعبر بعض ممارساته في الحياة العلمية العامة. وكان ذلك خصوصاً حين أعلن عن مناقشات لرسائل جامعية في الماجستير والدكتوراه، نجح فيها المرشّحون المَعْنيون. ولكن هؤلاء لم يحصلوا على اللقب الأكاديمي (تحديداً الدكتوراه)، ولن يحصلوا عليه من اللجنة المحكَّمة المُناقِشة. ولكنهم قد يحصلون عليه، بعد أن يقدموا رسائلهم العلمية على الإنترنت، وبعد أن يعلن جمهور معين قبوله لهذه الرسائل، إضافةً إلى إصدارها كُتباً. وإذا علمنا أن حصول الباحثين على مِنحٍ دراسية يتم -في كثير من الأحوال- عن طريق شركات ومؤسسات صناعية تحدّد، مع الحاصلين على المنح، مواضيع البحث، فإننا نلاحظ أن العلم -في حالة دقيقة من حالاته، يتحول إلى شأن من شؤون السوق المفتوحة وغير الخاضعة للدولة وتخطيطها الوطني.

وبهذا يمكننا اعتبار أن الأزمة المالية الحالية في أوروبة إنما هي تعبير عن عبث الشركات والمؤسسات المعنية وجشعها، بحيث راح بعض الفرقاء من السياسيين الليبراليين يطالبون (حتى في أمريكا) بإعادة -الدولة المؤسَّسة الراعية على مستوى البلد.

وثمة كلمة أخيرة. لقد طُلب منيّ أن أُشرف على طلاب دكتوراه، فاعتذرتُ بشيء من الأسى.





هالة القدس في الشعر العربي الحديث

د. عمر الدقاق ❀

أصيب الوطن العربي في هذا العصر الحديث بشرخ خطير زلزل كيانه وزعزع بنيانه. فقد ترك الاحتلال الصهيوني لربوع فلسطين جرحاً بليغاً في وجدان العرب هيهات أن يندمل إلا بتحرير الأرض واسترداد القدس وغسل العار.

وكان من طبيعة الأمور أن يثير هذا الحدث الجلل وما نجم عنه من معاناة وقهر وتذبيح وتشريد، نيران الغضب والسخط تجاه هذا الواقع المرير والوضع الخطير، وأن يحفز قرائح الشعراء وأقلام الكتاب على إبداع الكثير

❀ أستاذ بجامعة حلب، وعضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

العمل الفني: الفنان مطيع علي.

الكثير من معطيات الفكر وتجليات الشعر. وتبعاً لذلك تجمع في المكتبة العربية المعاصرة كم هائل من القصائد والمقالات والخطب والمصنفات والكتب والمؤلفات.. حتى إنه بات من العسير اليوم أن نجد بين شعراء عصرنا وكتابه وقادته وأئمته من لم تكن له مشاركة فكرية أو فنية أو أدبية تجاه هذا الواقع الصعب الذي تحياه أمتنا والخطر الداهم الذي يحيق بوطننا .

لقد شغل الغزو الصهيوني للأرض العربية بفلسطين في العصر الحديث حيزاً كبيراً في الوجدان العربي، كما كان الشأن من قبل وفي عصر سالف تجاه الاجتياح الصليبي لديار العرب والمسلمين..

أما القدس، موئل الأقصى وأولى القبلتين وثالث الحرمين ومعرج الرسول، فهي منذ الأزل، ولسوف تبقى إلى الأبد موطن القداسة والإجلال، ومهبط النبوات والرسالات. كما أنها باقية كعهدها رمزاً خالداً للتسامح والوئام والمحبة والسلام. وإزاء البحر الطامي من فنون القول في هذا الصدد قد يكون من الأجدى تناول ما نظمه الشعراء قديما في الحقبة الصليبية ضمن محور خاص مستقل، ثم أن يكون لمثل ذلك أيضا محور خاص آخر يدور في فلك قضية العرب المعاصرة التي نعيشها اليوم ونتنفسها كل ساعة فهي الأهم في حياتنا الحاضرة والألصق بوجداننا الراهن..

وليس يسيراً في هذا الصدد أن يتألق لفظ القدس أمامنا وفي أسماعنا بمعزل عن إيحاءات حطين وصلاح الدين، وفي منأى عن مجمل دلالات فلسطين، فهي الركن الركين والعماد الوطيد إنها تنطوي على كل هذه الأقانيم مجتمعة، فهي المبتدأ وهي الأصل. ومن هنا فإن اجتزاء لفظ القدس وإفراده وحيداً مستقلاً من بين مجمل القصيدة الشعرية ومعمارها الفني لمن أصعب الأمور وهو أشبه باقتطاع جزء من كل، وفصل عضو عن جسد.

وهنالك مصنفات أدبية ومجموعات شعرية كثيرة آثرت أن تجعل فلسطين أو دلالتها عنوانا لها، مثل الديوان المبكر «الفلسطينيات» لوديع البستاني ثم ديوان «فلسطين وكبرياء الجراح» للشاعر حسن عبد الله القرشي، وديوان «غناء الجرح» للشاعر محمد الحظراوي، ثم ديوان «عاشق من فلسطين» لمحمود درويش، وسوى ذلك من الدواوين التي دأبت على إصدارها المطابع العربية خلال أوقات متباعدة من عصرنا الحديث. ومجمل القول: إن القدس وفلسطين عنصران متواشجان متلاحمان يتعذر تصور

كل منهما منفردا، وكل تناول لأحدهما إنما يستتبع بالضرورة حضور الآخر في الضمير العربي..

إن تراب القدس وسائر تراب فلسطين إنما هو النسغ الحي في مجمل الأدب القومي، منظومه ومنثوره. فهو القاسم المشترك الماثل دوما في معظم القصائد الوطنية ذوات الطوابع القطرية، وهو العمدة المتجذرة في الوجدان العربي، والمحور الأهم لقضية العرب الأولى .

❁ ❁ ❁

إن الشاعر العربي الحديث في غمرة البعث القومي التي يعيشها، وتبعا لثقافته العربية الوثيقة الصلة بغابر بلاده وتشبعه بتراث أمته غدا شديد الوعي لعنصر التاريخ وأكثر التصاقاً به واستيحاء منه، كما كانت له في الوقت نفسه رؤاه لذلك الماضي في ضوء واقع عصره ومعطيات بيئته. ونحن واجدون في هذا الصدد شعراً كثيراً قوامه التغني بقداسة القدس والإشادة بمعركة حطين والافتخار بعظمة صلاح الدين .

ويعد أحمد شوقي (١٨٦٨-١٩٣٢) من أوائل شعراء العصر الحديث الذين عرضوا لهذا الموضوع إبان القرن التاسع عشر، فقد تناول مجمل تاريخ العرب والمسلمين في منظومته الشعرية (دول العرب وعظماء الإسلام) التي ألقاها أمام مؤتمر المستشرقين سنة ١٨٨٤ بسويسرا، وهي من مشهور شعره[١] وتنطوي على اعتزازه بتلك الحقبة التي شهدت تصدي المسلمين للاجتياح الصليبي، كما رصدت بطولات قادة الأيوبيين في رد ذلك العدوان الطاغي، ومن ثم الانتصار المبين على جيش الصليبيين في معركة حطين وفتح القدس الشريف. ففي هذه الهمزية التي بلغت مئة وواحداً وثلاثين بيتاً، ألماح أيضا إلى أهم المقدسات الإسلامية ولاسيما الجامع الأقصى وقبة الصخرة ومسرى الرسول (ص)، حيث يقول:

اذكر الغر من آل أيوب وامدح
فمن المدح للرجال جزاء
يعرف الدين من صلاح، ويدري
من هو المسجدان والإسراء

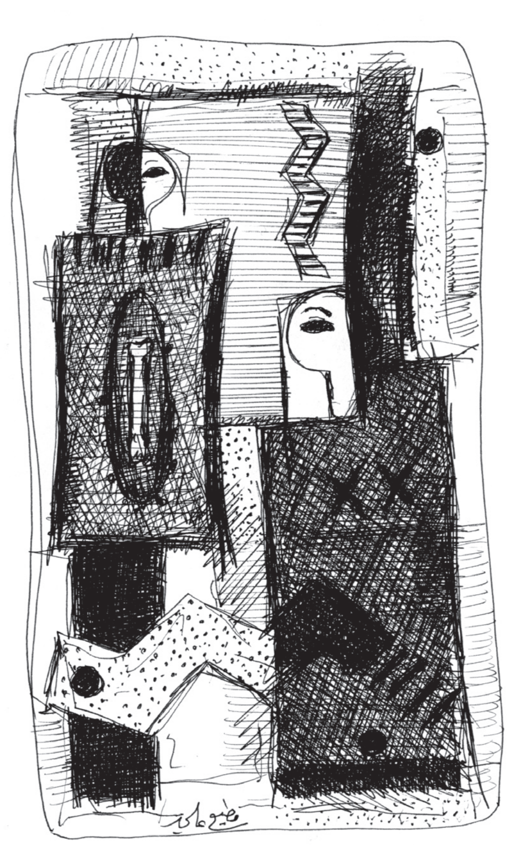
أما أمير البيان شكيب أرسلان (١٨٦٩-١٩٤٦) مجايل أحمد شوقي وصديقه فعلى الرغم من أنه عرف بتدبيج النثر فإنه كان ذا حفاوة بالشعر. وقد نظم قصيدة رائية مطولة عنوانها «بحيرة طبرية، أو واقعة حطين» فاقت في عدد أبياتها قصيدة شوقي إذ بلغت مئة وثلاثة وأربعين بيتاً[٢]وقد وصف فيها تصدي المسلمين لجيوش الصليبيين الذين اجتاحوا ديار الشرق العربي حين

لم يكــن بوسع أحــد أن يصد جموعهم الطاغية. وحين اعتزم المسلمون الزحف إلى القدس واسترداد الأقصى:

هبوا من الشرق كالجراد فلم
يكن الغرب بردهم قدر
واستفتحوا القدس والبلاد ولم
يعص عليهم بدو ولا حضر

لقد ظل يوم حطــين مبعث اعتزاز بالغا ومعين إلهام ثراً للشعراء العرب في العصر الحديث، مثل الشاعر الدمشقي عدنان مــردم بك (١٩١٧-١٩٨٨) حين تغنــى بتلك الصفحة المشرقة من أمجاد الأجــداد، كمــا تغنى بها قبلــه شكيب أرســلان وأمثالــه في قصيدته الرائية، فقــال من قصيدة لامية جميلة ذاكرا بطولات العــرب السالفين واستردادهم القدس من أيدي الصليبيين:[٣]

يوم أغرّ على الزمان جليل
في مسمع الدنيا له ترتيل
الخيل في زرد الحديد تدافعت
دون البطاح، وللحديد صليل
راياتهم منشورة وكأنها
قطع السحاب مع الرياح تميل
وسيوفهم شعل تضيء بثاقب
من دونه شبح المنون يهول



جادوا على الأوطان في مهجاتهم
واستصغروا المبذول وهو جليل
وتعاهدوا أن لا يقر بغمده
نصل ودون القدس ثم دخيل

إن الهالــة الزاهية التــي ارتسمت حول القائــد صلاح الدين الأيوبــي في إثر ظفره المبين يوم حطين ثم فتحه بيت المقدس ظلت ماثلــة عبر الأجيال في ضمــير الأدباء حتى عصرنــا الحديــث. وقد تجلــى ذلك لدى

العديد من شعراء مصر والشام المعاصرين ومنهم الشاعر المصري علي الجندي حين قارن بين صلاح الدين بطل الشرق وبين ريتشارد قلب الأسد قائد الغرب بقوله:[٤]

حامي القدس أين (ريتشارد) لا أين

قضى الليث وانطوى حلفاؤه

فارس الغرب راعه فارس الشرق

ويدري فضل الفتى أكفاؤه

وبعد قرون أخرى، وعيش العرب تحت وطأة الحكم العثماني أخذ النزوع القومي يتعاظم في النفوس ولا سيما تجاه جور الحكام الأتراك وتعصبهم، حين دأبوا على سياسة التتريك في حواضر البلدان العربية، وفي عدادها القدس التي ترمز كأخواتها للعروبة كما ترمز للإسلام. وقد أخذت أصوات القوميين العرب تعلو في صدد الغيرة على اللغة العربية التي تعرضت للمحن من قبل غلاة الأتراك (الطورانيين). وفي ذلك قال الشاعر فؤاد الخطيب (١٨٨٣ – ١٩٥٧) المعروف بشاعر الثورة العربية في إحدى قصائده منددا بحكام الأستانة المتعصبين وذاكراً القدس أيضاً من منظور ديني وقومي معاً:[٥]

جاروا على لغة القرآن فانصدعت

له القلوب وضج البيت والحرم

فالقدس باكية والشام شاكيه

وفي الحجاز يكاد الركن ينحطم

وفي غمرة تنامي التيار القومي في حياة العرب المعاصرة اشتد الحنين إلى بعث الصفحات المشرقة عبر التاريخ المجيد. من ذلك مثلا أنه كان يطيب لبعض شعراء العراق التغني بأمجاد أجدادهم الغابرة والتباهي بحضارات الشرق القديم العريقة، فيعددون مراكز العظمة والإبداع في سالف عهود البابليين والآشوريين مثل مدن بابل ونينوى ومن ثم أورسالم القدس، وفي هذا الصدد يقول علي الشرقي من قصيدة مطولة:[٦]

بابل يا بلد السحر سلام

يا سرير المجد والمجد غلام

نشأ الملك بواديك له من

جلال المثل العليا وسام

و (نبوخذنصر) في شاطئه

زاحف يتبعه جيش لهام

بين (ينبور) و (ركا) جيشه

وله في (أورشليم) قتام

والفراتيون إذا حفزتهم

للملمات دروع وسهام

لقد نشبت الحرب الكبرى في سنة ١٩١٤ ومازال المشرق العربي بمجمله باقياً في حوزة الإمبراطورية العثمانية منذ أربعة قرون

مـــن الزمان. ولما كانــت الحروب في الغالب حبلى بالثورات، فقد انطلقت الثورة العربية الكبرى من رحم تلك الحرب الضروس سنة ١٩١٦ بزعامة الحسين بن علي شريف مكة، وزحفت راياتها من الحجاز بقيادة ابنه الأمير فيصـــل ودخلت القدســـ ودمشق مصحوبة بحـــراب حلفائهـــا الفرنسيـــين والإنكليز.. وكان لهذا الحدث التاريخي في حياة العرب دوي لم يعهدوا له مثيلا منذ قرون. فقد عم الاستبشـــار وغمرت البهجـــة النفوس، كما لهجت ألسنة الخطباء وقرائح الشعراء بأحر المشاعـــر، من ذلك الفيضـــ الغامر ما قاله يومئذ وديع البستاني نزيل القدس معبراً عن نشـــوة الفرح العارمة في نفوســـ أبناء الأمة على اختلاف عقائدهم:(٧)

المسلمون مـع النصارى كبروا
ومهللون مـع النصارى رحبوا
والمهد للأقصى انثنى، وتعانقا
انظر فحولك بيت لحم ويثرب

غـــير أن استبشار العـــرب بهذا الحدث التاريخـــي في أعقاب ثورتهـــم الكبرى التي انطلقـــت من الحجـــاز لم يطـــل أمده، حين أخذت حقائق الأمور تتكشف لهم في واقعهم الجديد. فقد تبدى لهـــم أن ما حسبوه ماء زلالاً لم يكـــن إلا سرابـــاً خادعـــاً، فـــإذا هم كالمستجـــير من الرمضـــاء بالنار. لقد كانت قلة من المستنيرين العرب تنطوي على شكوك كبرى في نية حلفائهم الغربيين تجاه العرب. وفي غمرة الأفراح بدحر العثمانيين من بلاد الشام بدا الشاعر أحمد شوقي متحفظا في تفاؤله يومئذ حين نظم قصيدته البائية في ذلـــك الحين إثر دخول الجـــنرال الإنكليزي (اللنبـــي) بيـــت المقدس على رأســـ جيشه فقد عـــبر شوقي عن أساه لمـــا حل في هذه الربوع الطاهرة من مآســـ وآلام، كما حذر ذلك القائد يومئذ من تجبره واعتزازه ببأسه وسلطانه، مبينا له أن العاقبة للحق الصريح وليست للقوة الباطشة:(٨)

يا فاتح القدس خل السيف ناحية
ليس الصليب حديدا كان بل خشبا
إذا نظرت إلى أين انتهت يده
وكيف جاوز في سلطانه القطبا
علمت أن وراء الضعف مقدرة
وأن للحق لا للقوة الغلبا

ثـــم كان ما كان، وعلت أصوات الخطباء والشعراء منددة بغدر أصدقاء الأمس وأعداء اليـــوم، وأخذت الثـــورات الوطنية تندلع في كل مكان من أرض المشـــرق العربي، وترفد الأدباء بكل ما تنطوي عليه فنون القول من مشاعر الخيبة والمرارة .

أمـــا شاعر العـــراق معـــروف الرصافي (١٨٧٥ – ١٩٤٥)، على الرغم من معارضته

الشريف حسين الذي انسلخ عن الدولة العثمانية فقد أشاد بالثورة العربية التي زحفت من مكة نحو القدس لتستعيدها من سيطرة العثمانيين على حين كانت الحرب العالمية الكبرى تشارف على نهايتها. ففي قصيدته اللامية يمن على دول الغرب المتحالفة:[٩]

لقد قادت الأعراب نحو عدوكم
خيولا لها في حومة الحرب تجوال
وقامت لهم منكم بمكة راية
لكم فتحت فيها من القدس أقفال

وقد عمد الشاعر عمر أبو ريشة بعد حين إلى تناول ما ألمح إليه الشاعر أحمد شوقي من قبل فندد بوقاحة الجنرالين المحتلين في القدس وفي دمشق، وكان أكثر صراحة وأشد إدانة لسياسة غدر الحلفاء بعد أن عرف العرب من أمرهم ما عرفوا. لقد طغى الغرور على غورو بعد عبوره إلى عاصمة الأمويين على أشلاء شهداء ميسلون فقصد إلى قبر البطل الأيوبي العظيم ليقول أمامه بصلف بالغ وحقد دفين: «ها قد عدنا يا صلاح الدين» إنه استفزاز لمشاعر العرب والمسلمين رد عليه أبو ريشة فيما بعد بأسف ومرارة:

رب غاز أذل جاء صلاح
الدين في هداة الخلود المهاب
صارخاً في رميمه الطهر إنا
هاهنا يا صلاح الدين، ياللعاب
إن للمجد دمعة حين تلقى
جثة الليث بين أيدي الكلاب

لقد نظر كثير من الشعراء العرب إلى نضال الشعب الفلسطيني على أنه جهاد مقدس يقوم به المؤمنون دفاعاً عن عقيدتهم الراسخة ومنافحة عن أرض أجدادهم الطاهرة. وكان للعامل الديني أثره البالغ في إلهاب المشاعر ضد الغزاة الصهيونيين، وقد عبر الشاعر العراقي محمد علي اليعقوبي عن هذا الشعور في المؤتمر الإسلامي الذي سبق انعقاده في القدس فقال يخاطب زعماء المسلمين:[١٠]

صونوا حمى الدين الحنيفي من
تلاعب الشرك وأيدي الغير
والبيت والأرض التي شرفت
بالمصطفى والطيبين الغرر
والمسجد الأقصى الذي قد سرى
منه لأعلى العرش خير البشر
فاغتنموها إنها فرصة
أتاحها للمسلمين القدر

وحين أخذت الصهيونية المستظلة بقوة المحتلين الإنكليز تكيد للعرب في رحاب مسجدهم الأقصى، أخذت الطلائع الوطنية الثائرة تتصدى لهذا الواقع الجديد بعزم

وطيد. وفي فلك المشاعر الدينية يقسم أحمد محرم أحد دعاة الجامعة الإسلامية في مصر بتلك المدينة المقدسة التي لن يتخلى عنها المسلمون مهما طال الزمن حيث يقول:[11]

لا ومجرى الوحي من مقدسها
لن تروها ليهود مغنما

وعلى هذا الصعيد الطاهر من تراب القدس يلتقي عمر بهاء الأميري أحد شعراء سورية بحلب مع أمثاله من الشعراء في دنيا العرب في رفض سيطرة الدخلاء على تلك المعالم الإسلامية المقدسة:[12]

يا فلسطين يا تراث النبوة
يا لسان المجد الأثيل المفوه
الأباة الكماة تهتز ثأرا
كلما معرج الرسول تأوه

وكان أن طاب لشعراء الجيل بعد ذلك أن يتغنوا بتضامن أقطار العرب وتلاحم حواضرهم في مصر وفلسطين وسائر بلاد الشام وكان من بينهم الشاعر المصري محمد عبد الغني حسن الذي شارك كبار شعراء العصر مثل حافظ وشوقي والرصافي والقروي الذين دأبوا على التغني بوحدة مشاعر الأمة العربية في مصر ومدن الشام وفيها القدس وسائر ربوع الوطن العربي وقد نسج أبياته على منوال رائعة ابن زيدون وقال:[13]

إذا تغنى بمصر بلبل غرد
سمعت بالشام ألحان المغنينا
وإن شكت مصر من سوء ألم بها
سمعت من سروات القدس شاكينا
بنا من الوجد والإسلام ما بكم
فالوجد يشجيكم حينا ويشجينا

وما لبثت مشاعر السخط والمرارة بعد حين أن تبدت في اندلاع ثورات لاهبة وانتفاضات صاخبة ضد سياسة الطغيان والقهر، وواكب ذلك لدى جماهير العرب نزوع قومي حار لاسترداد كرامتهم ونيل حريتهم. وعندئذ تفجرت لديهم إرادة الحياة والاعتزاز بأمجاد الأجداد، وكان أن انعكس كل ذلك في فنون القول ولا سيما في الشعر. ففي قصيدة ذائعة نظمها الشاعر بشارة الخوري الأخطل الصغير (١٨٨٩-١٩٦٨) إبان ثورة فلسطين سنة ١٩٣٦ضد الذين احتلوا القدس من إنكليز ويهود تراءى له بيت المقدس كعبة أخرى تتربع في قلوب العرب على الصعيد القومي المتعاظم:[14]

سائل العلياء عنّا والزمانا
هل خفرنا ذمة مذ عرفانا
المروءات التي عاشت بنا
لم تزل تجري سعيرا في دمانا
عرس الأحرار أن تسقى العدا
أكؤسا حمرا وأنغاما حزانى

غـدت الأحـــرار مـنـا أنـفـسـا
لم يـزدهـا الـعـنـف إلا عـنـفـوانـا
شـــرف لـلـمـوت أن نـطـعـمـه
أنـفـسـا جـبـارة تـأبـى الـهـوانـا
شـــرف بـاهـت فـلـسـطـين بـه
وبـنـاء لـلـمـعـالي لا يـدانـى
يـثرب والـقـدس مـنـذ احـتـلـمـا
كعبتانا، وهـوى العـرب هـوانا

وفي إبان النكبة التي حلت بالعرب إثر إقامة الغرب دولة إسرائيل تصدت المقاومة الفلسطينية لهذا الجور الفادح وسقط منها شهداء وشهداء في مقدمتهم الشاعر عبد الرحيم محمود (١٩١٣ – ١٩٤٨)، وقد سبق له أن ندد بالزعامة الفاسدة التي أضاعت القدس وسائر فلسطين، وكأنما تنبأ بما هو أسوأ في إثر زيارة أحد الحكام العرب للأماكن الطاهرة في القدس حين قال يخاطبه بعبارات غاضبة لاهبة:(١٥)

المسجد الأقصى أتيت تزوره
أم جئت من قبل الضياع تودعه
وغدا، وما أدناه، لا يبقى سوى
دمـع لـنـا يـهـمـي وسـن تـقـرعـه

كذلك راح شاعر دمشق خير الدين الزركلي يصور ما آلت إليه حال القدس من أسى وويل، ثم خاطب الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك باني الأقصى ذلك الصرح العريق الذي بات مهجورا مدنسا يعبث به الغاصب، حيث قال:(١٦)

المسجد الأقصى وأنت أقمته
حـرمـا خـلا محـرابـه المـأهـول
أمست فلسطين مناخاً للردى
وتـرابـهـا بـدمـائـهـا مجـبـول
في كـل رابـيـة جـسـوم مـزقـت
وبـكـل واد أنـــة وعـويـل
تـوراة موسى تشتكيك وتحتمي
بـالله والـقـرآن والإنجـيـل

ومن قلب الفرح الغامر بمولد عهد الوحدة بين سورية ومصر يتبدى سخط شاعر الشام الآخر شفيق جبري حين راح يصرخ في قومه ويحضهم على غسل العار:(١٧)

احصدوهم حصد السنابل حتى
تـتـداعـى صـهـيـون ركـنـا فـركـنـا
أيعبث اليهود في حـرم القد
س فسادا والنوم يأخذ منا ......
اغرسوا فوق عظمنا وطن العر
ب فإن عاش في اخضراره عشنا

وإذا كانت هذه حال شفيق جبري تجاه القدس الحزينة، فلا بد لذلك الهاجس أن يعاوده في قصيدته «تحية القدس» حيث يتماهى الحاضر والغابر في نفسه، ويتبدى أمامه الأقصى على هذا النحو:(١٨)

يا نسيم الضحى على المسجد الأقـ

ـصى لقد هجت ذكرهم ملء نفسي

ليس لي حاضر يقيني حماه

إنما حاضري نضارة أمسي

وفي إثر النكبة غلب الأسى على قرائح الشعراء وتبللت قوافيهم بالدموع، وراحوا يصورون بمداد أسود ما حل بالقدس وأهلها من ويلات وأهوال، ومن أمثلة ذلك شاعر سورية بدوي الجبل في قوله:[19]

هل في الشآم وهل في القدس والدة

لا تشتكي الثكل إعوالا وإرنانا

يعطي الشهيد فلا والله ما شهدت

عيني كإحسانه في الكون إحسانا

وغاية الجود أن يسقي الثرى دمه

عند الكفاح ويلقى الله ظمآنا

وقول بدوي الجبل أيضا في قصيدة أخرى يندب فيها انحسار الإسلام عن القدس[20]:

هل درت عدن أن مسجدها

الأقصى مكان من أهله مهجور

أين مسرى البراق والقدس والمهد

وبيت مقّدس معمور

لم يرتل قرآن أحمد فيه

ويزار المبكى ويتلى الزبور

يا لذل الإسلام والقدس نهب

هتكت أرضه فأين الغيور

كما طفحت نفس بدوي الجبل وكثير من الشعراء في تلك المرحلة الأليمة بكثير من مشاعر السخط والخيبة والمرارة، وذلك في مثل قوله:[21]

أسلم القدس من يحج إلى القدس

ويتلو الإنجيل وردا فوردا

مدن القدس كالعذارى سبوها

وأرادوا لكل عذراء وغدا

لقد صدرت هذه الأشعار القاتمة وسواها والجرح ندي. غير أن الصحوة ما لبثت أن عاودت النفوس وراحت تتجاوز المحنة وتتطلع بأمل إلى قابل الأيام، إذ كل حال يزول ولابد بعد الشدة من فرج، وهكذا يكون لدى الشاعر نفسه في ذكرى الجلاء استبشار:[22]

تمَّ صفو الدهر لولا محنة

في فلسطين وبلوى وشقاء

ياربا القدس وما أندى الربا

دمنا فيها ربيع ونماء

انتزعنا الملك من غاصبه

وكتبنا بالدم الغمر الجلاء

أما علي محمود طه (١٩٠٢ - ١٩٤٩) الشاعر المصري، على قلة إقباله على الشعر القومي والاجتماعي فقد ران على أشعاره تجاه القدس ألم دفين وأسى مرير في قوله:

يا قدس يا حبيبة السماء

قومي إلى الصلاة وباركي الحياة

ورددي التسبيح في المآذن

وأيقظي الأجراس في المدائن

وقد تجلى هذا الأسى الغامر أيضا لدى علي محمود طه في قصيدة ذائعة مؤثرة وجدت سبيلها إلى لحن شجي في أغنية للموسيقي محمد عبد الوهاب:

أخي جاوز الظالمون المدى
فحق الجهاد وحق الفدا

أخي إن في القدس أختا لنا
أعد لها الذابحون المدى

أخي قم إلى قبلة المشرقين
لنحمي الكنيسة والمسجدا

يسوع الشهيد على أرضها
يعانق في جيشه أحمدا

فلسطين تحميك منا الصدور
فإما الحياة وإما الردى

مع أبو ريشة والقدس:

وإزاء اشتداد النزوع إلى التحرر والتطلع إلى الاستقلال سرعان ما طغى التيار القومي على النفوس ليشمل مجمل الشعوب العربية .فلم تعد القدس أو فلسطين قضية وطنية قطرية تخص أهلها فحسب، بل أصبحت القضية القومية الأولى للأمة العربية. وهذا ما تجلى في قصائد الشعراء في كل شبر من الوطن العربي الكبير.

فقد حمل الشعر الحديث هذا الهم المقيم بين جوانحهم وغلب على مجمل معطيات فنونهم وآدابهم، وعلى سائر مجالات نثرهم وأغراض شعرهم. ولعل عمر أبو ريشة أحد أعلام الشعر المعاصر في القرن العشرين خير نموذج يعكس بجلاء منازع الجيل العربي المتحفز. فمن خلال مرثية من مرثياته أو وطنياته يستلهم قصيدته المسماة (قيود) من جهاد الزعيم إبراهيم هنانو في مقارعته للمستعمرين، ويشير إلى القدس في إبان الكفاح العربي ضد الصهيونية في ثلاثينيات القرن العشرين:[٢٣]

وطن عليه من الزمان وقار
النور ملء شعابه والنار

تغفو أساطير البطولة فوقه
ويهزها من مهده التذكار

تستيقظ الدنيا على تزآرها
وتنام تحت لوائها الأقدار

ثم يقول :

والقدس ما للقدس يخترق الدما
وشراعه الآثام والأوزار

أي العصور هوى عليه وليس في
جنبيه من أنيابه آثار

عهد الصليبيين لم يبرح له
في مسمع الدنيا صدى دوار
إن الضعيف على عريق فخاره
حمل يشد بعنقه جزار

ثم كانت مناسبة وطنية ثقافية أخرى حين تم افتتاح دار الكتب الوطنية سنة ١٩٤٥ بمدينة حلب، فقد ارتقى الاحتفال للتو إلى مناسبة قومية من خلال قصيدة الشاعر أبو ريشة التي جعل عنوانها (هذه أمتي)، وقد تجاوزت ستين بيتا كان للقدس فيها حيزها الذي تستحقه إلى جانب أبي الطيب وسيف الدولة وفوقهما الرسول محمد (ص) الذي أقام دولة العروبة والإسلام:

فتهاوت على عباءته الدنيا
ورفت على صهيل حصانه

إلى أن يقول :

وسلوا القدس هل غفا الشرق عنها
أو طوى دونها شبا مُرّانه

إن القدس وسائر فلسطين لم تبرح ضمير الشاعر أبو ريشة بل كانت راسخة في حناياه وحنايا كل عربي، ففي قصيدته «حماة الضيم» يقول بأسى دفين ونفسه مستبشرة مفعمة بالأمل:[٢٤]

المجد يخجل أن يجيل الطرف في
ما هدم الجبناء من أسواره
هل في روابي القدس كهف عبادة
تحنو جوانبه على أحباره
خشب الصليب على الرمال مخضب
بدماء من نعموا بطيب جواره
مهلا حماة الضيم إن لليلنا
فجرا سيطوى الضيم في أطماره

وعلى هذا الدرب درب الآلام الآخر يطيب للشاعر عمر أبو ريشة استحضار ذكرى ليلة الإسراء فيناجي القدس الشريف والمسجد الأقصى الذي بارك الله ما حوله في فلسطين الحزينة:

أي فلسطين يا ابتسامة عيسى
لجراح الأذى على جثمانه
يا تثني البراق، في ليلة
الإسراء، والوحي ممسك بعنانه
إن للبيت ربه، فدعيه
رب حاو رداه في ثعبانه

وفي قصيدة «يا عيد» يطفح الأمل والاستبشار لدى الشاعر أبو ريشة برغم الأسى الباقي في النفوس، إذ لابد لهذا الليل من آخر وحينئذ تكتمل الفرحة ويكون العيد الحق:[٢٥]

يا عيد كم في روابي القدس من كبد
لها على الرفرف العلوي تعييد
سينجلي ليلنا عن فجر معترك
ونحن في فمه المشبوب تغريد

ويدور الزمان دورتــه، ويكون مع العسر يسر حين يقبل ربيــع الزمان وتتألق في دنيا العرب آمال وتتحقق انتصارات، انه «عرس المجد» الذي نعمت بــه سورية حين حظيت باستقلالها وودعــت دون أسف آخر جندي كان يحتــل أرضهــا، لقــد ألقى أبــو ريشة قصيدته هذه (عرســ المجد) على ملأ من أهــالي حلب المبتهجين في نشــوة غامرة في الذكــرى الأولى لجلاء المحتلــين عن بلاده فقال:

يا عروس المجد تيهي واسحبي

في مغانينا ذيول الشهب

وما أنبل الشعــر في هذا العرس البهيج أن يذكــر في غمرة الفرح أولئــك الشهداء الأعزة الذين آلوا على أنفسهم أن يجعلوها جســراً يعــبر عليه أهلهــم إلى هــذا اليوم المنشــود. وهكذا لم تنســ فرحة الشاعر في هذا اليوم يوماً آخر سبقه هو يوم ميسلون. بل إن الفرحة لا تكتمل في نفس أبو ريشة إلا عندما تتحقق الآمال باستعادة بيت المقدس وسائر الأرض السليبة الطاهرة :

ما بلغنا بعد من أحلامنا

ذلك الحلم الكريم الذهبي

أين في القدس ضلوع غضة

لم تلامسها ذنابى عقرب

وقف التاريخ في محرابها

وقفة المرتجف المضطرب

كم روى عنها أناشيد النهى

في سماع العالم المستغرب

وما أجمــل مناجاة الشاعر أبو ريشة في قصيدته نفسهــا لبطاح فلسطــين وروابي القدس في إطــار رحيب من تضامن العرب ووحدة بلادهم:

يا روابي القدس، يا مجلى السنا

يا رؤى عيسى على جفن النبي

دون علياك في الرحب المدى

صهلة الخيل ووهج القضب

لمت الآلام منا شملنا

ونمت ما بيننا من نسب

فإذا مصر أغاني جلق

وإذا بغداد نجوى يثرب

❁ ❁ ❁

في ربــوع الوطن وخارجه معــاً كان كل ظفر يحققه العرب في صراعهم مع الطغيان والاستبــداد يبعــث التهليــل والاستبشــار في النفوســ ويتجلــى على ألسنــة الشعراء المعاصريــن الذين يــرون في ذلــك اقترابا من أمجاد العــرب السالفة وبعثــاً لمنزلتهم الساميــة. وكانت هــذه المشاعــر المتفائلة قسمة بين شعراء المهجر في القارة الأميركية

وإخوتهم شعراء الوطن في ديار العروبة وكان أن عبر الشاعر والخطيب حبيب اسطفان (١٨٨٨ – ١٩٤٦) من ربوع العالم الجديد عن فرحته العارمة بقيام الحكم العربي المستقل في دمشق بزعامة الملك فيصل بن الحسين وتحرر بلاد الشام وفي طليعتها القدس من حكم تركي طغى على العرب أكثر من أربعة قرون، فقال معددا حواضر العرب المستبشرة:(٢٦)

دمشق بها ذكرى أمية خلدت
وبغداد ذكرى للرشيد مخلد
وفي القدس أنوار المسيح مضيئة
تنار بها أقصى الشعوب وترشد
وأم القرى بيت الأعارب مكة
لها الشرف العالي القديم الموطد
أقام لها التوحيد ديناً مشرفا
وأنبت مجد العرب فيها محمد

القدس وشعراء المهجر:

وعلى الرغم من بعد المكان وامتداد الزمان ظلت صورة القدس متوهجة في النفوس، وبقي أبناؤنا المغتربون العرب على العهد في مهاجرهم القصية يتغنون بأمجاد أمتهم عبر عهود التاريخ. فقد كان للجوالي العربية في بلدان القارة الأميركية إبان القرن العشرين شأن وأي شأن في تألق الحياة الثقافية والاجتماعية الحافلة في ذلك العالم الجديد، حيث علت أصوات نبغاء الشعر بأجمل القصائد الوطنية والقومية ولاسيما قضية فلسطين ومنزلة القدس في الضمير العربي، ومن تلك الصفوة إيليا أبو ماضي وأبو الفضل الوليد ونسيب عريضة وندرة حداد والشاعر القروي وإلياس فرحات وميشال مغربي ونصر سمعان وحسني غراب وإلياس قنصل وزكي قنصل وجورج صيدح وسائر شعراء المهجر.

وكان صوت الشاعر الحمصي موسى الحداد من أقدم الأصوات العربية في ربوع البرازيل، حيث قال في قصيدة مبكرة يشيد فيها بأصالة القدس ومنزلتها في تاريخ العرب والمسلمين، وبطولات صلاح الدين:(٢٧)

يا ابنة المجد والعروبة هبي
واذكري مكة وأسد الملاحم
واذكري القدس يوم صلاح
الدين فيها فلّ الجيوش الخضارم

كذلك تتبدى هالة القدس في معظم الشعر القومي شاملة عهد صلاح الدين الزاهر ويوم حطين الظافر، فالشاعر إلياس فرحات يستعيد أيضا في مهجره البعيد «بطولات العرب» ويخاطب من خلالها القائد صلاح الدين محرر القدس من طغيان الصليبيين:(٢٨)

يفديك كل فتى في قلبه قبس

من نور مجدك تياه على الشهب

لبى نداء صلاح الدين زأرته

في القدس يسمعها الصمان في حلب

غير أن الجرح القديم الذي أصاب العرب والمسلمين باجتياح الغرب للأرض المقدسة انتكث مرة أخرى بفعل العدو نفسه في ضحى القرن العشرين. فمنذ أن وقعت القدس في قبضة جيوش الغرب في إثر انتهاء الحرب الكبرى انكشف قناع الوعود الكاذبة وانطلقت أصوات الشعراء في دنيا العرب بالسخط والتنديد وكان صوت شعراء المهاجر في ذلك الحين في طليعة تلك الأصوات من مثل ما صدر عن الشاعر أبو الفضل الوليد في قوله:[٢٩]

قد أذلوا العربي المسلما

ليهودي زنيم شرس

ضامه في المسجد الأقصى كما

ضام عيسى وسط بيت المقدس

وعلى هذا الغرار ثمة قصائد عديدة في هذا الصدد أيضا تناول فيها أدباء المهجر ذلك الحدث الكبير في إثر دخول جيوش الحلفاء وكتائب فيصل بن الحسين إلى القدس وانهيار الحكم العثماني لبلاد الشام. وفي ذلك يقول الشاعر القروي رشيد سليم خوري (١٨٨٧ - ١٩٨٤) في قصيدته «سقوط أورشليم» وكأنه يتساءل في نهاية أبياته: أي نصر كان ذاك:[٣٠]

زحفوا لفتح القدس فانفتحت لهم

أبصارهم عن عالم مسحور

للوحي والتنزيل فيه وللهدى

صور مقدسة عن التصوير

أصغت مدافعهم إلى أجراسها

وآذانها إصغاءة التوقير

لله أورشليم، عند جلالها

ما أشبه المنصور بالمكسور

لقد دأب أبناؤنا المغتربون على إحياء ذكرى أمجاد العرب وأعلامهم وأحداث وطنهم في مهرجانات قومية أدبية، كان في طليعتها حفاوتهم بذكرى مولد الرسول الكريم محمد (ص).. وكان معهودا في هذه المناسبة الدينية وأمثالها أن ينعطف الشعراء والخطباء إلى تناول قضايا الوطن العربي وأحداثه وهمومه ولا سيما القضية الفلسطينية ومن ذلك قصيدة لنبيه سلامة أحد شعرائنا المغتربين في سان باولو نظمها عام النكبة مؤكداً فيها حق أمته في استرداد القدس دون أن يدع للتشاؤم سبيلا إلى نفسه. وكان مما ألقاه يومئذ في ذكرى المولد النبوي:[٣١]

ليست فلسطين الشهيدة وحدها

كل الجزيرة في المصاب شهيد

لن تنعموا بالقدس في أحلامكم
وطنا يهيمن فوقه التلمود

وقصيدة جورج صيدح من أجمل الشعر في ديوانه (الروافد)، وقد ألقاها في بوينس أيرس عاصمة الأرجنتين بمناسبة ذكرى المولد النبوي أيضا حيث قال مخاطبا الرسول الكريم:[٣٢]

يامن سريت على البراق
وجزت أشواط العنان
آن الأوان لأن تجدد
ليلة المعراج آن
عرج على القدس الشريف
ففيه أقداس تهان
ضج الحجيج به وريع
ضريحه والمسجدان
بارك جهاد المؤمنين
النافرين إلى الطعان

وللشاعر نصر سمعان (١٩٠٥ – ١٩٦٧) قصائد جمة في هذا الصدد دأب على إلقائها في المحافل هناك، من مثل قصيدته «كلا وربك ..»، وفيها يذكر حال بيت المقدس الحزين ويؤكد تمسك قومه أيضا بالحق الهضيم مستبشراً بيوم التحرير:[٣٣]

كلا وربك لن يطوى لنا علم
مادام منا النبي الطاهر العلم
عيد العلا يا أبا الزهراء نرقبه
عيدا تخضب فيه بالدم اللمم
في أربع القدس من نيرانها لهب
وفي الجزائر من بركانها حمم
غدا سيغمر أرض القدس من دمهم
نيل يفيض ومن أشلائهم هرم
مادمت منا ودام الحق رائدنا
كلا وربك لن يطوى لنا علم

ونصر سمعان هذا الشاعر المغترب عن مدينته حمص يعد إلى جانب زميليه القروي وفرحات من شعراء العصبة الأندلسية في حاضرة البرازيل في طليعة من اشتهروا في الأدب العربي الحديث بشعرهم القومي، ويكاد ينفرد بكثرة ما نظمه حول الرسول العربي نبي المسلمين وعظيم العرب، ومن ذلك قوله في قصيدة أنشدها في ذكرى المولد النبوي بسان باولو عنوانها «محمد»[٣٤] يخاطب فيها الرسول الكريم ويذكر القدس وكفاح أهلها ضد الغاصبين:

سيد المرسلين قم وتأمل
كيف نامت عن العرين سباعه
هوذا القدس في الجهاد وأشلا
ء بنيه حصونه وقلاعه

وثمة قصيدة تالية أيضا نظمها نصر سمعان في مهجره ذكر فيها بيت المقدس، وفيها تتجلى روح المرارة والسخط تجاه

الحكام العرب الذين أضاعوا القدس بعد أن تخاذلوا في درء خطر الصهيونية عن فلسطين وكان أن حدثت النكبة:[٣٥]

لئن بكينا على آمالنا سلفاً
إن الذين أضاعوا القدس ما أسفوا
هاجوا وماجوا وهزوا الأرض واندفعوا
لكن إلى حيث لم يعرف لهم هدف
واحسرة المجد في قوم أعد لهم
عرس الجهاد، فما غنوا ولا عزفوا
تحالفوا تحت أعلام الإخاء على
صوت الإباء وفي ميدانه اختلفوا

وفي قلب المهجر البرازيلي بسان باولو تم افتتاح المبنى الكبير لمقر الميتم السوري والإشادة بفضل المحسن المفضال أسعد عبد الله حداد.. وكان شاعر حمص المغترب نصر سمعان أحد المتكلمين في هذه المناسبة الاجتماعية الإنسانية، وقد أشاد فيها بفداء السيد المسيح وتشوقه إلى العودة للقدس، ومنها قوله:[٣٦]

لتنسكب نعم الباري على حرم
روح الفضيلة في محرابه انسكبا
رنا المسيح إليه من مشارفه
فودَّ لو أنه في قدسه صلبا
لولا الدماء التي ازدان الصليب بها
ما حاجة العقل في تقديسه الخشبا

وفي حفل وطني آخر أقامه النادي الحمصي في سان باولو ألقى أيضا الشاعر نصر سمعان قصيدة وطنية أشاد فيها بوطنه سورية وعروبته الخالصة وجيشه الصامد، ثم انعطف - على معهود شعرائنا - إلى قضية فلسطين وقدسها الشريف فقال:[٣٧]

جيش طموح الشباب رائده
هيهات يطوي لواءه الزمن
حلم المغاوير أن يكون لهم
يوم الردى من دمائهم كفن
القدس لله معبد، ولدى
عبادة الله يهدم الوثن

وكان أن أقامت الجالية العربية في مدينة سان باولو سنة ١٩٣٣ حفلاً تأبينياً كبيراً للفقيد الملك فيصل بن الحسين، وكان الشاعر القروي في جملة الخطباء والشعراء المشاركين في هذه المناسبة القومية، حيث ألقى قصيدة رائية تضمنت ما حل بالقدس وعنوانها (أقصى التجلد) حفلت بالتفجع والأسى. وقد تخلل أبياتها عدد من المقاطع النثرية البليغة، كان الشاعر يعمد خلالها إلى تغيير القافية كلما استأنف إنشاء مقطع جديد:

أقصى التجلد أن العقل منهزم
وأهون الخطب أن الدمع فيك دم

وفيها يعبر عن شعور المرارة تجاه ما

آلــت إليه حال العرب بعــد أن نكث الغرب بعهودهم ودأبــوا على تمكين يهود العالم من أرضــ فلسطين، ومما قالــه بصدد القدس التي باتت في قبضة العصابات الصهيونية:

ماذا جنى القدس من لاوي وأخوته
إلا الشقاء وإلا الذل والهونا
هبكم أصبتم، فإنا لا نريد غنى
من اللصوص المرابين المرائينا

كذلــك ألقى الشاعر القــروي قصيدته الدالية المطولة التي زادت على مئة بيت في الحفل التأبيني الذي أقامته الجالية العربية سنــة ١٩٣٣ بمعهد سربانتســ في عاصمة الأرجنتين ودعــت الشاعر مــن سان باولو للمشاركة بهذه المناسبــة. لقد ندد القروي بختل الإنكليز وتنكرهم لوعودهم ومحاباتهم لليهود على حساب الحق العربي، فقال:

نصبتم لهذا الشرق كل حبالة
سياسية من كيد إبليس أكيدا
وأنكى العدا كلب طليق مسلح
يهدد في الأقفاص ليثا مقيدا
من المسجد الأقصى إلى (وستمنستر)
يروعكم صوت الحسين مهددا

فعلــى الرغم من قتامة هــذه الرؤية في نفس الشاعر فإنه يتذرع بالصبر وقلبه مفعم بالإيمــان بخروج أمة العرب من محنتها وأن العاقبة للمجاهدين:

رويــدا بني أمــي، رويــدا أحبتي
ويــا وطنــا، سوداء قلبي لـه فدا
أرى خلف مربد السحاب سحابة
مـن الـنـور يـأبى الله أن تتبددا

وعلى الرغــم من وقوع نكبــة فلسطين التي أحدثت جرحــاً بليغاً في كرامة العرب فقد بقي إيمانهم بشعبهم راسخاً بأن النصر لا بد آت وأن الحــكام الذين صنعوا المأساة هم الذين هزموا.

وبعد انقضاء حين قصير من الزمن على ذلك الحــدث الأليم اندلعت شرارة المقاومة الفلسطينية من جديد وطارت أخبار بطولات فرق العاصفة في الآفاق، ووجد الشعراء في هذا الانعطاف السار غسلا للعار. وقد نظم الشاعــر القروي في مهجــره قصيدة باسم «اللاجىء الشهيد» ازدهى فيها بانتمائه إلى القدس وعبر فيها عــن استبشاره بانتفاضة الفدائيــين ملمحــاً من خلالهــا إلى قيامة السيد المسيــح من قبره مجددا وقد امتلأت نفسه حبورا بتلك البطولات:[٣٨]

بـعـث الشهيد ودحـرج الحـجـرا
مــن قــال إني لاجــئ كـفـرا
مـزقـت أكـفـاني وهــا أنــا ذا
خلف الحـدود أجابـه الخطـرا
وأثــــور عـاصـفـة مـدمـرة
هـوجـاء لـن تـبـقـي ولـن تـذرا

أنـــا رب أقـــدس تـربـة أثـــرا
وسـلـيـل أطـيـب أمـــة خـبرا
غــدرت بـنـا الـدنـيـا وشـردنـا
بـغـي تحـدى الـبـدو والحـضـرا

وحـــين وصل عمر أبو ريشة إلى البرازيل سفيرا للجمهورية السورية في فجر استقلالها لقي حفاوة بالغة من جمهرة أبنائنا المغتربين، كمـــا كان استقبالهم له في سان باولو موطن أكبر جالية عربيـــة في القارة الأميركية بالغ الحرارة. وهنـــاك أقيم للشاعـــر أبو ريشة مهرجـــان وطني وأدبي حافل ألقى فيه عدد من شعراء المهجـــر قصائد مفعمة بمشاعر البهجـــة والسعـــادة، وفي جملتهـــم الشاعر الحمصي المغترب نصر سمعان[٣٩] مطلعها:

نـشـر الـنـور في رحـــاب سـمـائـه
فـاسـتـنـارت نجـومـهـا بـضـيـائـه
كـوكـب سـاحـر أطـل عـلـى الشر
ق ففاض الجـمـال مـن أرجـائـه

ثـــم انعطف الشاعر إلى ذكر القدس وما آلت إليه حال وطنه وفلسطينه بمرارة وأسى، فقال مخاطبا أبو ريشة :

شـاعـر الحـب والجـمـال رويـدا
إن شكوى الحزين بعض عزائه
هل حمى الدين حرمة القدس ممن
كــدروا كـأس صـفـوه وهـنـائـه
أحـسـبـتـم زيـت المـعـابـد أنـقـى
مـن دمـوع الشهيد أومـن دمائه

❁ ❁ ❁

وفي غمار المد القومي الذي عاشه العرب في حياتهم المعاصرة في ظل الفترة الناصرية وانتصاراتها الباهرة ازدادت الثقة بالنفوس وتفـــاءل الشعـــراء خيرا بعـــودة القدس إلى أهلها وانعقدت الآمال في ذلك على الزعيم جمال عبـــد الناصر في حطين جديدة. وقد عبر عن هذه المشاعر اللاهبة هارون هاشم رشيد الشاعـــر الفلسطيني، وقال يومئذ في إحدى قصائده مستبشراً:[٤٠]

إن حــطــين غـــداً مـوعـدنـا
مـوعـد لـلـثـأر رعـــاف الــدم
وجـــمـــال رافـــع رايـاتــنـا
في روابـي الـقـدس حـول الحـرم

وقد يكون الشاعران المهجريان القروي ونصر سمعان ومعهمـــا الشاعران السوريان عمر أبو ريشة ونزار قباني من أكثر الشعراء تنـــاولا لقضية فلسطـــين ولمنزلة القدس في حياتنا العربيـــة المعاصرة. وإنه لمن الطبيعي في غمار الأحـــداث الجائحـــة أن تضطرم النفوس بالغضب وتتغمـــر القلوب بالأسى

عند مطلع كل شمس، وإذ ذاك تتراوح الرؤى بين مد الأمل وجزر اليأس. وكثيرا ما يتبدى هذا التراوح لدى الشاعر الواحد بين حين وحين. ففي إثر إقدام يد صهيوني آثم على حرق منبر المسجد الأقصى، وهو المنبر التاريخي الذي حمله صلاح الدين من حلب المحروسة إلى القدس الشريف بعد انتصاره المبين في معركة حطين واستعادته بيت المقدس من أيدي الصليبيين، يومئذ اشتعلت نفوس العرب وسائر المسلمين تجاه هذه الجريمة النكراء، وكان لنزار قباني يومئذ قصيدة نظمها في إثر هذا الحدث عنوانها «منشورات فدائية على جدران إسرائيل» تنم أبياتها على إيمان وطيد وثقة لا تحد بالغد، ومنها قوله:[٤١]

المسجد الأقصى شهيد جديد
نضيفه إلى الحساب العتيق
وليست النار وليس الحريق
سوى قناديل تضيء الطريق

حتى إن نزارا في غمار ثورة سخط وغضب يتمرد على الواقع العربي الراكد ويستهين بما تمور به أروقة ساسة الغرب من مظاهر حرصهم المزعوم على السلام وإذ ذاك لا يرى الشاعر سبيلا إلى الخلاص سوى حض الفلسطينيين جميعا على الثورة والمقاومة لا نتزاع حقهم في الحياة إذ الحق في فوهة المدفع:[٤٢]

يا أيها الثوار
في القدس في الخليل
في بيسان في الأغوار
في بيت لحم حيث كنتم أيها الأحرار
تقدموا، تقدموا
فقصة السلام مسرحية
والعدل مسرحية
يمر من فوهة البندقية

ولعل في طليعة ما نظمه نزار قباني أيضا في تناوله صورة القدس وما تنطوي عليه مقدساتها من هالات وإيحاءات قصيدة تتواشج فيها جملة من الانفعالات الذاتية والمنازع القومية في تآلف وجداني معجب قادر على أن يرتقي بالمتلقي إلى جو علوي رحيب مفعم بأرق المشاعر الإنسانية وأعمقها.. والقصيدة في الوقت نفسه تتلاقى بمنحاها وبعض عباراتها مع رائعة الرحبانيين عاصي ومنصور «زهرة المدائن»، يقول نزار:[٤٣]

بكيت حتى انتهت الدموع
صليت حتى ذابت الشموع
ركعت حتى ملني الركوع
سألت عن محمد فيك وعن يسوع
يا قدس يا مدينة تفوح أنبياء

يا أقصر الدروب بين الأرض والسماء

يا قدس يا منارة الشرائع

يا طفلة جميلة محروقة الأصابع

حزينة عيناك، يا مدينة البتول

يا واحة ظليلة، مر بها الرسول

يا قدس يا جميلة، تلتف بالسواد

من يقرع الأجراس في كنيسة القيامة

صبيحة الآحاد

من يحمل الألعاب للأولاد

في ليلة الميلاد ...

❁ ❁ ❁

وتعد قصيدة «زهرة المدائن» في هذا الصدد قصيدة متميزة في الشعر المعاصر، وهي أشهر ما نظمه الأديبان الشقيقان اللبنانيان منصور وعاصي من أسرة الرحباني. وقد سرى ذكرها في الآفاق بفضل لحنها الشجي المتميز والأداء الرائع للمطربة فيروز:[٤٤]

لأجلك يا مدينة الصلاة

أصلي

لأجلك يا بهية المساكن

يا زهرة المدائن

يا قدس

يا مدينة الصلاة

أصلي

عيوننا إليك ترحل كل يوم

تدور في أروقة المعابد

تعانق الكنائس القديمة

وتمسح الحزن عن المساجد

ياليلة الإسراء

يا درب من مروا إلى السماء

عيوننا إليك ترحل كل يوم

وإنني أصلي

❁ ❁ ❁

الطفل في المغارة

وأمه مريم

وجهان يبكيان

لأجل من تشردوا

لأجل أطفال بلا منازل

لأجل من دافع

واستشهد في المداخل

واستشهد السلام

في وطن السلام

وسقط العدل على المداخل

حين هوت مدينة القدس

تراجع الحب

وفي قلوب الدنيا

استوطنت الحرب

الطفل في المغارة

وأمه مريم

وجهان يبكيان
وإنني أصلي

❁ ❁ ❁

الغضب الساطع آت
وأنا كلي إيمان
الغضب الساطع آت
سأمر على الأحزان
من كل طريق آت
بجياد الرهبة
آت
وكوجه الله الغامر
آت آت آت
لن يقفل باب مدينتنا
فأنا ذاهبة لأصلي
سأدق على الأبواب
وسأفتحها الأبواب
وستغسل يا نهر الأردن
وجهي بمياه قدسية
وستمحو يا نهر الأردن
آثار القدم الهمجية
الغضب الساطع آت
بجياد الرهبة آت
وسيهزم وجه القوة
البيت لنا
والقدس لنا
وبأيدينا سنعيد بهاء القدس
بأيدينا للقدس سلام
آت آت آت ....

❁ ❁ ❁

لقد توافرت في هذه القصيدة جملة من المقومات الفنية التي رفعتها إلى مراقي الإبداع وآفاق الشهرة، فهي خالصة لموضوع القدس بحيث تنصب أبياتها جميعا على مجمل ما تثيره هذه المدينة من المشاعر والهواجس في نفس الإنسان العربي وذلك من خلال رصدها الجميل المؤثر لما يعتمل بين جوانحه من أحزان وآلام وتطلعات وآمال. وكذلك ما تحفل به المساجد والكنائس من أدعية وصلوات وخشوع وابتهالات، وما تنطوي عليه نفوس المتعبدين من روحانية وإيمان. ومن محاسن قصيدة (زهرة المدائن) أن الشاعرين الشقيقين استطاعا بسلاسة ورفق استحضار صور شائعة من مخزون الذاكرة الروحي لدى المؤمنين مثل صور السيد المسيح وأمه مريم وليلة إسراء الرسول ... والقصيدة من حيث معمارها الفني جسم حي نابض تتقاطر خلاله مشاهدها الشائقة أمام متلقيها بتدرج معجب، حتى توصله إلى مدى الإفعام بالثقة بالنفس والتفاؤل بالغد والإصرار على تحرير القدس. أما سماع

(زهرة المدائن) بلحنها الشجي وصوت فيروز العبقري فإبداع فوق إبداع يرتفع بالمرء إلى أجواء علوية لا يحد مداها..

❀ ❀ ❀

ومجمل القول إن كلمة القدس بدلالاتها وهالاتها وكثرة ورودها في الشعر العربي الحديث، إنما تشير بذلك إلى مدى تعاظم الاهتمام بالقضية الفلسطينية حتى أصبحت قضية العرب المحورية وهاجسهم الأكبر في حياتهم الحاضرة. وطبيعي في الوقت نفسه أن ترد الكلمة في معظم القصائد متفرقة على نحو متباعد أو متقارب وفق مقتضيات النظم وعلى حسب رؤية الشاعر. إن كلمة القدس تبدو في معظم الأحوال منبثة في حنايا الشعر المعاصر لا تكاد تغيب عنه، فهي تكاد تطل على الملأ في كل حين.

وفي ضوء بعض ما أوردناه في هذا الصدد وسائر ما أغفلناه من مواقف الأدباء العرب وقصائد شعرائهم يتبين لكل ذي حس سليم أن القدس بهالاتها التاريخية والدينية والقومية والإنسانية ظلت حية متألقة في الحاضر كما هو حالها في الغابر، وستبقى متوهجة في قابل الأزمنة في ضمير الأجيال العربية. والعاقبة أبدا للمجاهدين.

الهوامش

١- ديوان الشوقيات ١: ١ مطبعة الاستقامة، مصر ١٩٦٠.
٢- نشرت مجلة المقتطف هذه القصيدة كاملة في العدد ٢٧، القاهرة ١٩٠٢ .
٣- ديوانه عبير من دمشق ١٨١ – ١٨٦، بيروت ١٩٧٠.
٤- ديوانه أغاريد السحر، ٨٥، القاهرة .
٥- ديوان فؤاد الخطيب ٢٥، القاهرة ١٩٥٩.
٦- ديوانه «عواطف وعواصف» ١٣٢، بغداد ١٩٥٣ .
٧- ديوان «الفلسطينيات»، ١٨٦.
٨- الشوقيات ١/٧٦، مصر ١٩٦١.
٩- ديوان الرصافي ٤١٣، مطبعة الاعتماد، مصر ١٩٥٣.
١٠- ديوانه ٨٦، النجف.
١١- الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ٢/٥٥ الدكتور محمد حسين، القاهرة ١٩٥٤.
١٢- الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث ٦٨، عمر الدقاق، جامعة حلب ١٩٧٧.
١٣- ديوانه «من نبع الحياة» ٩٦، بيروت ١٩٣٧.
١٤- ديوان (الهوى والشباب) ١٥٦، دار المعارف، القاهرة ١٩٥٣. وكان الشاعر قد أعدها لتلقى في مهرجان حمص الذي تم إعداده لمساندة المقاومة الفلسطينية سنة ١٩٣٧ غير أن السلطة الفرنسية في سورية قد حالت دون ذلك.

١٥- ديوان عبد الرحيم محمود ١١٤.
١٦- ديوان الزركلي ٣٠، القاهرة.
١٧- نوح العندليب ٨٤، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٨٤.
١٨- نوح العندليب ٩٦.
١٩- الشعراء الأعلام في سورية، ٢٥٦ سامي الدهان.
٢٠- ديوان بدوي الجبل، ١٦ دار العودة، بيروت.
٢١- ديوان بدوي الجبل ١٢٨.
٢٢- ديوان بدوي الجبل ٩٤.
٢٣- ديوان عمر أبو ريشة، ٥٥٢. دار العودة، بيروت ١٩٧١.
٢٤- ديوان أبو ريشة ٩٣ دار العودة، بيروت ١٩٧١.
٢٥- ديوان عمر أبو ريشة ،١٧ دار العودة . بيروت ١٩٧١.
٢٦- الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث ٢٥١، جامعة حلب ١٩٧٧
٢٧- المهاجرة والمهاجرون محي الدين البرادعي ١/٤٠٣، دمشق ٢٠٠٦.
٢٨- ديوان الخريف، ٦٢. سان باولو ١٩٥٤.
٢٩- ديوانه الأنفاس الملهبة ٦٨، بيروت ١٩٣٤.
٣٠- ديوان القروي ٢٧٨، القاهرة ١٩٦١ .
٣١- المهاجرة والمهاجرون، البرادعي ٢/١٠٦٨.
٣٢- ديوانه الروافد.
٣٣- من مجموعة شعرية مخطوطة في حوزة الباحث.
٣٤- مجلة (العصبة)، آذار (مارس) ١٩٤٧ سان باولو
٣٥- مجلة (العصبة)، كانون الثاني شباط (يناير – فبراير) ١٩٥٠ سان باولو.
٣٦- من قصيدة مخطوطة زودني بها الشاعر المهجري الراحل.
٣٧- الأبيات مستمدة من قصيدة مخطوطة للشاعر.
٣٨- مجلة المعرفة، تموز (يوليو) دمشق ١٩٦٥.
٣٩- الأبيات من قصيدة مخطوطة تفضل الشاعر الراحل نصر سمعان بإرسالها إليّ في نيسان ١٩٦٥.
٤٠- ديوانه «مع الغرباء» ٩٥، بيروت ١٩٦٢.
٤١- نزار قباني، الأعمال الكاملة ٧٧٩.
٤٢- نزار قباني، الأعمال الكاملة ٩٢٥.
٤٣- الأعمال الكاملة ٧٧٦.
٤٤- شعر الأخوين رحباني، ٢١٧.





من أساطير فلسطين والساحل الشامي

د. وليد بو عديلة ❁

تمتد أرض فلسطين والساحل الشامي في التاريخ العميق للبشرية، وقد شهدت الكثير من الهجرات والحروب، واختلفت مجالات التفاعل والتواصل بين أبناء الأرض و الشعوب القادمة المهاجرة، لقد «عرفت فلسطين عبر التاريخ القديم سلسلة من الهجرات العربية والسامية، وسلسلة طويلة من الحروب والغزوات، وسلسلة من الشعوب التي مرّت بها وأقامت فيها أو حكمتها، فقد هاجر إليها، وأقام بها عدد من القبائل السامية..، وجاء

❁ باحث من الجزائر (جامعة سكيكده).

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

كذلك الحثيون والفلسطينيون والبابليون والآشوريون والكلدانيون، وغزاها اليونانيون والفرس والرومان، وحكمها الأبناء العرب».[1] ولعلَّ تلك الأزمنة بكل امتداداتها الحضارية قد أثّرت في ذهنية وقيم الإنسان الفلسطيني، كما أسهمت في تنويع مصادره الثقافية الشعبية، وتعددت المشاعر والأفكار باعتبار التقاء الأديان والحضارات في الأرض الواحدة، وهو ما يحمل مرجعيته الثقافية التاريخية مع الذاكرة الفلسطينية، «يكاد يكون لجميع الأنبياء والرسل الذين جاء ذكرهم في القرآن الكريم صلة بفلسطين، فنبيٌّ يمربها، ونبي يدعو فيها، ونبي يدفن فيها، وعيسى عليه السلام رفعه الله إليه منها، ومحمد صلى الله عليه وسلم أسرى به إليها، وعُرج به إلى السماء منها».[2] فكيف لا تكون أرض الأنبياء وملتقى الأديان؟. سكنت الشعوب السامية فلسطين منذ القدم، والهجرة الكنعانية هي أقدم الهجرات إلى المنطقة، مع العلم أن الكنعانيين هم «أحد فروع الأموريين الذين قد جاءوا إلى فلسطين في زمن لا يقل عن بداية الألف السنة الثالثة التي سبقت ميلاد المسيح، وقد انصهروا تماماً مع من سبقوهم من المهاجرين»[3]، واختار الكنعانيون ساحل بلاد الشام وجنوبها الغربي وفلسطين. ومن المنظور التاريخي فإن الكنعانيين والأموريين من قبيلة كبرى واحدة.

وتأتي الدلائل التاريخية المؤكدة على هجرة الكنعانيين من شبه الجزيرة العربية، فـ «قد كان الفلسطينيون وهم قبائل ينتسبون إلى أصول سامية يقيمون على الساحل الفلسطيني بين غزة وشمال يافا، وعرف الكنعانيون الذين نزلوا ساحل بلاد الشام أمام جبل لبنان في القرن الثاني عشر ق.م باسم الفينيقيين، وسكنوا بين الكرمل ومصب نهر العاصي. وبنوا الحصون والقلاع والسوار يلتجئون إليها عندما يشعرون بقدوم الغزاة أو الفاتحين».[4]

ينقسم الكنعانيون في فلسطين إلى قبائل متعددة[5]؛ منها اليبوسيون وهم الذين بنوا القدس وسموها «شاليم»إله السلام عند الكنعانيين، ومن القبائل «العناقيون» الذين نسب إليهم البطل الأسطوري «عوج بن عناف»، وقد أسسوا الخليل التي كان اسمها «مدينة أربع». أما العمالقة فقد أقاموا جنوب فلسطين في سيناء، ويقال إن «الجرزيين» الذين سكنوا جنوب فلسطين هم من العمالقة، وقد حاربوا مصر..

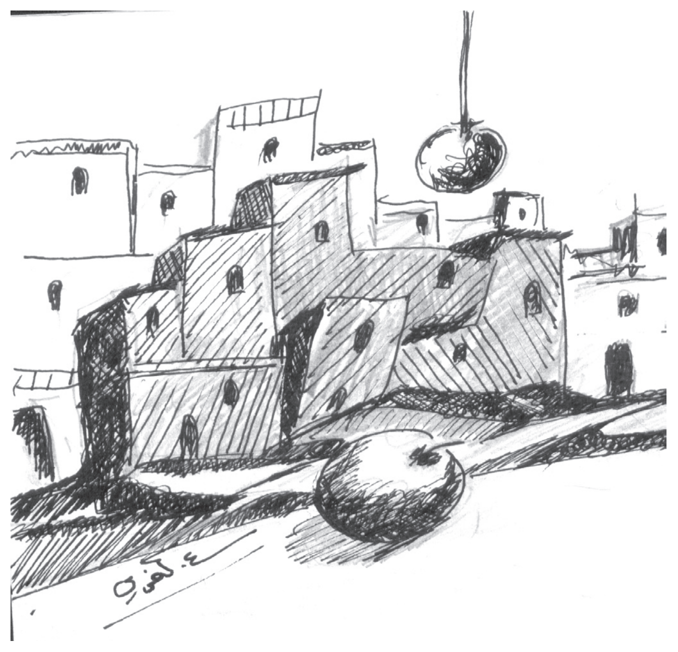
تلك بعض القبائل وهي - مع غيرها- تقدم هوية حضارية كنعانية، تفاعلت مع غيرها، كما أن أبناء شعوبها «طبعوا فلسطين بطابعهم الخاص وأنشؤوا المدن العامرة التي لا يزال معظمها اليوم حتى بقيت تحافظ على اسمها أو حرِّفت تحريفاً بسيطاً، مثل أريحا وبئر السبع وأسدود، وبيت لحم ورفع وعكا وغيرها..»[٦] وقد سكن فلسطين عرب آخرون غير الكنعانيين، أقاموا بين (مصر، فلسطين، والحجاز)، وهم الذين سحبوا يوسف بن يعقوب» من البئر الذي ألقاه فيه إخوته، وينسب إليهم النبي شعيب.

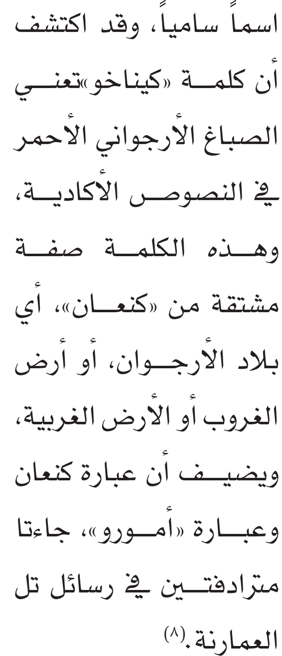
أما «المعنيون» فقد نزلوا فلسطين واستقروا جنوبها. كما أسسوا «غزة» لتكون مركزاً تجارياً لقوافلهم التجارية، والحقيقة إنّ إنشاء المدن ظاهرة عرف بها الكنعانيون العرب في فلسطين، وكانت مدنهم فضاء ثقافياً، وتجارياً لمختلف العناصر الحضارية المحلية والأجنبية، وهذه المدن احتفظت بأسمائها حتى اليوم، ومنها من تغير مثل أسقلون وعسقلان، أشموع (الشموع)، بيئرون (البيرة) جازر (تل الجزر).

وجاء الفتح الإسلامي،(٧) مع عمر بن العاص حيث انتصر على البيزنطيين في موقعه «أجنادين»، ثم زحف إلى الشمال والتقى بالجيش العربي المنتصر في موقعه (اليرموك) عام ٦٣٦م، ثم تعرضت الأرض لحروب كثيرة فيما بعد، مثل معركة «حطين» بين التتار والعرب سنة١٢٦١م، وهكذا امتد التاريخ الفلسطيني منذ القديم إلى الحديث، وتلاحقت الأزمنة خلف بعضها، وصولاً إلى العصر الحديث، وما شهدته فلسطين والشعب الفلسطيني من تطورات مست الأرض والروح والفكر، وامتدت إلى تأثيرات جيوساسية كبيرة وكثيرة، ليس مجالها هذا البحث، فهي تتصل بقضايا تاريخية وسياسية واقتصادية، بل ودينية كذلك، لكن لن تتناولها لأنها ليست من الغايات الكبرى لبحثنا، وهي مرتبطة بالصراع الفلسطيني الصهيوني من جهة والصراع العربي الإسرائيلي من جهة أخرى. لكن قبل هذه الصفحات القديمة أو الحديثة فقد عرفت فلسطين خاصة والساحل الشامي عامة الكثير من الأساطير، وسنتوقف عند بعضها.

الأساطير الكنعانية في فلسطين والساحل الشامي:

يقول ميخائيل نسطور بأن اسم كنعان يعد





اسماً سامياً، وقد اكتشف أن كلمة «كيناخو»تعني الصباغ الأرجواني الأحمر في النصوص الأكادية، وهذه الكلمة صفة مشتقة من «كنعان»، أي بلاد الأرجوان، أو أرض الغروب أو الأرض الغربية، ويضيف أن عبارة كنعان وعبارة «أمورو»، جاءتا مترادفتين في رسائل تل العمارنة.(٨)

والمعنى الذي يجمع عليه معظم المؤرخين لكلمة كنعان هو «أرض الأرجوان»، ويسمي هيرودوت المنطقة الممتدة من فينيقيا وحتى منطقة مدينة كاديتس (غزة) بأنها سورية (فلسطينية)، ويؤكد زياد منى بأن هيرودوت المؤرخ الإغريقي الذي عاش في القرن الخامس قبل التاريخ الشائع لم يشر في كتابة «التاريخ» عندما تكلم عن فلسطين أية إشارة لوجود عبرانيين، أو أية إشارة لكتاب التوراة، بل لم يشر للمملكة داوود سليمان المزعومة، مهما كانت هذه الإشارة، ولو كانت عابرة، ولم يرد في كتابة الإشارة إلى هيكل أورسليم، لكنه يطلق على المنطقة الممتدة من جنوبي مدينة دمشق إلى حدود صحراء سيناء اسم فلسطين.(٩)

ويرى بعض المؤرخين أن تاريخ المدن الكنعانية الفلسطينية يعود إلى سبعة آلاف عام بل يرى أولبرايت أن الكنعانيين كانوا في فلسطين منذ أوائل القرن الثلاثين قبل الميلاد، وقد انتشر أحفاد كنعان، وهو أحد عشر فرعاً في الشام وفلسطين، وقد ذكر اسم كنعان في رسائل تل العمارنة التي تعود إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد.(١٠)

قد كانت المنطقة أرضاً لمختلف الأساطير، كما أن أعياد قيامة الإله المصري «أوزيرس»

تنظم في جبل الكنعانية تحوي الكثير من الأساطير التي تمتد إلى حضارات أخرى، و«بقدر ما تناسبت أو تقاربت الأساطير والتراث الحضاري بعامة لبابل وآشور، أوحضارة ما بين النهرين، الإضافة إلى حضارة العرب القحطانيين من جانب، وبين جيرانهم من الفرس.. من جانب آخر، حدث نفس القدر بالنسبة للحضارتين المجاورتين المصرية القديمة ولاحقتها الحضارة الكنعانية الفينيقية من مدن دول الشام وفلسطين»(١١).

هذه بعض دلائل الامتزاج، وليس ذلك فحسب بل إن الآلهة الفينيقية قد ظهرت حسب بعض البحوث الأثرية، في حفريات قرطاجينية من قبيل الآلهة «بعل هامان» والإله «أشمون» و«أدونيس» والإله المصري «بس» إله مصر وغرب آسيا.

لقد تعرضت الذاكرة الحضارية الكنعانية إلى محاولات الطمس والتشويه، لكن –مع ذلك– بقيت حاضرة في الوجدان وفي الفكر، من خلال ديمومة استمرارية المعطيات التراثية المختلفة، خاصة في ظل الهجرات، أي تغريبة الأساطير الكنعانية (غرب المتوسط)، فقد «نقل اللبنانيون القدماء الكثير من معتقداتهم وطقوسهم وصناعاتهم إلى البلاد التي جروا إليها، أو تاجروا مع أبنائها على الشواطئ الإغريقية والأوروبية وبوجه خاص إلى بلاد الإغريق وأرض مصر القديمة»(١٢) ومن ثم وقع التفاعل الثقافي وتحقق إشعاع الموروث الكنعانيين رغم محاولات التدمير التي استهدفت الآثار الفنية والفكرية، بنسبها إلى حضارات أخرى (الإغريق) أو محاربة المنتميين إلى الثقافة الكنعانية كما فعلت اليهودية والمسيحية السياسية، لكن هذه الثقافة صعدت، وانفتحت على غيرها، وذلك ما تؤكده الكشوف الحفرية التي تؤكد على الحوار الكنعاني الفينيقي نتيجة الهجرات السامية القديمة.

تعتبر الأساطير والحكايات الشعبية نتاج للمعتقدات الشعبية، والفكر الكنعاني ينبض بالكثير منها، انطلاقاً من أساطير أصل الكون، وهي أساطير تستحضر المشاهد الغريبة التي تجمع الهواء والريح، و«نجد فكرة البيضة كقاعدة أساسية للوجود في الفكر الكنعاني عن التكوين ولعلّ تقليد بيضة الفصح ذاته لا يزال في الممارسة مع هذا العيد منذ فصح الكنعانيين الذي يعني ولادة الريح من جديد كل سنة»(١٣)،

فتتحول البيضة إلى عنصر أصل الوجود، كما أنّ الصيدونيين يفترضون وجود الرغبة والضباب قبل كل شيء، ومنها يلد الهواء (المستوى الأعلى للرعي) والريح (النموذج الحي للوعي).(١٤)

وهنا ينطلق بحث أساطير الكنعانيين، في بدء التكوين، حيث تحضر الأسطورة عند الشعب الكنعاني مثل غيره من الشعوب، لأن «كل الشعوب عرفت الأسطورة ولتقت عنها، فهي تراث الإنسان حيثما أو أينما كان، على بعد المكان وعلى اختلاف الزمان يلتقي الإنسان بالإنسان عند نسيج الأسطورة المتشابه الموحد، ومنه يستمد الإنسان عطراً، لا يمحى، يذكره بقدرته على الخلق والمحاكاة والإبداع»(١٥).

كما تحتوي فلسطين الكثير من الملاحم وحكايات الأبطال وأنصاف الآلهة، وهي متصلة بالخلق والخطيئة الأولى، مثل قصة قابيل وهابيل، «وقد ورث بهذه الأساطير والملامح التي ترجع إلى القرن الرابع عشر (ق.م) أسماء الممالك والقبائل المندثرة، مثل: سدوم وعموره وثمود وعاد وتيرا (Tyre) وعرفات.. ولقد عبدت الشعوب الكنعانية الفينيقية عشتر باعتبارها آلهة بحرية طوفت في كل أنحاء العالم الفينيقي البحري أو الساحلي برفقة بوميدون نبتون».(١٦)

كما تحضر الحكايات والرموز الفينيقية المختلفة، لذلك تتوقف الأبحاث التاريخية وأنثربولوجية عند مصر كلما بحثت الشأن الحضاري الكنعاني أو الفينيقي، لأنها كانت مصدراً أصيلاً لهما، فعنها أخذا التراث مع إضافات أخرى، ثم أفاد الحضارة الصليبية والرومانية خاصة فيما يتعلق بمعارف عن الآلهة وخوارق الجبابرة وكما قلنا، إنه من أبرز أساطير المنطقة تلك المتعلقة بالخلق والتي تتحدث عن ذرية كنعان التي جاءت من فينيقيا، وتحضر في الأسطورة علامات النور والريح.(١٧)

وفي الإجمال فإن أسطورة الخلق هذه تنبض بمشاهد الخطايا التي يرتكبها إله السماء، «منها أنه هجر زوجته آلهة الأرض، وحاول قتل أبنائها مراراً وبلا هوادة، لكن ابنه البكر «أيل» ما إن بلغ مبلغ الرجال، حتى اتخذ الإله «توت» أو «نحوت» إله الكتابة الذي عرفه الساميون -فيما بعد- في الملاك جبرائل، كاتباً لأسراره، ثم أشعل حروباً طاحنة ضد أبيه لإهانته لأمه الأرض، و«أيل» هو أعظم آلهة الشعوب

السامية، ومعناه في اللغات السامية القدرة أو القوة»..[١٨] وقد قتل أباه ومزق أطرافه وأعضاءه، ثم حكم ووزع حكمه على أبنائه «عشروت» و«بعلي» و«بوصيدون» وينسب إليه الزواج بجنية مائية هي «عين عبريت» أو «عفريت»، تلك أهم أخباره، إضافة إلى أنه يمتلك أربع عيون: عينان إلى الأمام، وعينان إلى الخلف، عينان مفتوحتان، وعينان نائمتان، وقد ظهر تمثال جالس يلبس قرون الثور.[١٩]

وقد اتسع التأثير الأسطوري الكنعاني الفينيقي إلى الأجواء الأسطورية الإغريقية[٢٠]، وذلك الأصل يضم أساطير أخرى غير تلك التي ذكرنا، مثل: أساطير الإله بعل أو جوبيتر، وأدونيس أو تموز ودانيال(...). فقد أظهرت الحفريات في رأس شمرا أن الإله «عليون» جد «أيل» (تزوج بعشتروت وأنجب منها إلهي السماء والأرض) وهو «أدونيس» إله آسيا الغربية ومسيحها الممزّق المتوارث عن الساميين، و«ليس هناك خلاف كبير بين نصوص رأس شمرا الأدونيسية وبين نصوص تموز البابلية فكلاهما - «أدونيس» و«تموز»- وُلد من أمه التي سحرت نفسها إلى شجرة المر، ومن جذعها ولد، وعشقته «أفروديت»، وخبأته من أختها آلهة العوالم السفلى عند الآسيويين عامة «بروسريين» أو «برسيفون» أو «اللات» عند عرب الجاهلية الأولى»[٢١].

وبعد صراع الأختين حول «أدونيس»، تحكم كبير الآلهة «زيوس» بأن يقضي «أدونيس» نصف العام على وجه الأرض ونصفه الآخر تحت الأرض ومن ثمة تظهر للباحث أسطورة التعاقب بين الجذب والنماء، وفي المقابل يظهر الإله «بعل» - «جوبيير»وهو إله المطر والرعد وأمه آلهة الإخصاب البحرية «عشترة»[٢٢] وكان لبعل ثلاث بنات هن: روح الحصاد (موت)، وروح الربيع (عالين)، و«أنات -أنثى (آلهة المحاصيل العذراء)، وهذه الأخيرة كان يُضحّى لها في موسم الحصاد، وكان الأسد شعارها المقدس وأطلق عليها المصريون لقب «قادس» أو «المقدسة»، وارتبطت الممارسات التجارية الزراعية بالآلهة، كما امتزجت الشعائر والطقوس في المنطقة بالطبيعة، وخاصة بالبحر، ومن ثمة الصيد والتجارة وبناء المدن، و«صيدون» ابن كنعان يدل أصل اسمه على عمليات الصيد، وقد كان للفينيقيين سكان مدينة صيدا إله يسمى

«صيدا».

ويستمر حضور الطبيعة في الأساطير والملاحم الكنعانية، وهو شأن كثير من الأساطير عند مختلف الشعوب، حيث يتخذ عالم الطبيعة مساحات كبيرة من منظور الفكر الأسطوري.[٢٣] وفي هذا السياق فقد جمع الموروث الكنعاني الفينيقي بين النخلة (اعتبرها الشاميون شجرة الحياة في جنة عدن) وبين آلهة الإخصاب الجنسي عشتروت أوعشتار، وهي: «إلهة سلمية كنعانية، ذات نفوذ كبير في التاريخ القديم، بجانب من معبودات الصيدونيين في زمن سليمان، ذُكرت في ملحمة كرت الأوغاريتية في ملحمة بعل.. وعشتارت في ملاحم أوغاريت توصف بالجمال وجمالية العدالة والتوازن بين البعل وخصومه»،[٢٤] فالنخلة هي شجرة الميلاد (شجرة العائلة) عند شعوب غرب آسيا لذلك نجد هذه الشعوب تربط بين عمليات إخصاب النخيل (التلقيح) وبين الموت ثم القيامة (الولادة والاستمرار)، واتسع حضور النخلة إلى الميثولوجية الإغريقية، من خلال ولادة الآلهة «أبولو» و«نبتون» و«ذيلين» تحت نخلة..

ونتيجة تلك التفاعلات المختلفة التي شهدتها المنطقة الواقعة بين الدجلة والنيل، وما أنتجته من أساطير، يجب أن ترتفع الأصوات العلمية لبحثها ودراستها منهجياً، فـ «إذا كان قوام الثقافة السامية -الحامية هو الأسطورة والنزوع الصوفي، فإن الأساطير ينبغي أن تنال اهتماماً كبيراً من الفكر العربي المعاصر، ولذا فإن مما هو جدير بالأهمية أن نعرف كيف نفسر الأسطورة وكيف نربطها بشرطها التاريخي، وكيف نراها على نسق تسلسلي مع حركة الثقافة التي أطلقتها[٢٥]، وهو ما يتحقق من خلال فتح أرشيف الذاكرة الثقافية ودراسته في الحفريات وفي النصوص وفي مختلف وسائل نقل المعرفة، فذلك يساعد على تفسير المنظومة القيمية والمواقف الاجتماعية، خاصة في القضايا المتعلقة بالخصب والجذب أو الحياة والموت.. وارتباطاتها بالحيوان والنبات أو الإنسان والآلهة.

كما هو الشأن عندما نبحث في حضور الطائر «فينيق» في المنطقة وقد وظفه الشعراء العرب، وهو طائر أسطوري، ريشه لامع، وألوانه براقة، عندما يشعر بدنو أجله يبني عشّاً من نباتات عطرية وأعشاب

شعرية ويستقر وسطها بعد أن يحرقها، ومن رماده يولد فينيق آخر يسارع في أخذ بقايا والده،[٢٦] و«إن احتفالات موت فينيق وقيامته الهائلة كانت تقام بمدينة بعلبك لمشاهدة شعائر موت واحتراق ذلك الطائر، ثم قيامته المظفرة، حيث كان يرتقي الأعشاب العطرية ارتقاء عرش الخلود، فتحرقه أشعة الشمس على مرأى من الملوك والعظماء.. ولا يلبث قليلاً حتى يحيا ثانية من بين رماده، ويطير مجدداً شبابه السماوي الخالد».[٢٧]

وكان للكنعانيين الآلهة الكبرى مروّضة الحيوانات المفترسة وهي «كيبابا»، وقد صارت «كيبية» عند الليديين و«سيلية» عند الإغريق، وقد كان لها الأثر الكبير في عبادة الآلهة اليونانية «ديمتير»، ليس ذلك فحسب بل نجد آلهة الخمر «ديونيسيون» عند اليونان تمتد إلى أسطورة آلهة الخصب والزراعة والجفاف، و«عند البابليين والسومريين كان هناك «دوموزي» أو «تموز» زوج عشتار الذي اختطفته مردة «أورالو» الجحيم.. وعند الكنعانيين كان هناك الإله أدوني «أدونيس» الذي صرعه خنزير برّي، ثم بكيت عليه عشترت حتى عاد إلى الحياة في كل ربيع لتخصيب الأرض، وعنهم أخذ اليونانيون مجموعة هذه الأساطير»[٢٨]، ومعها قيم الحياة والخصب التي تتجدد في كل ربيع عند الشعوب.

إن الباحث في التاريخ الفلسطيني القديم وجوانبه الملحمية ومرجعياته الأسطورية لا يستطيع أن يغفل تواريخ وملاحم وأساطير شعوب المنطقة العربية، فهي تشكّل حلقة واحدة، تكاد تكون متوحدة لا مختلفة، لأن السير والملاحم والقصص والطقوس.. التي توجد في فلسطين، يمكن أن توجد في مناطق أخرى، من مناطق التراث العربي السامي رغم الاختلافات الجغرافية واللهجية بين الشرق البابلي الآشوري (العراق)، والغرب الكنعاني (الشام، فلسطين) والجنوب (الحجاز واليمن)، وقد انتقلت إلى فلسطين بعض الأساطير السومرية، بعد أن نقلها الكلدانيون والبابليون الآشوريون إلى العراق، و«كشفت الدراسات الأسطورية المقارنة عن أن هناك أساساً أسطورياً عقائدياً بل لاهوتياً مشتركاً لأغلب هذه الشعوب السامية منذ أكثر من ألفي سنة قبل الميلاد، سواء فيما بين النهرين، أو في مكة واليمن والشام وفلسطين،[٢٩] وتلك الآفاق المعرفية تهتم بها الأنثروبولوجية الثقافية، كما ينفتح

عليها البحث الأدبي الذي يتناول الأساطير في الأدب (بمختلف أنواعه)، بل إنّ تلك الآفاق هي حقل معرفي لمختلف الأبحاث والدراسات في العلوم الإنسانية.

ومن الأساطير المشتركة أسطورة الإله بعل[٣٠] والذي وظّفه بعض الشعراء، فمع مجيء الساميين إلى فلسطين اكتشفوا وجود أماكن مقدسة كثيرة فأطلقوا على كل منها (الأشجار، الجبال، آبار الماء..) اسم بعل، وقد توحد هذا الإله مع الإله السومري «مردوك» وهو نفسه الإله «هبل» عند قريش في مكة، وكان العرب قد أقاموه على بئر ماء، في إشارة إلى ارتباطه بالإخصاب، وقد حضر «بعل» في الملاحم الشعرية الكنعانية بصفته إله السماء وقد أُغري بالنزول إلى العالم السفلي، واحتجزته الشياطين، لكنه قاومهم، واستطاع أن يعود ثانية إلى عالمه العلوي..

إذن حضر «بعل» وحضرت أساطير وممارسات فولكلورية كثيرة في فلسطين، تتعلق بالغيب والدهر والقدر والأحلام، وكذلك خرافات الجن والشياطين والعفاريت والرياح، وقد نسب الساميون الأوائل الكثير من الأمور إلى الجن مثل انحدار البناء من أمهات أجنبيات، وهو عنصر يحضر عند بعض القبائل العربية (جرهم)، وقد ورث الكنعانيون عن السومريين أسطورة العفريتة الشيطانية «ميلي» وهي تسكن الخرائب والأماكن المهجورة، وهي «ليليث» عند البابليين، وتعني في الكنعانية «أناث» ومفردها أنثى، وقد تحول اللفظ إلى «ليل» و«ليلى».

ومن الأساطير الموجودة في المنطقة، أسطورة غواية الشيطان للمرأة، سواء كانت زوجة الإله أو زوجة البطل، وهي تتجلى في أغلب أساطير الخلق السامية[٣١]، كما وقع في أسطورة الطرفان عندما استعان الشيطان بزوجة نوح، كما أنّ الشيطان وسوس لامرأة لوط.. وتستمر العلاقة بين المرأة والشيطان كلما تعلّق الأمر بأساطير الخلق الأولى.

عرف الكنعانيون «طاووتو» إله الحكمة، وقد وُجد في نصوص «إيبلا» الكنعانية، وهناك «أل» وهو يمثل كل قوة محسوسة خلف الكائنات (الأشجار، الأنهار، الجنوب..)، وجُعل «أيون» مختصاً بالزمن، والحقيقة أن أساطير الكنعانيين وآلهتهم عرفت الهجرة «حيث إنّ العزّى العربية في ذاتها عشتار الفينيقية وهي تقترن بنجمة الصبح،

وتدعى أيّا «الزهرة»، فإننا نجد شهادة مادية على التسمية في شكل إحدى برك رأس العين المثمنة الشكل، وقد أنشأ المهاجرون الصوريون مدينة في شمال إفريقيا سموها «عوزي»،[٣٢] كما عرف الكنعانيون عبادة النصاب وتقديسها كرموز، وهي في معبد «جبيل» وفي معابد أخرى وتعرف بـ «بيتيل»، أي مسكن الإله.

من آلهة كنعان نذكر: صيدو - رشق- بعلة - قدش- ميتي - عناة - صافون.. كما نذكر بأن بعض الأشجار كانت مقدسة وتدخل ضمن الممارسات والطقوس الكنعانية، وقد اتخذ الكنعانيون من معبد «إشمون» في جوار مدينة صيدا معبداً للاستشفاء عن طريق الصلاة والتضرع للإله.

ولهم «عليون» (عليان - العلى) كإله مالك السموات والأرض، ورد كصفة للبعل في ملاحم أوغاريت، وترجمه الإغريق باسم «زوس»، وله تسميات أخرى كثيرة، وهو «الإله العلي في أساطير الكنعانيون، زوجته بيروت، وكانا يسكنان في جيل، وقد أنجبت له أطختون (السماء) وأدمة (الأرض)، وقتل في صراعه مع الحيوانات البرية».[٣٣]

ونجد للكنعانيين الآلهة «برسفون»، وهي ذات الذراع البيضاء، عند الرومان هي «بروصريين» ابنته زوس من «ديميترا» إلهة العالم السفلي، توصف عند الكنعانيين بأنها ماتت وهي عذراء، واعتبرها الإغريق من عالم الموتى، وبأنها تمضي ثلث السنة مع «بلوتو» في العالم السفلي والثلثين مع الآلهة، وهي تمثل دور بعل الأوغاريتي.[٣٤]

أما «حورا» فهي من أقدم الآلهة عند الكنعانيين، واسمها بالعربية يعني «البياض»، وهي ذات عيني بقرة، لها ذراعين بلون البياض، ذات حذاء ذهبي، وكان أبناء أرغوس يقيمون لها طقوساً قرب ينبوع «كناتوس»، حيث يقال إنها تغتسل كل سنة فيه، فتعود لها عذريتها، وفي ذلك إشارة إلى الزواج الإلهي، المقدس عند الكنعانيين.

وتحضر طقوس التضحية بالأطفال عند الكنعانيين بالإضافة إلى التضحية وتعذيب الذات والتكفير عن الخطايا، وهي طقوس تتخذ أبعاد أسطورية عقائدية،[٣٥] كما اهتم الكنعانيون بالأنوثة، و«عبروا عن سلطة الأنوثة بامرأة فوق ظهر أسد، وتحمل زهرة بيدها تروضه بها، ورسموا الأمومة بامرأة تعتصر ثديها، والخصب بسنابل قمح تنبت فوق كتفي رجل، والمطر بطائر كبير له رأس

أسد للتعبير عن الرعد، وإله المياه العذبة له رأس خروف وبـدن سمكة»[٣٦]، وقد قدّسوا «الحيّـات» واعتبروها رمزاً للخلود والتجدد السنـوي، وهي تتخـذ شكلاً دائريـاً تبتلع برأسها ذنبها للدلالـة على التجدد الذاتي، وهي تحضر في ميثولوجيـا الطب والشفاء في كثير مـن أساطير الخلود في الحضارات القديمة.[٣٧]

وفي الختام

تلك بعض الأساطـير الكنعانية، حاولنا تقديم خصائصهـا وتفاعلاتها مع أساطير الحضارات الأخـرى، خاصة عند الشعوب السامية، ولم تتوقف عنـد أساطير وملاحم وقصصـ أخـرى، كما هو الشـأن بالنسبة لتأثـير الطوطـم في الشعـوب السامية،[٣٨] ويمكن للباحث أن يقف على الكثير منها في الموسوعـات والكتب المتخصصة في أساطير وآداب الحضارات القديمة، لقد أردنا لهذا المقال أن يكون وقفة عند بعض خصوصيات الأرض والذاكرة وفلسطين، بخاصة لمكانتها الدينيـة وآثارهـا العربيـة وأهميتها عند الحضارات القديمة والحديثة، ولذلك تأثير كبير على الهوية وفي عبقرية المكان التي هي من عبقرية الإنسان، وعلى المستوى الرمزي والمادي، وعلى الفنون والآداب.

الهوامش

١- عدنان علي رضا النحوي: ملحمة فلسطين، مؤسسة الإسراء، الجزائر، ط٢، ١٩٩١، ص٢٣.

٢- المرجع نفسه، ص٢٥.

٣- ظفر الإسلام خان: تاريخ فلسطين القديم، دار النقاش، بيروت، ط٣، ١٩٨٦، ص٢٨.

٤- محمد سلامة النحال: فلسطين أرض وتاريخ، دار الجيل للنشر، عمان، ط١، ١٩٨٤، ص١١٦.

٥- للتوسع انظر المرجع نفسه، ص١١٧وما بعدها.

٦- المرجع نفسه، ص١١٩.

٧- للتوسـع حول تاريخ فلسـطين من الفتح الإسلامي إلى الحروب الصـليبية، ينظر ظفر الإسلام خان: تاريخ فلسطين القديم، ص١٣٥،وما بعدها.

٨- ميخائيل نسطور: أصل تسمية كنعان، ترجمة فاضل جتكر، منشورات دار قدمس، دمشق، ٢٠٠١ ،ص ١٩-٢٢.

٩- زياد منى: تاريخ فلسطين القديمة، دار قدمس ،دمشق، ٢٠٠٤، ص١٨٠.

١٠- حسن الباش: الميثولوجا الكنعانية والاغتصاب التوراتي، دار الجليل، دمشق، ١٩٨٨،ص ١٠.

١١- شوقي عبد الحكيم: علمنة الدولة وعقلنة التراث العربي، دار العودة، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٧٩، ص ٧٢.

١٢- يوسف الحوراني: مجاهل تاريخ الفينيقيين (من خلال سانخونياتين البيروتي وفيلون الجبيلي) دار الثقافة، بيروت، ط١، ١٩٩٩، ص ٨٠.

١٣- المرجع نفسه، ص ١٩.

١٤- انظر المرجع نفسه، ص٣٥.

١٥- فاروق خورشيد: أديب الأسطورة عند العرب، جذور التفكير وأصالة الإبداع ،المجلس وث أ ف، الكويت، ٢٠٠٢، ص ١٩.

١٦- شوقي عبد الحكيم: الفولكلور والأساطير العربية، ص٥١.

١٧- للتوسع ينظر شوقي عبد الحكيم: الفولكلور والأساطير العربية، ص ٤٥.

١٨- المرجع نفسه، ص٤٦.

١٩- انظر طلال حرب: معجم أعلام الأساطير والخرافات، دار الكتب
بعلمية – لبنان، ط١، ١٩٩٩، ص٨٦.

٢٠- للتوسع ينظر عز الدين الخير: أصداء عربية في الأسطورة الإغريقية، تصدر عن وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، سورية، عدد ١٩٧، تموز، ١٩٧٨، ص١٤٣،ومابعدها.

٢١- شوقي عبد الحكيم: علمنة الدولة وعقلنة التراث العربي، ص ٧٧.

٢٢- انظر طلال حرب: معجم أعلام الأساطير والخرافات، ص ٢٧٧ وما بعدها.

٢٣- للتوسع حول عالم الطبيعة من المنظور الأسطوري، ينظر: أحمد إسماعيل النعيمي: الأسطورة في الشعر العربي قبل الإسلام، سينا للنشر، مصر، ط١، ١٩٩٥، ص١٣٧ ومابعدها.

٢٤- يوسف الحوراني: مجاهل تاريخ الفينيقيين، ص ٩١.

٢٥- يوسف يوسف: قراءة في التكوين البابلي، مجلة المعرفة، تصدر عن وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، عدد ١٩٧، تموز ١٩٨٧، ص ٨١.

٢٦- انظر طلال الحرب: معجم أعلام الأساطير والخرافات، ص ٢٠٢.

٢٧- شوقي عبد الحكيم: علمنة الدولة وعقلنة التراث العربي، ص ٨٧.

٢٨- عز الدين الخير: أصداء عربية في الأسطورة الإغريقية، مجلة المعرفة، مرجع سابق، ص١٥٠.

٢٩- شوقي عبد الحكيم: الفولكلور والأساطير العربية، ص ٣١.

٣٠- طلال حرب: معجم أعلام الأساطير والخرافات، ص ١٠٧.

٣١-للتوسع ينظر شوقي عبد الحكيم:

الفولكلور والأساطير العربية، ص ١٣٣ وما بعدها.

٣٢- فاروق خورشـيد: أديب الأسـطورة عند العرب: جذور التفكير وأصـالة الإبداع ،المجلس و ث، ف، أ، الكويت، ٢٠٠٢، ص ٥.

٣٣- طلال حرب: معجم الأساطير والخرافات، ص ٢٢٩.

٣٤- انظر يوسف الحوراني: مجاهل تاريخ الفينيقيين ، ص٨٣.

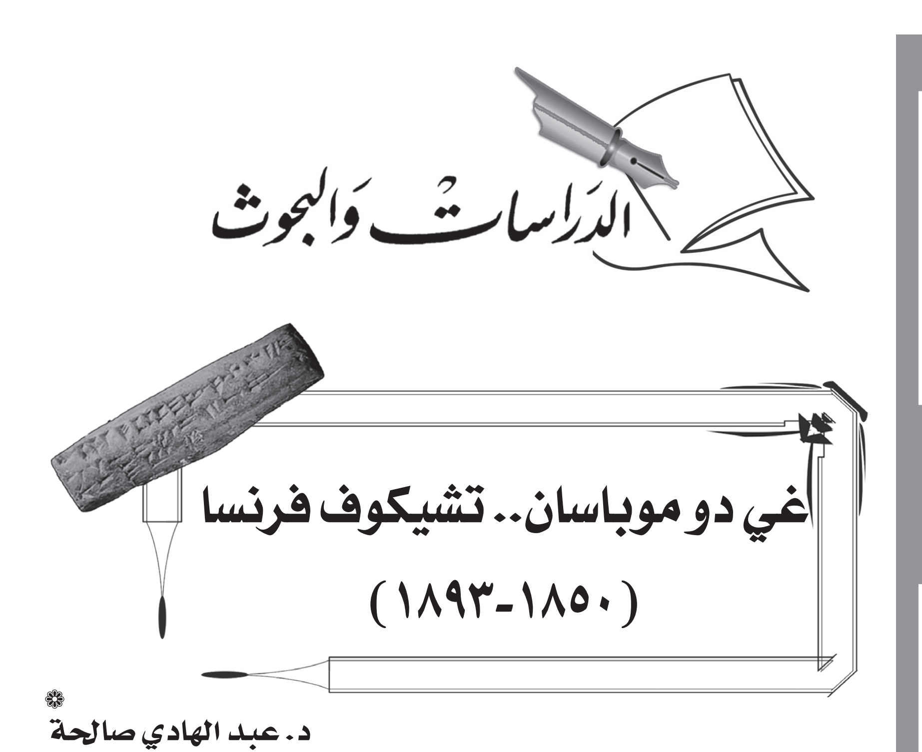
٣٥- للتوسع حول الأسطورة العقائدية، ينظر فاروق خورشيد: أديب الأسطورة عند العرب، ص ٢٥ ومابعدها.

٣٦- يوسف الحوراني: مجاهل تاريخ الفينيقيين، ص ١٣٤.

٣٧- للتوسع حول أساطير الطب والشفاء، ينظرخزعل الماجدي: ميثولوجيا الخلود، دراسة في أسطورة الخلود قبل الموت وبعده في الحضارات القديمة، دار الأهلية ،الأردن ، ط١، ٢٠٠٢، ص٢٧ ومابعدها.

٣٨- للتوسع ينظر محمد عبد المجيد خان: الأساطير والخرافات عند العرب، دار الحداثة، لبنان، ط٣ ،١٩٨١، ص٦٤.





د. عبد الهادي صالحة ❋

ولــد موباسان في فيــكانFecamp أو في مكان قريــب منها ، في قصر ميرومينيــل ، من أب ضعيــف ، وأم متسلطة ذات حساسية مرهفة ، هيمنت بقوة على ابنها الذي يدين لها بهذه الحساسية والميل للكتابة وهوى القراءة. كانــت أمه تشجعه وتهتم به منذ بداياته الأدبية الأولى، وتوصي به لصديقها غوستــاف فلوبير [1]، وكانت تجمع له حكايا ليستخدمها كمواضيع لقصصه، وتصحــح تجارب كتبه؛ ورث موباسان مــن أمه أيضاً ميلها للبؤس وللتعاسة،

❋ كاتب ومترجم وأستاذ جامعي سوري
العمل الفني: الفنان علي الكفري.

وطابعهـا الكئيب القلـق، وعصابها. كانت لـور موباسان امرأة مريضة تعيش متنسكة، وتحـاول الانتحـار بخنق نفسهـا بشعرها الطويل. وكان موباسان يحب الحياة، بيد أن شعوراً بالشيخوخة وبالانحطاط وبالسقوط المحتـم وبالسـأم العميـق وبالتفتت الذي لايمكن الشفاء منه كان يلازمه باستمرار.

أمضـى موباسـان فترة شبابـه الأولى – كتلميـذ هـارب – علـى شاطـئ البحر النورماندي ذي الشاعرية الفظة التي تركت أثرها في نفسه إلى آخـر أيام حياته. عاش موباسـان أزمـة ١٨٧٠ – ١٨٧١[٢] وخلال عشر سنوات، كموظف عادي، يقسم ساعات فراغه بـين مباريات التجديـف للمراكب، وتدريـب قاس علـى يد غوستـاف فلوبير، وعندما بلغ الثلاثين، اكتملت ثقافته تقريباً، وفي العـام نفسه نشر روايـة «بول دوسويف Boule de suif» التي فرضته كاتباً متميزاً أمام الجميع. وتروي هذه الرواية قصة امرأة بغي يقنعهـا أناس شرفاء، لينقذوا حريتهم، بتسليـم نفسها إلى رجل بروسـي، ومن ثم ينبذونها من مجتمعهـم. يمتاز أسلوب هذه القصـة بأنه تقريري لايبـالي بالواقع، ومع ذلك شق موباسـان طريقه. وقد ترك موت أستاذه فلوبير المفاجئ أثراً مؤلماً قطع المعين الذي يمده ويوجهه.

أراد موباسـان أن يصبـح اسمـه الذي ورثه عن أبيه اسـم كاتب شهير، ينبذ الفقر بمال ينفقـه ويضيعه على ملـذات مترفة، وبذلك يستقطـب ود وحب النساء جميعهن ولذلك عزف عن الزواج لأنه بنظره يقضي علـى الإبداع وانصب علـى الكتابة، فكتب خـلال اثني عشر عامـاً مجموعة قصصية وست روايـات وثلاثة مجلـدات من حكايا الرحلات ومئات الأخبار. كل هذا في وسط حياة مدنية تتخبـط بالحوادث. وربما كان سبـب هذا النشاط المحموم هاجسه بنهايته المبكرة. ففي كانون الثاني ١٨٩٢ توقفت آلية الحياة القوية عن الإبداع، وبعد احتضار دام ستة عشر شهرا في مشفى الدكتور بلانش في اوتوي، مات غي دو موباسان أثر شلل عام.

يتمتـع موباسان – الأستـاذ الذي كرس نفسـه لفـن القصة – بـثروة أدبية متميزة إذ اعتـبره النقـاد غير الفرنسيـين القاص الفرنسـي الوحيد دون منـازع، وفي الوقت نفسـه مؤسس مدرسـة دولية– من جوزيف كونراد، إلى إسحاق بابل، حيث ينتسب كتاب عديدون لمنهجه – الذي لم تقدره فرنسا حق قدره، ونظرت إليـه منذ عام ١٩٧٠ ككاتب طبيعـي موهـوب تربى في ظـل غوستاف فلوبير واميل زولا[٣]

ملاحظـات دقيقـة، أفـكار سطحية، أسلوب واضح سلس، إنشاء حسن التوازن، تلـك هي الميـزات التـي ينسبهـا التقليد الجيلـي إلى نتاجه، لكن هـذه الكتابة التي تتجـاور فيهـا العفوية والسهولـة يحركها شعـور مأساوي لم يعد «شـر العصر»، وهذا الإنتـاج يشهد بأهميتـه الكمية على تحول تاريخي: حيـث تبدو شخصيـات قصصه ضحية المصير نفسـه، وكأنها قابلة للتبادل فيما بينها، وهذه علامة نهاية التيار الفردي للقرن التاسع عشر.

ومع موباسان تظهر في الأدب الفرنسي غنى مـواد الحكايا، لكـن المواضيع نفسها تتكرر دائما:استحالـة الاتصال بين الناس، الحب التعيس لكائنات مولعة بالمثال وأخرى حبيسـة حواسها، تفـكك العائلة، الحرب، الجنون، المـوت، والنقد القاسـي لإنسانية أنانية، قليلـة الذكاء ومنافقـة، والأوساط هي نفسها تقريباً: الريف النورماندي الذي يقطنه فلاحـون وريفيون نبلاء، وباريسيون حيث يتجاور الناس دون أن يعرفوا بعضهم وهم موظفـون صغار وسيـدات محترمات وبغايـا. ولاتختلف الشخصيـات إلا حسب انتمائها إلى طبقة اجتماعية: أغنياء، فقراء، نبـلاء، برجوازيون، نسـاء ضعيفات، أزواج مخدوعـون، عشـاق متطفلـون.. ومآسيهم التافهـة لا تكفي لتميزهـم ولتفردهم عن الآخريـن بصفـات خاصة وهكـذا تتراكم الحكايا في سلسلة يمكن مدها إلى ما لانهاية: والدليل على ذلـك فقدان المجموعات التي تحتـوي كل واحدة منها علـى انتاج الأشهر التـي سبقتها. ففـي «الصديق الجميل Le bel Ami» (١٨٨٥) التـي تحكـي قصـة صعود «رجل وغد» يصور لنا موباسان لوحة كبيرة للمجتمـع الباريسي. لكـن في «جبل أوريـول Le Mont OrioL١٨٨٧»، «بيير وجان Pierre et Jean ١٨٨٨»، «قوي مثل المـوت Fort comme la mort ١٨٩٥»، «قلبنـا Notre coeur ١٨٩٠» يصور لنا الكاتـب قلوبا مدمرة يدرسهـا بدقة، تبدو وكأنها تريـد أن تنافـس نفسانية «٤» بول بورجيه«٥».

حكايا اليأس:

عاشـ موباسـان مثل كل جيلـه متأثراً بتجربة الحرب وخاب أمله في عصر تستقر فيه القـوة المالية، لايستطيـع أن يفلت من التشاؤم ويبقى مخلصاً لـ«جمالية الملاحظة» عند أستاذه غوستاف فلوبير، يقتنع موباسان أن الأمل فخ، هـذه الأطروحة التي يكررها بعنـاد في حكاياته المرتكزة في معظمها على المخطـط نفسـه. يأمل الإنسـان بالتحرر، بالخروج من مجال مغلق، أو من وضع خانق

ولكن ليس باستمرار، على الأقل يوم واحد، ثم عندما يظن أخيراً أنـه يتنفس يعـود الملزم ويضيق خناقه عليه بوحشية، وإذا لم ينته الأمر بالموت يجد الإنسان نفسه مقيـدا بالتزام مخنـوق بالديون وغارق بالحزن والكآبة.

هذا القدر الموجود والحاضر في كل مكان من مؤلفات موباسان والذي يمحـو إرادة الفرد يبقى غير محـدّد: لايمكـن فهمه مثل سلطـة المال، ولايمكـن اختراقه مثل قوة الدوافـع التي تتصرف بطـرق لاواعيـة، بيـد أن هذا القدر اللاعقلاني - حسب رأيه - يعقلنـه كاتب يسعى أن يكـون واقعياً. إن تشاؤم موباسان لاينتـج فقط من ملاحظة المجتمع الـذي فقد فيه الإنسان كل سيطرة أو تأثـير على واقع اقتصـادي لم يعد قادرا على التكيـف معه، بل يجب عليه أن يكتفي بإرضـاء شهواتـه الوقتيـة أو بطمع دنيء. كتـب موباسان إلى فلوبير في حزيران ١٨٧٨ يقول:

«تمـر في خاطـري أفـكار واضحة أن لاجـدوى من الحيـاة، وأن الخلق يعاني من شـر لا واع، وأن الفراغ يلف المستقبل (مهما



يكـن)، مما يجعلني أشعر بـلا مبالاة تجاه الأشياء جميعا».

غالبـا ما نجد في كتابات موباسان عالماً مفككاً ومهدماً ومفتتاً أو ململماً في قصصه السبع.. لقد احتقر موباسان الجنس البشري فالحيوان الإنساني مـن بين كل الحيوانات هو أبشعها:

«الشخصيـات التي يخلقها والتي تعاني من عجز شبه تام للاتصال فيما بينها تهذي وهـي محرومة من خط ناقـل مسير، تعيش عـبر متاهة عالم عـدواني وعبثـي وبدائي

وتجتر باستمرار بقايا سأم رومانتيكي يسبب لها غثياناً وجودياً حقيقيا» (٦)

في الواقع حياة هذه الشخصيات متقلبة ومائعة مثل العالم الـذي تعيش فيه. تخاف من الخوف، كما يقول أحد أبطال قصصه، زد على ذلـك أن الأطروحـة الكبيرة لنتاج موباسان التي تقول: (إن الأمل فخ) تساندها أطروحـة فكريـة – المنطق فـخ – والتي يتطلـب البرهنة عليها حكايا يمكن تشبيهها إلى دراسات ومقالات في اليأس العقلاني.

يرسـم موباسـان في كتاباتـه الحـب وانفعالاتـه وثوراتـه وآلامه. إنـه يعبر عن جوهـره الخالد في ملاحظـة حديثة جدا تتبـئ نوعا مـا بالتحليل النفسـي. كما أن موباسـان يعطـي في كتاباته مجـالاً واسعاً للرغبة والشهوات الحسية. الرغبة الحسية تبدو له كعامـل حاسم وجوهري في الحب. إنه يدرس- بوجه خاص – مأساة الزوجين، والخلافـات الأخلاقيـة والجسديـة التي يتصارع فيها هوى المرأة ونزواتها مع طيش وعبـث وتفاهـة الرجل. هـذا الرجل ليس جميـلاً في قصصه ورواياتـه ومسرحياته، بل هو خليط مـن الغرور والخفة والضعف والفظاظة.

لا يشـوه موباسـان الواقع، بـل يقدمه ويعرضـه بكل دقة وأمانـة، وتمتاز قصصه ورواياته بدقة الملاحظـة والبساطة القوية للأسلـوب، غير أنـه في كل هـذا لا يوجد عنده فلسفة عميقة؛ لقد اعتنق موباسان في الوسط المحيط مذهب الانسياب للمظاهر. إنه يرى الإنسان بشعا بما فيه الكفاية، قليل الذكاء متوحشـا في ميوله وشهواته، متطلباً ومتشدداً في أنانيتـه، قوياً أو مختلاً حسب طبعه ومزاجه وظرفه وبقوة أو بدهاء، يركض وراء اللـذة أو السعـادة: الرضـا الجسدي والمنافع والملذات المادية تبقى دائما أهداف وأغراض هذا الجـري. في هـذه النظرة للإنسـان لاشـيء منتظم ليسـ هناك رأي مسبق: لقد نظـر موباسان إلى نفسه وحكم عليها في عطشها للرفاه، للملذات، للامتناع الفعـال لكيانه الجسدي والحسي (٧)، ونظر وحكـم على عـدد من الأفـراد، الفلاحين والبرجوازيـين الذين لم يجـد عندهم شيئاً آخر. لقد رسم موباسان لنا نماذج سوقية.

يتكلم موباسـان في كتاباته عن الإنسان بكليتـه، إنه يتكلم عن أجسـاد، لكنه يتكلم أيضاً عن أنفس وأرواح. ولايبدي رأيه حول سبب الظواهر، ولكن يكفيه أن يتفق كل الناس علـى أنظمـة الوقائع المشار إليهـا بأسماء الأفـكار والرغبـات والمـودات والإرادات. إنـه يعطي للطبـع مكانه ولكـن ليس لديه مطلقاً أي ميل وربما القليل من القدرة على

الدراسات النفسية الدقيقة، ولكن لا يذهب أبداً إلى حد كتابة الرواية النفسية الصرفة. إن طريقة موباسان هي في الحقيقة طريقة توفيقية، يعبر من خلالها عن القوى والدوافع والحوافز والقوى الخاصة للوعي عن طريق مظاهر الحياة بالحركات وبالأفعال. كل شيء عنده واقعي وصلب. لاشيء منطقي صرف.

ويمكن القول بأن لغة موباسان هي لغة وجودية، الإنسان «مهمل» في عالم لا صلة له به، يعني في عالم الفراغ والفوضى والعدم. إنه لا يصور الحياة بل يصور الرعب، الضيق، الحقارة، الموت الخفي للحيوان، الإنسان الفاشل في تحقيق سعادته. لقد رسم موباسان في أدبه الشفقة الواسعة في عالم – حسب رأيه – غير محكم عبثي ودون غاية، مليء بالأفخاخ للإنسان. لقد كتب موباسان أسطورة عصره، تلك الأسطورة التي لا تزال مليئة بالمعاني الكبيرة. ويمكننا أخيراً القول مع برانسيس مارسي بارييباترا: «موباسان هو كاتب رومانسي متنكر بزي واقعي. هذا هو مفتاح الحزن المذهل الذي تتضح بها مؤلفاته» [٨]

باريس:

لقد رسم موباسان ببراعة عظمة وانحلال باريس ومجتمعها المتفسخ بأخلاقه المنحطة. باريس تلك العاصمة الأسطورية للنجاح هي أيضاً في مؤلفاته عاصمة الرذيلة. إن تألق وروعة وعظمة العاصمة الباريسية يشرح ويفسر التضارب والاختلاف الذي يوجد بين باريس والمناطق الريفية الفرنسية في «نهاية العصر». باريس التي وصفها ستندال بـ «الأشياء الكبيرة» (الأحمر والأسود) [٩]

باريس – كما يقول موباسان – هي متاهة غنية بالوعود وأيضا بالأفخاخ. بعد عام ١٨٨٥ يعرض موباسان – القارئ الكبير لشارل بودلير – بشكل أساسي إغراءات هذه «المدينة النجسة»، المليئة بالمخدرات والدعارة وانتهاك الأخلاق ومخالفة القانون والانتهازية والوصولية. يستغل موباسان من خلال باريس قضايا مختلفة منها مثلاً: التعرض للشبهات التي تنغمس فيها الحياة الفرنسية. كما يركز على وسيلتين اثنتين للصعود الاجتماعي: المال والنساء، فباريس – كما يصورها موباسان – مجال جذاب ومغر ولكنه خطر حيث لا تهدف فيه المرأة المتمدنة إلا إلى اجتذاب وإغراء الرجال بسحر خدعها وحيلها.

باريس هي المدينة التي يفقد الإنسان فيها ذاته؛ كثير من الفنانين يتحولون فيها إلى متملقين وينحرفون عن حبهم للجمال لمصلحة هذا المعبود الذي يمارس قوى

جـذب كبيرة في معبده الباريسي: المال يقود كل شـيء، إنه المحـرك الرئيسي في كتابات موباسان، كما هو الأمر عند بلزاك. إنه عالم يعمل فيه المال ويقتـل. لقد ارتاد موباسان صالونـات العاصمـة، وأدان النفاق والرياء الاجتماعـي، وأظهر تفـكك الآلية القاسية لأناس المجتمـع، وكشـف عـن الكوميديا الإنسانية، وربط بشك خفي وسري المصطنع بالمثالي.

لقـد رسـم موباسان بحس الملاحظة المرهف والقـوي عنده لوحـة للباريسيين: أصحـاب الـزوارق وأصحـاب الحوانيـت والموظفون الحقيرون، وخصوصاً الصحفيين المنحلـين والمتمدنـين المتوريـن فيهاجـم ويفضـح تحالف الصحافة والمال والسلطة. في الحقيقـة إن نجـاح بـول دو سويـف «Boule de suif» يدشن العمل الصحفي لموباسان كمدون أخبار ذي شهرة، شارك في مجلـة «Gil Blas» وفي «Le Gaulois» وفي «L'Echo de Paris» ثـم في «Le Figaro»، عنـده إذاً خبرة بعالم الصحفيين ومدوني الأخبار والمخبرين الصحفيين الذين يصفهم دون مجاملة.

بالتأكيد هذا العـالم هو عالم مغلق تملؤه الوساوس والخدع والغش. عالم تهريج ومزاح وتهكـم وسخريـة تساعد علـى تجنب الألم الوجـودي؛ عالم مغلق ومحـدد على الأماكن الأكثر ارتياداً في باريـس: السلطات العليا: (الهـال، الأوبرا، البورصة)، أماكن النزهات والمتع حيث يلتقي «المجتمع الراقي» و«باقي الشعـب» (الشانزيليزيه – الطرقات الكبرى – الغابة – حديقة مونصو..)، وهكذا يرسم لنا الكاتب، هذا المسافـر الغامض لوحات باريسية كبيرة تكشف لنا أخلاق ذلك العصر: الموضة في مباريات السيف ومباريات الريف، ثـم يجب ألا ننسى أن هنـاك رمزاً باريسياً يجسـد في الوقت نفسـه القوة والانحطاط الفرنسيين: ألا وهو برج إيفل: راعية الأزمنة الحديثـة التي تهـدف إلى تغطيـة عيوب ونوا قصـ وعاهات جمهوريـة على طريق الانحطاط وفضائح مالية وسياسية: باناما ١٨٨٧، وأزمـة البولنجيـة (مبـدأ الجنرال بولنجييـه الـذي أعلـن معارضتـه للحكم القائم في فرنسا بين عام ١٨٨٥ – ١٨٨٩..) وخصوصـا أنها حاملة لواء حقوق الإنسان، هـذا البلد الذي دفع ثمناً غالياً جداً بسبب هزيمة ١٨٧٠.

لقد كان بـرج إيفل مشروعـاً سياسياً، أظهـر للعالم، تمامـاً في الوقت الذي توجب فيه ذلك، القـوة والحيوية والنشاط والغنى الـذي لاينضب لهذا البلد الرائع: فرنسا. لم يك برج إيفـل معينا فقط لعلم الفلك وعلم

المنــاخ وعلم الفيزيــاء، ولكــن كان تفاخرا يبرز اقتصاد بلد يعــاود نشاطه وانطلاقه. هذا الوحش المرعــب يجسد الآمال الدنيئة والحقيرة اللاأخلاقية والسياسية للجمهورية الثالثة. بالنسبة لموباسان، شكل هذا «الهيكل الكريه والعملاق» شعلــة الخبل والكراهية والضياع والجنون.

المرأة:

تحتل المــرأة في مؤلفات موباسان مكاناً متميــزاً أيا كان سنها، أيــاً كان وسطها، أياً كان أصلهــا، فهــي تخضع لمراقبــة دقيقة، وهــي تخلــو غالباً مــن الرقــة، إنها حقا غرضــ: إما أن تحطم وإمــا أن تصبح لعبة بين أيدي الآخرين، إنهــا أحياناً ساذجة أو بالأحرى خرقاء قليــلاً أو مقتصدة جداً أو منبوذة باسم أخلاق قابلة للنقاش. على أية حال تجد المرأة نفسها في كتابات موباسان، ضعيفــة وعاجزة عــن المقاومــة بين يدي الرجــل أو المجتمع اللذين ينزلانها إلى حالة الضحية؛ هذا الوضــع يصور جيدا جدلية السيد والعبد المسيطرة في كتابات موباسان، وهذا يتطابق مع الفكرة التي يتبناها مجتمع معين عن المرأة، والمــرأة عند موباسان هي أيضاً كائــن متقلب الأطوار، ضعيف الإرادة مثل طفل، قادرة على قتل نفسها لكي تحصل على مبتغاها. في الواقع، يجر موباسان خلفه شهرة رجــل يجري وراء النســاء ويبغضهن «الرجل الــذي عرف ثلاثمئة امرأة» لايحب كثــيراً النساء اللواتي جمعهــن حوله.. ومع ذلك تفلــت امرأة وحيدة مــن كرهه، امرأة وحيدة بين كل النساء: أمه، بيد أنه يجب أن نميز – كما عنــد بودلير – المرأة الحقيقية – الطبيعيــة والمرأة المصطنعــة «السحرية والخارقة للعــادة»[10] الأولى ترتبط بالكآبة والأخرى بعالم المثال.

المرأة من الضحية إلى العاهرة:

ربط النقــد دائماً موضوع المــرأة عند موباسان بتشاؤمه الشوبنهوري، وإلى الوسط الاجتماعي والثقافي لعصــره، فالمرأة عنده هي وعــاء صرف، ومبــدأ سلبي لايمكن أن يحركــه إلا الرجــل.. وصحيــح أن الكاتب لاينثني عــن الحديث عن نقص المرأة، على النقيض من الرجال، هذه الكائنات المفكرة – المــرأة «هي كائن قوامــه الحس والهوى» وأيضا ليس مدهشــا أن تصبح «ما صنعها الرجــل» [11] كل الفلاسفــة يؤكــدون أن الملكة المسيطــرة لرفيقاتنا هــي التمثل[12] فغالبــاً تبدو امرأة رجل بــارز راقية في كل الحالات، وتتشبــع به بطريقة عجيبة تتبنى أفكاره ونظرياته وآراءه؛ المرأة ليس لها مقام ولاطبقة أو طائفــة: تعرف كيف تصبح، ما يجــب أن تكون حســب الوسط الذي توجد

فيه[١٣] هذه الكلمات توضحها مدام كراغوري في «الدليل»:

«أظن أننا نملك نفوس قردة، نحن النساء الأخريات، لقد أكد لي فضلاً عن ذلك (لقد قال لي أحد الأطباء) أن مخ القرد يشابه كثيراً مخنا، يجب أن نقلد شخصا ما»

من جهة أخرى، هناك التبعية الجسدية والمعنوية والمالية للزوجة التي تفسر بـ «الفضائل المقدسة المؤنثة: التفاني والطيبة والشفقة» باختصار بـ«مهمة إنكار الذات التي تبدو وكأنها خلقت من أجلها[١٤] إنكار الذات.. ولا واحدة من بطلات موباسان ذهبت بعيداً في إفناء الذات مثلما فعلت بطلة «حياة»: لقد تربت على الخضوع للسلطة الذكورية، عانت منذ البداية من عنف وخيانات زوجها الذي مس ميراثها قبل أن تخضع لطغيان ولد يتمم إفلاسها. إن كتابات موباسان يكثر فيها النساء البائسات في زواجهن.. غير أن أسلحتهن الوحيدة هي المكر والفتنة. إن المرأة عندما لاتظهر وكأنها دونية بشكل جذري تقع في عيوب ملازمة لطبيعتها (المكر والتظارف) التي تقودها بشكل متناقض إلى قساوة وبرودة عاطفية مخالفة لطبيعتها الأنثوية، وتدل على أنهن كلهن ماكرات، فالنساء على النقيض من ذلك هن في قصة «مساء»، «بنات قلبهن وسخ»، «إنهن لكل الرجال، شباباً أو شيوخاً لأسباب محتقرة ومختلفة، لأن هذه هي مهنتهن، ميلهن، ووظيفتهن. إنهن العاهرات الخالدات، اللاواعيات والهادئات اللواتي يسلمن جسدهن دون قرف..»[١٥] وهذا يقودنا إلى هذا الرمز الاجتماعي الذي هو العاهرة عند موباسان، والتي هي الضحية و«المرأة ذات القلب الكبير» قادرة أن تصنع من نفسها جلاد العدو «راشل في آنسة فيفي» و«ايرما في السرير ٢٩» إن خط سير حياة هذه «البنات» يبدو مطبوعاً بخاتم القدر: «كم هو تافه وشخصي، امرأة».

المرأة المثالية:

يقول جيرار دو نيرفال في «بنات النار»: «عندما نرى المرأة الحقيقية عن قرب فإنها تثير سذاجتنا، كان ينبغي أن تبدو ملكة أو آلهة وخصوصا كان يجب أن لانقترب منها»[١٦]

على هذه السطور من قصة «سيلفي» يجاوب التقرير المحرر من الوهم لكاتب رواية «حالة طلاق»: «هي امرأتي، طالما أني رغبت بها بشكل مثالي كانت بالنسبة لي الحلم الذي لا يمكن أن يكون على طريق التحقق. ابتداء من اللحظة نفسها التي أمسكتها بين ذراعي، لم تعد سوى الكائن الذي كانت قد استعملته الطبيعة لكي تخدع آمالي» [١٧]

لاتصبح المرأة مثالية إلا ذا تحررت من كل ارتباط وبالدرجة الأولى من ذلك الرباط الذي يربطها بيولوجيا وحتميا بطبيعتها: وبالثورة على «وظيفتها كمنجبة» التي أراد أن يخضعها لها زوج غيور، تحولت غابرييل دو ما سكار إلى جمال عديم الجدوى «جمال قدسي (صوفي)».

موباسان والمسرح:

لم يلمع نجم موباسان في المسرح، فما الذي كان ينقصه لكي ينجح في المسرح؟ كان ينقصه شيء قليل وكثير في الوقت ذاته. لم يكن موباسان يشعر بأن لديه الموهبة الكافية للكتابة المسرحية، وبأن أفكاره في هذا الفن يمكن أن تطبق؛ فهذا الفن الدرامي لم يكن يسليه إلا قليلاً، ويعترف بنفسه بأنه لم يدخل ثلاثين مرة في حياته إلى صالة عرض لأنه طالما بقي غريباً عن تقاليد المسرح ومتشككا أمام أسرار هذا الفن الضخمة. لقد كان موباسان يظهر تجاه هذا الجنس الأدبي بغضا مدهشاً. ففي قصة «الشارب La Moustache » يعهد موباسان للراوية بالهجوم المنهجي لشكل طبقه الكاتب:

«كم هن حمقاوات، يا عزيزتي، مسرحيات الصالون لهذا الموسم. كل شيء فيهن متكلف ومتصنع وفظ وثقيل. مزاجهن يكاد يشبه كرات المدافع التي تحطم كل شيء، لايوجد فيهن أي إبداع أو إلتماع ذهني أو ابتهاج أو لباقة».

في الواقع لم يكن المسرح هذا الذي يعطي وهم الحقيقة كافيا لإشباع رغبات هذا الكاتب الروائي الذي يزعم أنه يولد الأحداث بطريقة تبدو مناقضة للنواميس الطبيعية. لم يكن موباسان يجد في هذا الجنس الأدبي الذي أصبح مبتذلا القدرة على فرض بعض التغييرات والتحولات التي كان يتمناها: وهي دقة ووضوح التحليل بشكل خاص، والتي حاول أن يضعها موضع التطبيق في مسرحيته «تاريخ الزمن القديم L'Histoire du vieux temps» ومسرحية «إعادة Une repetition»، ورغم هذه الأحكام الوقائية لم يكن يشكل المسرح لموباسان جانباً مسلياً، لقد أدرك موباسان أن ممارسة هذا الجنس الأدبي يفرض على المرء بعض الشروط التي سيستفيد منها في كتاباته. لقد أدرك أنه يتوجب عليه قبل كل شيء أن تكون تعابيره واضحة ومكثفة. لقد أظهرت له الكوميديا الإسبانية «السينيت La saynete» صعوبات وفوائد هذا الجنس القصير. ولقد وجد في المسرح الفرصة للتدرب على اختراع وتحضير المواقف؛ وقاده هذا وساعده على كتابة مسرحيات في فصل واحد، وعلى كتابة قصص قصيرة؛ وكان موباسان يقول:

«لا أعــرف كثيراً أيــن أستطيع أن أقدم مشهداً صغـيراً، أدبياً تحديداً، كتب وصمم وصُوّر خصيصاً للصالونات (..) على نمط الملهــاة الصغيرة مع حبكة خفيفة ودون هذه المؤثرات اللازمــة على المسرح والتي تصدم وتجرح إحساس الناس.»

كتــب موباســان مسرحيــة «مــوزوت Musotte» و«خيانــة كونتيســة رون La trahison de la comtesse de Rhune» و«الوئــام العائلــي La paix du menage» و«تاريــخ الزمــن القــديم l'histoire du vieux temps» اللتــين مثلتــا علــى مســرح الكوميديــا الفرنسية الكوميديا الفرنسية في ١٨٩١ و١٨٩٣ ولاقتا نجاحــاً جيــداً. وهناك مسرحيتــان لم تريا النور وبقيتا على شكل مشاريع: «الطلب La demande» و«إيفت Yvette».

لقد كانــت مشاريع موباســان الدرامية ورشــة واسعة في ســيرورة دائمــة لم يخرج منهــا في نهاية المطاف أية تحفة أدبية. فهو لم يكن مرتاحــاً للصيغ الواقعية لعصره، ولا لقيــود الإخراج التي يفرضهــا المسرح على الطريقــة الإيطاليــة. بالتأكيــد ربما كان موباسان يفضل مسرحا أكثر تحرراً وابتكاراً وإبداعاً مثل مسرح شكسبير الذي ورث حبه عــن أمه التي قرأتــه في شبابها بالإنكليزية ثم قرأته لابنهــا بالفرنسية، وكان موباسان يكثر مــن الاستشهاد به لشدة إعجابه بفنه. إن اسم موباســان لم يلمع في عالم المسرح إلا مع مسرحيته «موزوت Musotte» التي كان يقول فيها:

«هاأنذا كاتب درامــي شعبي ناجح وذو حظوة وأندهش كثيراً من هذا، لأنني لا أظن أننــي اكتشفت هذا الســر الدرامي الشهير الذي ليس في وسع الروائيين اختراقه».

ويمكننــا القول بــأن قصصــ وحكايا وروايات موباسان تصبح مسرحيات حقيقية، وقصة «المحاكم الريفية Les tribunaux rustiques» هي خير مثال على ذلك. هذه الروايات تحتوي على مشاهد حوارية طويلة يمكــن نقلها بسهولــة إلى خشبة المسرح. إن فكــرة موباســان الكبيرة هــي أن يرينا بأن شخصياتــه تتبــادل كلمــات وتستسلم إلى نمطيــة حركية محــددة في ديكــور منمنم. وكما حــدث لديدرو، فإن أفضل مسرحيات موباســان هــي قصصه ورواياتــه، فعندما يدفع الكاتب بالأحداث إلى أقصى حد فإن نتاجه المسرحي يغدو قوياً ومتيناً. لقد اقتبس موباسان بعض مسرحياته من قصة سبقتها: فمسرحية «Musotte موزوت» اقتبست من قصة «الطفل L'enfant» و«الوئام العائلي La paix du menage» مــن قصة «على

حافة السرير Au bord du lit» التي ظهرت في قالب مسرحي.

وفي عام ١٨٧٩ كتب موباسان مسرحيته «تكرار Une repetition» التي مثلت أربع مرات على خشبة مسرح النورماندي في مدينة روان؛ والتي تظهر بأن الخيال لايمكن أن يكون شيئاً أخر سوى الواقع، وإدخال المسرح في المسرح يمكن أن يحول إلى واقع ما لم يمكن أن يكون شيئاً أخر سوى وهم، فالظاهر والباطن يتماهيان تحت لباس التنكر ذاته.

إن علم الجمال الروائي ساعد موباسان على إيجاد المسرح؛ كما أن النتاج الروائي ذهب أيضا أبعد من ذلك بأن جعل الوهم أحد عناصر إبداعه الأساسية. لقد كان المسرح بالنسبة لموباسان وبشكل متناقض طريقة لضبط الفن الروائي بشكل أفضل. فالمسرح يشكل له وسيلة تفجير كوامن الإنسان التي يريد إخفاءها على نفسه؛ إنه يشكل الوسيلة المفضلة والمتميزة لبحث صبور حول ثنائية المظهر والجوهر أو ثنائية الظاهر والباطن. ويمكننا القول بأن مؤلفات موباسان راودت كتاب السيناريو لأن الخداع المسرحي يشكل أساساً لها. وفي عام ١٨٧٩ يعبر موباسان عن رفضه للمسرح بشكل حازم ومقتضب قائلاً:

«بئس المسرح: لن أكتب بعد الآن».

الهوامش

١- هي أزمة كومونة باريس حيث شكلت القوى الثائرة حكومة الثورة في ١٨ آذار حتى ٢٧ أيار ١٨٧١، بعد رفع الحصار عن المدينة من قبل البروسيين، ووقوعها تحت حصار الجيش النظامي لحكومة تييه، التي أقيمت مؤقتا في فرساي.

٢- غوستاف فلوبير (Gustave Flaubert) كاتب فرنسي ولد في روان (١٨٢١ – ١٨٨٠) كتب مدام بوفاري (Madame Bovary١٨٥٧)، سلامبو (Salammbo ١٨٦٢)، التربية العاطفية (L'Education sentimentale ١٨٦١) غواية القديس انطوان (La tentation de saint Antoine ١٨٧٤)، ثلاث قصص (١٨٧٧)، بوفار وبكوشه (Bouvard et Pecuchet١٨٨١). نشأ فلوبير رومانسيا ثم انقلب على الرومانسية وسخر منها، ونشر مبادئ تخالف مبادئها وألف روايات على غير نسقها أي أنه دفع الذاتية الطاغية، وأنكر ربط الأدب بهدف إصلاحي في الاجتماع والسياسة.

٣- اميل زولا (Emile Zola ١٨٤٠ – ١٩٠٢): كاتب فرنسي ولد في باريس؛ يعتبر رائد ورئيس المدرسة الواقعية

الطبيعية (Le realisme naturaliste) التي تهتم بقضايا المجتمع ومشكلاته، وتركز اهتمامها بشكل خاص على جوانب الفساد والشر والجريمة، فهي تنتقده بإظهار تناقضاته وعيوبه وعرضها على الناس. وتميل هذه الواقعية إلى التشاؤم، وتعتبر الشر عنصرا أصيلا في الحياة لذلك تبحث عنه وتجعله محور العمل الأدبي، وتتخذ مادتها من واقع الحياة الاجتماعية، وتختار الأحداث والشخصيات وترتبها وفق مقتضيا ت العمل الأدبي.

٤- وعندما تبناها زولا خرج في تطرفه إلى مذهب يكاد يكون خاصا به، مختلفا عنها. فإذا كانت الواقعية قد تميزت بالملاحظة واشترطتها، وألم كتابها بالطرائق وبالنظريات العلمية، فإن زولا ذهب بها بعيداً، فجعلها تجربة علمية. فا لإنسان- في تصور هذه الواقعية – حيوان تسيره غرائزه وحاجاته العضوية، لذلك فإن سلوكه وفكره ومشاعره هي نتائج حتمية لبنيته العضوية ولما تقوله قوانين الوراثة. وأما حياته الشعورية والعقلية فظاهرة طفيلية تتسلق على حقيقته العضوية. وكل شيء في الإنسان يمكن تحليله ورده إلى حالته الجسمية وإفرازات غدده. على غرار بلزاك أو بروست، بنى زولا إمبراطورية روائية. فحكاية (-Les Rougon Macquart- ١٨٧١-١٨٩٣) تتكون لوحدها من عشرين رواية.

٥- نفسانية: نزعة لتغليب وجهة النظر النفسية على وجهة نظر علم آخر، في مجال مشترك.

٦- بول بورجيه Paul Bourget: كاتب فرنسي ولد في آميان (١٨٥٢ – ١٩٣٥). كتب مقالات وروايات نفسية (Le Disciple، ١٨٨٩ التلميذ)

٧- آ – م - شمديت – موباسان بنفسه – منشورات دو سويه – ١٩٦٢ – ص ١٥٦.

٨- كولن ولسون – «المعقول واللامعقول»– دار الآداب – الطبعة الخامسة – ١٩٨١ – ص: ٢٠٥-٢١٢.

٩- برانسيس مارسي باريباترا: «الرومانسية المعاصرة» – مقالة حول القلق والهروب في الآداب الفرنسية من ١٨٥٠ إلى ١٩٥٠ – ص ٣٣.

١٠- ستندال: كاتب فرنسي ولد في غرونوبل في (١٧٨٣– ١٨٤٢) اسمه الحقيقي هنري بيل. يعتبر ستندال أستاذ الواقعية الذاتية.شارك في حروب الثورة والإمبراطورية حيث اكتشف ايطاليا التي تركت أثراً عميقاً على حساسيته. نشر في عام ١٨٢٢ كتابا «عن الحب De l'amour» ومقالة حول الرومانسية (راسين وشكسبير Racine et Shakspeare – ١٨٢٣ – ١٨٢٥). «وآرمانس Armance ١٨٢٧» و«الأحمر والأسود Le Rouge et le Noir -١٨٣٠»، و«ذكريات سائح Les Memoires d'un touriste»، و«La Chartreuse de Parme – ١٨٣٩» و«أخبار إيطالية Chroniques italiennes». ومن كتاباته التي نشرت بعد وفاته والتي كرست أخيراً مجده «لوسيان لوفين Lucien leuwen – inacheve ١٨٣٤)» و«لاميل – (١٨٨٩ Lamiel،roman inacheve» و«حياة هنري

بريلار – (١٨٩٠) La vie d'Henri Brulard» وهي سيرة ذاتية.

١١- «مدح المكياج»- المؤلفات الكاملة – المجلد الثاني – ص٧١٦ – منشورات غاليمار ١٩٧٤.

١٢- «امرأة» – وقائع، مجموعة «١٠ / ١٨ – سلسلة نهايات عصر»، ١٩٨٠ – ٣ مجلدات – المجلد الثاني – ص ١١٢ – ١١٤.

١٣- التمثل – تكيف سلوك الفرد وفقا لحياة الجماعة عن طريق اقتباس المواقف والعادات الشائعة.

١٤- «امرأة»- نفس المرجع- الصفحات ذاتها.

١٥- «الهورلا»- كتاب الجيب – ص٩٤.

١٦- «الفتاة الشابة»- وقائع – مجلد ثاني – نفس المرجع- ص ٣٨٠.

١٧- «اليد اليسرى»- غارنييه فلاماريون – ص ١٥٩ – ١٦٠.

١٨- جيرار دو نيرفال – «بنات النار» – كتاب الجيب – ١٩٨٥- ص ١٣٧.

١٩- غي دو موباسان – «ظهور» – غارنييه فلاماريون – ص ١١٩ – ١٢٠.





تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها.. الواقع والآفاق

د. فايز حداد ❁

تفرض الألفية الثالثة على إنسان هذا العصر أن يكون فاعلا بمقدار عدد اللغات التي يعرفها، لتتسع نظرته وتزداد خبرته، وتتضاعف معلوماته - والمعلومات أساسية في اتخاذ القرار - ويتعمق استمتاعه بما يسمعه أو يقرؤه أو يشاهده، لأن كل لغة يتم تعلمها هي خبرة جديدة. وتعلم اللغة العربية كلغة ثانية ليس إضافة جديدة فحسب، وإنما هي حياة أخرى أكثر ثراء وأبهى جمالاً.. كما أنها لغة القرآن الكريم التي نزلت بلسان أمة لتكون

❁ أديب سوري

العمل الفني: الفنان زهير حسيب.

«خــير أمة أخرجت للناســ» وهذا «رافائيل بيتي» يعبر عن آرائه ومشاعره الخاصة نحو اللغة العربية كمتحدث جيد لتسع لغات هي: العربيــة والإنكليزية والفرنسيــة والألمانية والهنديــة والآراميــة والعبريــة والفارسية والهنغارية، يقول: «إننــي أشهد من خبرتي الذاتية، أنه ليس ثمــة من بين اللغات التي أعرفها - وهي تسع لغات - لغة تكاد تقرب من العربيــة، سواء في طاقتهــا البيانية أم في قدرتها علــى أن تخترق مستويات الفهم والإدراك، وأن تنفذ - وبشكل مباشر - إلى المشاعــر والأحاسيســ، تاركــة أعمق الأثر فيها، وفي هــذا الصدد فليســ للعربية أن تقارن إلا بالموسيقى».

وقد أصبحت اللغــة العربية لغة رسمية في عدد من المؤسسات العالمية، وفي مقدمتها الأمم المتحدة، فقد جاء في القرار رقم ٢١٩ عــام ١٩٧٣ أن الجمعية العامة إذ تدرك ما للغــة العربية من دور مهم في حفظ حضارة الإنســان وثقافتــه.. تقــرر إدخــال اللغة العربية ضمن اللغات الرسمية ولغات العمل في الجمعيــة العامــة، ولجانهــا الرئيسية. واللغــة ليست مجــرد أداة أو وسيلة للتعبير أو التواصــل، أو مجرد شــكل لموضوع، أو مجرد وعــاء خارجي لفكــرة أو لعاطفة، أو إشــارة إلى فعل، إنها وعي الإنسان بكينونته الوجوديــة وبصيرورتــه التاريخية، وبهويته الذاتيــة والاجتماعيــة والقوميــة، وكليته الإنسانية، إنها السجل الناطق لهذه الأبعاد جميعهــا، واللغة الحية هي الجهاز العصبي للمجتمع، أو الشبكة التلفونية التي يتخاطب بها، ويتفاهم بها أفــراده، فإذا عجزت عن تأدية هذا التخاطب والتفاهم فهي خرساء، وهــي ضرورية للفرد في الانفتاح على العالم، وتحقيــق طموحاته وأهدافــه، في ظل كسر الحواجز الدولية وزيادة القنوات الفضائية. يحار الباحــث وهو يفتح شبكــة الإنترنت، فيجد فيهــا حوالي ثمانمئــة موقع، يتصل بالعربية من قريــب أو بعيد وفيها كم هائل عن اللغة العربية كلغــة ثانية، والكثرة تولد الحــيرة، من هنا فإن هــذا المقال سيقتصر على الأبعاد التالية:

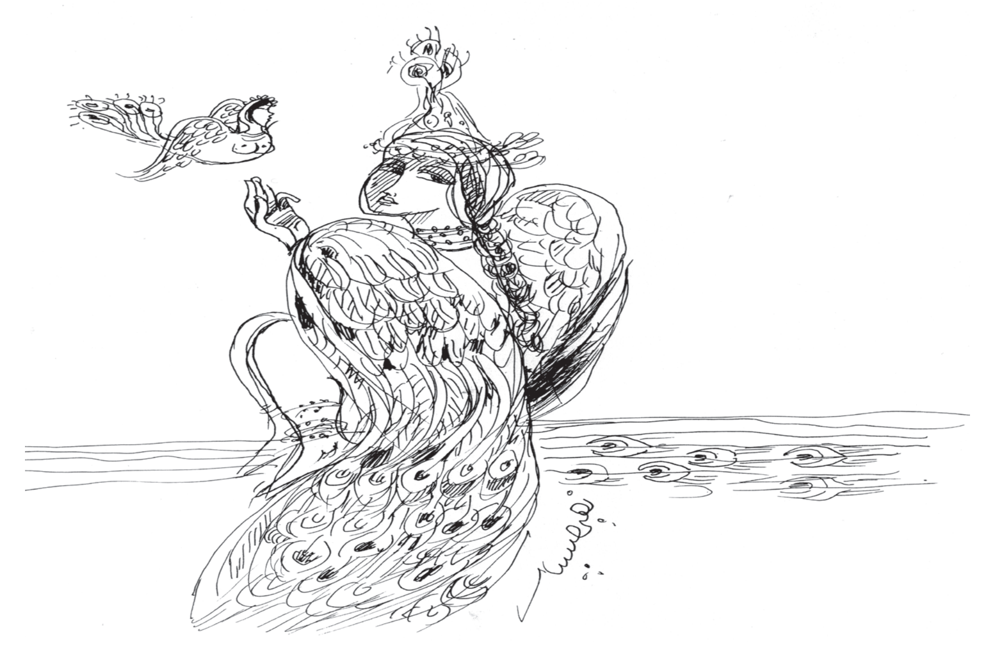
١- مبادئ تعليم اللغة: Principles of language Teaching

يمكن القول إن هــذه المبادئ ضرورية، وكافية لتحديد المدخل التعليمي لتعلم اللغة، ويمكن أن يتم تطويرهــا وتقديمها للمتعلم في شكل برامج تعليمية، وهذه المبادئ ليست نهائية، ولكنها تخضع للتغير والتبديل، تبعا لما تضيفــه الحقائق العلميــة إلى معارفنا، ويمكــن الإفادة منها طبقــا لطبيعة كل لغة ولعل من هذه المبادئ ما يلي:

١- الكلام قبل الكتابة: Speech before Writing يتم تعليم الاستماع أولا، ثم الكلام ثم القــراءة والكتابة، وهذه القاعدة هي التي يقوم عليها المدخل اللغوي السمعي، لأن أفضل طريقة للتعبير عن اللغة هي الكلام، فالكلام يمكن أن يوضح التنغيــم، والإيقاع والضغط علــى المقاطع بل والمعنــى المصاحب البعيد، بينمــا لا تستطيع الكتابة بيــان حال الكلام من الاتصال والانفصــال، والرفع والخفض ولا يقصد بهذا المبــدأ الاكتفاء في السيطرة على اللغة عن طريق الكلام والاستماع فقط، ولكنه يشير إلى أن حــل الرموز المكتوبة دون معرفــة قواعد اللغــة في صورتها المتكلمة - هي طريقة ناقصة، وغير دقيقة، وغير كافية. ويمكــن تطبيق هــذا المبــدأ إذا كان الهدف هو القــراءة فقط فعندما يكــون المتعلم قد هيمن وسيطر على القواعــد الأساسية للغة شفهيــاً- فإنه يستطيــع أن يوسع قدرته على القراءة، حتى يصــل إلى مستوى من الإيجاز أعلى مما كان سيصبح عليه في حالة اعتماده فقط على الحــروف المكتوبة، وحل رموزها. وبالرغــم من أننــا في حاجــة إلى أدلة تثبت صحــة هذا الإدعاء من عدمــه إلا أن هناك ميزة فنية تدعم هذا المبدأ التعليمي وتؤيده، فالطــلاب الذين يسيطرون على اللغة شفهيا يمكنهم أن يقرؤوا بأنفسهم وبلا تردد وبقليل من المساعــدة، والطلاب الذين تعلموا تفسير الكلام والرموز الخطية المكتوبة لا يستطيعون أساساً أن يتعلموا الكلام، أو التحدث بأنفسهم. وتجــدر الإشــارة إلى أن شرائــط التسجيل والأسطوانات يمكن استخدامها الآن بوساطة المدرس ســواء أكان مدرساً متخصصاً أم لا، ليقدم مــن خلالها نماذج سليمــة، وتشكيلة من المتحدثــين تكاد تقترب من اللغة الأصلية الحقيقية المتخصصة.

٢- الجمــل الأساسيــة: Basic semtmces: أن يتــم التركيــز علــى حث المتعلــم علــى أن يحفظ الجمــل الأساسية للمحادثة حفظاً قويــاً بقدر الإمكان، فهذه الممارسة - كما دافــع عنها اللغويون - لها تبريــر نفسي قوي، فالدارســون يستسيغون تكرار جمــل أكثر طولاً عــن طريق التقليد بلغتهم الأم أكثر مما يستطيعون ذلك باللغة الأجنبية، حتى لو كان المطلوب هو الفصحى في العربيــة، لأنها لا تبتعد كثيراً عن اللهجة العاميــة. إن الدارســين لديهم قدر أقل من التذكر في حالة اللغة الأجنبية منها في حالة لغتهم الأصلية، ومن هنا فإن اللغويين يؤيدون استخدام المحادثات، لأنها تقدم الكلمات من خلال بناء الجملة، ومن خلال السياق.

٣- النمــاذج كعــادات: Patterns As Habits: يتــم ترسيخ النمــوذج أو القالب



اللغوي، حتى تصبح عادة من خلال ممارسة هذا القالب، وبالتالي ترسخ القاعدة، إن مجرد العلم بالكلمات والجملة المنفردة، وقواعد النحو لا يكون لغة لدى الدارس. ومعنى هذا أن معرفة اللغة هي استخدام قوالبها وقواعد بنائها باستخدام مفردات لغوية مناسبة وسرعة عادية طبيعية عند الاتصال. وترسيخ جمل مماثلة جديدة وتنويعها لترسيخ هذه القوالب أو القواعد على هيئة عادات، هو ما نطلق عليه «ممارسة النمط أو النموذج».

٤- استخدام النظام الصوتي: Sound system for use: يتم تعليم النظام الصوتي للغة عن طريق استخدامه في سياقات لغوية، واستخدام الشرح والتقليد مصاحباً بالأمثلة، وذكر المناقض، والممارسة، ولعل مما قد يؤدي إلى استجابات مرضية لتدعيم استخدام إرشادات لفظية، وكذا استخدام ثنائيات متناقضة للتركيز بشدة على ما بينها من فروق مثل: تاب وطاب، وساح وصاح، ولكن تبقى الممارسة أمراً ضرورياً وحيوياً لزيادة البراعة اللغوية والطلاقة فيها.

٥- ضبط المفردات اللغوية: Vocabulary Control يتم استخدام الحد الأدنى من المفردات في أثناء تعلم

الدارسين كيفية السيطرة على النظام الصوتي، والقواعد النحوية، لأن المفردات لا تشكل لغة عند الإنسان، فمن أفضل الخطوات الاستراتيجية لاستخدام أي لغة التعرف على قواعدها الأساسية، والسياق الصوتي وما به من متشابهات ومتناقضات.

٦- تدريس المشكلات اللغوية: Teaching the Problem: والمشكلات هي تلك الوحدات والقواعد التي تظهر فروقا تركيبية بين اللغة الأولى والثانية، أو بين اللهجة والفصحى أو بين الصحيح والخطأ من اللغة، وتتطلب هذه المشكلات فهماً واعياً وممارسة شاملة، بينما الوحدات المتماثلة في تركيبها عند اللغتين لسنا في حاجة إلى تعليمها، فبمجرد تقديمها وعرضها في مواقف لها معنى يكون الموقف كافيا لتعلمها.

٧- الكتابة وتفسير الكلام أو الكتابة كتمثيل للكلام: Writing As Representation for speech يتم تعليم القراءة والكتابة على أنها ترجمة تصويرية، أو عرض تصويري للوحدات والنماذج اللغوية التي تعلمها الدارس من قبل، وعندما يختلف الكلام المنطوق عن العرض الكتابي فإن ذلك يكون راجعاً إلى قصور نظام الكتابة، وهذا المبدأ – وهو اختلاف المنطوق عن المكتوب – ينطوي على أن تعلم الرموز التصويرية والربط بينها وبين وحدات اللغة التي تمثلها هما مهمتان منفصلتان، ويتضمن هذا المبدأ أيضاً أن تعليم القراءة والكتابة أمر يختلف عن تعليم الكلام أو التحدث.

٨- نماذج متدرجة: Graded Patterns: يتم تعليم النموذج تدريجياً، وعلى خطوات مرحلية، إن تعليم أي لغة يتطلب نقل نظام جديد من العادات المعقدة، واكتساب العادات ببطء، ويعتمد هذا المبدأ على هذه الملحوظة جنبا إلى جنب مع نظرة اللغويين للغة على أنها تركيب متسق. وتعليم التركيب اللغوي يتطلب البدء بالجمل لا بالكلمات، والتوفيق بين الصعوبة اللغوية وقدرات الدارسين، وممارسة المحادثة، بحيث تتضمن أدنى حد ممكن من القواعد، وممارسة اللغة من خلال المحاكاة والحفظ وقد أوصى «فرايس» بتكريس (٨٥ ٪) من وقت الحصة في الممارسة و (١٥ ٪) للشرح والتعليق.

٩- التدعيم أو التعزيز الفوري: Immediate Picinforcement: دع الدارسين يعرفون في الحال ما إذا كانت استجاباتهم ناجحة أم لا، فقد أثبت

«ثورنديك» أن المفحوصين معصوبي العينين، لم يتعلموا أن يرسموا خطوطاً أطوالها أربع بوصات، حتى عندما رسموا آلاف الخطوط، إذا لم يكتشفوا متى نجحوا في ذلك.

١٠- الممارسة Practice: لابد من قيام الطلاب بالممارسة في معظم الوقت المتاح لتعلم اللغة، هذا المبدأ له تبرير سيكولوجي حيث أن مقدار وقت التعلم هو أمر يتناسب تناسباً مباشراً مع مقدار الممارسة. وتجدر الإشارة إلى أن «الثنائية اللغوية المثالية Ideal bilimgualism نادرة، إذ يندر أن يتقن فرد ما لغتين اتقاناً كاملاً في جميع المهارات والمجالات دون تفوقه في لغة على الأخرى» وهذا ما يفسر عدم وجود «العقّاد» في العربية وفي غيرها، أو «شكسبير» في اللغة الإنكليزية، وفي غيرها.

وهذه المبادئ وغيرها لابد أن تكون نصب عين كل من يعمل في حقل تعليم اللغة لغير الناطقين بها، حتى تكون عملية التدريس قائمة على خبرات علمية ثبت جدواها من قبل.

٢- أهداف تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها:

يمكن تصنيف أهداف تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها إلى مسلمين وغير مسلمين، فأما أهداف تعليمها فيمكن أن تكون:

(أ) - الدفع الذاتي لدى الفرد لتعلمه تلك اللغة، أو موجه من قبل مؤسسة ما، لتحقيق هدف معين.

(ب) - توقع تحقيق مكاسب اقتصادية، أو معرفية، أو سياسية، أو غيرها، وبعد توفير الحد الأدنى المطلوب من الاقتناع بأن الجهد المبذول في تعلم هذه اللغة يعادل، أو يزيد على المنفعة التي ستترتب على تعلمها.

أما أهداف تعلمها للمسلم وغيره فهي:

١- القدرة على قراءة القرآن الكريم، والاطلاع على أحكام الدين الإسلامي، وتعاليمه في لغته الأصلية.

٢- الاطلاع على الثقافة العربية باعتبارها إحدى الركائز الثقافية في العالم.

٣- استراتيجية اللغة العربية، باعتبارها إحدى اللغات الرئيسية في الأمم المتحدة.

٤- القدرة على التعامل مع العرب في الشؤون السياسية والاقتصادية.

٥- تعامل الأجانب الذين يقيمون في البلاد العربية مع فئات المجتمع العربي.

٣- محتوى تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها:

يقصد بالمحتوى كل ما يقدم للمتعلم، سواء ما كان منها من الكتاب، أو ما يقدمه المعلم من عنده. وهذا المحتوى - في الغالب - ندر منه ما يحظى بالقبول والرضا من قبل الدارسين أو المعلمين، وذلك في اللغة الأم، مع العلم بأن احتياجات المتعلمين وميولهم ومطالبهم تكون معروفة، لكنه مع هذا أحيانا ينظر إليه أنه ليس هو المطلوب. وتحديد المادة اللغوية للمتعلم الأجنبي على ضوء احتياجاته، وعلى ضوء طبيعة اللغة نفسها يمثل أولى أولويات البحث، والسبيل إليه معقد، وشائك وجدير بالبحث، فهناك ما يحتاجه المسلم الباكستاني في مراحل التعليم المختلفة، وما يحتاجه المسلم في نيجيريا وفي الصومال وفي أندونيسيا وإيران وغيرها.. ومن ناحية أخرى هناك كتب التراث العربي والإسلامي، وكتب العلم والحضارة الحديثة، ومادة الخطاب والتعامل اليومي، ومادة الصحف والإذاعة.. إلخ.. مضروب في كل بلد عربي وإلى أن يثبت بالدليل العلمي القاطع أن هذه جميعا تنضوي تحت نظام لغوي واحد. من هنا فإن المعول عليه في هذا كله هو المعلم باعتباره الأكثر احتكاكا بالدارسين وألصق الناس بهم، وأعرف بما يميلون إليه، وما يحتاجونه - الأمر الذي يفرض الدقة في اختيار هؤلاء المعلمين لأن مسؤوليتهم تتعدى مسؤولية واضع البرنامج، ومؤلف الكتب، بل والإدارة نفسها، وفي المقابل لابد أن تتوافر مجموعة المحتويات المختلفة التي تتيح للمعلم فرصة الاختيار منها، ومهما تعددت المادة الدراسية لهؤلاء الدارسين، فإنها لا يمكن أن تغطي مطالب الدارسين على اختلاف دولهم وثقافتهم.

٤- مراحل تدريسها:

يستهدف عرض بعض مداخل تدريس اللغة، إفساح المجال أمام المعلم - حتى في حالة تقديم نماذج لغوية من عنده - وأمام مؤلف الكتب، أو من يعد المادة الدراسية، لكي يكون عنده أكثر من بديل يمكن الاستعانة به وقت الحاجة، ولعل من هذه المداخل ما يلي:

(أ) المدخل الاتصالي: وهو الذي يؤكد على تزويد الدارس بالمهارات اللغوية اللازمة له، كي يتعامل مع غيره في مواقف الحياة، بطريقة طبيعية تلقائية. فاللغة في نظر هذا الاتجاه: عبارة عن وسيلة اتصال يستخدمها أفراد المجتمع للتوصل إلى أهداف، وغايات. ويهدف المدخل الاتصالي إلى تعليم مهارات الاتصال الشخصي، أي الاتصال في

المواقف اللغوية اليومية كالمحادثة، والتشوق، والاستماع إلى المذياع، وما شابهها، وتكون الوظيفة الأولية للمعلم هنا توفير مدخلات لغوية سهلة الفهم، أي لغة حديث يفهمها المتعلم، أو تزيد قليلاً عن مستواه اللغوي الفعلي، ولا يحتاج المتعلم في هذه المرحلة الصامتة أن يتكلم بأي شيء متى يشعر أنه جاهز وقادر على الكلام، ويكون المعلم هو مصدر المدخلات اللغوية، والمبدع لفعاليات صفية ممتعة ومشجعة ومتنوعة كالأوامر، والألعاب، والقصص الفكاهية ومجموعات العمل الصغيرة. وتتعلق استراتيجية الاتصال بالاستعمال الواعي للآليات اللغوية وغير اللغوية لتوصيل فكرة معينة، حينما لا يتوفر للمتعلم، لسبب أو لآخر في السياق الاتصالي الأشكال اللغوية الدقيقة المطلوبة. وتمثل الكفاية الاتصالية قدرة الفرد على إيصال وتفسير الرسائل الاتصالية، وإدراك معانيها لدى المتحدثين في مواقف معينة.

(ب) الطريقة الصامتة: The silent way: وهي التي تطالب المدرسين باتخاذ دور المشرف على عملية التعلم، والتزام الصمت – ما أمكن – كي تتاح الفرصة للدارسين، لاستعمال اللغة داخل الصفوف، وينطلق هذا الأسلوب من أن اكتساب اللغة يأتي أولاً عن طريق الممارسة بالحديث أولا، خاصة في الصفوف الدنيا، ثم القراءة والكتابة في الصفوف التالية، إذ أصبح في حكم المنتهي الآن قيام المعلم بدور الملقن والاستئثار بالكلام داخل الفصل، ولأن قدرة التلميذ على التركيز أقل، وكذلك متابعة المعلم، فضلاً عن أن من حق المتعلم أن يمارس التعلم بنفسه، ويجرب الصواب والخطأ، فإذا حدث خطأ في اللغة فلابد أن يتدخل المعلم لإصلاح هذا الخطأ مع المواءمة بين كثرة الأخطاء والموقف التعليمي نفسه وهذا – بطبيعة الحال – يخضع لتقدير المعلم، واختيار كيفية المعالجة. وقد ألقى هذا الوضع مسؤولية أكبر على معاهد، وكليات إعداد المعلم، وأصبحت مسؤوليتها إكسابه مهارة التدريس، وقيادة الفصل، في جو يسوده الديمقراطية، وتكافؤ الفرص بين المتعلمين. وهذه الطريقة نادى بها كالبب كاتجنو (١٩٧٢ – ١٩٧٦) وعلى المدرس فيها إعطاء أقل ما يمكن من المادة، ووضع عبء التعليم كله على الطالب بدلاً من المدرس، وهذه الطريقة لم تحظ بالقبول، بل لقيت الكثير من النقد مثلها في ذلك مثل طريقة تعلم اللغة الجماعي. ويلخص «ريتشارد وروجرز (١٩٨٦ –، ص ٩٩) النظرية التي بنيت عليها الطريقة الصامتة على النحو التالي:

١ - يسهل التعلم عندما يقوم المتعلم بعملية الاكتشاف، أو الإبداع لما يتعلمه بدلاً من تذكر ما يتعلمه أو تكراره.

٢ - يسهل التعلم عندما يصاحبه أشياء محسوسة.

٣ - يسهل تعلم المادة المراد تعلمها باستخدام أسلوب حل المشكلات.

(ج) طريقة التعلم بالمشورة: Counselling Learning: وهي التي تعتمد على استشارة الدارسين فيما يرغبون في دراسته، ويبدو أن الاستشارة محكومة بالدارس، وطبيعة التعلم ذاتها والمعلم، وكذلك المجتمع، فالتلميذ في الصفوف الدنيا قد يتعذر عليه إبداء الرأي فيما يتعلم، ولئن أبدى رأيه في موقف ما، فربما لا يستطيع ذلك في غيره، والمعلم صاحب الخبرة، فإن خبرته توجه لصالح هذا التلميذ، أما الطالب في المرحلة المتقدمة - مثلاً - فيمكنه المشاركة بشرط أن تكون هذه المشاركة ليست وليدة رأي شخصي، أو هوى ذاتي، ويبدو ذلك واضحاً في الأمور الجدلية، والقضايا التي تحتاج إلى اجتهاد. أما القواعد المتفق عليها بين أبناء اللغة فليست محل جدل، وهدف المشاركة هو الفهم، لأن القواعد اللغوية من المفترض أنها وصلت إلى مرحلة الاستقرار، والتغيير فيما يتطلب وقتا إلى أن يتأكد الإفادة منها، وتسهيل تدريس اللغة بناء عليها. أما طبيعة التعلم ومقتضياتها، فإن هناك مواد دراسية يتحتم السير فيها وفق التنظيم الخاص بها، وبالتالي تقل المشاركة من جانب المتعلم، ويتحمل المعلم مسؤولية تهيئة الطالب للضوابط اللغوية، التي يمكن أن تفرضها طبيعة النص، وأسلوب معالجته، والمعلم هو بمثابة المرشد والموجه، والمساعد في ترشيد الاختبار. أما المجتمع فإن الثقافة المحملة على اللغة بما فيها من قيم وآداب، ومعايير -بل ومعارف- كل ذلك يخضع لما تواضع عليه المجتمع، وما لا يعد تعليمه خروجا عن أصالة هذا المجتمع.

(د) منهج التعلم الوظيفي: The Funcoinal National syllabus: وهو الذي يعتمد على توظيف ما يتعلمه الدارسون من مفردات، وتراكيب ونصوص في التعبير الشفهي والكتابي على مشتق المنهج من تحليل الوظائف المهمة في عالم الكبار، أو أنشطتهم، وتقديم الأشكال والبنى اللغوية التي تستعمل لتحقيق وظائف معينة ومحدودة. وقد تأثرت الوظيفية - كنظرية تربوية - بفكرتين أساسيتين، وهما: الاهتمام بالفعالية، التي كانت تمثل عمق «الإدارة العلمية» لفردرك تايلور وأتباعه، وقد بين تايلور أن بالإمكان تحليل أي مهمة للوصول إلى الحد الأعلى

من الفعالية، والشيء نفسه يمكن أن يحدث للتربية، فتحليل المهام التعليمية، يجعل التربية أكثر فعالية. أما الفكرة الثانية فهي أن مخطط المنهج يجب عليه الانتقاء بقصد تحسين الحياة التي نعيشها معاً، حتى يصبح المستقبل أفضل من الماضي، بمعنى إدراك أهمية حاجات الفرد والمجتمع معا، بحيث يصبح الفرد فرداً في أفضل معنى للكلمة من خلال مشاركته بالمجتمع، وإعداد الدارس للمشاركة في الحياة الاجتماعية، عن طريق تزويده بخبرات حياتية، حالية، تطابق - بإطراد -الأغراض والأنشطة المشتقة من تحليل الحياة الاجتماعية بكاملها. وهذا المدخل يمكن أن يفيد جماعة الأجانب الذي يهتمون باللغة، التي تساعدهم على أن يعيشوا في مجتمع غير مجتمعهم الأصلي، وكذلك الطلاب الذين يمكنهم أن يقفوا في تعليمهم عند مرحلة التعليم العام. وفي كلتا الحالتين فهو مدخل مفيد لمن يحاول أن يثري لغته، ويعمقها لمزيد من الفهم والإفهام، والاطلاع على بعض المصادر العربية المتعلقة بموضوعات تهمهم. وهناك قوائم متعددة لوظائف اللغة ومنها:

١- التعريف بالأشخاص.

٢- التحية والتوديع.

٣- الدعوات.

٤- الاعتذار والتعازي.

٥- الاعتراف بالجميل والإطراء والتهاني.

٦- الطلبات والأوامر والتحذيرات والتعليمات.

٧- العروض وطلب السماح.

٨- النصيحة والنوايا.

٩- السرور والامتصاص.

١٠- التعبير عن الرأي، وطلب تكرار الناس لما قالوه، ومقاطعة الحديث، وتغيير موضوع المحادثة.

(هـ) الطريقة المباشرة Direct Method: أو الطريقة السمعية - الشفهية Oral Method وهاتان الطريقتان جاءتا كرد فعل لطريقة الترجمة والقواعد التي تعتمد على تقديم النصوص والشروح النحوية المطلوبة، وتكليف الدارسين باستظهارها ثم تطبيقها من خلال تمرينات آلية. وكان أصحاب الطريقتين (المباشرة والسمعية الشفهية) من المدرسة البنائية، والمدرسة السلوكية، ينادون بأن اللغة هي سلوك وعادات، يمكن تعلمها والسيطرة عليها عن طريق الاستماع، والتكرار المستمر، لأنماط وتراكيب لغوية مسجلة على أشرطة وكان هذا الأسلوب مرغوباً فيه، للاعتقاد بأن الكتب التي تسير على هذا النهج، ستمكن

الدارسين من السيطرة على الأنماط اللغوية الشائعة، خلال وقت قصير، مما يجعلهم قادرين على استخدام اللغة بطلاقة. ومعنى هذا أن الطريقة المباشرة تلك التي تتم عن طريق الاتصال باللغة في مواقف حية حقيقية، وقد نحا أنصار الطريقة المباشرة منحى جديداً وهو التأكيد على القراءة باعتبارها الخطوة الأولى في تعليم الكلام، وهذا ما يقره علم اللغة الحديث. وتسمى هذا الطريقة بالطريقة الجديدة أو بالطريقة الإصلاحية أو بالطريقة الطبيعية، نظراً لأن المواقف فيها غير متكلفة، وتفرض هذه الطريقة استخدام الفصحى من المعلم والدارس في الفصل الدراسي على الأقل. وقد فقدت الطريقة المباشرة شهرتها، وتراجع استخدامها في نهاية الربع الأول من القرن العشرين في أوروبة والولايات المتحدة الأمريكية، وعادت أغلب مناهج تعليم اللغة إلى طريقة النحو والترجمة أو إلى طريقة القراءة. ولكن الأمر قد تغير في منتصف القرن الماضي حيث رجعت الطريقة المباشرة مرة أخرى بثوب جديد. وعبرت عن نفسها بما يعرف بالطريقة السمعية الشفهية التي تعد من أفضل الإنجازات في تعليم اللغة في هذا العصر.. وهكذا نرى أن مثل هذه التيارات القصيرة في تعليم اللغة يمكن أن تعيد نفسها، وتتكرر مع حركة التاريخ.

(و) أسلوب الكفاية اللغوية: Concept of Proticiemy: وهي التي تدعو إلى تحقيق التوازن بين المقدرة اللغوية، والمقدرة الاتصالية، والمقدرة الثقافية، أو بعبارة أخرى التوازن بين الجوانب المعرفية والسلوكية، والحضارية، للغة المدرسية. وتعني الكفاية: المعرفة الضمنية بنظام، أو حدث، أو حقيقة، إنها القدرة المثالية غير الملحوظة لعمل شيء ما أو أدائه، أما الأداء فهو المظهر الخارجي الملموس للدلالة على المقدرة، أو القيام بالفعل، أو ممارسة شيء ما مثل المشي والكلام والحركة والحديث. وفيما يتعلق باللغة تعرف الكفاية بأنها المعرفة الضمنية للنظام اللغوي: قواعده النحوية ومفرداته، وكل أجزاء اللغة، وكيفية وضع هذه الأجزاء مع بعضها البعض، أما الأداء فهو عملية الإنتاج الفعلي (الحديث والكتابة) أو الاستيعاب والفهم (الاستماع والقراءة) للأحداث اللغوية.

(ز) طريقة تعلم اللغة الجماعي: وهي تنظر إلى المتعلمين في الصف الدراسي، على أنهم مجموعة بحاجة إلى علاج وإرشاد معين، وتشكل العلاقات البيئية الاجتماعية، لتلك المجموعات عوامل ذات أهمية كبيرة في

التعلم، ولكي يحدث التعلم لابد من التفاعل بين أعضاء المجموعة من خلال علاقات بين الأفراد Interpresonal يجتمع فيها المدرس والطلاب لتسهيل التعلم عن طريق إشاعة جو جماعة محاط بالاحترام والتقدير والتشجيع لكل أفراد المجموعة. ولا يمثل وجود المدرس أي تهديد أو قيد على المتعلم بل إن الغرض مـــن وجوده التركيز على الطلاب وحاجاتهم وتوجيههم وإرشادهم، وبهذه الطريقة تؤدي العلاقة الوجدانية بـــين المدرس والمتعلمين إلى إلغاء التعلم الدفاعي. والواقع إن هناك مزايا وعيوبا لطريقـــة تعلم اللغة الجماعي هـــذه، ومن هذه المزايـــا الناحية الوجدانية الواضحـــة والمنافسة مع أفـــراد المجموعة والبيئـــة والتي تساعد علـــى إزالة معوقات التعلم، والتركيز علـــى الطالب، الذي يمكن أن يوفـــر دافعاً خارجياً، أمـــا العيوب فقد يكون المدرس أقل إرشاداً، واعتماد الطريقة على التعلـــم الاستقرائي. علـــى الرغم من سلبيات طريقة تعلم اللغة الجماعي، إلا أنها طريقة مفيدة لتعلم اللغة الأجنبية، طالما أن المدرسين على استعداد لتكييفها مع معوقات وظروف البيئة التعليمية. وليس هناك إلزام محدد لطريقة معينة، وإنما الحكم الفصل في ذلك هو المعلم، استناداً إلى خبرته الشخصية وخلفيته العلمية.

أهم الأسباب التي تدعو إلى الإقبال على تعلم العربية:

لعل من هذه الأسباب ما يلي:

١- أن تعلم العربية من الدين، ومعرفتها فرض واجب، لأن فهم الكتاب والسنة فرض، ولا يفهـــم إلا بفهم اللغة العربية، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، بل إن من العلماء من قرر أن الصلاة لا تجوز إلا بالعربية، وأن ما أجازه أبو حنيفة في هذا الشأن كان على سبيل الترخيص، وحتى لا يحرم المصلي من مناجاة ربه ودعائه، ولكن أبا حنيفة قد عدل عن هذا الرأي، حين تبين له صواب غيره.

٢- إن كثـــيراً مـــن المسلمـــين الذيـــن لايعرفون العربية يلجؤون إلى حفظ القرآن الكريم كعبادة اعتمادا على العادة الحركية المكتسبة عن طريـــق تدريب أعضاء النطق، وربما يـــؤدي هذا الحفـــظ إلى التعامل مع العربية لا على أنها لغة عبادة، بل على أنها لغة فهم وإفهام وتواصل مع الآخرين، الأمر الذي يمكن أن يؤدي إلى كسب أرض جديدة للعربية، واتساع التعامل بها، إلى جانب اللغة الأم لهـــؤلاء المسلمين ومهما قل عدد هؤلاء الذين يلتفتـــون إلى ذلك فإن ذلك في صالح العربية في النهاية.

٣- إن تعلم العربية اكتساب قبل أن يكون انتسابا، فقد جعل النبي (ص) لها مكانا أثيرا، فحين سمع أن هناك منافقا نال من عروبة «سلمان الفارسي» دخل المسجد غاضبا، وقال: أيها الناس، إن الرب واحد، والأب واحد، وليست العربية بأحدكم من أب أو أم، وإنما هي اللسان، فمن تكلم العربية فهو عربي، ويبدو أن المسلمين ساروا في هذا الطريق وعلى حد ما نعرف أن الحجاج بن يوسف الثقفي حين قال لأهل الكوفة لا يؤمكم إلا عربي، وثب البعض على «يحي بن وثاب» وكان مولى – فما كان من الحجاج إلا أن أنبهم قائلاً: ويحكم إنما قلت عربي اللسان.

٤- إن هناك إقبالاً متزايداً من أبناء الجاليات العربية الإسلامية المقيمة في كثير من بلدان العالم على دراسة العربية، من منطلقات تراثية، ودينية وتزداد أعداد هؤلاء الطلاب عاماً بعد عام، إلى جانب دخول اللغة العربية في الوقت الحاضر إلى وعي معظم الأمريكيين المثقفين ورجال الإعلام والأعمال بسبب الربط بينها وبين القضايا الاقتصادية والتجارية من ناحية والقضايا المهمة في المنطقة العربية والإسلامية، كالنفط والقضية الفلسطينية والمشكلة اللبنانية.. وما يسمونه في أمريكا «بعودة الإسلام» من ناحية أخرى.

٥- إن وجود كثير من القنوات الفضائية والتي تقدم برامجها باللغة العربية فيها ما يطمئن العرب على لغتهم، إذ إنه بالتأكيد أن هذه القنوات تتحرى استخدام العربية الميسرة، لاستقطاب أكبر عدد ممكن من المشاهدين، الأمر الذي يمكن رفع مستوى هذه اللغة أو تعلمها، حتى عند الذين لم ينالوا قسطاً وافراً من التعليم، لأن بعض القضايا المطروحة تهم شريحة معقولة من الناس، وتحظى بمتابعة شديدة لأنها تمس جانباً ثقافياً، يدخل في دائرة الاهتمام.

٦- إن اللغة العربية أصبحت لغة رسمية في عدد من المؤسسات العالمية يجيء في مقدمتها الأمم المتحدة، فقد جاء في القرار رقم ٢١٩ في عام ١٩٧٣ أن الجمعية العامة إذ تدرك ما للغة العربية من دور مهم في حفظ حضارة الإنسان وثقافته، كما تدرك – أيضاً أنها لغة تسعة عشر عضواً من أعضاء الأمم المتحدة.. (آنذاك) تقرر إدخال اللغة العربية ضمن اللغات الرسمية ولغات العمل في الجمعية العامة ولجانها الرئيسية.

٧- اتساع دائرة القراءة باللغة العربية سواء أكانت هذه القراءة ناشئة عن ميول

حقيقية أم كانت اضطرارية تفرضها طبيعة العمل، ويبدو أن هذا الاتجاه هو الاتجاه السائد لأن الظروف السياسية والاقتصادية التي فرضت نفسها على البلاد العربية أملت على متخذي القرار – أيا كان مستواه – استخدام العربية، سواء بنفسه، أو بغيره، خاصة الصفقات التجارية، وما يتبعها من السفر وتبادل الرسائل ودعم ذلك من استخدام للإعلام، والإعلان، ناهيك عن الخطاب السياسي للملوك والرؤساء العرب، الذين يتحرون استخدام لغة عربية دقيقة ومعبرة.

٨- إن مجال مراجعة العربية وبرامجها والتأكد من سلامتها أصبح اليوم أكثر إلحاحاً، سواء في لغة الكلام، أو في لغة الكتابة، خاصة أن جمهور المتلقي زاد وكثر أكثر من ذي قبل، فالشاعر العربي القديم كان يتأنق في قصيدته ويخضعها للتأني والمراجعة لأنها ستعلق على جدران الكعبة، أو سينشدها أمام الخليفة، أو الأمير، أو سيلقيها في محفل، وفي كل الحالات فهو وسط ضيق ومحدود. أما اليوم فقد زاد الجمهور على الملايين، سواء في الإذاعة أو التلفاز أو في الصحافة، وهذه المواجهة ألقت على المتكلم والكاتب بالعربية مسؤولية أكثر، حيث يتحتم عليه إما من نفسه أو من الجهات المسؤولة تحري الدقة في التعبير، والسلامة في التراكيب، لأن اللغة الخالية من الأخطاء تجبر السامع والقارئ على احترامها، وعلى احترام من ينشرها، وبالمثل فإن اللغة المليئة بالأخطاء نحوية أو صرفية أو صوتية أو غير ذلك يعاب صاحبها وقد يقابل بالانصراف عنه وعدم الاكتراث بما قدم.

مشكلات تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها:

لعل من أبرز مشكلات تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها ما يلي:

١ – إن العربية تختلف عن اللغات الأخرى في الأصوات وطرق نطقها ومخارجها، والوحدات الصوتية وارتباطها بالمعنى، وأقسام الكلم، وطرق الصياغة العرفية، وطرق تركيب الجملة، والسياق الذي يفرضه الاستعمال على حساب الأصل، والثروة اللغوية والمعنى المقابل للكلمات، بحيث لا يتوافر الالتقاء التام بينهما في المعنى.

٢ – إن الجمل والأساليب والعبارات المحملة بمعان بعيدة، وتضرب بجذورها في صميم الثقافة العربية والإسلامية تمثل مشكلة في الفهم لدى الدارس الأجنبي للعربية، مثل: فلان قطع شعرة معاوية بينه وبين أخيه، جنت على نفسها براقش، أو

«الكرم الحاتمي» أو «وامعتصماه»، ولابد أن يقف الدارس هنيهة، أو ما فوقها ليرى القصد من هذه الإشارات.

٣ - إن المفردات الأساسية التي تلبي حاجات الدارسين من غير العرب، والتي تمكنهم من الاتصال اليومي -في الأقطار العربية- تبدو غير كافية، ولا تغطي المواقف التي يمكن أن يمروا بها، رغم استغلال قوائم المفردات الشائعة، ولعل السبب في ذلك اختلاف الميول والرغبات لدى مستخدمي هذه القوائم.

٤ - إن من المشكلات التي ما زال ميدان تعليم اللغة العربية -كلغة أجنبية يعاني منها - افتقاره إلى التحديد الدقيق للمهارات اللغوية التي ينبغي أن يشتمل عليها برنامج تعليم هذه اللغة في مختلف المراحل: المرحلة الأولى والمرحلة المتوسطة والمرحلة المتقدمة، أو كما اصطلح على تسميتها بمستوى المبتدئين والمتوسطين والمتقدمين.

٥ - إن تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها لا يزال - حتى الآن - تخصصاً نادراً على مستوى العالم العربي كله، إذ لا يوجد - حتى وقت قريب - مدارس أو جامعات تهتم بهذا اللون من التعليم ، وأغلب الذين يقومون بالتدريس لا يحملون شهادة دراسية في هذا التخصص، ولكنهم يعتمدون في تدريسهم على خبرتهم الميدانية التي اكتسبوها من خلال العمل، ولا ريب أن وجود المعلم المتخصص المدرب ضرورة في أي حقل من حقول التعليم والتربية، وهو أشد ضرورة في موضوع تعلم اللغة العربية باعتبارها لغة ثانية.

٦ - إن بعض المعلمين يخونه التوفيق في تجنب اختيار عناصر من الثقافة العربية تتعارض مع ثقافات الدارسين، فتسبب لهم إحساساً بالحرج، أو الغضب، أو الدونية، أو النفور من الدرس أو تشحذ في نفوس الطلاب المقاومة، والدفاع عن ثقافة بلادهم وهذا أسوأ ما يمكن أن يحدث لطالب غير عربي، إذ نلجئه بسبب عدم فطنتنا، إلى أن يصبح عدواً لثقافتنا، بدل أن يكون صديقاً لها، لأن الدرس درس لغة، وليس درس ثقافة مقارنة من جهة أخرى. وقد حدد الجهني مشكلات تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها، ووسائل علاقتها في:

١- مشكلات الاستماع: صعوبة فهم كلمات المتحدث باللهجة العامية.

٢- مشكلات النطق: صعوبة نطق حرف الظاء وحرف الضاد.

٣- مشكلات الكلام: صعوبة التحدث دون تردد أو تعلثم.

٤- مشكلات القراءة: صعوبة فهم معنى الكلمات من سياق الجملة.

٥- مشكلات الكتابة: صعوبة مراعاة قواعد الإملاء.

٦- مشكلات قواعد العربية: صعوبة إعراب الجمل.

وتحديد المشكلات وعلاجها وما ينجم عنها هو طريق التنمية اللغوية للدارسين.

خاتمة:

ومن خلال معايشة المقروء لهذا المقال، والمصادر التي تم الرجوع إليها، يمكن التقدم بمجموعة من التوصيات، مصنفة طبقا لما يلي:

• بالنسبة لمعلم اللغة العربية لغير الناطقين بها يراعى فيه ما يلي:

١- الإفادة بما توصل إليه من البحوث والدراسات في هذا الشأن، واستغلال الخبرات الشخصية، وخبرات الآخرين، لأن اللغة العربية واجب خدمتها، ومفروض نشرها.

٢- التسلح بالصبر وقوة التحمل، لأن العمل في هذا المجال رسالة، قبل أن يكون وظيفة، واللغة لا تكتسب بسرعة بل تتطلب وقتا ما.

٣- تمتين العلاقة الشخصية بين الدارسين، والعمل على توطيدها لأن ذلك من شأنه تقبل الدارسين للغة، وضمان زيادة الإقبال عليها.

٤- اختيار أفضل العناصر البشرية من المعلمين للتدريب العالي في تعليم اللغة العربية، بما في ذلك اختيار مجموعة من الاختبارات لقياس كفاءتهم اللغوية، واتجاهاتهم نحو مهنة التدريس.

٥- إلزام معلمي اللغة العربية للناطقين بغيرها على استخدام الفصحى في التدريس.

• بالنسبة للبرامج التعليمية:

١- دعوة المنظمة العربية للتربية والثقافة، والمنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم لإنشاء برنامج متكامل يعرض على شبكة الإنترنت يراعى فيه ما يلي: أن تختار المادة العلمية المناسبة بعناية تامة مرتكزة على القيم والثقافة الإسلامية. أن يقوم على أدائه المختصون في هذا المجال. أن تطبق فيه الطرائق التربوية الحديثة المعتمدة على الوسائل التعليمية المشرفة. توفير مختصين يتولون الإجابة عن الاستفسارات المقدمة من المدرسين المستفيدين من هذا الموقع التعليمي.

٢- دعوة المراكز والمعاهد للاستفادة من الحاسوب في تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها، وإنتاج برامج حاسوبية، وفقا للدافع الحضاري والديني للدارسين.

٣- تقديم برامج مسموعة ومرئية

منظـورة لتعليـم اللغة العربيـة عن طريق وسائل الإعلام كالإذاعة والتليفزيون وكذلك إنتاج أفلام وتسجيلات يمكن الإفادة منها في تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها.

٤- الإكثار مـن البرامج التعليمية، حتى لـو أدى الأمـر إلى أن يكـون لـكل جنسية برنامـج خاص بهـا، مستنـدا في ذلك إلى الدراسات الاجتماعيـة، والنفسية الخاصة بتلـك الجنسية، وزيادة تدريـب المعلم على هـذه البرامج، لأن التنويـع مطلب إنساني، وتعليمي أيضاً.

٥- التواضـع في تحديـد أهداف هذه البرامـج، لأن اللغة تتطلـب وقتا طويلا في تعلمها، خاصـة اللغة العربيـة، وإذا كان الهدف من تعلم لغـة ما هو الفهم والإفهام -فإن العربيـة تزيد عن ذلك بالوقوف على عظة الإعجاز القرآني.

• بالنسبة لطرق التدريس:

١- تطويـر أسلـوب التدريـس وفقـا للأساليب الحديثة في تعليم اللغات.

٢- اختلاف طريقة التدريس تبعا لهدف الدارسـ من تعلمه تلك اللغـة وبالتالي فإن على المعلم أن يقف على مجموعة من الطرق التي تسمح لـه بالاختيار منهـا ما يناسب الدارسين.

٣- دعـوة المراكز والمعاهـد إلى الأخذ بالأساليب الحديثة في طرق التدريس خاصة في المجالات الآتية:

أ - تفريد التعليم بأشكاله المختلفة.

ب - التدريس بالفريق.

ج - تدريس الزملاء.

د - ملفات المناقشة.

هـ - التدريس المصغر.

و - التعليم بالمراسلة.

ز - التربية المستمرة.

٤- الوقـوف علـى المشـكلات المتعلقة بالتدريـس، والتـي يتوقـف عليهـا كفاءة المخرجات التعليمية، وحل تلك المشكلات ما أمكـن من قبل المعلـم، أو من قبل المؤسسة، لأن التغلـب على المشـكلات بداية النجاح الحقيقي.

• بالنسبـة للمؤسسـات التعليمية التي تقوم بهذه المهمة:

١- إيجـاد نوع من التنسيـق والتعاون، وتبـادل الخـبرات في هـذا المجـال، لأن المستهـدف هـو خدمـة العربيـة وتيسير تعلمها.

٢- تشجيع الدراسات والبحوث العلمية في هذا المجـال، لتمكين الدارسين من تعلم العربيـة في أقصر وقت ممكـن، فالسرعة مطلب من مطالب العصر.

٣- فتـح المجـال أمام المنـح المالية من

الحكومات، والأفراد، لاستخدامها في البحث العلمي، ومرتبات المدرسين، فالمال يحرك البواعث الإنسانية، ويدفع إلى مضاعفة الجهد في العلم.

٤- تشجيع التنافس بين المعاهد المتخصصة في تعليم العربية لغير الناطقين بها، في مجالات التعلم المختلفة، واستقطاب أكبر عدد ممكن من الدارسين، لأن اللغة هي البوابة الرئيسية للثقافة.

المراجع والإحالات

١- د. إبراهيم محمد عطا، دليل تدريس اللغة العربية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ٢٠٠١.

٢- د. تمام حسان، التمهيد في اكتساب اللغة العربية لغير الناطقين بها، جامعة أم القرى، سلسلة دراسات في تعليم اللغة العربية، مكة المكرمة.

٣- د. راجي محمود راموني، اللغة العربية في الجامعات الأمريكية بين التقليد والتجديد، مجلة «التربية» السعودية، الرياض، العدد ٩٢.

٤- عائشة عبد الرحمن، لغتنا والحياة، دار المعارف المصرية، القاهرة .

٥- د. عبد الحميد الشلقاني، السجل العلمي للندوة العالمية لتعليم العربية لغير الناطقين بها، عمارة شؤون المكتبات الرياض.

٦- د. عبده محمد بدوي، أهمية تعلم اللغة العربية، حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت، الحولية رقم ١٦.

٧- محمود أمين العالم، لغتنا في معركة الحياة، سلسلة قضايا فكرية، الكتاب ١٧ / ١٨، القاهرة.

٨- محمد علي الخولي، بعض الجوانب اللغوية والتعليمية والنفسية لدى مجموعة من معلمي اللغة العربية لغير الناطقين بها، جامعة أم القرى، سلسلة دراسات في تعليم العربية لغير الناطقين بها، مكة المكرمة.







المعلوماتية وتشكيل الثقافة
مسألة مجاز

د. جوزيف سليد ❁

ترجمة: أ. د. حسام الخطيب ❁❁

القسـم الثاني

ضوضاء الثقافة: بروز المجاز العضوي

لحسـن حظ المعلوماتيـة أصبح الآن علماء المعلوماتيـة متشككين بشأن مجازات تبـادل السخونة. وكثير منهم يتفهمون العلاقـة الديناميـة، وأيضاً المتناقضـة بـين النظام والعشوائيـة، على أنها مجـازات مختلفة تركز على التعقيد لا الطاقة.

❁ كلية الاتصالات، جامعة أوهايو، وهو أيضاً من كبار رجال المعلوماتية في أمريكا.

❁❁ أستاذ جامعي وأديب وناقد ومترجم ومشرف عام مركز الترجمة في الدوحة (قطر).

العمل الفني: الفنان محمد حمدان.

وربما كان الأمــر الأكثر إثارة هو النسق المنتظم ذاتياً، أي إنه مفهوم ترجع ريادته إلى علماء الاجتماع والاقتصاديين بالإضافة إلى علماء البيولوجيــا. إن النسق المنتظم ذاتياً يرجــع تاريخه على الأقل إلى يد آدم سميث غير المرئية، والتي كانت تتحرك وفق القواعد المنظومة التاليــة. هنا، حينما اتبع الأفراد مصالحهم الخاصة كانت النتيجة اقتصاداً بالغ التعقيد. وكما أشار الفيلسوف جفري ويكــنJeffrey Wickin، كان ماتعتمــده فعــلاً نظرية المعلومات هــو مقدار تركيبية العلاقــات البنيويــة.[1] إن خطط التنظيم الذاتي تولي الأهمية للعديد من نقاط التقاء التواصل وللعديــد من العلاقات البنيوية أو شبكة التداخل، وتمييــز الأنماط، والتغذية الراجعــة. والكثير من هــذه النقاط تدخل بوضــوح تحــت تصنيف الثقافــة أكثر مما تدخل في مجاز الديناميكا الحرارية.

إن تصنيفــات الاتجاهــات متضمنة في كتاب: «طــوارىء Emergency» وهو من الكتــب الأكثر رواجــاً، وفيه يعالــج المؤلف ستيفــين جونســون Steven Johnson قابلية الوحدات الدقيقة لـ(الخلايا الفطرية، الغروية، النمــل، الجوارات العضوية)، التي تتضافــر وتنظم نفسهــا بطريقة هرمية في كلٍ مركّب. وهنا يــبرز التنظيم، لا كمجرد حصيلــة قرارات عشوائيــة ولكن في صيغة تجمّع جديد بالغ التركيب بما يفوق كل جزء يدخــل في تكوينــه. وهنا لا مجــال لأوامر بيروقراطيــة، ولا لتنظيم طبقي، ولا لآليات تحكّم، باستثنــاء قواعد بسيطة لها دورها. وهنا لا يتطلب الأمر قفزة كبرى للتفكير في ثقافــةٍ – أيّ مجتمع يُعرّف من خلال المكان والزمان والإرث المشترك والأوامر الجماعية أو المصالح المتبادلة – مثل بنية ذات تنظيم ذاتي يتفاوت في تركيبه. وهناك كتب كثيرة ناقشت موضوع التجمعات الشعبية الصغيرة مثل(*):

James Suroweicki's: The wisdom of Crowds: Why the Many Are Smarter Than the Few and How Collective Wisdom Shapes Business (New York: Doubleday, 2004);

Malcolm Gladwell's: The Tipping point: How Little Things Can make a Big Difference (Boston, Little, Brown, 2000);

Mark J. Penn's Microtrends: The Small Forces Behind Tomorrow>s Big Changes (New York: Grand Central, 2007);

Michael J. Mauboussin's: More Than You Know: Finding Financial Wisdom in Unconventional Places (New York: Columbia University Press, 2006);

and Steven D. Levitt and Steven J. Dubner's Freakonomics: A Rogue Economist Explores the Hidden Side of Everything (New York: Morrow, 2005).

والمعالجات المذكــورة أعلاه عملت كلها

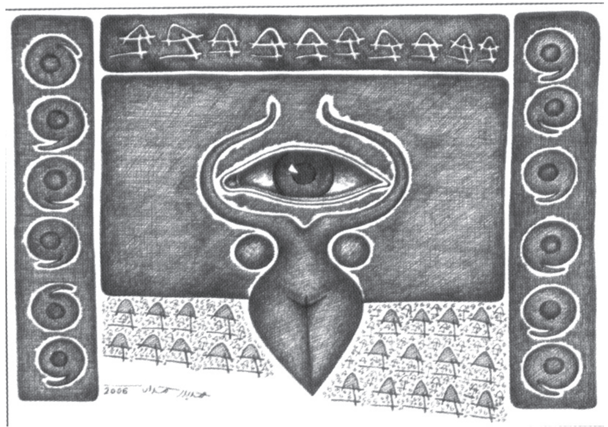
على كشف أعمال وأنماط فكرية ذات طابع ثقافي غير عقلاني أحيانا، ومستقل وصغير ومهمل غالباً إلى أن يتم تنظيمه ذاتيا. وبينما ينظر الأكاديميون شزراً إلى مثل هذه التقارير «الصحفية» فإن عرض مثل هذه الظواهر يوحي بمستوى من التقبل الثقافي لمجازات التنظيم الذاتي. ثم إن الصحفيين (حسب القول المأثور) يكتبون عادة أول مسودة للتاريخ. وقد يتساءل المرء هل صحيح أن الجماهير تمتلك بالفعل حكمة جماعية. إلا أن نظرة واحدة على مدخلات ويكيبيديا Wikipedia في المعلوماتية ربما كانت كافية للإقناع.

وإذا كانت المجازات القديمة تعطي أفضلية للتحكم فإن التنظيم الذاتي يركز على الاستقرار الدينامي الذي يتحقق على أساس التوازن المدروس بعيداً عن التدمير الخلاق. ومثل كل نظام آخر، سواء أكان على نمط الديناميكا الحرارية أو غيره، ينبغي على كل نسق مركب أن يبتعد عن التوحيد المركزي من خلال الاختلاف والتخصص والتوزيع البنيوي للأجزاء. إن النقطة التي تفرض نفسها هي مسألة الطاقة، التي بقيت من تراث الديناميكا الحرارية. وفي هذا الشأن يميز المنظرون الذين ينادون بمجاز عضوي للثقافة، يميزون بين أنظمة العيش وآلات الحرارة. والمفكرون المتباينون مثل غبز Gibbs وشرودنغر Schrodinger وجورجيسكو-روجن Georgescu-Roegen أسهموا في تأسيس مفهوم «Exergy»، الذي هو مصطلح حاسم، كما يقول ألف هورنبورغ Alf Hornburg الناقد الذي يدعو إلى مزيد من التركيز على المجازات العضوية المعلوماتية. إن الطاقة الخارجةExergy تساعدنا على فهم العلاقة بين الطاقة المعلوماتية والبنية المادية، ذلك لأن البنى، مثلها مثل العضويات الحية، لا تستهلك «الطاقة» التي لا يمكن خلقها أو إتلافها، ولكنها بدلاً من ذلك تستهلك النظام الذي يمكن اشتقاقه من الطاقة. إن الطاقة الخارجية هي صفة من صفات الطاقة، تدل على درجة النظام أو المعلومات التي تحتويها، ومثل هذا النظام في الطاقة يمكن غرسه في نظام البنى المادية أو تحويله إلى إشعاع، ولكن دائماً ما تنتج عنه خسارة في مجمل النظام.[٢] إن التناقضات الظاهرية بين الطاقة والزمن المرتبط بالديناميكا الحرارية كذلك تدفع العلماء الكونيين إلى اللجوء إلى الافتراضات بأن الثقوب السوداء هي أشبه بوعاء معلومات وأن أدمغة بولتزمان Boltzman هي حالات من الوعي

والشعور في سيناريوهات أبعد عن المألوف من السيناريوهات الواردة في كتاب «اقتصاد المتسكعين Freakonomics».[٣]

ولكن المجازات الأكثر وروداً بالنسبة للثقافة في هذه الأيام تأتي من مختبرات العلم التكويني والعضوي وبعضها ينبىء أن الثقافات قد تتولد مثل عروق متجذرةrhizomes وتتلاقح فيما بينها لتخلق نغلاً هجيناً، ولأن التنظيم الذاتي كان واضحاً منذ البدء عند داروين فإن ملامح الأنساق الحية في نموها باتجاه توازن الاستقرار والتجدد تجذب طلبة كل من المعلوماتية والثقافة. وما دام مشروع الجينوم البشري يعمل على إنجاز خريطة تتابع الـ DNA وقد اكتمل عام ٢٠٠٣، فإننا ما زلنا نحتاج إلى كثير من التفصيلات التي يمكن أن تغير من تفكيرنا وأحكامنا.

إن خصائصنا تترجم من خلال جينات أو أجزاء من الحمض الرّيبي النّووي المنزوع الأكسجين (دي-إن-آ DNA)، التي هي ليست إلا خيطاً مما يقرب من ثلاثة بليون زوج من أربعة خلايا أدَنين adenine، سيتوسين cytosine، غوانين guanine، وثيمين thymine، وهي تُختَصر عادة



من خلال الأحرف التالية: A. C. G و T. A. C. G، و T، وهي رموز لأبجدية لغة تتكشف قواعدها وتراكيبها ببطء بالغ لأن التعامل مع مثل هذه الأرقام المرعبة مازال محدداً بشكل أساسي بدراسة جينات مفردة.

لكن من الواضح أن هذه اللغة الحية، باتباعها قواعد نحوية وتركيبية يمكن لبعضٍ منها أن تُستوعَب بوصفها تفاعلات جواريةٍ أو شبكية، وتَعَرُّفٍ نمطي وتغذية راجعة، هذه اللغة الحية تخلق الجِدّة من خلال التدوير المتبدل mutation في عملية إخبارية يكون مصدرها «الضوضاء noise». ويحدث التدوير المتبدل على شكل حروف مفردة في قاعدة أزواج «النوَويد nucleotides» تسمّى تشكلات نوويدية متعددة التركيب (SNPs) يبلغ تعدادها

آلاف الملايين. وتحدث التدويرات المتبدلة عشوائياً على شكل أخطاء في الانتساخ أو الاستنساخ المغلوط أو في التهجئة الخاطئة أو في التقلبات الفجائية أو في التعميمات المبالغ بها. (على حين تتداخل أعداد هائلة من العوامل المختلفة يبدو أن بعضاً منها يمكن أن يكون له وظيفة تتجاوز مجرد التغيير الرمزي، وذلك مثل الممّرضات pathogens والفايروسات viruses والمايكروبيومز micro biomes والأبي جينيتكس epigenetics(**)).

إن المجازات تتوافر هنا بغزارة وتُطرح في الحلبة الثقافية على يد المختصين بالتطور مثل مصطلحات ريتشارد داوكنز Richard Dawkins «المراقب الأعمى blind watch maker»، الذي هو مصطلح يذكرنا بالعصر المجازي للساعات، أو «الجين الأنانية the selfish gene» الذي يشخص التطور على أنه ناجم فقط عن إعادة الإنتاج والبقاء.(٤) وقد اقترح داوكنز أن الجينات لها مشابهات في شكل «ميمات memes»، أي كلمات أو أفكار تنسلّ من خلال ثقافة ما، على نحو ما تتفشى وتتسارع إمدادات النقود (MI) في اقتصاد كينزيّ Keynesian. وقد دفع هذا النوع من الإغواء أحد المتدخلين على الإنترنت ليحاول حساب مدى سرعة الميمة في التحرك على محيط السجل المفتوح (على افتراض أن الفراغ السبراني blogosphere محاطٌ بأبعادٍ ما). وتبيّن أن مشروع انتشار الميمة لا حدود له: إذ تبيّن أن بعض التسجيلات تسبَّب في إيقاف انسياب الميمات على حين أن بعضاً آخر تسبب في تسريعها.(٥)

إن الجينوم genome بالمعنى المعلوماتي العام، يشبه نصاً بشرياً أو سرداً من خلال اللغة. وعلى مستوى عميق ودقيق، يمكن القول إن اللغة أيضاً هي نسق ينظم نفسه ذاتياً، ذلك لأن أعرافها (أي قواعدها) تقوم في آن معاً بمقاومة التغيرات وأيضاً بالسماح لها من خلال تفاعلات متشابهة، وتعرّفٍ وتغذية راجعة. إن كل عضوٍ في ثقافة ما لابد أنه تصدّى لمسألة ترميز الرسائل لكي ترسل دون أن تتعرض لوطأة «الضوضاء» أو لمصالحته- ولم يكن ذلك حكراً على مهندس المعلومات كلود شانون Claude Shannon - بل إنهم يظلون جميعاً مدهوشين بمدى صمود الضوضاء إزاء محاولاتهم.

إن جميع الأقنية وجميع عمليات الترميز تظل عرضة «للضوضاء»، والقسم الأكثر ضوضاءً هو القسم الذي يستطيع أن يقدم أقصى ما يمكن من المعلومات التي تقاس بما تحمله من تجاوزٍ لما هو متوقع، ولكن

النوع من المعلومات الأكثر ضوضاءً (أي الأقل تنظيماً والأقل حسماً) يبقى أيضاً هو الأقل فائــدة. ذلك أن المعنى بالتأكيد ليس وظيفةً من طبيعة «الضوضاء»، بل هو تنظيم معتمد على التركيبية وليس مجرد ترتيب order.

إن الضوضــاء هي رسالة تعنــي دائماً الغموضــ وتآكل الإشارة، وضياع المعلومات. إلا أن النســخ البيولوجيــة الخاصة لنظرية المعلومــات تفسح المجــال للضوضاء – من خلال أخطاء «دي- إن- آ DNA»، من مثل الروامــز غير المعقولة في بيــان متعلق بعلم الوراثة – هذه النسخ يمكن أن تكون مصدراً للتجديد أو لمعنى جديد (مثل التحول المتعلق بالنمــو). واستناداً إلى الناقــد مايكل سرز Serres الــذي نادى بــأن الرسالة يمكن أن تنقــل نسيجاً غــير مقصود، يقــول رونالد بولسن Paulson في «ضوضاء الثقافة» إن الضوضــاء هو «أي شيء يتــمّ تلقيه دون أن يكون جزءاً مما جرى بثه»[٦]. وإنه لأمرٌ مغرٍ الادعــاء بأن اللغــات الطبيعية – تلك التي تخضــع للترميز سواء من خــلال البيانات الشفوية أو النصوص المكتوبة – تكون عادة ذات ضوضــاء خاصة لأن علاقاتها البنيوية غامضة إمــا بالمصادفة وإمــا بالقصدية. فمــن جهة تبــدو مثل هــذه اللغــات شبه عضويــة بمعنى أن النــاس يمكن أن يكونوا مبرمجين وراثيــاً – كما يقــترح تشومسكي – استنــاداً إلى فرضية مسبقــة، ومن جهة أخــرى يبــدون وكأنهم مصطنعــون جزئياً بمعنــى أن العناصر الرمزية في لغتهم يمكن أن تكون منقوصة بالنسبة إلى الحقيقة التي يمثلونها ومعرضة للتلاعب باستقلالية عنها من خلال بُنــىً دائمة التجدد. والغريب أن الجانب التقاني مــن اللغات «الطبيعية» هو الذي يعطي ألسنتنــا امتيازها عن «اللغات الاصطناعيــة» مثــل الأنظمة المرئيــة، أو الرياضيــة أو الموسيقية، وذلــك بمعنى أن الكلمة يمكن أن تنــال رفعاً من شأنها يفوق الصــورة مثلاً أو الأشياء الأخــرى. إلا أن هــذه الميزة لا تكمن إلى حــد كبير في غلبة «ضوضاء» اللغة الطبيعية من مثل مقدرتها علــى ترميز حجوم من المعلومات أكبر بكثير مــن الأنظمــة المنافســة. إن تفــوق اللغة الطبيعية قد يمحــو من القواعد والتراكيب ما تستطيع اللغات البصرية أن تظهره. وقد استطاع وُلــد واتسون Would Watson وكــرِك Krick أن يحلاّ رمــوز «دي- إن- آ DNA» دون الاستعانــة بزوجــة كريــك الفنانــة، التي استطاعــت أن تبصر الحلية التي لم يكن في مقــدور الرجلين أن يتجاوزا وصفها، ويقــال إن «بيرنرز لي Berners-lee»، شيخ الشبكــة التي تشمل أرجاء العالم

كلـه، منهمك في ما يسميـه شبكة الدلالات اللغوية Semantics web التي يعد بأنها ستعيد البصيرة إلى المعلومات «على مستوى جديد ورفيع» وذلك من خلال وصلها بجدول نقلة جديدة.(٧)

بينمـا تعتمد الثقافـة البشرية اعتماداً شديـداً على اللغـة الطبيعية فـإن مراكز الاشتبـاك العصبـي Synapses والأقنية التي تشكل الثقافة تعالـج نقاط المعلومات الفردية والمجموعـات الإخبارية التي تفوق إلى حـد كبير ثلاثة بليـون زوج من الداويد Nucleotides. ولهـذا السبـب نجـد منظّري الاتصال أكثر انجذاباً إلى نقاد مثل ميخائيل باختين Mikhail Bakhtin أكثر مـن سيريس لأن باختين يركـز على طبيعة «الحوار» في الثقافـة، والحوار الذي يظهر نفسـه في سياقي الزمان والمكان. وإذ يرفع باختين من أهمية السياق الثقافي فإنه يخفض من ادعاءاتٍ استقلالية لأي نص بذاته. إن موقف باختين يكمل نظرية «البيئة الملائمة Niche Theory» التـي ينـادي بها دعاة بيئة الاتصال ممن يعتقدون أن الثقافة هي نوع بيئـي من الأقنيـة المشتركة التي يمكن أن تتغـير تراتبيتها مع امتـداد الزمن. أما كون الرسائل العديـدة التي يجري بثها من خلال هـذه الأقنية – الشفويـة والطباعية والبصريـة والإلكترونية – تشـكل بيئة من المعلومات الوسيطة. فهذه الحالة يجب ألا تطمس الوظيفـة الأساسية لهذه التراتبيات الثقافيـة – ليست بيروقراطيـة بالضرورة – التي تتولى خلق المعنـى من خلال تنسيق الرسائـل بدينامية لامتناهية. ولأن الثقافة منطقـة عليا من المعنى فإنها ثقافة معالجة معلومـات عليـا. وتأسيساً علـى تركيبية الثقافة، وهي تركيبية لا تنتج فقط عن وفرة من الشيفرات والعلاقات البنيوية ولكن أيضاً من خلال العدد الوفير من الأقنية التي تنقل المعلومة، يظلّ من المستحيل تحديد القابلية الذاتية التنظيمية لأي مكوّن محلي من مثل رسالة معينة أو نص. ولا يمكن لأي مصدر بعينـه أن يكون مستقلاً اللهـم إلا في إطار الثقافة البدائية جداً. ثم إنّ لحظات خاصة جداً من خلال سيطرة تراتبية معينة بذاتها تمكّـن أي شيفرة أن تمارس تأثيراً في المعنى يفوق المعدل. وفي أيـة حالة سوف يخضع هذا المعنـى إلى المعنى الـذي ينشئه معالج ثقـافي يفوقه حجماً إلى حـد كبير، ويعالج «الضوضـاء Noise» – (بوصفها مخرجاً) ليس فقط لنص محدد ولكن أيضاً من خلال معالجات أخـرى. وبالتحليل النهائي تظل الثقافـة أعلـى من كل المعالجـات الأخرى للمعلومات.

وتفسير ذلك هو أن الثقافة يمكن أن تتعامل بسهولة مع «الضوضاء» التي هي تراث أية ثقافة. ومن الممكن التوصل إلى مفهوم الثقافة من خلال مخزونها المعلوماتي أو إذا شئنا، من خلال مخزونها الهائل من المعرفة، وقد مارس ذلك عدد من المؤرخين. وفي أعمق المستويات الأساسية، تجد كل بنية بشرية (من المكتبات إلى الحكومات)، وكل صنعة بشرية (عملية أو فنية) المعلومات على شكل معرفة متراكمة وتجربة وخبرة - تتكون اجتماعياً- ومعلومات معالجة تم الارتقاء بها، وذلك على نحو ما كشفته الدراسات الكلاسية للصنعة البشرية على اختلاف أنواعها من أقلام الرصاص إلى السحابات zippers.[٨]

ومن بين وظائف الثقافة أن تكون تجميعاً على امتداد الزمن للأصوات والإيماءات والنصوص والمعلومات المكتسبة والرسوم والعروض، وبعضها معلومات أساسية تطفو على السطح من خلال التراث الشعبي «فولكلور» أو ما أشبهه من أقنية الماضي المخزونة، وبعضها يكون مُعدّلاً ومتوافراً من خلال وسائل الإعلام الرسمية. ولكن يكون بعضها مضطرباً، ونوعاً من الفضلات SNP في أحسن الأحوال، أي إنه حثالة وفضلات الضوضاء المطروحة جانباً نتيجة لتفسيرات خائبة لوقائع المعلومات، أو مجرد رسائل تكون فيها نسبة الضوضاء إلى العلامة sign عاليةً: اتجاهات، أزياء، أوهام، أساطير، خرافات، حقائق مشوهة، آراء، أيديولوجيات، أكاذيب، دعايات، خزعبلات. وفي أية ثقافة ما وسواها يجري تداول رسائل ذات ضوضاء في رحاب المعاهد المركزية واللامركزية، والجماعات المحلية والعالمية والمعلمين والتلاميذ والآباء والأطفال والمعارف والغرباء: منبوذين ومستعادين، مشوهين ومتماثلين للشفاء، وتحت ظروف مواتية أو عرضية، وربما غامضة، كل هؤلاء قادرون على توليد (أو خسران) المزيد من المعاني التي كانت مبرمجة أو مرمّزة coded في داخل ذواتهم. إن المجموعة السكانية ترسل أو تتلقى رسائل ليست ببساطة من النوع الذي يعرض في الكتب والمكتبات والمتاحف، ولكن أيضاً تتلقى أصولاً لخبرات محسوسة بالاشتراك مع وكلاء في أداءٍ مصمَّمٍ أو عَرَضي. إن الضوضاء تتسرّب إلى عدة مفاصل من البث، بل أيضاً من خلال معانٍ غير مقصودة (لنقل إنها حثالات) حيث يحدث التجديد. وعلى الرغم من كونها موثوقة وغير متوقعة، فإنها تجعل التجديد عصياً على القياس، ذلك أن مجرد الطبيعة المركبة للشبكات

الثقافيــة تمكنهــا من أن تنتعشــ وتستعيد الاستقرار الذاتي سواء من خلال التناقض أو العشوائية.

وليس من الغريب أن تتسبب الارتيادات الجديدة في تشويه المجازات التقانية الأقدم عهداً. (وبهذا الصدد يمكن لنا أن نلاحظ أن المجازات القديمة لا تموت أبداً بل تتراكم بدورها في شكل حُثالات من الضوضاء). إن الارتيادات في مجال الذكاء الاصطناعي قد أنتجت بشائر مبالغاً بها حول «البث المحسوس للوعي البشري الجماعــي»، إلى جانب كون الثقافة أو الثقافة السبرانية يمكن أن تصبح بشكل من الأشــكال «نتاجاً عضوياً جماعياً للعقل» كما قال إمــام المعلوماتية جون بري بارلــو J.P. Barlou.[٩] وربمــا كان أكبر مجاز مركب بشــأن الثقافة هو المجاز الذي أطلقــه المنظــر الإعلامي الألمــاني نكلاس لوهمــان Niklas Luhmann الذي مزج ماكلوهان ولايبنتز معاً علــى أساس رؤيوية وجدانيــة أو تخلُّــق ذاتي منبثــق من لقاء قنالَيْن. ويعتقد ماكلوهان أن العقل البشري يخطــط ويظهر ذاتــه من خــلال شبكات معلوماتية عليا.[١٠]

وأرجو أن يكون قــد اتضح للقارئ أنني لم أحــاول الخوض المباشر في قضية الهوية، وذلك لاعتقادي أن الهوية هي نتاج مشترك بين الوراثة العضوية والبناء الثقافي، وتكون مجــازاً في أحســن تجلياتهــا. وفي الواقع، قصدت أن أعالج مسألة الثقافة والثقافات من زاوية جانبيــة، ومجازياً لأنني لا أعرف أيــة طريقة أخــرى للتقرب مــن مثل هذا الميدان الواســع.[***] إن المجازات – على حد قول الروائي توماس بنشون Thomas Pynchon : «هي فِرْيَة وطعنة للحقيقة». ثم إنه من الممكــن دائماً إساءة استخدامها، فمثــلاً، أدّت قــراءات القــرن التاسع عشر المجازية للنموّ إلى إشاعة عقيدة الداروينية الاجتماعية الخبيثة، مع ما خلفته حتى الآن من عقابيل. ثم إن علماء مثل جفري ويكين Wicken Jeffery يرفضــون رفضــاً باتاً القول بأن التماثل الجزئي المنبثق من نظرية الإعــلام يستطيع أن يدعــم «خرافات» من مثل التنظيم الذاتــي أو الاستقلال الذاتي. ولكن تبقى المجازات ذات أهمية لأنها توجّه أفهامنــا ســواء باتجاه ضبطهــا أو إطلاق العنــان لهــا. وفي أسوأ الحــالات، تقودنا المجــازات إلى إطلاق مفردات جديدة تماماً في اللعبــة اللغوية، ومن المؤكــد أن الثقافة تستطيع بالتأكيد أن تجد قيمة في مثل هذه المفردات.

ومن بــين إحــدى الخــبرات الإنسانية الأكــثر حدة – وهنــا لابد مــن التأكيد أن

الثقافــة هي نوع مــن الممارسة قد لا يكون متطابقــاً مع المعالجــة – يمكن أن نذكر أن المعرفــة أو المعلومــة قد تتعرضــ للضياع، ليســ فقط من خلال المصائــب أو الحرب أو عدم التسامــح أو الغلبة، ولكن أيضاً من خلال مرض ألزهايمر الثقافي، ونحن نعتمد على الثقافة لتحافظ على معلومات مهجورة أو مقموعة غالباً ما تكــون متصلة بالهوية ذاتها، أو ضحية نسيان أو تقهقر في الذاكرة من خلال أقنية تكون غامضة مثل عمليات التركيــب الوراثي. ويجب على الثقافات أن تختــار استمرار العيشــ، وهي ستفعل ذلك دون شــك في مواجهة العولمة وهذا يعني أن المعلومات سوف تُفقــد، أو يؤمل أن تصمد على شــكل «ضوضاء» يمكــن استعادتها في مرحلة تالية. وينبغي على أرباب المعلوماتية أن يحاولوا تخزين أقصى ما في استطاعتهم لمواجهــة أي تنظيــم طوارىء قــد يطيح به مجدداً.

وأولئك الذين يعتقــدون أنّ الرأسمالية تمثــل نهاية التاريخ، من المحتمل أن ينظروا شــزراً إلى كل ثقافــة ضوضائيــة. وفي أية حالــة سوف تتعايشــ المجــازات المتنازعة ولكن بصعوبة. وينبغي أن يكون واضحاً في الأذهان أنني أؤمــن أن الثقافات الإنسانية تشــترك في الكثير مــن أنظمتهــا أكثر من اشتراك الثقافات التكنولوجية. إن الثقافة الحيــة، القائمة على التفاعــل المركب بين أحيائها، تستطيع أن تصمد تحت ضغط أية بنية مصطنعة تفرضــ عليها. إن مجازات التنظيم الذاتــي تستطيع أن تتحدى تقاليد التسيــير والتحكم. وعلــى المعلوماتيين أن يحاولــوا الاقتنــاع بأن الثقافــات يمكن أن تقاوم محاولات التسيير بل أن تبعدها جانباً لأسباب وجيهة وأن تحاول بدلاً منها اكتشاف عمليات اجتماعية أكثر عمقاً، ولاسيما تلك العمليات التي تستطيــع أن تولّد المفاجآت. وعلى المعلوماتيين أن يصغوا وأن يقرؤوا وأن يلاحظوا قبل أن يحاولــوا بسط تحكمهم. وعليهــم أن يكتشفوا مسالــك ثقافية تُيسِّر انسياب المعلومــات، وأن يتخطوا النظريات الخــام مثل «نشر التجديد Diffusion of Innovation ». وربما وجب عليهم أيضاً أن يذكّــروا أنفسهم بانتظــام أن الثقافات التقنيــة، مهما كان ترتيبها المتداخل، ليست إلا مجرد معالجة معلومــات عضوية قائمة على أســاســ المحاكاة، وعليهــم أن يتذكروا أيضاً أن الهوية في أي نوع من الثقافة ليست نسخــة طبق الأصل عن الأخرى. وعلى أية حالة، إن تفحص أيــة سلسلة من المجازات تتيح فرصة جيــدة للمعلوماتيين وهي تعمل على تقديم ما في جعبتها.

الهوامش

1- Jeffrey Wicken, Entropy and Information: Suggestions for a Common Language, Philosophy of Science, 54 (June 1987).

2- Hornborg, Power of the Machine, p. 94.

3- For an amusing account of such speculation, see Dennis Overbye, Big Brain Theory: Have Cosmologists Lost Theirs? New York Times, 15 January 2008, pp. A1, 4.

4- Richard Dawkins, The Blind Watchmaker (New York: Norton, 1986), and The Selfish Gene (New York: Oxford University Press, 1976).

5- Daniel Terdiman, How the Word Gets Around, Wired www.wired.com/culture/lifestyle/news/200463344/05/?curren, accessed 30 June 2006.

6- William R. Paulson, The Noise of Culture: Literary Texts in a World of Information (Ithaca NY: Cornell University Press, 1988), p.78. Like Henri Atlan, Paulson argues that literature is most rewardingly regarded not as artifact, channel, or message, but as a self-organizing, near-organic information processor whose uniqueness lies in its capacity for generating noise that can be meaningful. Literature assumes its noise as a constitutive factor of itself (p. 83).

7- Brian Hiatt, Tim Berners-Lee, Rolling Stone (15 November 2007): 78.

8- See, for example, Henry Petroski, The Pencil: A History of Design and Circumstance (New York: Knopf, 1990), and Robert Friedel, Zipper: An Exploration in Novelty (New York: Norton, 1994).

9- Quoted in Jeff Zaleski, The Soul of Cyberspace (New York: HarperEdge, 1997), pp. 46, 48.

10- The most accessible of Luhmann's several books is The Reality of the Mass Media, translated by Kathleen Cross (Stanford CA: Stanford University Press, 2000).

المراجع

(❖) احترمنا طريقة المؤلف بإيراد هذه المراجع في سياق البحث (المترجم).

(❖❖) بعض هذه المصطلحات غير موجود حتى في أحدث طبعة من القاموس الطبي الموحد (الذي التزمنا به)، ربما لأنها مصطلحات تخصصية حديثة جداً، والحق أنه لا جدوى من ترجمتها وفي كل يوم تتوالد مصطلحات جديدة . (المترجم).

(❖❖❖) يلاحظ في كتابات غربية عديدة أن مسألة الهوية ليست مقلقة كما هي الحال في المنطقة العربية (المترجم).





جون كيتس وطاقة الخيال

د. غالب سمعان ❀

اختـبر الشاعر الرومانتيكي الإنكليـزي جون كيتس (1795 - 1821) John Keats المتع الناجمة عن المظاهر الجمالية المتنوعة، وتوقف في حياته أمام الجمال البشري المحسوس، وذاك الذي تحفل به الطبيعة والفن، وتألم نتيجة للتغير والفساد الذي يطرأ عليه، وهو ما عنى له على الدوام، انقضاء المتع وزوالها، وحتى عندما تكون المظاهر الجماليـة في أبهى صورها، فإن التـداول يجعلها تبهت وتتوارى، ويـترك في النفس إحساسا بالسأم يدفع إلى مواصلة البحث عن التنوع والجدّة في تلك الجماليات المحسوسة. وأمام هذه

❀ كاتب وباحث سوري.

العمل الفني: الفنان رشيد شمه.

الحـــال المؤلمة كان لا بـــد للشاعر من إيجاد حلّ ما، يمكّنه مـــن إدامة المتعة والاحتفاظ بهـــا، وبالرغم مـــن أنه سعى مـــن الناحية الوجدانية، إلى تأبيـــد المتع المحسوسة التي لا يطـــرأ عليها تبدل أو تغير، والتي يستطيع الفن، الـــذي يبقى بعد موت صانعه وفنائه، أن يحتفظ بها، من خلال التغلب على الزمن وتأثيراته، فإنه أدرك أن هذه الغلبة مزعومة وغـــير حقيقية، وهكذا فإنـــه اندفع باتجاه إعطاء بعـــد متعـــال Transcendental للجمـــال المحسوس، أي باتجـــاه خلق مثال الجمال الماورائي، الذي لا يطرأ عليه تبدّل أو فساد. وفي طائفة مـــن أشعاره يدعو إلى اعتماد طاقـــة الخيال Imagination من أجل اكتساب هذا النوع من المتع، وليس من أجـــل إعادة تنظيـــم أو إدراك الواقع المبعثر والمركب، وهـــو ما يبدو بوضوح في قصيدته التـــي حملـــت عنـــوان (التخيـــل Fancy) الذي ينطـــوي بالإضافة إلى الخيال بالمعنى السيكولوجي، على الرغبـــة والولع والتوق، وفيها يطمح إلى اجتناء المتع الحسية، كمنهج حياتي هادف إلى كف السأم والمعاناة وإدامة حالـــة التمتع، فالانطـــلاق وراء التخيل هو البديل عـــن زوال المتع، والكفيل بالاحتفاظ بهـــا، وهذا كله يترافق مـــع خلل في العلاقة القائمة مع العقل والواقع، وهنا أيضا يمكن اعتبار العلاقة مع طاقة الخيال ذاتها، غير سليمة تماماً، ونحن في الحيز السيكولوجي، وما من إشارة إلى الواقـــع وإمكانية التردي فيه، مـــن الناحية الأخلاقية، والشاعر يعلم أن اعتماده على الخيال لن يقوده إلى الظفر، فالمشكلة الجوهرية التي يواجهها في قصيدة (التخيل) هي مشكلة التغير Change وزوال المتع الحسيـــة، نتيجة التداول والذبول، وما يتبعهما من ســـأم ومعاناة، وفيها يكون على صلة عميقة بالطبيعـــة والمظاهر الجمالية المحسوســـة، ودائمـــا يجد منها مـــا يكفي لإعانته وانتشاله من حزنه، في فصول الربيع والصيف والخريف، أما في الشتاء فإنه يشعر بالكآبة، ويستعين بالخيال قصد استحضار المظاهـــر الجميلة التـــي لم يعد لها وجود في الطبيعـــة من حوله، ويؤكـــد للقارئ أن هذا المنهج قادر على حـــلّ المشكلة التي تعصف به، وأخـــيراً يستحضـــر الصـــور الجمالية الحسية، القادرة على إثارة الأهواء البشرية، أي أنه يمتدحها ويسعـــى إلى إيقاظها، دون أية إشـــارة منه إلى إمكانيـــة وجود تناقض بين الأخلاقيـــات العرفية القويمة، وظاهرة الإغراء، ومما هو جدير بالذكر، أن الشاعر يستشعر نوعاً مـــن التعارض أو التنافر بين التخيل والعقل، الذي يلعب دور عرقلة أمام انطلاقات الخيال في الآفاق الواسعة:

دائما... دع الخيال يهيم،
فالمسرة لا تستقر أبدا بمسكن..
المسرة العذبة من لمسة تذوب،
كالفقاعات حين يرجمها المطر.
لتدع الخيال المجنح إذن يهيم
خلال الفكر الممتد إلى ما ورائه.
افتح باب سجن العقل على مصراعيه،
فيندفع الخيال خارجا ويحلق نحو السحاب.
إيه أيها الخيال العذب! فكوا إساره،
فملذات الصيف يفسدها التداول،
ومتعة الربيع
تذوي كما تذوي أزاهيره،
كذلك فاكهة الخريف القرمزي الشفتين،
المتضرّج حياء خلال الضباب والندى،
تبعث السأم لكثرة المذاق. ماذا تفعل إذن؟
اجلس إلى جوار النار، عندما
تلتهب الأحطاب الجافة ضوّاءة
في روح ليلة شتاء،
عندما تخمد الأصوات في الأرض الساكنة،
ويتناثر الثلج المتكتل
حين يطأه حذاء الفلاح الثقيل،
وعندما يقابل الليل الظهيرة
في مؤامرة قاتمة
لتنفي المساء من سمائه.
اجلس أنت هناك، وأطلق لخيالك العنان،
بعقل يختلج رهبة من نفسه،
أطلق الخيال إلى أعلى السماء... أرسله!
فله خدم يلبون رغباته،
سيأتيك، رغم الصقيع،
بالجمال الذي فقدته الأرض،
سيأتيك بكل مباهج الصيف،
بكل براعم مايو وأزهاره،
من الحشيش الندي إلى العسلوج الشائك،
وبكل كنوز الخريف المكدّسة،
في سكينة يلفها الغموض:
وسيمزج هذه المسرات معا
كأنها خمور ثلاثة متمازجة في قدح
تنهل منه وإذا بك تسمع
أناشيد الحصاد واضحة النبرات
وحفيف القمح أثناء الحصاد،
والطيور الحلوة تنشد الصباح،
وفي نفس اللحظة- أنصت!
إنها قبّرة الربيع الوليد،
أو الغربان، تنعق على عجل،
باحثة في كل مكان عن العصي والقش.
تجرّع ذلك الكأس
وسترى بنظرة واحدة
الأقحوان والنوفر،
والزنابق ذات التيجان البيضاء،
وأول زهرة صفراء وليدة انبثقت في الربيع
فوق السور النباتي الأخضر،
سترى زهرة العيسلان متربّعة في الظل،

ملكة منتصف مايو الزرقاء،
وكل ورقة، وكل زهرة
مرصّعة بلآلئ من نفس الرذاذ
سترى فأر الحقول يخالس النظر
متسللا،
هزيلا لطول رقدته في حجره،
والثعبان الذي أنحفه الشتاء
يلقي بجلده على ضفة مشمسة،
وسترى البيض المرقش يفقس
في العش فوق الشجرة،
عندما يستقر جناح أنثى الطير
هادئا فوق عشها الذي يعلوه
الطحلب،
وسترى بعد ذلك العجلة والانزعاج
عندما تخرج جماعات النحل من
خليتها،
وثمار البلوط الناضجة تتساقط
بينما أنسام الخريف تغني.
إيه أيها الخيال العذب! دعوه حرّا طليقا،
فكل شيء يفسده التداول.
أين هو الخد الذي لا يذبل
من كثرة التحديق فيه؟ أين هي الفتاة
التي تظل شفتاها الناضجتان نضرتين دائما؟
أين هي العين التي لا تسئمنا مهما كانت
زرقتها
أين هو الوجه



الذي يود الإنسان رؤيته في كل مكان؟
أين هو الصوت الذي يود الإنسان
سماعه دائما، مهما كانت رخامته؟
المسرة العذبة من لمسة تذوب،
كالفقاعات حين يرجمها المطر
دع الخيال المجنح إذن يأتيك
بطيف امرأة يعشقه فكرك،
عذبة العينين كابنة كيريس
قبل أن يعلّمها إله العذاب
كيف تعبس وكيف تلقى اللوم،
خصرها وجنبها أبيض كخصر هيبي..
وجنبها،

عندما انزلق نطاقها من مشبكه الذهبي،

وسقط رداؤها إلى قدميها،

بينما كانت تمسك بالكأس العذبة،

فهام بها جوف حبًا.. مزّق تلك الشبكة الحريرية

التي توثق الخيال،

اقطع على عجل خيط سجنه،

فيأتيك بمثل هذه المتع

دع الخيال المجنح يهيم،

فالمسرة لا تستقر أبدا بمسكن.

وإذا كانت طاقة الخيال وفق المفكر والمؤرخ الإيطالي جيوفاني باتيستا فيكو Giovanni Battista (1744 - 1668) Vico نامية نمواً عظيماً في العصور البدائية السالفة، فإن أولئك الذين عبّروا عن أحلامهم وأمانيهم فيها، إنما فعلوا ذلك بتلقائية، ولم يضطروا إلى استبعاد العقل والتنكر له، عبر جهد إرادي مقصود، مثلما بدا أن جون كيتس يسعى إلى الدعوة إليه والقيام به، وهذا كله يشير إلى رغبة الشاعر الوجدانية في العودة إلى تلك الأزمنة البدائية القديمة، أو إلى إحيائها في العصور الحديثة، من خلال نماذج بشرية تؤمن بالخيال، وتسعى إلى استبعاد العقل من وجدانها. وإن «التخيل» الذي يلجأ إليه في القصيدة المذكورة استرجاعي في أكثره، أي إنه يسترجع خبرات حسية أدركها فيما مضى، دون أن تكون القصيدة خالية من التخيل الإبداعي الفني، الذي يعني إضافة أخيلة لم يختبر الشاعر مضمونها الحسي بالشكل الذي عرضها فيه. ومن منظور أخلاقي عرفي، وهو شأن لم يعبأ به الشاعر، أي إنه لم يستشعر في ذاته ما يدفعه إلى الإشارة له، فإن الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت (1596-1650) Rene Descartes رأى في التخيل مصدرا خطرا للضلال، عندما يكون ناجما عن انفعال جسدي، وكمثله أشار الفيلسوف الهولندي باروخ سبينوزا (1632 - 1677) Baruch Spinoza إلى أن التخيل يكون قوة غير أخلاقية، عندما يقوم على أساس الأفكار التي لا تطابق الواقع، أو يكون مصدرا للأهواء التي تستعبد الإنسان، وهكذا فإن أداء جون كيتس يبدو غير أخلاقي وفق هذا المعيار الخارجي، الذي لن يكون بالإمكان اعتباره معياراً ذاتياً قائماً في ذاته، ما دام غير قائم فيها بالفعل، أي إنه يعني الفيلسوفين المذكورين، بأكثر مما يعنيه. والمأثور عن الكاتب العربي اللبناني ميخائيل نعيمة (1889-1988) اعتقاده بالمكانة الرفيعة التي تتصف بها القيم الأخلاقية، وبأنها أجدى من المعرفة الحسية، لدى محاولة الظفر بالرضى الحقيقي، والتقرب

إلى الله، ففي بدايـــة كتابه (البيادر) وتحت عنوان «في العاصفة» يختبر المتع الحسية في فصول الربيــع والصيف والخريف، ويقصر كلامه على المظاهـــر الجمالية في الطبيعة، وكلما لاح له أن المتعة التي يظفر بها، كافية ودائمة، وغير قابلة للزوال، يكتشف أن التغير الــذي يأتي علــى الجماليــات المحسوسة، يأتــي أيضاً على المتع المتولــدة عنها، وأنها تستحضر معها أحزاناً، تكشف النقص الذي يرافق طبيعتها، وتدفــع باتجاه أداء حياتي أنقى، وأكثر جدارة باعتباره مصدرا حقيقيا للسعادة، وأخيراً تهــب العاصفة في الشتاء، ويشعر بالجــوع والعطش والبرد، ويدخل في دوّامة الخوف واليأس، غير أنه يتمكن أخيرا من اكتساب الفضائل الأخلاقية، وإدغامها في بنيانــه السيكولوجي الذاتــي، ويستبدل الرؤى الخياليــة الحسية، بالرؤيا Vision الروحية المتعاليــة، أي الواقعة فوق مستوى الإحساس العادي، والتفكير العقلاني المألوف، وبالفعل يتمكن من التقرب إلى الله، والظفر بالسعــادة الروحية الحقيقية. وبالمقارنة مع جــون كيتس، يبدو لنا بوضوح، أداء أخلاقي يختــبر التجــارب الحسية، ويكتشــف أنها غــير كافية، فيندفع باتجاه المعرفة الروحية الأعمق، والأقدر على إيصال الكائن البشري إلى آفــاق أكــثر اتساعــا. وإلى ذلك يحاول الاستعانة بالتخيــل، بغية استرجاع المظاهر التي زالت من الطبيعة، دون جدوى، أي إنه يعتــبر التخيل أداءً خاطئــاً، وغير كاف، أما جون كيتســ فيتوقف في هذا الموقع، ويبقى داخل نطــاق الــرؤى الحسيــة، ولا ينتقل إلى خــبرات معرفية مغايرة لهــا من حيث نوعيتها.

ومن غنائياته الهامــة التي يمتدح فيها التخيــل، ويستعين به، غنائيتــه (إلى سيكي To Psyche) الإلهة التــي اعتبرت أجمل امرأة في زمانهــا، على ما ورد في الأساطير الإغريقية، والتي وقع في حبها إيروس Eros إله الحب، ولم تحظ بالتقديس الذي حظيت به الآلهة الأخــرى، لأنها كانت آخرهم على جبل الأولمب، علــى أن الشاعر الذي يأسف لهذا المصــير، يقرر أنه سيكــون الوفي لها، وهكــذا فإنه يسعــى إلى إحيــاء أسطورتها بقــوة، ولا تخلو القصيدة مــن إشارات إلى الاسترخاء والراحة والنوم، والحب الأبدي، الذي تبقى شعلته على اتقادها، وهو يتماشى في قصيدته مع الفكرة القائلة بالتوافق بين النبوة والخيال، أي مــع الفكرة التي أقرها الفيلســوف باروخ سبينوزا في مؤلفه (رسالة في اللاهــوت والسياسة)، ويقطــع أشواطا على هذا المسار، وفي إطار ديني وثني مترفع عــن الدنيويــات، أو هو شامل لهــا، وقادر

على احتوائهـــا، يبارك العلاقة العميقة بين العاشقين الوفيين، ويعاهد «سيكي» على أنه سيبني لها في عقله المتقد بالإخلاص لما ترمز إليه، من جمال وحب ومتعة، مذبحا مباركا، وسـيردد ترانيم امتداحهـــا باستمرار، وهو مـــا يعني أن طاقة الخيـــال لديه استثمرت، بالإضافة إلى استثمارها في استحضار المتع الحسية الغائبة، في الاقـــتراب من المشاعر الكهنوتيـــة النبوية، وفي البدايـــة ثمة إشارة إلى أن هـــذا الحلـــم الذي عاشـــه الشاعر، أتـــاه بينمـــا كان يتجول هائمـــا على وجهه في الغابة، وهـــذا التقديم الدال على وجود ظاهرة المعاناة، يحرّض الحلم بالإلهة سيكي، وحبيبها كيوبيد العاشق الوفي، ويدفع به إلى الرغبة في الغنـــاء والعزف، وإقامة الشعائر الكهنوتية. وكانت المعاناة قد دفعت الشاعر إلى الحلـــم بلقاء امرأة فائقـــة الجمال، في قصيدته (السيـــدة الجميلة القاسية (The Beautiful Woman Without Mercy) التي يسعى فيها وراء عالم سحري، مليء بالمتـــع، وفي بدايتها تـــرد إشارته إلى الوحـــدة والشحوب، والأسى والحمى، وهذه الأحوال النفسية المؤلمة، تدفع باتجاه الحلم والرؤيا، فيلتقي فتاة بارعة الحسن من بنات الجـــن، ويتبـــادلان الحب والقبـــل، غير أنه يستيقظ أخيراً من الحلم، ويرجع إلى الواقع

وقد احتدّت آلامـــه وبلغت أوجها، واللافت أن الأزمة النفسية التي يعاني منها الشاعر، أكبر من أن يقدر على احتوائها أو تجاوزها، ومع ذلك فإنه يصف نفسه بالفارس القوي، ونحن أمام اعتبـــار رومانتيكي حقيقي، أي إنه اعتبـــار يجعل الوداعـــة والرقة ميزتين هامتين، من ميـــزات الفارس الرومانتيكي، وأخيراً يـــرى الشاعر فيما يـــراه، مجموعة من الملوك والأمراء الذين أوقعتهم «السيدة الجميلة القاسيـــة» في شراكها، ودفعت بهم إلى اليأســـ والشحوب، أمـــا السيدة نفسها فتبدو هـــي الأخرى، من النمط الرومانتيكي الرقيـــق، والقـــادر علـــى إغـــراء الرجال، وإيقاعهـــم في حبائـــل الافتتـــان، ولربمـــا انطوت كالشاعر والفرســـان الرومانتيكيين على الرقـــة العميقة، والقابليـــة للانكسار في مواجهة أحداث الحيـــاة ونوائبها، وهذا بدوره أورثها رغبـــة دفينة بالانتقام، وقدرة على استخـــدام جمالها في الإغواء، مع بقاء الميـــل الرومانتيكي إلى الأجـــواء المسحورة، والفائقة الجمال، قائمـــا في ذاتها المعنوية. وبالطبع يهتم الشاعر هنا بالجمال البشري تحديـــدا، وبالرغبات الحسيـــة التي تحفز الرجل والمـــرأة إلى التلاقي، واختبار الحب الشهـــوي المألوف في الحياة الواقعية، وربما كانت معاناة الفارســـ الرومانتيكي القبلية،

حافزه الداخلي للظفر بالرؤيا الجميلة، التي أدركها إدراكا على صلة بالبواعث النفسية، أكثر من كونه إدراكا حسيا عاديا، أي إن الخبرة النفسية التي ينطوي عليها الشاعر، انبثقت في هذه الحالة من الرؤيا، وما تحفل به من مضامين، وهذه الحقيقة أعانت الخيال الإبداعي الفني لدى الشاعر، فأخرج قصيدته التي تبدو غامضة ومبهمة، بالقدر الذي تكون فيه الخبرة، التي تصفها غير مألوفة لدى القارئ. وفي العالم العربي عبر الشاعر الرومانتيكي المصري أمل دنقل (1940-1983) في قصيدته (حكاية المدينة الفضية) عن أمنية مشابهة، حيث يلتقي بالأميرة الفائقة الجمال، ويغترف من لقائه بها قدراً من المتعة، التي لا تلبث أن تنقضي بانقضاء الحلم، وانتهاء أويقات المسرّة القصيرة، والشاعر يعبر عن نفوره من المشكلات الواقعية، وللمعاناة التي يذكرها بواعثها القائمة في الواقع الذي يعاينه، على أنه يكتشف أنه أضعف من أن يواجه الطغيان والقوة، ومن أن يتجاوز الواقع، وما فيه من سوءات تقلل من قدر الإنسان، وتحط من كرامته.

وفي قصيدته الذائعة الصيت (على بساط الريح) يحلّق الشاعر العربي اللبناني فوزي المعلوف (1899-1930) فوق الواقع، وما تنطوي عليه الحياة الواقعية، من المعاناة والأحداث المؤلمة، في رحلة تعود عليه بلحظات من السعادة والحرية، فالألم الذي يتجاوز كل الحدود يتحول إلى معاناة كبيرة، دون أن تكون هناك إمكانية للخلاص منها، وفي مواجهتها يعمد الشاعر إلى الاستعانة بطاقة الخيال، وثمة ارتباط في قصيدته بين مفهوم الروح الحرة، وكل من السعادة والحرية، بعيدا عن الواقع ومشكلاته، والمعروف عن الشاعر فوزي المعلوف رهافة الأحاسيس، وجيشان العواطف، والرقة التي تجعله غير قادر على احتمال الظلم والأذى، ومما أرقه في الواقع أثناء حياته القصيرة، ظاهرة الانحطاط الأخلاقي، والمكاسب التي يحققها الأشرار، وهو الشاعر الذي نظر بارتياب إلى المطامع البشرية، ورأى في سعي البشر إلى امتلاك المال الوفير ضلالا معيبا، ثم أن الارتباط القائم بين القوة والمعايير التي يتم اتخاذها لتحديد الصواب والحق، قاده إلى التعبير عن رفضه للحال القائمة في العالم ونفوره منها، وهو يعتقد أن هذه الأحوال تمثل الحقيقة الواقعية، وما من حقيقة قادرة على اعتراضها ومكافحتها، حتى إن الشك راوده في الإنجازات العلمية، والنوايا البشرية التي توظفها لخدمة أهدافها النفعية. وعلى المستوى الذاتي

بدا له أن الإرادة تحفزه، وتدفعه إلى القيام بأفعالــه، وهو ما يــؤدي إلى تألمــه، أي إن وجوده في حدّ ذاته نوع من العبودية، والحب الذي آمن به، جعله يستشعر الألم هو الآخر، وكل هــذا ألقى به في هاوية اليأس، فانطلق يجوب العوالم الخيالية، عله يقدر على اجتناء السعادة والحريــة، أي إن الرحلة الموصوفة في القصيــدة نوع من السمــو السيكولوجي الأخلاقي، ونفور من ســوءات الواقع، ومن العبوديــة للإرادة، غــير أن هذه الجولة في رحــاب الفضاء تنتهي بعودتــه إلى الأرض، ومــا فيها من معاناة وشقــاء، فكأن التخيل موجــود هنا من أجل تخفيــف الآلام، التي يواجهها المــرء في حياته الدنيوية، والشاعر يعترف بأن الخيال كطاقــة، غير قادر على مداواته، وإبعاد المعانــاة عنه، وهو يتألم من الناحية النفسية، دون أن تكون لهذه المعاناة صلــة بالأخلاق، أي إنــه لم يتردّ من الناحية الأخلاقية، ولم يؤدّ به التردي إلى أية معاناة. على أن الشاعر الإيطــالي دانتي أليجييري (1265-1321) Dante Alighieri لم يرجع بالقارئ في (الكوميديــا الإلهية) إلى الواقع الحافل بالــتردي الأخلاقي، بعد أن أوصلــه إلى النعيم، عبر المطهــر، وهو أمر لــه أهميته البالغة عندمــا تحث الأخلاقية طاقــة الخيال، وتوظفها مــن أجل إنشاء أو إعادة إنشــاء منظومة أخلاقيــة ماورائية، لأن فهــم هذه المنظومــة لا ينبغي أن يكون مجازيا، فالنعيم حالة قائمة بالفعل، وتنتمي إلى مــا هو معقــول، وفي الأنشــودة الأولى من مؤلفه، يرمز بالغابــة المظلمة إلى حالة الانفصــال الروحــي عــن الله، والفوضى السياسية في إيطاليا، والحياة الشرّيرة، على المستــوى الأخلاقي، وغايــة العمل الانتقال من الحياة الدنيا أي حالة البؤس، إلى حالة من السعادة، حيث يكــون المرء على اتصال مباشــر مع الفضيلة والمعرفــة، فالكوميديا الإلهية تعني التحول من الحزن إلى السعادة، أي من اللعنــة إلى النعمة الإلهية Divine Grace ودائمــاً هناك ارتقــاء غير مترافق مع أية انتكاسة للوراء، فالمطهرون في المطهر يتجاوزون الملعونين غــير القادرين على نيل الغفران، والسماء تتجاوز الجحيم، ليس من ناحية الراحة الجسدية فقط، بل والروحية بالطبــع، وفي النهاية يعايــن الشاعر النور الإلهي من مصــدره، ويترك القارئ في هذا المستــوى، ولا يعود بــه إلى الأرض، أي إلى الواقع الفيزيقي الحافــل بالمعاناة والعيوب الأخلاقية، وهــو ما يعني إنشــاء أو إعادة إنشاء منظومة أخلاقيــة كاملة. وفي الأدب العربي القــديم امتلك الشاعــر أبو العلاء المعــري (973-1058) القدرة على التعالي

الذاتي، من الناحيتين الأخلاقية والإرادية، وبدت في قصائده الجوانب الأخلاقية بارزة على حساب الجماليات المحسوسة، ومع ذلك فإن تعابيره اتصفت بالجمال والفخامة، ولدى التأمل في واحدة من قصائده الهامة، كتلك التي نظمها في رثاء الفقيه الحنفي، والتي حملت في ديوانه (سقط الزند) عنوان «ضجعة الموت رقدة» يتضح البعد الأخلاقي العميق في شخصيته، ويتوارى وراءه البعد الجمالي في تعابيره، التي لا يجانبها البهاء والرونق، وثمة إشارة فيها إلى ظاهرة «التغير» في الحياة البشرية، وظاهرة الفنائية Mortality التي تأتي ليس فقط على الكائنات البشرية وغيرها، بل تتطاول باتجاه الكواكب والأجرام السماوية، التي تتغير وتفنى أيضاً، والشاعر يخرج من هذه الحقيقة، بدعوة إلى الحكمة الزاهدة في الدنيويات، وليس بدعوة إلى التخيل، والفرار من الواقع، وراء أحلام زائفة، وغير واقعية، وكما أن البعد الجمالي في تعابيره يبقى واقعاً تحت سيطرة البعد الأخلاقي، القادر على اكتشاف المبادئ الحكيمة، وعلى إعادة خلقها، فإن التخيل يبقى هو الآخر، واقعاً تحت سيطرة التفكير العقلاني التأملي، وذي القيمة الواقعية العملية، أي إن الأفكار التي يعتنقها الشاعر، تستخدم طاقة الخيال، وتوظفها في خدمتها، وليس في خدمة الأحاسيس أو المتع، وعلى الرغم من المعاناة العظيمة التي استهدفت لها حياته، فقد بقي على صلة وثيقة بالواقع، ولم يتخذ التخيل أداة للفرار منه، باتجاه أحلام قادرة على الحد من سلطان الألم، لمدّة محدودة من الزمن. ومن الكتاب الإنكليز الذين استخدموا طاقة الخيال على نطاق واسع في مؤلفاتهم، الكاتب المعروف لويس كارول (1832-1898) Lewis Carroll الذي أبدع حكاية (أليس في أرض العجائب Alice’s Adventures in Wonderland) وواظب على قراءتها، ليس الأطفال وحدهم، بل الكبار الذين تخاطب القصة طبيعة الطفل التي ماتزال قائمة في وجدانهم، والتي ما زالوا يحنون إليها، ويتوقون لاستعادة ذكرياتها، على أن هذا الكاتب الذي كتب أيضاً في الرياضيات والمنطق، وغيرها من فروع المعرفة، اتصف بالبناء الأخلاقي المتين، وبالميل إلى الوقار والرزانة، واعتمد على التخيل بهدف التخفيف من وطأة الإعنات الذي واجهه في الجامعة، التي علّم فيها، وفي السياق الاجتماعي الذي عاش فيه، وبالمقارنة مع كتاباته التي انطوت على مغزى أخلاقي، فإن (أليس في أرض العجائب) حازت على

التقدير في بقاع الأرض كافة، لخلوها من الموعظة، واكتفاء الكاتب فيها بالفنتازية Fantasy والواقع إنه مال ميلاً عارماً إلى الهزل، باعتباره آلية دفاعية قادرة على مداواة الحبوط العصابي، فاستثمر لتحقيق مرماه، طاقة الخيال التي امتلكها، وفي قصته ثمة إشارة إلى عوالم فردوسية، كتلك التي أشار إليها جون كيتس في قصيدته (إنديميون Endymion)، والتي ظهرت أيضاً في قصيدته التي حملت عنوان (أنشودة إلى الشعراء Ode on Bards)، حيث يعتبرهم نماذج بشرية متفوقة، وقادرة على إظهار الحقائق التي يحتاج إليها البشر، أثناء حياتهم على الأرض، وإلى ذلك فإن أرواحهم التي تحيا في ظلال الفردوس السماوية، تظفر بالحقيقة القدسية، وتؤدي دورها في الإصلاح الاجتماعي، وبالطبع يبقى الفارق كبيراً بين هذا الرأي، وذاك الذي للفيلسوف اليوناني أفلاطون (428-BC Plato 347) فالإصلاح لا يقدر على القيام به إلا الفيلسوف الذي اتصل بالمثل الماورائية، وفي مقدمتها مثال الخير، وأدرك أن المعرفة الأخلاقية الروحية، أشمل وأرفع من المعرفة الجمالية الحسية، التي جعلها جون كيتس تحتل المكانة الأولى، قبل المكانة التي تحتلها الأخلاق، أي إن مثال «الجمال» بدا في أشعاره التي سبقت ملحمته الشعرية (هيبريون Hyperion)، أرفع من مثال «الخير». وفي كل الأحوال يرتقي هذا الشاعر الرومانتيكي في قصيدته (إنديميون) من الجمال الحسي إلى الجمال المتعالي، ويحيّي عاطفة الحب بين إنديميون وإلهة القمر سيلين، ويعتبرها عاطفة قدسية، وهذا الانتقال من الخبرة الحسية باتجاه الخبرة الروحية، لا يتنكر للأحاسيس والأهواء البشرية، وإذا كان دانتي أليجيري قد انتقل بالقارئ من الجحيم إلى المطهر فإلى الفردوس، وقدّم له خطاباً أخلاقياً وعظياً، فإن جون كيتس ينتقل من أجواء حسية إلى أخرى روحية، ويقدم خطاباً جمالياً يركز على المظاهر الطبيعية، والأجواء الفاتنة، والأحاسيس البشرية التي يتأتى لها الإرضاء التام من هذه الأشياء، ومن عواطف الحب العميقة، إضافة إلى المباهج المتأتية عن الأفراح، والعزف العذب على الربابات والمزاهر، والواقع إنه استطاع الانطواء على هذه الخبرات، عبر إعادة إحيائه للأسطورة الإغريقية القديمة، التي تروي حكاية الحب الناشئة بين إلهة القمر سيلين، والأمير الراعي الشاب إنديميون، الذي يبقى في حالة من الشباب الدائم، ومن القدرة على التمتع بالحياة، دون أن يكون لتمتعه نهاية، ودون أن

ينتقص من حبه واستمتاعه، ميل بهيمي أو ميل باتجاه العنف، وبالإضافة إلى الشباب الدائم، يركز الشاعر على حالة النوم، التي يحيا في ظلها إنديميون، ويظفر من خلالها بالراحة والسكينة، والاسترخاء الباعث على السعادة، وهذه الحالة تترافق مع أحلام بديعة، بما تتضمنه من أفانين الجمال، فكأن إنديميون قد ظفر بالفردوس وأفراحه، وأخيرا يبتهل هذا الراعي الأمير ورفاقه، إلى نبتون رب البحر العظيم، ويواصلون تجوالهم في العوالم الفردوسية، وبطريقة أو بأخرى، يتعلق جون كيتس بالمعرفة الجمالية الحسية، وبالمعرفة الجمالية المتعالية معاً، بالقدر نفسه تقريباً، أما الشاعر العباسي ابن الفارض (1181-1234) فقد اتصف بالتكوين الأخلاقي الزهدي القوي، وفي الوقت نفسه امتلكت مظاهر الجمال قدرة فائقة على إثارة مشاعره، بكيفية بدا فيها الجمال الحسي مالكا القدرة على إثارة عاصفة روحية في كيانه، وواقعة في الآن ذاته، تحت سيطرة الطبيعة الأخلاقية الزهدية التي كانت له.

ومن قصائده الأخرى التي يتكل فيها جون كيتس على التخيل، من أجل التحرر من أسر الواقع، ومشكلاته، قصيدته الهامة (أغنية إلى العندليب Ode to a Nightingale) التي يتمنّى فيها، لو استطاع نيل سعادة كتلك التي يتمتع بها هذا الطائر، وفي بدايتها يعترف بآلامه، ويتمنى ترك العالم وهجرانه، نافراً من السأم والحمى والقلق، ومن زوال الشباب، والأسى واليأس، وهو يطلب الموت الرحيم، والتلاشي في الوقت الذي يغفل فيه عن حقائق العالم، ويكون في حالة من النشوة العميقة، بينما العندليب لا ينقطع عن التغريد، غير أنه يعترف بأن التخيل نوع من الخداع، وثمة إشارة إلى أن الموت وحده قادر على تحقيق الخلاص النهائي. وفي الجزء الثاني من مؤلفه (هكذا تكلم زرادشت) وتحت عنوان «الرؤى والألغاز» يختبر الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه (1844-1900) Friedrich Nietzsche على لسان هذا الداعية الإرادي، رؤى تنطوي على معان هامة، كمعنى العود الأبدي Eternal Recurrence والكيفية الكفيلة بالتخلص من الغثيان، وهو يكتشفها ويعرف أبعادها، والراعي الذي يذكره، يتجاوز الأزمة التي ألمّت به، ويشعر بسعادة قصوى، إلى الدرجة التي يصبح معها زرادشت رافضا الموت، وهذا الموقف الإرادي، الذي يقدر على استكناه ما يعتبره نظرية متعلقة بأصل العالم، ويرفض الاعتماد على الأحاسيس والظن دون ملكة الاستنتاج، ويطرد الاشمئزاز

والرعب من عالمه الداخلي، ويضع طاقة الخيال في خدمة الأفكار الفلسفية المجردة، أقوى بأشواط من الموقف الرومانتيكي الذي أعلنه جون كيتس، وثمة غياب في التناسب بين إرادية فريدريك نيتشة، وميل الشاعر الإنكليزي إلى الاسترخاء والنوم والتلاشي، واللافت هنا أن الشاعر يتحدث عن الحياة باعتبارها حمى، وكل هذا ناجم عن آلامه التي ألمّت به جراء إصابته بالسل الرئوي، وعدم قدرته على تلبية متطلبات حبه لفاني براون Fanny Brawne التي تعلق بها تعلقاً قوياً، وهذه الحال تؤكد أن الميل الرومانتيكي وحده، لا يبدو كافياً لامتلاك القدرة على مواجهة الواقع، وأخطر ما في الأمر، التعارض بين العقل والخيال، وبين الواقع والخيال، أي إن هناك خللاً في العلاقة القائمة بينهما، والأجدى أن يتمكن المرء من توظيف هذه القوى من أجل احتواء الواقع، واكتساب القدرة على التعامل معه، ومن الممكن اعتبار السعادة التي ظفر بها هذا الشاعر ارتكاساً، على الرغم من عمقها، وهو ما يقلل من أهميتها، ومما يعترف به بوضوح في قصيدته المذكورة أن التخيل خادع، وغير قادر على مداواة الإنسان، من المعاناة التي تتربص به، واعترافه هذا لا يترافق مع أية إشارة تهدف إلى تغيير هذا الأداء، واستبداله بأداء أجدى، وأقدر على احتواء الألم، وتحقيق انتصار ما عليه. أما الفيلسوف الدانماركي الوجودي سورن كيركجارد (1813–1855) Soren Kierkegaard فقد عانى هو الآخر، من السأم الذي يرافق الطور الجمالي في حياة الإنسان، واعترف بأن الكائن البشري الجمالي يبحث عن التنوع والجدة، ويلقى في سياق بحثه السأم والملل، وأمام هذه الحال انتقل إلى الطور الأخلاقي الذي يتبنى فيه المرء المسؤولية الأخلاقية، ويقوم بالواجبات الاجتماعية، فإلى الطور الديني، الذي يعلّق فيه الأخلاقي كي يظفر باللامتناهي، ومما يقال في هذا السياق، إن الشاعر العباسي أبو نواس (762–813) بقي طوال حياته منصرفاً إلى تتبع المتع الحسية، ورافضاً تحمل المسؤولية الأخلاقية، والقيام بالواجبات الاجتماعية، ولا يعني هذا بالطبع أنه كان نموذجاً خالي الوفاض من الأخلاقيات، فالمأثور عنه ميله إلى الزهد وطلب الغفران أخيراً، أما الشاعر الفرنسي شارل بودلير (1821–1867) Charles Baudelaire الذي أمضى حياته متتبعا للمتع والجماليات الحسية، فقد نأى بنفسه على ما يبدو، عن المسؤوليات الأخلاقية الاجتماعية، ولم يزهد أبدا، بل داوم على

أدائه الحياتي الذي وصفه بأنه أداء منحط، وليس كمثله جون كيتس الذي بدا أنه يتجه في قصيدته (أنشودة عن الشعراء) نحو إدراك فكر إنساني أخلاقي متعال، والواقع إنه يبدو كمن يرجو وجود عالم فردوسي، يظفر به الشعراء الرومانتيكيون، الذين أخلصوا للفن، وعبدوا الجمال، وتتبعوا مظاهره في الطبيعة والفن، إضافة إلى الجمال البشري، وهذا كله يوحي بأن الشاعر تاق إلى عالم جمالي مثالي، بأكثر من كونه عالماً أخلاقياً مثالياً، واقترب بأدائه الحياتي من الفكر الأفلاطوني الذي أوجد الحلّ لمشكلة التغير والتبدل في العالم المادي، عبر الاعتقاد بوجود المثل الخالدة، التي لا تبلى ولا تفنى، ويظل لها حضورها الأبدي، وتلك المثل كما هو معلوم، هي مثل «الخير والحق والجمال». ومع ذلك فإن موقف جون كيتس الأخلاقي يبقى موقفاً هاماً، وجديراً بالتقدير، فالشاعر الذي امتلك فكراً تحررياً، اكتفى بالدعوة إلى التعاطف والحنو بين البشر، ولم يكن نموذجاً بشرياً تقليدياً، يؤمن بقيم أخلاقية اجتماعية مألوفة في الواقع، ومن هذه الناحية، ربما أمكن الادعاء بأنه اقترب تماما من الفكر الفلسفي، الذي أعلنه الفيلسوف الألماني آرثر شوبنهاور (1788-1860) Arthur Schopenhauer فالغاية النهائية التي سعى إليها، انطوت على إلغاء تدريجي ومطرد للإرادة، وهو ما ترافق في قصيدته (هيبريون)، مع استبدال الفردية الأنانية بالإيثارية، وامتداح قيم التعاطف والشفقة.

ومهما يكن من أمر، فإنه حاول إيجاد حلول مؤقتة، لتلك المشكلة المتأتية عن تتبع المتع الحسية، وما ينتج عنها من سأم، وما يتطلبه ذلك من بحث مضن عن التنوع في المظاهر الجمالية، ومن تلك الحلول تحييد العقل، وإطلاق العنان للتخيل بفاعلية أعظم، باعتباره الطاقة التي تقدر على استعادة الجمال الذي تلاشى، واستعادة الإحساس به، والواقع إنه ينفر من «العقل الدؤوب» في عدد من قصائده، ويعتبره مصدرا للمعاناة، وهذه الحقيقة جعلته يبقى على الدوام في مرتبة الشاعر، لأن استخدام العقل والتفكير المنطقي في الدفاع عن المشاعر الوجدانية الذاتية وتبريرها، ضروري من أجل الانتقال إلى مرتبة الفيلسوف، وهذه الحقيقة لا تغير من الفكرة الرائية فيه نموذجا اكتفى بالتعبير الشاعري، وانطوى في الوقت نفسه على فكر فلسفي متعال. وفي ميدان الشعر الرومانتيكي الإنكليزي أيضا، أحب الشاعر وليم وردث وورث (1770-1850) William Wordsworth الطبيعة، حبا

جما، ونظم في مظاهرها المتنوعة، قصائده التي تتغنى بالجمال الطبيعي، وفي تلك القصيدة التي حملت عنوان (النرجس البري الأصفر) يغتبط لدى مشاهدته حشدا منها قرب البحيرة، ويصف الانطباع الباعث على الفرح الذي تركته في نفسه، إلى الدرجة التي تجعلها تعاود الظهور في ذاكرته، فيشعر بالراحة ويظفر بالمتعة، سواء أكان محزونا أم غير محزون، وإذا كان الفيلسوف اليوناني الآخر أبيقورس (270-341 BC Epicurus) قد امتدح العقل، باعتباره وسيلة لتذكر المشاعر السارة، في الوقت الذي لا تكون فيه أحاسيس المرء الآنية سارة، فإن جون كيتس اعتمد على الخيال لتحقيق الهدف ذاته، أي لاستحضار المتع الغائبة، والمثال الأهم المأثور عن أبيقورس تلك الكلمات الطيبة التي أرسلها إلى صديقه، عندما ألم به داء الكلى، وأوقع به ألما مبرّحا، فقد أعلن له أن المحادثة التي جرت بينهما، تبعث في نفسه البهجة رغم الألم، الذي يعاني نوباته الحادة، والفيلسوف أبيقورس هو ذلك الفيلسوف الذي اعتبر المتعة خيرا، وركز على المتع الحسية المتعلقة بالجسم الإنساني مباشرة، ومثل هذه المتع لم يغفل عنها الشاعر الإنكليزي جون كيتس، بل حياها في قصيدته (التخيل) وأشار إليها في قصائد أخرى، وبدا وكأنه يحيي ظاهرة الإغراء، ويدفع باتجاه إثارتها، وهي ظاهرة لا وجود لها في الفكر الأخلاقي الزهدي، الذي سعى إلى محاربة الإغراء الدنيوي، وربط بينه وبين الخطيئة والإثم، وضرورة التطهر، وهذه أحوال وجدانية ذاتية، لا يبدو أن جون كيتس قد اعترف أو شعر بها، وهو ما دعا إلى اعتباره، إلى جانب الشاعرين الرومانتيكيين الآخرين جورج غوردون بايرون (1788-1824) George Gordon Byron وبيرسي بيش شيلي (1792-1824) Percy Shelley شاعرا ليبراليا وثنيا، ومن الناحية المعرفية، يبقى هذا التوصيف غير دقيق، فأفلاطون نفسه اعتبر أن الكائن البشري إنما ينتقل من المعرفة الحسية المتغيرة، إلى معرفة المثل الأبدية التي لاتتغير على الإطلاق، وفي هذا اعتراف بتلك المعرفة الحسية، والمشكلة ليست في تلك المعرفة المترافقة مع اختبار حسي، بل في الاكتفاء بها وعدم تجاوزها أو تخطيها، إلى معرفة المثل الماورائية وإدراكها، والمعلوم أن الفيلسوف الدانماركي الوجودي سورن كيركجارد اعتبر المرحلة الجمالية مرحلة قائمة في الحياة البشرية، وانتقل منها إلى المرحلتين الأخلاقية والدينية عبر إسراء روحي يتنكر لها، وفي كل الأحوال لا يقدر

المرء أن يحيا دون جماليات ومتع حسية، أما أن يكون نموذجا أخلاقيا فقط، فهذا يعني أنه كائن غير واقعي، أو هو ملائكي وغير موجود في الواقع العيني، وبالطبع فإن النماذج البشرية الأخلاقية بامتياز كالفيلسوف الرواقي ماركوس أوريليوس Marcus Aurelius (121-180) اختبرت المتع الحسية في إطار أخلاقي، أي إن أخلاقها بقيت مالكة زمام أمرها، وقادرة على إحكام سيطرتها على الأحاسيس والمتع باستمرار، إلى الحدود التي تصبح فيها المتع واقعة تحت سلطان الفضائل، وليس العكس الذي نادى به أبيقورس وأتباعه، وعنى أن تخدم الفضائل المتع باعتبارها الخير.

ومن ناحية أخرى، تبدو المفارقة كبيرة لدى تذكر العاشقين «باولو وفرانتشيسكا» اللذين استجابا للإغراء، واعترفا بالخطيئة التي اقترفاها، وبأنهما يستحقان العقاب الأبدي على ما أعلنه دانتي أليجييري في (الكوميديا الإلهية) وتحديدا في الأنشودة الخامسة من «الجحيم» وبالطبع ما من إمكانية جوانية تدفع جون كيتس في هذا الاتجاه، الذي يرفض الإغراء، ويشكك بالدوافع البشرية، ويميل إلى اتهامها والتقليل من شأنها، وهذا لا يعني أنه نموذج آثم، بل يعني على الأرجح اتصافه بضرب من البراءة الأكثر تحررا من الاعتقادات التقليدية المتداولة في الواقع، وبصرف النظر عن اعتقاده بوجود مثال للجمال متعال، فإنه لا يتنكر للجمال الحسي، وللإغراء والحب الشهواني أبداً، وأكثر من هذا فإنه يندفع باتجاه التأكيد على هذا الجانب، حتى عندما يكون الأمر متعلقاً بالقداسة والقديسين، ففي قصيدته الطويلة (ليلة سانت أجنس The Eve of St. Agnes) التي كتبها على خلفية حبه العميق للآنسة فاني براون، يتطرق إلى الشهوانية الحسية، التي نصحه الناشرون بالتراجع عنها، كي لا تثير اعتراضات وحوارات خلافية، على الرغم من أن القديسة المذكورة اتصفت بالبراءة، وتكريسها حياتها للتفاني والعفة، وهي الفتاة الرومانية الجميلة التي رفضت الزواج ممن تقدموا للارتباط بها، فحكم عليها بالإقامة في منزل للبغاء، وعندما حاول شاب الاقتراب منها، أصابه العمى، غير أن صلواتها أعادت البصر له، وفيما بعد أعدمت واعتبرت في الكنائس الشرقية والغربية رمزا للبراءة، التي تتنكر للحواس، وتتعالى أخلاقياً، باتجاه المثال الأعلى.

وفي جملة من أشعاره، يتضح أن الشاعر الرومانتيكي السوري عمر أبو ريشة (1910-1990) واحد من الشعراء الذين

امتلكوا رؤية مشابهة، لتلك التي أصر عليها جون كيتس، وإن اعتقد أن التقدم باتجاه المثال الأعلى الرفيع، يعني أن يدخل المرء في تجربة التناقض مع الأحاسيس والدنيا والمتع، وفي هذه الحالة وحدها لن يكون أمامه خيار غير التنكر للجماليات المحسوسة ومتعها، والاندفاع باتجاه الغاية الأخلاقية المثالية، ومن قصائده اللافتة، التي تقدم دليلا قويا على اعتقاده بأن الأحاسيس البشرية، والمتع الدنيوية حقيقة واقعة، ومن غير الممكن تجاوزها، قصيدته عن القديسة (جان دارك) التي يصف فيها طورين من حياتها، أولهما الجمالي الحسي، وثانيهما الأخلاقي الديني، وجان دارك وفق أبي ريشة، تتخلى عن تلك الإمكانية الحياتية الحافلة بالمتع الحسية بدافع الحياء، أي بدافع ذاتي غير جدير بالتقدير، ودون تدخل سلطة موضوعية أخلاقية خارجية، وتنطلق وراء غايتها القصوى، التي تفرض عليها الجهاد في سبيل تحرير فرنسا من الجنود الإنكليز، الذين احتلوا مناطق واسعة في بلادها، وبالطبع نستطيع التحدث لدى أبي ريشة وجون كيتس، عن نوع من الذاتية المتطرفة، التي تحوّر الموضوع الخارجي وتغيرّه، مع الانتباه إلى أن التجربة الإيمانية لدى كل من القديسة أجنس والقديسة جان دارك، تجربة ذاتية أيضا، وهو ما يعني أن النماذج الأربعة المذكورة، على الرغم من الفروقات الظاهرة، تنتمي من الناحية الجوانية الجوهرية، إلى نوعية بشرية متشابهة، إلى درجة كبيرة.

الهوامش

١- د. عبد الوهاب المسيري ومحمد علي زيد، مختارات من الشعر الرومانتيكي الإنكليزي، جون كيتس، وردث وورث، لورد بايرون وبيرسي شيلي.

٢- د. أحمد حمدي محمود، العلم الجديد، فيكو، تراث الإنسانية.

٣- كمال بكداش، الخيال، الموسوعة الفلسفية العربية، المفاهيم.

٤- ترجمة: سمير كرم، الموسوعة الفلسفية، التخيل، دار الطليعة، بيروت.

٥- د. حسن حنفي، رسالة في اللاهوت والسياسة، سبينوزا، تراث الإنسانية.

٦- ميخائيل نعيمة، البيادر، في العاصفة، دار نوفل.

٧- أمل دنقل، الديوان، دار العودة، بيروت.

٨- فوزي المعلوف، على بساط الريح، دار صادر، بيروت.
٩- مجموعة من المؤلفين، دليل القارئ إلى الأدب العالمي.
١٠- دانتي أليجييري، الكوميدية الإلهية، ترجمة: محمد الجورا.
١١- أبو العلاء المعري، ديوان سقط الزند، دار صادر، بيروت.
١٢- د. نظمي لوقا، لويس كارول، أليس في أرض العجائب، تراث الإنسانية.
١٣- د. عادل العوا، المذاهب الفلسفية، أفلاطون وأبيقورس، جامعة دمشق.
١٤- د. نظمي لوقا، إنديميون، جون كيتس، تراث الإنسانية.
١٥- أنيس المقدسي، أمراء الشعر العباسي، ابن الفارض.
١٦- فريدريك نيتشة، هكذا تكلم زرادشت، ترجمة: فليكس فارس.
١٧- جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، سورن كيركجارد.
١٨- حنا الفاخوري، تاريخ الأدب العربي، أبو نواس.
١٩- مجموعة من المؤلفين، دليل القارئ إلى الأدب العالمي، شارل بودلير، ترجمة: محمد الجورا.
٢٠- ترجمة: سمير كرم، الموسوعة الفلسفية، آرثر شوبنهاور، دار الطليعة، بيروت.
٢١- علي أدهم، تأملات ماركوس أوريليوس، تراث الإنسانية.
٢٢- عمر أبو ريشة، الديوان، دار العودة.





مدينة القدس «الشريف» في عيون الرحالة والكتّاب الغربيين

د. حفناوي بعلي*

عتبة أولى.. على أبواب القدس

(.. إلى الدكتـورة الصديقة: صبحة أحمد علقم المقدسية الشريفة، التي تعيش هـي وأخواتها المقدسيات في صقيع المنـافي وفي دار الهجرة.. بعيدة بعيـدة.. قريبة قريبة على مرمى حجر من مدينتهـا وحجرتها في «القدس الشريف».. والتي أهدتني ذات صباح ذكرى غالية، ونحن في مطعم «القدس» نتناول غداءنا، وقد لقينا من حمـل «الأسفار» وسفرنا ورحلتنا في الأراضي المقدسة نصباً.

* كاتب وباحث جزائري (جامعة عنابة)

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

وفي حضرة «الخضر نادر»، وروح «القدس» تغمرنا، و«كنعانيات» المناصرة تحفنا كالملائكة، وكأننا في احتفالية بمعبد «بعل» على جبل «زافون»، نرتل نصوص «أوغاريت» الدينية البعلية تخليداً لانتصاراته. وعروس عروستنا «القدس» تسقينا من راحتها الراح وروح الأرواح، وفي «أعراس» القدس وذكرى درويش تسكرنا؛ فهل رأى الحب سكارى مثلنا. وقالت صبحة الصبوحة في ذياك الصباح: «.. هذا مفتاح بيتنا في القدس».

.. واستدعت ذكريات أخرى؛ على أمل العودة، وأن نلتقي ذات يوم في بيتنا بحارة المغاربة؛ حجاجا ميامين، أزواجاً عرباً ومسلمين، أفواجاً في القدس مكرمين مقيمين دائمين، سائحين، عابدين راكعين.. عند قبة الصخرة، في القدس أم الحواضر في الماضي والحاضر، عاصمة الثقافة العربية والإسلامية.. القدس والمقدسية.. عروستان،، وردتان في القلب.. فبرغم السدود والحدود والقيود والعدا.. يا قدس يا قدس،، سنسود ونعود ونعود..).

عتبة ثانية.. القدس في عيون الرحالة والكتاب الغربيين

من الكتابات التي زودتنا بمعلومات جمة وهامة عن مدينة القدس «الشريف»؛ ماكتبه الرحالة والحجاج النصارى الذين زاروا القدس للقيام بفريضة الحج. وقد كتب بعضهم ذاكراً ما شاهده في مدينة القدس من عمران، كما وصف الحياة الاجتماعية فيها، والعلاقات بين مختلف الطوائف الدينية المتساكنة، بالإضافة إلى جغرافية المدينة. وإلى هذا الصنف من الكتب يرجع الفضل؛ في ذكر كل ما يتعلق بالحياة الدينية والاجتماعية التي كان يحياها النصارى. وتزيد قيمة هذه المصادر عندما نعلم أن النصوص العربية لم تهتم في الأغلب بذكر نشاط غير المسلمين في القدس.

ومن الكتابات التي تعرضت للقدس، أو كما رآها الغربيون في عيونهم؛ ما كتبه: الرحالة بركارد في كتابه «مشاهدات من الأرض المقدسة». ووصفها دي روتلان في مؤلفه «المدينة المقدسة». وتناول القدس بالكتابة موندفيل، وزار القدس فرانيكولو، وصنف عنها كتابا سماه «رحلة». وخص دي لابروكيير القدس برحلة موسومة بعنوان «رحلات».

ونشر الرحالة كازولا رحلته باسم «الحج المقدس». أما رحلة غلفورد، فقد سماها «الحج إلى الأرض المقدسة». وذكرها الرحالة كنج في رحلته المسماة بـ «الفرسان»؛ وتناولها برسكوت في «رحلة القدس». وكتب الإيطالي سريانو كتابه بعنوان «معاهدة الأرض».

قدم المخرج العالمي «ريدلي كوت» فيلم «مملكة الجنة» /القدس، تناول في عرضه مملكة ومدينة القدس. ومنذ المشهد الأول يتكون لدى المرء انطباع بأننا حيال رؤية، تحاول أن تنفي عن نفسها سمة التعصب الغربي تجاه العرب والمسلمين. لم يكف نص السيناريو عن التأكيد على أن القدس مدينة للديانات الثلاث (المسيحية، والإسلام، واليهودية). لقد أظهر الفيلم الحوار الحضاري الذي دار في تلك الفترة بين الجانبين.

وظهر في الفيلم هاجس القائد الصليبي في الحفاظ على جنوده وسكان القدس من «بطش» صلاح الدين، ليكشف بعدها أن قائد المسلمين لا يريد أن يقتل المسيحيين والمقاتلين الصليبيين بل استعادة المدينة. يعطي الفيلم فكرة عن التطور التاريخي في علاقة الغربيين بالعرب. وفي الفيلم يظهر في دور صلاح الدين الأيوبي، الممثل السوري غسان مسعود؛ الذي ضرب ضربته العالمية هذه المرة، وكان ناجحاً ومعبراً في دوره الرحيم..

مشاهدات من الأرض المقدسة.. عجائب الدنيا المشهورة

وصل الرحالة بركارد إلى الشرق سنة ٦٣٠ / ١٢٣٢، وعاش في القدس مدة من الزمن. وألف كتابه «مشاهدات من الأرض المقدسة»؛ وصف فيه جغرافية المدينة وموقعها ومناظرها التي كان باستطاعته أن يشاهدها. كما وصف البرك وحاول أن يعطي سبباً لقلة عدد سكان المدينة، وفسر ذلك بأن سكانها كانوا يعيشون في حالة فزع مستديمة. [(١)]

ووصفها دي روتلان في كتابه «المدينة المقدسة»، كان هذا الرحالة في القدس سنة ٦٦٠ / ١٢٦١. وقد أفادنا كتابه فيما يتعلق بصفة المدينة العمرانية: أبوابها وأسواقها ومساكنها وأديرتها والحياة اليومية فيها. وكذلك أورد معلومات وافرة عن معاملة السلطات الحاكمة في القدس للحجاج النصارى. ولما زار دي روتلان القدس كان فيها عدد من الرهبان السود / الأحباش، يقيمون في دير السيدة ماري اللاتينية. [(٢)]

وقد أعجب دي روتلان بأسواق مدينة القدس؛ فوصفها وذكر أنواع البضاعة التي كانت تباع فيها: سوق اللحم كان للحم سوق خاصة في المدينة يباع فيها. وسوق القماش؛ كانت هذه السوق عبارة عن طريق طويلة ومسقوفة، ومختصة ببيع الأقمشة بمختلف أنواعها. سوق الصياغة ويذكر الرحالة أن هذه السوق كانت تتألف من جناحين؛ جناح يعمل فيه الصياغ السريان، وجناح يعمل

فيه الصياغ اللاتين. ويضيف أنه في هذه السوق محل يباع فيه التفاح. سوق السمك، كانت هذه السوق مختصة ببيع السمك الذي كان أكثره يجلب من سواحل البحر الأبيض المتوسط، وكانت تقع في شارع يطلق عليه اسم شارع الحشائش. سوق الخضار والفواكه والبهارات؛ كانت هذه السوق عبارة عن طريق طويلة ومسقوفة؛ تباع فيها تلك الأصناف من البضاعة. سوق القمح، كانت تقع يمين برج داوود، وهي عبارة عن ساحة كبيرة يباع فيها القمح. (٣)

وتناول القدس بالكتابة موندفيل، الذي بدأ رحلته سنة ٧٢٢ / ١٣٢٢. وقد ورد وصفه للأماكن المقدسة في كتابه «الرحلة»، وأفادنا من هذه الرحلة بالوصف الذي ذكره للمدينة وسكانها وطريقة عيشهم، ولم يزر محلاً إلا وكتب أوصافه. وزار بعض الأماكن الإسلامية المقدسة الممنوعة على النصارى واليهود؛ لأنه كان يحمل إذنا من السلطان.(٤)

وزار القدس فرانيكولو، وصنف عنها كتابا سماه «رحلة». بدأ القديس فرانيكولو رحلته من توسكانية متجها إلى الأراضي



المقدسة في فلسطين. وغادر مدينة البندقية في أبريل ١٣٤٦ / ٧٤٦، وبقي يتعبد في كنيسة القيامة حوالي أربعة أشهر. ثم ترك مدينة القدس في زيارة لمدن مختلفة في فلسطين، ورجع إليها بعد حوالي خمسة أشهر من مبارحته لها. وقد أفادتنا هذه الرحلة بمعلومات عن الطوائف المسيحية التي كانت تتعبد في كنيسة القيامة. وذكر لنا تفاصيل عن مدينة القدس عامة؛ كجغرافيتها وأسواقها ومياهها وأشجارها وثمارها. واهتم فرانيكولو أيضاً بالنظام الإدراي ومعاملة السلطة للنصارى في القدس. (٥)

كما يشير فرانيكولو إلى اهتمام السلاطين بالقدس، مركزاً على الجانب الديني حيث رمموا الأبنية الدينية، وشيدوا معالم دينية وخيرية وعلمية. وهذه الصبغة الدينية هي أهم صفات المدينة، التي حازت أيضاً على اهتمام الممالك المسيحية. غير أن اهتمام تلك الممالك بالمدينة المقدسة لم يتخذ أي مظهر عمراني، لأن السلطات المحلية كانت تمنع الطوائف غير الإسلامية من بناء أي مبنى ديني لهم في القدس. ويشير فرانيكولو في رحلته للأراضي المقدسة إلى طائفة من الرهبان/ السود، الذين كانوا يتعبدون في كنيسة القيامة، وأنهم كانوا فئتين هنود وأحباش. ويشبه الكاتب سواد بشرة هؤلاء الرهبان بالمداد الأسود، وكان الأحباش خاصة يتألفون من رجال ونساء فقراء. (٦)

ويذكر فرانيكولو أن لفئة الكرج من المسيحيين مكان خاص بهم في كنيسة القيامة يتعبدون فيه، وكنيسة خاصة بهم في القدس تسمى كنيسة المصلبية. ومن تلك الطوائف الدينية المسيحية اللاتين، أي الكاثوليك. وبالإضافة إلى المكان المخصص لهم في كنيسة القيامة، كانت لهم كنيسة خاصة وهي الكنيسة التي فيها قبر السيدة مريم أم المسيح عليه السلام، ولهم أيضا دير كبير في جبل صهيون. أما عدد اللاتين المقيمين في كنيسة القيامة فيحددهم بثلاثين شخصا. ومن الطوائف أيضا النساطرة، الذين كان لهم مكان خاص بهم في كنيسة القيامة، غير أن محلهم كان يخلو منهم أحيانا، وذلك لأنهم غير دائمي الإقامة في المدينة. وأخيرا من الطوائف التي كانت بالقدس طائفة «الغولبيت». (٧)

كنيسة القيامة من أشهر الأماكن المقدسة والمزارات عند المسيحيين. وكانت تقام فيها الاحتفالات الدينية في الأعياد المسيحية. وهي أعياد كان يقيمها رهبان القدس في كنيسة القيامة، ويحضرها في كل سنة النصارى من أنحاء المعمورة. ومن أشهر الأعياد يوم أحد النخلة (عيد الشعانين)، ويوم الجمعة العظيم، ويوم سبت النور، ويوم عيد الفصح. أما يوم أحد النخلة فيذكر فرانيكولو، أنه كان يلتقي جميع المسيحيين المحتفلين في داخل كنيسة القيامة، وتتجمع كل طائفة منهم في مكان معين، حيث يقوم كاهن كل طائفة بترتيل القداس باللغة التي يتخاطب بها أفراد تلك الجماعة. ويذكر أن الجماعات التي احتفلت بهذا العيد لما حل بالقدس، هي: الروم الأرثوذكس، والأرمن، واليعاقبة، والهنود والأحباش والنوبيين، واللاتين والكرج والنساطرة. (٨)

ويصف الرحالة فرانيكولو في رحلته

موقع مدينة القدس؛ على جبل عال مستدير، محاط بعـدد من الجبـال. وبسبب موقعها هـذا كان قاصدهـا لا يتمكن مـن رؤيتها؛ إلا إذا كانـت المسافة التـي تفصله عنها لا تزيد عن الميل الواحـد. وكانت رؤية مدينة القدس من تلك المسافة تعد في ذلك العهد من العجائـب المشهورة؛ لحسـن منظرها. وتحـدث فرانيكولو الـذي زار القدس عن أسوارها التي يتميز بعضها بالمناعة وبعضها تعرض للخراب، أما أبواب القدس فقد كان تعدادها عشرة أبواب. كمـا أمدنا الرحالة بمعلومات دقيقة ومفصلة عن بناء طرقات ومساكـن القدس، فهو يذكـر أن طرقات المدينة كانت مبلطة بالحجر ونظيفة، وكانت الأمطار عندما تهطـل لا ينتج عنها انتشار الوحـل في الطرقـات، ولا تسبب أي إزعاج للمارة، ويضيف أن كثيراً من الطرقات كانت مسقوفة. (٩)

القدس في رحلات الحجاج والفرسان والقناصلة

وخصـ دي لابروكيـير القدسـ برحلة موسومـة بعنـوان «رحـلات»، يصف فيها المدينة التي زارها سنة ٨٣٦ / ١٤٣٢. ويمتاز وصفه لهذه الحاضرة بالاختصار والوضوح، وقد أفادنا بمعلومـات تتعلق بالوضع الذي كانـت عليه الطوائف المسيحية، في القدس، ومعاملة السلطات للحجاج المسيحيين فيها. ويذكـر في رحلاتـه أن للمسيحيين اليونان مكانـا مخصصا لهـم في كنيسـة القيامة؛ كثـير الظلمـة لا يدخلـه نـور إلا من ثقب صغير في الحائط. وأما الإفرنج فلهم مكان خاص بهم في كنيسة القيامة أيضاً، يصفهم دي لابروكيـير بأنهم أكثر الفـرق المسيحية الموجودة في القيامة تحملاً للمشقات، وهم اللاتين؛ ولهم كنيسة مختصة بهم هي كنيسة صهيون. (١٠)

كانت مدينة القدس مدينة مقدسة عند النصارى، وبصفتها هذه، يشير دي لابروكيير أنها كانت تستقبل وفودا عديدة من حجاجهم من مختلف البلاد المسيحية وغيرها. ومجيء هؤلاء الحجـاج وإقامتهـم في المدينة، كان مـوردا من الموارد التي يرتزق منها السكان. حيث يذكر الرحالة أن هؤلاء الحجاج الذين زاروا القدسـ، كانوا يدفعـون مقداراً من المـال، يقع الاتفاق عليه بـين ربان السفينة ونائب القدس، الـذي ينتقل إلى مدينة يافا خصيصاً لهـذا الغرض. وفي مدينة القدس ذاتهـا كان الحجـاج يدفعـون مقادير من المال؛ لكل الحراس القائمين بحراسة أماكن الزيـارة التي يقصدهـا النصارى؛ وخاصة منهم حراس كنيسة القيامة. (١١)

أما الرحالـة كازولا، فقد نشرت رحلته

باسم «الحج المقدس». وكتاب هذا الرحالة الإيطالي عبارة عن وصف لكامل الرحلة، التي قام بها سنة ٩٠٠ / ١٤٩٤ إلى القدس. وهو هام فيما يتعلق بموضوع هذه الدراسة، لأن المؤلف يصف فيه معالم مدينة المقدس. أما المزارات التي يذكرها؛ فمنها كنيسة القيامة التي وصفها وصفاً مدققاً، ذاكراً بناءها والطوائف المسيحية الدينية التي تتعبد فيها. ثم يصف معاملة المسلمين للنصارى في القدس. واهتم أيضاً بالحياة الاجتماعية التي كان يعيشها المقادسة؛ بما في ذلك اللباس والطعام والحياة اليومية.(١٢)

القدس هي محج للنصارى ومدينتهم المقدسة، وكانت تستقبل عددا من الحجاج والرحالة النصارى، الذين يزورونها من مختلف البلدان المسيحية للتنسك والتبرك. فالحجاج الغربيون كما يشير الرحالة كازولا؛ كانوا يتجمعون في البندقية أو في جنوة، ثم يبحرون إلى يافا أو إلى عكا. وقبل نزول الحجاج بيافا كان ربان السفينة، يسجل كل أسماء الحجاج الذين معه، وأوصاف كل واحد منهم بما في ذلك لون بشرته والعلامات المميزة لكل شخص، ثم يبعث بتلك اللائحة إلى أمير الرملة وإلى نائب القدس. ولايتمكن هؤلاء المسافرون من النزول على الأرض في يافا إلا بحضور أمير الرملة ونائب السلطنة بالقدس، ورئيس رهبان دير جبل صهيون. وعند نزول الحجاج من السفينة يتولى موظف مسلم خاص تسجيل الاسم الشخصي لكل حاج واسم أبيه. ويذكر كازولا الذي زار القدس أن نائب السلطنة في مدينة القدس عين حرسا، يرافق الحجاج النصارى ويحميهم أثناء تنقلاتهم. (١٣)

اهتم الحجاج والرحالة النصارى بكل ما يتعلق بكنيسة القيامة، وأمدونا بتفصيلات كثيرة عنها. يذكر كازولا موقع الكنيسة داخل صور المدينة؛ لها بابان يفتحان على ساحة جميلة المنظر، ويقف على باب هذه الكنيسة ثمانية حراس. وكانت بتلك الكنيسة عدة طوائف تتعبد بها تنسكا وتبركا، حيث يعتقد النصارى أن المسيح عليه السلام دفن فيها، بعدما أنزل من الصليب في المكان الذي شيدت عليه كنيسة القيامة. وكانت كل طائفة من تلك الطوائف؛ تمثل وتنوب عن جميع من ينتمي إليها في العالم.

ويصف الرحالة أسواق القدس التي كانت مقسمة حسب البضاعة التي تباع في كل سوق من تلك الأسواق. وقد أعجب كازولا بأسواق القدس وذكر أن من أبدع ما رأى في المدينة الطرقات والأسواق المسقوفة، التي تمتد بقدر ما يمتد بصر الناظر. ومن هذه الأسواق سوق الطباخين

التـــي زارها الرحالة، ووجـــد فيها الأطعمة تباع مطبوخة وجاهـــزة للأكل. وقد أعجب بهذه السوق وبكثرة روادها؛ إلى أن اعتقد أن المقادسة لا يطبخون في بيوتهم بل يأكلون من الأطعمةالتـــي كانت تباع جاهزة من السوق. وقد لاحظ هـــذا الزائر أن الدجاج المطبوخ واللحـــم والبيضـــ وغيرها مـــن المأكولات الجاهزة رخيصة. (١٤)

ووصـــف كازولا سوق الزيـــت والزياتين، التـــي كان يبـــاع فيهـــا زيت الزيتـــون، وبها أيضاً المصابن التي يصنـــع فيها الصابون. وقد كانت هذه الســـوق كبيرة وهامة بسبب وجود أصحاب المصابن، الذين كانوا يشترون الزيت بكميات كبيرة. أما مصدر هذا الزيت فقد كان من الجبـــال والسهول القريبة من القدس، ومـــن جبل نابلســـ. ووصف سوق القطانين التـــي كان يباع فيها القطن، وتقع في حارة يطلق عليها اسم حارة القطانين.

أما رحلة غلفورد، فقد حررها مرافق له لازمه في رحلته إلى البلاد المقدسة، وسماها «الحج إلى الأرض المقدسة». وقد بدأت هذه الرحلة في أبريل سنة ١٥٠٦ /١٩١٢؛ عندما أبحرا مـــع الحجاج إلى أراضـــي فلسطين. في هذا الكتـــاب نجد معلومـــات قيمة عن الإجـــراءات الإدارية في يافا والقدس، وهي الإجراءات التـــي يصفها الكاتب بأنها كانت بطيئة، ويذكر معاملـــة المسؤولين الإداريين والأدلاء. كمـــا يشـــير إلى وضـــع الطوائف المسيحية في القدس، ومرافقتهم للحجاج في زيارتهم للأمكنة المقدسة، وعدد المسيحيين القاطنين في المدينة. (١٥)

ويشـــير الرحالة غلفـــورد إلى أن هؤلاء الحجـــاج مـــن الأوروبيـــين، كانـــوا يلاقون صعوبـــات كثـــيرة أثنـــاء زيارتهـــم للأرض المقدســـة. يذكر أنه لما نـــزل هو ورفاقه في مدينة يافا، أخذهـــم الموظفون إلى مغارة / دير قديم قضوا فيه ليلتهم تحت سياط البرد القارســـ. كما يذكر أيضـــاً أنهم وصلوا إلى مدينة القدس بعـــد جهد جهيد، ولما وصلوا أعطاهـــم رهبـــان دير جبل صهيـــون فرشا ينامون عليها وطعاما يقتاتون به. وكان رئيس هذا الدير وبعض رهبانه يرافقون الحجاج في زيارتهم للأماكـــن المقدسة. ومن المشاق التـــي كان يشكو منها الحجـــاج الأوروبيون أثناء إقامتهم في القدس، والتي كانت تسبب لهـــم المرض، قضاء لياليهـــم خارج البيوت. وكذلك عدم وجود نبيذ يشربونه في القدس والمدن المجاورة؛ لأن المسلمين لا يشربون إلا الماء فقط. (١٦)

ومهمـــة الرحالة الغربيين تذكرنا بمهمة زملائهم الذين سبقوا الغزو الصليبي لمدينة القدس، فقـــد كان مسبوقا بأعـــداد وافرة

من الحجاج والرحالة الأوروبيين مهدوا لذلك الاحتلال. والملاحظ أن اهتمام الممالك المسيحية بهذه المدينة؛ لم يقتصر على مثل تلك المساعي المتسترة، بل اتخذ في بعض الأحيان أشكالا سافرة. فقد وعد البابا غريغوريس العاشر أثناء زيارته لمدينة عكا سنة ٦٧٠ / ١٢٧١ حشداً كبيراً من الصليبيين المحتفلين بزيارته بالعمل على استرجاع المدينة المقدسة من أيدي المسلمين، وأضاف أنه إن لم يحقق ذلك فليكن منسيا من قبل جميع المؤمنين النصارى. كما توحي بعض الكتابات أن بعض ملوك الصليبيين في عكا، كان يلقب الواحد منهم نفسه بـ«ملك البيت المقدس والساحل». وكذلك فعل هيوج الثالث ملك قبرص، الذي احتل عكا، حيث لقب نفسه بملك قبرص وبيت المقدس. وهذا حسب ما أشار إليه الرحالة كنج في رحلته المسماة بـ «الفرسان». (١٧)

وتناول برسكوت في «رحلة القدس» مهام قناصل الممالك المسيحية ورؤساء الأديرة بالقدس، حيث أشار إلى أن مهمة استقبال الحجاج النصارى في الأراضي المقدسة، ومرافقتهم في زيارتهم مدة حجهم كانتا مناطتين بعهدة رئيس دير جبل صهيون بالقدس. وكان هذا الراهب يعتمد في القيام بمهمته، على كفاءته وعلاقاته الشخصية وصيت مركزه الديني، خاصة وأنه لم تكن هناك دولة مسيحية تسنده في القيام بمهمته هذه. أما فيما يتعلق بالقناصل فإن وجود قنصل، يمثل دولة أجنبية بصفته الرسمية في القدس، لم يتم ذلك إلا سنة ٨١٨ / ١٤١٥، عندما تحصل حكام البندقية على موافقة من السلطان الحاكم، على إقامة قنصل لبلادهم في القدس. كما حصلت جنوة على الموافقة في إقامة قنصل جنوي في القدس. وعند تتبعنا لتاريخ هاتين القنصليتين، نجد أن عملهما كان لا يتعدى حدود خدمة الحجاج النصارى والعمل على حمايتهم.(١٨)

وكتب الإيطالي سريانو كتابه بعنوان «معاهدة الأرض» عام ٨٦٣ / ١٤٥٨، يتحدث فيه عن المسيحيين الأحباش والهنود، ومن طبيعتهم على ما يذكر الرحالة المراوغة والعبث والمادية. وتكلم عن المسيحيين والرهبان الأرمن، حيث كان لهم مكان يتعبدون فيه في كنيسة القيامة، بالإضافة إلى ذلك كان لهم دير في القدس يعرف بدير الأرمن، ومن صفاتهم أناقة اللباس والكرم.. أما النوبيون من المسيحيين فكان مكان تعبدهم محاذيا للهنود والأحباش في كنيسة القيامة. وأما السريان فكان لهم مكان خاص في كنيسة القيامة، ودير ينسب لهم. وكان للأقباط رهبان في كنيسة القيامة، غير

أن المكان المخصص لهم في الكنيسة يخلو أحياناً؛ بسبب تغيبهم وسفرهم إلى القاهرة، وهم أقل الفئات المسيحية عددا في كنيسة القيامة، لذلك كان أبناء رهبانهم ينصبون قساوسة. ومن تقاليدهم أن الرهبان يحملون أبناءهم على أيديهم للبركة عند تلاوة ترانيمهم الدينية. (١٩)

القدس بعيون أمريكية.. غربية معاصرة «مدينة واحدة وعقائد ثلاث»

قدمت الكاتبة الأمريكية كارن آرمسترونج في كتابها الذائع «القدس: مدينة واحدة وعقائد ثلاث» وصفا رائعا إنسانيا. وهي التي قضت سنوات من عمرها راهبة، وكما تقول؛ أوصلتها تجربتها الدينية أن تلمس قبساً نورانياً في النفس البشرية، تلك الحقيقة التي يعمى عنها أغلبية البشر؛ ممن يدخلون في صراعات تحفزهم إلى ذلك عقائد مختزلة ومشبوهة، ينتج عنها الحقد والاضطهاد والقتل والدمار. في كتابها تتلمس آرمسترونج مع فعل الكتابة طريقاً للرؤيا، وهي تكتب تعلم تماما أنها لن تصل إلى إجابة محددة للتساؤلات التي تطرحها. أما كتابها هذا؛ فتحاول من خلاله الحفر في الماضي وتأمل الحاضر، وأن تستشف إجابة لتساؤل هو: لماذا المقدس؟

لا يوجد إجابة واحدة؛ فتاريخ ارتباط البشر بتلك البقعة وصراعهم لتملكها، معقد تعقيد تاريخ التجربة الإنسانية نفسها. فمنذ القدم بحثت التجمعات البشرية عن صلة خاصة بها وبالآخر الغائب / الحاضر: أي بـ «المقدس». تقرر الكاتبة أنها لا تحاول أن تضع قانوناً بشأن مستقبل القدس. فقط هي تحاول أن تتلمس معنى لقول المسلمين والمسيحيين واليهود إن القدس مدينة مقدسة؛ وبما أن المدينة مقدسة بالنسبة للجميع فإن الرؤية الموضوعية مستحيلة. لذا يلجأ الأطراف في نقاشهم أمور الحاضر الخاصة إلى استجلاب الماضي، وأي ماض؟

فالبشر في نظر الكاتبة آرمسترونج عند حديثهم عن «المقدس»، أو عن تجربة الوجود الإنساني، لا يستطيعون الإفصاح عن أنفسهم بشكل منطقي؛ فيلجأون للأسطورة للتعبير عن حقيقتهم الداخلية. لذا يشارك الرمز في الحقيقة التي يرمز لها، ويمتلك قوة مدخل المؤمنين إلى عالم «المقدس». وتندرج تحت تلك الرموز شخوص الأنبياء، والكتب المقدسة والمبادئ الدينية، وأيضا الأماكن التي رأى الناس فيها رموزاً مقدسة. ونظراً لحركة التاريخ الخاصة المرتبطة بها، أصبحت القدس رمزاً للأديان الثلاثة. ورغم محاولات الأنبياء والمصلحين أن يفصلوا العقيدة الدينية عن الأسطورة؛

فــإن الأسطــورة مــا تلبــث أن تتغلب على الروحانيات. [٢٠]

تقرر الكاتبة أن المؤرخين حاولوا تحديد بعض الأمور فيما يتعلق بالسكان الأصليين في التلال والأودية؛ التي أصبحت فيما بعد مدينة «القدســ». فالآثار التي وجدت تعود إلى ٣٢٠٠ق.م. أمــا اســم المدينة فقد مزج باســم الإله السوري الكنعاني «شالم»، ويمكن ترجمة «أورشليم» أي التــي أنشأها «شالم». وكعادة القدماء فقد استقر أهل تلك الأودية على المرتفعات؛ التي اعتقدوا أن «المقدس» قد جسد فيها نفسه، ويتمثل ذلك في جمال المنظر أو قوة الرياح، أو ارتفاع المكان مثل تل «عبــل» أو «زافون»؛ ذلك الاسم الذي تحول بفعــل فاعل إلى «صهيــون». وفي القرن ١٤ ق.م. أعيــد سكنى المكان من قبائل كنعانية، ثم استقر الحوريون في أرض كنعان. وتأثرت أورشليم التي ظهر اسمهــا كمدينة كنعانية في ألــواح «تــل العمارنــة»، التــي من بين خطابات كتبها أحد حكام أورشليم إلى حاكم مصر. [٢١]

كما يرى البعض أن اليبوسيين استقروا في أروشليــم في تلك الفــترة، وأنهم هم من بنــوا جدرانهــا، كما أنهــم أنشــأوا موقعا جديدا على المنحــدر الشرقي. كما تم بناء معبــد «بعل» على جبــل «زافــون» تخليدا لانتصاراتــه. وتقرر الكاتبــة أن الحفريات تمــت لاحقــاً، وأثبتــت تشابهــاً غريباً بين نصوصــ «أوغاريت» الدينيــة البعلية وبين المزامير العبريــة؛ التي استخدمت لاحقا في العبــادات الإسرائيلية علــى جبل «صهيون» المحــرف عن اسم «أزفــون». ومن الملاحظ أن لفظ «أزفون» يظهــر في الإنجيل أحياناً بديــلاً للفظ «صهيــون». أما لفظ فلسطين فيعــود أصله؛ إلى أنه ظهرت في فترة لاحقة قــوة جديدة تدعى «فلسطــين» في الشاطئ الجنوبي لكنعان. ويقال إن رجال «فلسطين» كانوا رجال بحر وسفر وصلوا مصر وصور، وتوسعوا نحو غرب البحر الأبيض المتوسط. وهكذا توطنوا أرض كنعان، ووطنوا أنفسهم في خمس مــدن منها: عسقــلان، وأشدود، وغزة. [٢٢]

وتضيــف الكاتبة آرمسترونغ؛ أنه وطبقاً لمــا جاء في الإنجيل، فــإن الإسرائيليين بعد غزوهم لما سموه «أرض الميعاد»، كان عليهم أن يعيشوا مع السكان الأصليين / الكنعانيين في المكان «فلسطين». أما أورشليم فقد ظلت بالنسبة لهــم مدينة معادية، وتثبت القصية الإنجيلية غزو «يشوع» لأراضي الكنعانيين. وهكذا وصل الإسرائيليــون كنعان في نهاية القــرن الثالث عشر قبل الميــلاد كما تؤكد الوثائق المصرية والكتب المقدسة. وقد أطلق

لفظ «عبريين» على الإسرائيليين لأول مرة حينما كانوا منبوذين من قبل فرعون مصر. وتدريجياً وتحت تأثير الأسطورة، حاول الإسرائيليون تملك مقدسات ومعبودات الآخرين؛ فمثلاً تبنوا معبود ولفظ «العليون/ عليان بعل»، وكان إلها لليبوسيين يعبد على جبل «أزفون». وتبدو قصة «الخروج» كما أوردها الكتبة، وليس فيها ذكر لأورشليم إعادة صياغة «قومية / أساطيرية» وسطو على مقدسات الآخرين، لإنشاء «أسطورة العودة». وإعادة البناء لما هو موجود في أساطير «بعل» والأساطير الشرقية عن الآلهة، ووسيلة لاحتلال ما سمي «أرض الميعاد» بمباركة إلهية، وصار «يهوه» يحارب من أجل «أورشليم» تماماً كما كان يفعل «بعل».(٢٣)

وفي عام ٧٢٢ ق.م تم تدمير مدينة «ساموريا» بوساطة الآشوريين، ومحيت مدينة «إسرائيل» من الوجود وبطل استعمال الاسم. ومع استمرار هجمات الآشوريين عادت أورشليم إلى الوثنية وعبادة الإله «بعل» و«عنات». استسلمت أورشليم عام ٥٩٧ ق.م لنبوخذ نصر ونقلت قيادات اليهود؛ بدءاً بالملك ومرورا بالقساوسة والحرفيين إلى «بابل». وعقب عصيان لاحق في المدينة تم تدمير المدينة وأسر الملك الجديد، ونما الاعتقاد تدريجياً أن «يهوه» هو الذي دمر المدينة بسبب الخطايا. أما المنفيون فقد تأقلموا تدريجياً، وعاشوا في رغد، وسكنوا أحياء متميزة في بابليون.

وتضيف الكاتبة آرمسترونغ، ثم حدث أن عاد المنفيون إلى كنعان مرة أخرى بعد انتصار الفرس بقيادة سايروس. وفي عهد داريوس الفارسي بدأت إعادة بناء معبد متواضع، ورغم أن أورشليم في القرن الخامس كانت مدينة خربة قليلة السكان، فقد تمسك الإسرائيليون هنا بـ «الجغرافيا المقدسة»؛ المتمركزة حول «يهوه» واعتبروا الآخرين دخلاء.(٢٤)

تقول الكاتبة إنه لا يوجد دليل تاريخي على أن الأسكندر الأكبر، الذي هزم الفرس سنة ٣٣٣ ق.م قد زار أورشليم، غير أنه بعد وفاة الأسكندر في بابل، احتل بطليموس الأول من مصر: يهودا، والسامرة، وفنيقيا، والساحل الشمالي. وعمت المؤسسات الإغريقية المنطقة، نجحت الحضارة الهيلينية في اختراقها. وبدأ اليهود في الاختلاط والسفر والتسمية بأسماء إغريقية فيما عدا بعض المحافظين منهم. واستقر الحال هكذا حتى تم غزو أورشليم سنة ٢٠٠ ق.م، وعين سايمون الثاني على رأس الحكم الإثني بـ «يهودا»، وبدأت عملية تطهير عرقي وعقائدي في أورشليم مرة أخرى.

وفي عــام ١٧٠ ق.م حدث صــراع بين يشوع وأنطاكيوســ، أدى إلى هجــوم هذا الأخير علــى «أورشليم» والمعبــد، وتحريم ممارسة العبادة اليهودية، وإلغــاء القوانين التوراتية وتكريســ المعبد للإله «زيوس». غير أنه بعد ذلك تحالف اليهود مــع الرومان واستعادوا أورشليــم. ثم ســاءت الأحــوال بينهم وبين الرومــان في النهاية. وفي سنة ٦٣ ق.م هجم الرومان بقيادة بومبي على المدينة واقتحموا المعبد، وقتلوا ١٢ ألف يهودي، وسميت البلاد رسمياً فلسطين، وبعد ذلــك حكم الرومان المدينة مباشرة. (٢٥)

المسيح وأورشليم / القدس.. القصة والأسطورة والعقيدة

تذكر الكاتبة آرمسترونج أن المسيح دخل أورشليــم عام ٣٠م، راكبــاً حمارا، وقد قام بطرد المرابين من اليهود من المعبد. واستنادا إلى قول مرقص تنبأ المسيح بسقوط المعبد، الــذي قد تحول إلى وكــر للصوص فتوعده اليهود. وعند محاكمته لم يجمع الشهود على أنــه أقسم على هدم المعبــد فأفرج عنه. ثم أعيدت محاكمته مرة أخرى، لأنه تنبأ بعودة القبائل الاثنتى عشرة من اليهود تحت حكم حوارييــه الاثنى عشر. وأيضــاً بزوال معبد هاروت ليحل محله أثــر ديني لم تصنعه أيد إنسانيــة، وفي نهاية الأمــر تم صلب المسيح في مكان خــارج المدينة يسمــى «الجلجلة» وبجــواره. بــدأت ديانة سماويــة جديدة/ المسيحية، خاصة حين سرت الأنباء عن رؤية البعضــ للمسيح يبعث مــن الموت، فاعتقد أنه هو المخلص المنتظر. قاد الدعوة ثلاثة: بطرس، ويوحنــا، وجيمس / أخــو المسيح – هكذا تقول المؤلفــة – والذي اتبع المسيح وحــده فقط بعد مماته، وكان ضمن الأوائل الذين قيل إنهم شاهدوا رؤيا بعث المسيح، ثم أصبــح / جيمس كبيراً للكنيسة التي أنشئت عام ٥٠ م، واستمر يرعى تعاليم التوراة على أمل عودة المسيح. (٢٦)

وتضيف الكاتبة؛ لكن الحواريين استمروا يــؤدون الطقوس في المعبــد، وأطلقوا على أنفسهــم لقب «الفقــراء»، فاجتذبوا أتباعا اعتقــدوا بقرب عودة المسيح ومملكة الرب. ثم تبعهم عدد آخر من اليهود ممن شاهدوا رؤى عن المسيح؛ ومــن بينهم «بولس» الذي نادى بأن المسيح حل محل التوراة كتنزيل الله الأول، وأن كل من عاش في المسيح هو ابن الله ومــن أبناء إبراهيم، بغض النظر عن العرق الأصلي. أي إنه تم التحول من المعبد المقدس إلى «الرجل المقدســ»، والذي أصبح مركزاً للخلاص.كان هؤلاء المسيحيون لا يرون لهم جــذوراً في مكان معين، وأصبح بولس جوال رمزاً لهم. وفقدت أورشليم/ المكان قيمتها،

وتحولت إلى رمــز روحي يوجد حيث يوجد المؤمنــون، واعتبر هذا كفــرا بالمعبد حوكم على إثره بولس. (٢٧)

ثــار اليهود على الرومــان في الستينات الميلادية، وازدادت الثورة بسبب الممارسات الدينية ضد المعبد. ثم قرر المسيحيون اليهود الخــروج من «أورشيليــم»؛ خصوصاً أنه تم إعدام جيمس على يد اليهود، ودعمت نبوءة المسيح بهــدم المعبد قرار الخروج. وفي سنة ٦٧م أرسلــت رومــا قسباسيان إلى فلسطين لقمــع ثورة لليهود، لكنه عــاد إلى روما سنة ٧٠م لتــولي الإمبراطورية، وترك هناك ابنه تاتيوســ. وفي ٢٨ أغسطس من سنة ٧٠ تم تدمــير وإحراق المعبــد، وقتل عدد كبير من اليهود ثــم دمرت أورشليم تدمــيراً شاملاً، وصودرت جميع أراضي اليهود وممتلكاتهم وتبعــت كل فلسطــين رومــا. وتم استقدام جنود رومانيــين ومواطنين إغريق وسوريين وتوطينهم في أورشليم. وبحلول القرن الثاني بــدأ اليهود المسيحيون في تكوين أساطيرهم عــن المــكان والأشخاص. فقــد كان يوحنا قد قال إنه رأى المسيــح يتماهى مع الذات الإلهيــة، وأورشليم تهبط من عند الله على الأرض. (٢٨)

تذكــر الكاتبــة آرمسترونج أنــه حينما أصبــح قسطنطين إمبراطــوراً للغرب عام ٣١٢ م، اعتقد رغم جهله بتعاليم المسيحية، أن انتصاره يرجع لــرب المسيحيين، فأعلن المسيحيــة ديناً رسميــاً للإمبراطورية. كما اعتقــد أيضــاً أن العقيدة يمكــن أن تكون عنصــر تماســك في أنحــاء الإمبراطورية. وبحلول عام ٣٣٥م أصبح للمسيحية كنيسة عظمــى، كمــا اجتذبت الديانــة عددا من المفكرين وتضاعف عدد أتباعها. وتبعاً لذلك زاد تشييد الأضرحة علــى مقابر الشهداء، وأصبحت القسطنطينية التي كانت قد حلت محل بيزنطــة كلها مسيحيــة. وبعد عامين من التنقيب، اكتشفــت مقبرة تحت رصيف المعبد القديم وأعلن أنها مقبرة المسيح، رغم أنــه لم يتم التوثيق من صحة الاكتشاف. غير أن ذلــك الإعلان بدا وكأنــه معجزة «بعث» للمقبرة مماثل لبعث المسيح قبل ذلك بثلاثة قرون. كما أعتقد أيضاً أنه تم اكتشاف مكان بقايا الصليب، وأقيم ضريح في الموقع الأول سمي «أنستاسيا» أي القيامة، وكنيسة كبيرة في الموقع الآخر. وتطورت أسطورة «أورشليم الجديدة»، فقد أخــذ المسيحيون في تطوير أسطورتها عن المكان الذي أصبح مركزاً في عقيدتهم. (٢٩)

تقول الكاتبة لقد أخــذت الشخصيات الرومانيــة الكبيرة؛ وخاصة النساء منهم في التوافد على أورشليم/ إيليا المسيحية. فمثلا

قامت هيلينا أوجستا والدة قسطنطين بزيارة المشرق للترويج لفكرة ابنها عن الإمبراطورية، وقامت بالصلاة في الأماكن المقدسة التي أصبحت مسيحية، وتبرعت لبناء كنائس في بيت لحم وجبل الزيتون. وأصبح موت المسيح الدامي يتصدر العقيدة، وتوالت الأساطير حول كل موقع، وعما لاقاه المسيح على أيدي اليهود. وأقيمت كنيسة على جبل «صهيون الجديد؛ حيث قيل إن المسيح تناول عشاءه الأخير، وحيث هبطت الروح القدس على الحواريين. وصدرت القوانين ضد اليهود، وأبعدوا وأصبحوا يدعون في الكتب والوثائق الرسمية المتوحشين والكريهين والكفرة. وعمل المسيحيون على تقوية وجودهم في أورشليم، فقاموا بتغيير معالمها. وبحلول عام ٣٩٠ كانت قد امتلأت بالرهبان من جميع أنحاء العالم». [٣٠]

وتضيف الكاتبة آرمسترونج؛ أنه حدث في تلك الأثناء أن قامت «بوميبا» من الأسرة المالكة بالحج إلى المشرق، وتبرعت لبناء كنيسة على جبل الزيتون يعلوها صليب يتلألأ، وتم الاستيلاء على البقع المقدسة اليهودية لبناء كنائس تخلد القديسيين. واتبع تقليد تسيير المواكب والعروض المسيحية الصاخبة في المدينة والأعياد والمناسبات، واشترك في تلك الطقوس سكان المدينة والبلاد المجاورة من سوريا ومصر والرافدين، والحجاج الوافدون من الغرب، وتحولت إيليا كابيتولينا الوثنية إلى أورشليم المسيحية. وتقول الكاتبة إن الأنشطة والطقوس غيرت طبيعة التجربة المسيحية ذاتها، التي أصبحت تنصبّ على حياة المسيح الأرضية أكثر من تركيزها على العقيدة الروحانية. وبدلاً من تقديس الإله غير المرئي، أصبح التركيز على قدسية المكان، وعلى طبيعة المسيح الإنسانية (جسده). واكتسبت المادة أهمية لكونها تعريفاً بالمقدس، وصار الحجاج يتهافتون على تقبيل ولمس ولعق الحجارة؛ التي قيل إن المسيح لامسها، وصار الجانب الحسي من التجربة هو الذي يجتذبهم للمدينة. [٣١]

ومن جانب آخر تشير الكاتبة إلى أن تلك الأنشطة المسيحية؛ كانت تمثل محاولة للاستيلاء على التاريخ اليهودي. فالتاريخ يعيد نفسه فمثلما حاول بنو إسرائيل الاستيلاء على التاريخ الكنعاني لفلسطين وأورشليم؛ كذلك حاول المسيحيون الاستيلاء على التاريخ اليهودي وسطروه ومسحوه، حتى إن الكنيسة أطلقت على نفسها «إسرائيل الجديدة». وضم قديسو العهد القديم إلى المسيحية، وألغيت البطريركية اليهودية رغبة في الإسراع في القضاء على اليهودية. وتصاعد العداء ضد اليهود حينما

تم اكتشاف ما اعتقد أنه رفات «إسطفان»، أول شهيد مسيحي لأنه قتل لمهاجمته التوراة والمعبد. وازدهرت حركة بناء الأديرة والكنائس من قبل الملوك وأفراد الأسر المالكة الأوروبية، وتوافد الرهبان من جميع أنحاء العالم بما فيها الهند وإيثيوبيا يحتلون القدس ويغيرون معالمها.(٣٢)

القدس زمن العرب والإسلام.. سماحة وعدالة وسلام

تقدم الكاتبة كارين آرمسترونج القدس خلال زمن العرب والإسلام بنبذة عن الإسلام ذاته؛ لأنها ترى أن العدالة التي سادت الحياة في القدس في بحر هذا الزمن، مرجعها الأول تطبيق الإسلام تعاليم وفلسفة وروحا. لقد أكد على التآلف والتراحم والمشاركة بين البشر عامة، كما أن الإسلام قام على الاعتراف بالأديان السماوية / السابقة، وهدف الدين هو الله وليس إقامة مؤسسة دينية. وخلافاً لليهودية لا توجد في الإسلام ثنائية المقدس والدنيوي؛ فجميع الأماكن مقدسة في الإسلام، أما بيت المقدس فقد ارتبط المكان بحادثة الإسراء والمعراج. وترى الكاتبة تصرفات الخليفة «عمر» في بيت المقدس تجسيداً لرؤية الإسلام ومنهجه في التواضع؛ دخل المدينة وسط مظاهر البذخ البيزنطية على بعير أبيض في ملابسه الرثة، التي رفض استبدالها. وقد جسد عمر في فتحه القدس مثل التعاطف التوحيدي ونزوعه نحو السلام؛ فلم يحدث قتل أو طرد أو تدمير لرموز الديانات الأخرى أو نزع ملكية أو إجبار على اعتناق الإسلام.(٣٣)

احتفظ المسيحيون بأغلبيتهم العددية في المدينة، ولم يستوطن المسلمون أماكن المقدسات. كما سمح للمسيحيين بحق بناء الكنائس وإصلاحها، كما سمح لهم بتسيير مواكبهم الدينية، واقتصر المسلمون في عبادتهم على الحرم الذي بناه عمر. ونظرا لميل عمر إلى إبقاء الأوضاع على ما هي عليه؛ فإنه رأى عدم وجود سبب لإبعاد اليهود عن مدينة داود، فقام بدعوة سبعين أسرة من طبرية للاستيطان في الركن الجنوبي الغربي من الحرم حيث بنوا معبدا، كما سمح لهم بالصلاة في الحرم. وبث الفتح العربي الأمل في اليهود، إذ رأوا أن الإسلام ديانة توحيد وأن العرب من نسل إسماعيل، وقد قاموا باعتاقهم وبتطهير أرض المعبد؛ حتى إنه – كما تذكر الكاتبة آرمسترونج – في نهاية القرن ظهرت قصيدة عبرية تحتفي بالعرب، وكتب حاخامات اليهود خطابا يشكرون فيه الله؛ أن أتاح لمملكة إسماعيل فتح فلسطين والقدس وأنهم وطنوا معهم أبناء إسرائيل.

وهكذا استمرت المدينة مسيحية / يهودية / إسلامية.

وتشير الكاتبة إلى تاريخ «قدسية الصخرة» التي بناها عبد الملك بن مروان، وتنفي أساطير اليهود التي تواترت فيما بعد حول كون «الصخرة» جزءا من حجر الأساس الذي كان مجاوراً للسفينة «الصندوق»، ولم يذكر الخامات في ذلك الوقت أن الصخرة جزء من مقدساتهم. وفي الوقت ذاته توالت المعتقدات من قبل المسلمين حول القبة، وقيل عنها إنها مركز الأرض ومدخل الفردوس. وتدريجياً بدأت الجغرافية المقدسة في الأذهان، تشير إلى أماكن في المنطقة قيل أن آدم هبط عليها وأن إبراهيم صلى فيها، وإن القبة هي النقطة التي تلتقي فيها السماء بالأرض. وبدأ تقديس الأماكن لدى المسلمين، وأصبحت القبة خريطة روحانية للمسلمين، وارتبط بها أيضاً كونها أول قبلة ومنها الإسراء والمعراج، وفكرة الفردوس الأرضي وكونها مركز الأرض. أما معمار القبة وتصميمها؛ فقد أصبحا نموذجين للفن والعمارة الإسلامية، إذ إنها ترمز للسمو نحو السماء، كما تعكس توازنات التوحيد. وتدريجياً اكتسب بيت المقدس /المدينة والقبة/ المعمار قدسية مستقلة، وكان الحرم قد احتل مكاناً مركزياً في تجربة الإسراء منذ بناء القبة، كما أكد الصوفيون على «موتيفة» /موضوعة/ العودة إلى الله وعلى المعراج كنموذج للتجربة الروحانية. (٣٤)

تشير الكاتبة آرمسترونج إلى أن أوروبة الغربية (الفرنجة) ظهرت على مسرح الأحداث؛ حينما نصّب البابا ملك الفرنجة تشارلز إمبراطوراً للرومانية الغربية. وابتهاجا بذلك، لقبت أوروبة الإمبراطور بشارلمان (تشارلز العظيم). ولكي يكسب شرلمان حلفاء ضد بيزنطة، حاول التقرب من بغداد، وتبادل الهدايا مع هارون الرشيد الذي سمح له ببناء كنيسة ومكتبة ومبان دينية أخرى في القدس، كما منحه مقرّاً دائماً هناك، الأمر الذي دعا الأوروبيين أن يروا حقا لهم في المدينة، وكانت تلك العقيدة وراء الحروب الصليبية.

حدث في عام ١٠٧١م أن استولى الأتراك السلاجقة على معظم آسيا الصغرى وفلسطين، ثم استولوا على القدس عام ١٠٧٣ م. وعندها خاطب البابا إيريان النبلاء والفرسان والفقراء والمجالس الدينية في أوروبة وحثهم على إعلان حرب مقدسة؛ على الأتراك والمسلمين في الأناضول ثم السير إلى القدس. وسيّرت حملة قوامها ٦٠ ألف فرد، تبعها خمسة جيوش أخرى. وفي عام ١٠٩٦م قام صليبيون جرمانيون

بارتكاب مذبحة لليهود في طريقهم بحكم أنهم قتلة المسيح. وفي ١٥ يوليو ١٠٩٩ سقطت القدس وارتكبت مذابح هائلة في صفوف المسلمين واليهود. وسار المسيحيون نحو كنيسة القيامة يتغنون بالتراتيل.. لقد كان في نظرهم يوماً رائعاً من صنع الله الذي تجلى لشعبه وباركه. (٣٥)

ومع مرور الوقت ازداد عدد سكان المدينة مرة أخرى، لكن القدس تحولت إلى مدينة غريبة زالت عنها الصفة الدينية، ووضع صليب أعلى قبة الصخرة وغطيت الآيات القرآنية بنقوش لاتينية. أما المسجد الأقصى فتحول إلى معسكر ومخازن للذخيرة، وعاش الرهبان في ترف وتحولوا إلى جنود. وبحلول عام ١١٢٠ كان جيل كامل من الصليبيين قد شب هناك لا يدري شيئاً عن الغرب، واكتسب أفراده العادات الشرقية مثل الاستحمام؛ وهي عادة لم يعرفها الغرب، وارتدى الرجال الأثواب الراقية، وتحجبت نساؤهم. وهكذا، فعندما دعا نور الدين زنكي إلى الجهاد، اشتعلت جذوة كانت قد خبت، ورغم تلك البداية، فقد جاءت نهاية مملكة الصليبيين في القدس على يد صلاح الدين؛ الذي فتح المدينة في ٢٦ أكتوبر عام ١١٨٧ م، الذي وافق ليلة الإسراء دون أن يقتل مسيحياً واحداً. ثم أفرج صلاح الدين عن عدد كبير من الأسرى، ودفع البارونات الفدية، وفروا بثرواتهم الهائلة المنهوبة؛ التي رفض صلاح الدين مصادرة شيء منها احتراماً للمعاهدات. (٣٦)

وتضيف الكاتبة أنه من ثم قرر صلاح الدين أسلمة القدس وتغيير تضاريسها، واستعمال المعمار سلاحا إيديولوجيا. ورغم ذلك استمر العمل بمبدأ التعايش والتكامل، وسمح للمسيحيين الغربيين واليهود بالعودة. وإبان القرن الخامس عشر زاد القراصنة المسيحيون من هجماتهم على مدن فلسطين الساحلية، بينما أخذ المسيحيون الغربيون – وخاصة الفرنسيسكان منهم – في استفزاز المسلمين، بينما توحشت هجماتهم على الإسلام والرسول. وازداد تدفق الحجاج والمستوطنين الغربيين، كما قامت النزاعات بين اليهود الإشكناز القادمين من الغرب، والسفارديم الذين قدموا من إسبانيا والبلاد العربية. وأحدث فتح العثمانيين للقدس ابتهاجاً بين اليهود، الذين كانوا قد اعتقدوا أن طردهم من الأندلس هو نهاية عصرهم الذهبي. وكان اليهود بعد أن طردهم الصليبيون من المدينة اتخذوا من الصلاة عند بوابات الحرم عادة، ثم التجأوا إلى الصلاة عند الحائط الغربي بوجه خاص أيام هجمات المماليك والبدو، بحثاً عن الحماية.

القدس في ضمير مرآة السينما الغربية.. في فيلم «مملكة الجنة»

قدم المخرج العالمي «ريدلي كوت» فيلم «مملكة الجنة» / القدس، من إنتاج عام ٢٠٠٥، تناول مملكة ومدينة القدس. ومنذ المشهد الأول يتكون لدى المرء انطباع بأننا حيال رؤية تحاول أن تنفي عن نفسها سمة التعصب الغربي تجاه العرب والمسلمين؛ فالمشهد يجري في فرنسا العام ١١٨٤م يصور قسوة الكهنة الغربيين المحتلين، في عملية دفن زوجة حداد القرية الشاب بطل الفيلم «باليان». فالمرأة التي ماتت منتحرة بسبب مرضها، يعامل جسدها بوحشية مفرطة على اعتبار أنها كافرة، يقطع الكهنة رأسها ويحرقون جثمانها، وتترك زوجها الذي كان يحبها في حالةبائسة من فرط الحزن على فراقها، ومن شعور رسبه داخله الكهنة بأن روحها لن تنال الخلاص. وبينما هو في يأسه وضياعه يأتي والده الذي لا يعرفه، على رأس قافلة من المحاربين الصليبيين، ويحاول إقناعه بالذهاب إلى القدس «المدينة التي سيحكمها الضمير». وبإغراء أن يحصل لروح زوجته الراحلة على الخلاص، يوافق على الانضمام إلى الحملات الصليبية التي احتشدت في أوروبة للاستمرار في السيطرة على «مملكة السماء» الأرضية. (٣٧)

ويتوجه باليان ووالده ومجموعة من الصليبيين إلى ميناء الأرض المقدسة «مسينا»، حيث يعتبر نقطة انطلاق الصليبيين إلى القدس، التي تعتبر كل خطوة على الطريق إليها سعيا لمحو الخطايا. وفي الميناء المثقل بأكداس المتعبين من الساعين لمحو الخطايا، أو الهاربين من أوروبة أو الطامعين في مغانم دنيوية، نسمع عبارات التحريض على القتل والموت، وكأنها تكرار لعبارات التطرف الشائعة الآن، والتي تصور الإجرام التاريخي الديني على أنه طريق إلى الجنة. حيث يكون قتل الكافر ليس خطيئة، ومحو الخطايا يكتمل في القدس، وإرادة الحرب إرادة الله، وسفك دماء المسلمين تخليص للقدس منهم حتى تكون «مملكة الضمير والعدل».

يصل باليان إلى القدس التي تصورها مشاهد الفيلم مجمعاً للشعوب والأديان والألسنة، تخوض في غمارها الوجوه البيضاء والسمراء وترتفع في ساحاتها النداءات بلغاتها المتعددة؛ عربية وأوروبية وعبرية، فيما ترتفع في سمائها أبراج الكنائس ومآذن المساجد، وتختلط دقات الأجراس بأصوات المؤذنين. نعرف في القدس أن والد باليان فارس مرموق مقرب من الملك الصليبي المصاب بالجذام، والذي يخفي تشوهات

وجهه بقناع معدني، وتسفر حواراته عن شخصية حكيم كاره للعنف، ومؤهل للتسامح يحمل تقديراً خاصاً لخصمه قائد المسلمين «صلاح الدين». يموت والد باليان فيرث عنه حكم مقاطعة «أبيلان»، التي تعتبر حامية للطريق إلى القدس. وخلال تلك الفترة تظهر مشاهد طريقة حكم باليان المتسامح والمتواضع، الذي يتعامل مع رعاياه من المسلمين واليهود والمسيحيين على قدم المساواة، يشاركهم العمل، ويشركهم في خير الواحة الذي ساهموا في زرعه ورعايته، فتتحول الأرض من مجرد صحراء إلى واحة مزدهرة، تفيض على سكانها بالظلال والثمار. [٣٨]

بعد بروز المواهب القتالية والقيادية وملامح الحكمة والاعتدال لدى باليان، يود الملك قبل وفاته تزويجه ابنته، التي هي زوجة «جي رينو» المتعصب ضد المسلمين. وبذلك يكون باليان المعتدل ملكا على القدس، يواصل مسيرته المتعلقة بصلاح الدين. وبعد وفاة الملك واعتلاء ابنته العرش تعرض على باليان الذي توضّح ميلها إليه أن يزيح زوجها، ليحل مكانه ويغدو بالتالي ملكا، لكنه رفض ذلك لعدم قدرته على «بيع روحه»، التي لا تزال مرتبطة بزوجته المتوفاة. وتقرر ابنة الملك «سيبيلا» تعيين زوجها ملكا على عرش القدس. جراء التغييرات التي فجرها الملك الصليبي الجديد المتعصب والمتعطش للقتال، والمتطرف لقتال صلاح الدين وجيوشه، ويخرج الملك الجديد لملاقاة جيوش المسلمين خارج القدس في معركة «حطين» التي تنتهي بانتصار جيش المسلمين، وانتهاء آخر المواجهات، ويصفح صلاح الدين عمن تبقى من مقاتلي الصليبيين والفرنجة وجعلهم يخرجون بأمان من القدس. وينتهي الفيلم بعبارات تحيل الماضي إلى الحاضر الذي لم تزل فيه «مملكة الجنة تفتقد السلام». [٣٩]

ونلاحظ على فيلم «مملكة الجنة» المبالغة الكبيرة في إبراز أعداد جيش المسلمين، بالمقارنة مع الصليبيين، في حين أن الكتب التاريخية تشير إلى أن العكس هو الصحيح. وفي مقابل ذلك نرى خسائر المسلمين مبالغ بها، وقد يعود هذا لطبيعة تفسير التاريخ من كل طرف من أطراف الصراع، ففي الفيلم نرى كثرة عدد جيش المسلمين الذي يسد الأفق. وهو ما يأتي تبريراً لهزيمة الصليبيين وأن الكثرة هي التي انتصرت. لم يكف السيناريو عن التأكيد على أن القدس مدينة للديانات الثلاث (المسيحية، والإسلامية، واليهودية).

كما قدم إشارة إلى «حائط البراق»

باعتباره جزءا من آثار اليهود بالقدس. ثم إن هناك مآخذ أخرى تكشف نقصا في المعرفة الدينية والثقافية بالمسلمين ومنها ما يتعلق بشكل أداء الصلاة، حيث قدمها الفيلم كأنها تتم بشكل فردي دائماً وليس في جماعة، وكذا طريقة ارتداء الثياب التي تسيَّدها اللباس المغربي إضافة إلى شكل مدينة القدس ذاتها، التي لم تظهر في زمنها التاريخي الحقيقي، ربما بسبب تصوير المشاهد الخاصة بالقدس في المغرب بعد رفض رئيس أساقفة الكنيسة الكاثوليكية في إسبانيا تصويرها في كنيسة «ميزكيتا» في قرطبة، التي كانت مسجداً كبيراً أيام دولة الأندلس.

لقد أظهر الفيلم الحوار الحضاري الذي دار في تلك الفترة بين الجانبين، وظهر هاجس القائد الصليبي في الحفاظ على جنوده وسكان القدس من «بطش» صلاح الدين، ليكشف بعدها أن قائد المسلمين لا يريد أن يقتل المسيحيين والمقاتلين الصليبيين بل يريد استعادة المدينة. يعطي الفيلم فكرة عن التطور التاريخي في علاقة الغربيين بالعرب، وهو الأمر الذي حكاه المخرج «ريدلي سكوت»: إن الحملات الصليبية التي خرجت بدعوى تحرير القدس من أيدي الكفار، كانت كذبا وبهتانا، وإن هذه الحملة ما زال صداها يرن عبر التاريخ. وفي الواقع ليس هناك من حرب أطول ولا أحفل بالضحايا والدماء مثل الحروب الصليبية.

أما الجدل الذي أثاره الفيلم في العالم الغربي، يشير إلى أن الفيلم تضمن الرواية الإسلامية الأصولية للتاريخ؛ عبر تقديم المسلمين على أنهم متحضرون في مواجهة صليبيين همجيين. كما أن الفيلم تجنب أو حصر الأحداث في قالب واحد، ويشكل كذلك وصفاً متوازناً وإيجابياً للحضارة الإسلامية خلال الحقبة الصليبية. وفي ضوء هذا التصور، يبدو أن تقدماً نوعياً ظهر مؤخراً في عرض الأفلام الغربية، وهو من نتاج العولمة؛ فلم يعد يعرض العربي على أنه ذلك السفاح المتعطش للدم، الجهول المتخلف. فالفيلم يحمل كل الاحترام للثقافة الإسلامية، وصورة كريمة جداً للإنسان العربي. فضلاً عن أن هذا الفيلم يظهر بوضوح كل دين وفيه طائفة من المتشددين، الذين يمثلون أنفسهم أكثر من الدين الذي ينتسبون إليه. وأن العنف الذي ظهر في الفيلم لم يقصد العنف لذاته، بل لإظهار أن العنف لا يخدم قضية، وأن الناس لم يستفيدوا من درس التاريخ شيئاً.

المراجع والإحالات

المصادر والمراجع والهوامش
١- بركارد: وصف الأرض المقدسة، لندن، إنجلترا — ١٩٦٦، ص: ٦٥، ٦٦.
٢- دي روتلان: المدينة المقدسة، ريمون، مطبعة غليوم، جينيف — ١٩٦٢، ص: ١٤٥، ١٤٦.
٣- دي روتلان: المدينة المقدسة، ريمون، مطبعة غليوم، جينيف، ص: ١٤٦، ١٤٩، ١٥٠.
٤- موندفيل: رحلة، مكتبة وستمينستر — ١٩٦٨، ص: ١٠٠، ١٠١.
٥- فرانيكولو: رحلة، مطبعة الفرنسيسكان — ١٩٤٥، ص: ٩، ١٠.
٦- فرانيكولو: رحلة، مطبعة الفرنسيسكان ، ص: ٢٢.
٧- فرانيكولو: رحلة، مطبعة الفرنسيسكان ، ص: ٢٢.
٨- فرانيكولو: رحلة، مطبعة الفرنسيسكان ، ص: ٢٣.
٩- فرانيكولو: رحلة، مطبعة الفرنسيسكان، ص: ٩.
١٠- دي لابروكيير: رحلات، مانشستر — ١٩٥٨، ص: ٢١٣، ٢١٤.
١١- دي لابروكيير: رحلات، مانشستر، ص: ٢٨٨.
١٢- كازولا: الحج إلى القدس، المطبعة الجامعية، مانشيستر — ١٩٥٧، ص: ٢٥٠، ٢٥٥.
١٣- كازولا: الحج إلى القدس، المطبعة الجامعية، مانشيستر، ص: ١٠٣، ٢٦٦.
١٤- كازولا: الحج إلى القدس، المطبعة الجامعية، مانشيستر، ص: ٥١.
١٥- غلفورد: الحج إلى الأرض المقدسة، لندن — ١٩٥٦، ص: ٢٣، ٢٥.
١٦- غلفورد: الحج إلى الأرض المقدسة، لندن، ص: ١٦، ١٧، ١٨.
١٧- كنج: الفرسان، لندن — ١٩٣١، ص: ٢٧٣، ٢٧٤.
١٨- برسكوت: رحلة الحج، لندن — ١٩٥٤، ص: ١٠٢.
١٩- سريانو: معاهدة الأرض، مانشيستر — ١٩٠٤، ص: ٣٩١، ٣٩٢.
٢٠- كارن اَرمسترونغ: القدس مدينة واحدة وثلاث عقائد، دار ألفريد، أ. نوبف للنشر، نيويورك — ١٩٩٦، ص: ٢٥، ٢٩.
٢١- كارن اَرمسترونغ: القدس مدينة واحدة وثلاث عقائد، ص: ٧٤.
٢٢- كارن اَرمسترونغ: القدس مدينة واحدة وثلاث عقائد، ص: ١٠٢.
٢٣- كارن اَرمسترونغ: القدس مدينة واحدة وثلاث عقائد، ص: ١٥٦.
٢٤- كارن اَرمسترونغ: القدس مدينة واحدة وثلاث عقائد، ص: ١٩٣.
٢٥- كارن اَرمسترونغ: القدس مدينة واحدة وثلاث عقائد، ص: ٢١٣.
٢٦- كارن اَرمسترونغ: القدس مدينة واحدة وثلاث عقائد، ص: ٢٤٠.
٢٧- كارن اَرمسترونغ: القدس مدينة واحدة وثلاث عقائد، ص: ٢٦٠.

٢٨- كارن اَرمسترونغ: القدس مدينة واحدة وثلاث عقائد، ص: ٢٧٣.
٢٩- كارن اَرمسترونغ: القدس مدينة واحدة وثلاث عقائد، ص: ٢٩٠.
٣٠- كارن اَرمسترونغ: القدس مدينة واحدة وثلاث عقائد، ص: ٢٩٥.
٣١- كارن اَرمسترونغ: القدس مدينة واحدة وثلاث عقائد، ص: ٢٩٨.
٣٢- كارن اَرمسترونغ: القدس مدينة واحدة وثلاث عقائد، ص: ٢٩٩.
٣٣- كارن اَرمسترونغ: القدس مدينة واحدة وثلاث عقائد، ص: ٣٠٣.
٣٤- كارن اَرمسترونغ: القدس مدينة واحدة وثلاث عقائد، ص: ٣٠٥.
٣٥- كارن اَرمسترونغ: القدس مدينة واحدة وثلاث عقائد، ص: ٣٠٨.
٣٦- كارن اَرمسترونغ: القدس مدينة واحدة وثلاث عقائد، ص: ٣١٠.
٣٧- ريدلي كوت: مخرج فيلم «مملكة الجنة» / القدس، لندن، إنتاج – ٢٠٠٥.
٣٨- ريدلي كوت: مخرج فيلم «مملكة الجنة» / القدس، لندن، إنتاج – ٢٠٠٥.
٣٩- ريدلي كوت: مخرج فيلم «مملكة الجنة» / القدس، لندن، إنتاج – ٢٠٠٥.





عبد الحميد بن هدوقة
ورواية: ريح الجنوب

د. قيصر مصطفى*

أولاً: مقدمة عامة في الأدب العربي

ربما أكون متشائماً أكثر مما ينبغي، أو متحاملاً أكثر مما يجب، مما يعني أنني أتهم نفسي، وربما أكون أكثر واقعية من غيري، ذلك أن نظرتي لمستقبل الأدب العربي عموماً، على طول الوطن وعرضه، لا تخرج عن هذه الرؤيا التي حددتها أو الأفق الذي أراه، فأنا أصر على أن مستقبل الأدب واللغة في بلادنا، يشبه إلى حد بعيد المستقبل السياسي والاجتماعي، ذلك الذي يشهد تقهقراً واضحاً، وتذبذباً ملحوظاً، لا جدال في أنه يجعلنا ننظر

* كاتب لبناني مقيم في الجزائر.

العمل الفني: الفنان مطيع علي.

إلى ذلك المستقبل من خلال ضبابية طاغية مكفهـرة، وربمـا يأسا منـا وفقدانا للأمل في أن نستعيد مـا كنا عليه بالأمس البعيد، حيث كان الأدب يحتل مكانته المرموقة، بعد أن كان يصـدر عما تختلـج به الأفئدة دون إكـراه أو تدخل أو توجيـه مشبوه من أحد، فـكان يعبر بحرية وينطلـق إلى الآفاق التي يحددها لنفسـه، وتلك التي كنا من خلالها نباهي الأمم، والسبب يعـود إلى الكثير من التداخلات والتقاطعات العشوائية، الناجمة عـن الضغوطات الخارجيـة، التي تدعو أو تعمل علـى إفساد المنظومـة التربوية، مما يترتب عنه بالضرورة إفساد الحياة الثقافية والحكم عليها بالتخلف والجمود، أو إفساد العقلية مـن أساسها وتهجينها، ولم يعد ذلك خافياً على أحد، فالمناهج التعليمية يُقصد منهـا في الغالـب «التقـزيم» في كل شيء، والتقوقع على الذات المريضة المتهالكة على نفسهـا، وعلى جميع المستويات، فنحن مثلاً غير مسموح لنا بتجاوز حـدود رُسِمَت لنا، حتى تبقى بلادنا سوقـاً استهلاكية بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى، حتى في مجال الكلمـة والكتاب، ولقائـل أن يقول: إذا كان هذا ينطبق على العلوم التطبيقية، فما شأن العلـوم الإنسانية في ذلك؟ والجواب، هو أن خطورة العلوم الإنسانية –على العدو– كائنة في كونها تعمل على إيقاظ الوعي السياسي والقومـي في الناشئة والأجيال، بل هي التي تخلـق وتكون الأجيال، وتعمـل على توجيه وترشيـد القيادة، فضلاً عـن كونها تحفز المواطن العادي على القراءة، وإقامة علاقة مع الكتاب والكاتب!! أي علاقة متوازنة بين المبدع والمتلقي، وهذا هو الخطر الأكبر على أصحـاب المصلحة في تخلفنـا، وهنا يكمن بيت القصيد ويكمن الداء، وإذا كنت لا أريد الإبعـاد في ذلك أو الإغراب، وحتى لا يظنّنّ أحـد أنني أبالغ، فإننـي أضرب مثلاً، ربما ينطبق على كل البلاد العربية، فهناك تعمّد واضح لضرب هذه العلـوم بطريقة مموهة كاذبة، كأن يقال بـأن العلوم التطبيقية هي الأهـم، وهي التي ينبغـي إيلاءها الأهمية اللازمة حتى نستطيـع عن طريقها اللحاق بالركب الحضاري، وقـد وضع لذلك سلماً عند اختيـار التخصـص بالنسبة لحاملي الثانويـة العامة، كان أدنى درجاته في اتجاه العلوم الإنسانية، وهذا يعني أن أقل المعدلات توجه نحو تلـك العلوم وأعلاها نحو العلوم التطبيقيـة، وهذه الأخـيرة لا تتاح الفرصة أمام متخرجيهـا ليفلحوا فيهـا، كما أفلح فيها الغربيون، في الوقت الذي نجد فيه أن العلوم الإنسانية وقد نكبت بمحدودي الذكاء والقدرات، والعاجزين عن العطاء، لا يمكن

أن تسهم في خلق حياة أدبية فكرية، كما نتوقع وكما نحب، ولا يمكن أن تسمح بظهور تفوق في مجالات العلوم الإنسانية، فكيف يكون منهم العلماء والشعراء والأدباء والمفكرون والفلاسفة، الذين هم على شاكلة طه حسين والعقاد والحكيم ومحفوظ والرصافي ونعيمة وجبران والزهاوي والشبيبي وغيرهم؟ وكيف ينبغ شعراء كشوقي وحافظ والبارودي والحبوبي ومطران وأبي ريشة والماغوط والبغدادي؟ وهل نحلم على هذا الأساس بانتعاش الحياة الفكرية؟ بالطبع لا، وهذا ما جعل الكثيرين ممن تخرجوا من جامعاتنا يلتحقون بركب الغربيين وعنه لا يحيدون، وكأنهم لا يرون سواه مجالاً للبحث والاطلاع، ومثله لا يبدعون، ونراهم يتخبطون خبط عشواء ذات اليمين وذات اليسار، دون أن تقودهم قدراتهم إلى الطريق المستقيم، ومن هنا جاء الاستخفاف بالتراث حمقاً وجهلاً، حتى بتنا ننظر إليه نظرة الأمي الجاهل، وبتنا لا نحسن قراءته ولا نستلهم أبعاده، وصار بيننا وبينه حاجز، يحلو للبعض منا أن يتهمه هو لا أن يتهم نفسه، وهذا هو منطق الأشياء، كما جاء الانخداع ببريق الثقافة الغربية كيفما كانت عن فهم أو غير فهم، والحديث يطول في هذا المجال، ولو أن المكلفين بتوجيه الحياة الثقافية وتهيئة الأسباب المناسبة والظروف الملائمة، وكانوا يملكون القرار فعلاً، لما كانوا قصروا في عملية الأخذ والاسترشاد بطرق ومناهج العرب الأقدمين، ولماذا لا يكون الاسترشاد بطرق ومناهج الغربيين أنفسهم في مجال العلوم الإنسانية، كما يصنعون في بلادهم ومع ناشئتهم؟ دون أن يهملوا ما توصل إليه الناس في هذا الزمن على أن يكونوا أحراراً في ذلك ومستقلي الرأي، ولا يخفى ما قصدت، ولا تخفى ملامح ما أردت الوصول إليه، والمطلوب هو المساواة بين مختلف فنون المعرفة فلكل وظيفته، ولكل رسالته، فلو ساوينا بين العلوم الإنسانية من حيث إعطاء الفرصة للاختيار بشكل متوازن، بعد وقبل التخرج وتركنا الأمور تسير بشكل طبيعي، لكان الإبداع تعبيراً واقعياً وحقيقياً عن قدرات وتوجهات الأمة والناشئة، في جميع المجالات، ولكن وللأسف فإن الأمور تسَيّس بطريقة لا يُقْصَد منها وجه الحق، ولا يُقصد مستقبل الأمة ومصالحها، والذي ينطبق على الجزائر ينطبق على غيرها فيما ذهبت إليه، وإذا كنا في صدد الحديث عن الأدب في الجزائر، فلا بد من الإشارة بداية إلى ما ذكرناه، ثم نخوض فيما بعد بالتفاصيل، فما هي وضعية الأدب في الجزائر وما هي مشاكله؟

ثانياً: كلمة حول وضعية الأدب الجزائري

كان للظروف التي مرت بها الجزائر أبعد الأثر في الحياة الأدبية، والمنهج الفرنسي في التعامل مع الشعوب المستعمرة، كان من أسوأ المناهج، تخطيطاً وتوجيهاً، وأكثرها خبثاً ومكراً، فالفرنسيون مصابون فيما يعود إلى التعامل معنا بعقدتين: الأولى عقدة الحسد المبنية على أساس من الحقد التاريخي المتأصل، والثانية عقدة التعالي على الآخرين، وبالتالي إلغاؤهم الآخر، لأسباب عنصرية ودينية وثقافية مختلفة..

وإذا كان الأتراك قد تركونا جميعاً، بعد خمسة قرون من الظلام والتخبط في الجهل والأمية، فإن الفرنسيين في الجزائر حاولوا القضاء على كل أمل في استعادة الوعي والبعث الحضاري، فعملوا على طمس كل المعالم التي كان بإمكانها أن تنتقل بالجزائريين إلى فضاءات جديدة واعدة، فأغلقوا المدارس والمساجد التي كان الفقهاء فيها يقومون بوظيفة التدريس التطوعي، وحصروا التعلم بالفرنسية على أبناء المتعاونين معهم، وهذا أمر طبيعي



ومعلوم، وقد استمر هذا الوضع الشاذ طيلة الوجود الاستعماري، ولما استقلت الجزائر وحاولت النهوض كان لديها من المشاكل الموروثة الكثير مما حال دون أن تسير الأمور في الاتجاه الصحيح.. فضلاً عما تركته في فرنسا من أبنائها المتلفحين زورا وبهتانا بعباءة الثورة، والعاملين على الإطاحة بكل مبادئ وقيم وثوابت هذه الثورة التي دفع الجزائريون من دمائهم الشيء الكثير ثمناً لها، وعربوناً للوفاء لأمجادها، وللإشارة،

فقــد كان لرجــال الدين زمــن الاستعمار الفرنســي مشاركات محــدودة، ولكنها على محدوديتها استطاعــت أن تأخذ بيد بعض ذوي الهمة العالية والإرادة القوية والعزيمة الصلبــة في التحدي، حتى جــاءت جمعية العلماء التي يشهد لها الجميع بمساهماتها البارزة، في مجال التعليم والتأديب، كما كان لها شأن بــارز في إذكاء شعلة النهضة، التي أسهمــت بدورها بإيقاد مشاعل الثورة، هذا علــى المستــوى الداخلي أما علــى المستوى الخارجي، فكان يتمثل في جامعتي القرويين في فاس في المغرب والزيتونة في تونس، وإلى حدٍ ما الأزهر في القاهرة، وجامعة الزيتونة كانت الأهــم والأبرز، وأثنــاء الثورة فتحت الدول العربية أبــواب مدارسها وجامعاتها أمــام الجزائريــين (سورية ومصــر وليبيا) فاستقطبت أعداداً هامة كان لها حضورها فيما بعــد، وإذا كانت هذه العوامل مجتمعة قد تركت بصماتها واضحة جلية في النصيب المتواضع الذي حظــي به الجزائريون حتى عام الألفين، من النشاط الفكري والثقافي، فإننــا نستطيــع تقسيم رواده علــى الشكل التالي:

أولاً: فريق تحصــل على علومه العربية والدينية، في جامعة الزيتونة، وربما جامعة القرويين في المغرب وغيرهما، من المؤسسات التعليمية العربية في الخــارج، بعدما تلقوا علومهم الابتدائية في مساجد وزوايا جمعية العلمــاء، كما تحصل على نصيب لا بأس به من الثقافة الفرنسية..

ثانيــاً: فريق لم تتح أمامه الفرصة إلا في المدارس الفرنسية في الجزائر مع المعمرين، فــكان تحصيلــه منحصــراً في دوائرهــا وفضاءاتها المتقوقعة حول اللغة الفرنسية..

ثالثاً: فريــق الستينات وما بعدها، وهو الذي ينتمي إلى جيل الثورة والاستقلال وهو الفريق الذي نستطيع تحديد ولادته من عام ١٩٥٠ ومــا فوق، وهذا الذي خرج منه جيل المثقفين الجدد وهم مازالوا يتخبطون على غير هــدى، وهم الأقل كفــاءة وإبداعاً، من الفريقين الأول والثاني.. والحديث عن هذا الفريق معقد وطويــل، ولكنني أضم رموزه إلى كل الرمــوز العربيــة الثقافية الأخرى، وهؤلاء ينطبق عليهم في الغالب الكلام الذي سبق أن أشرت إليه من حيث المستوى الهابط وغير الراشد وغير الكفء..

إلى الفريــق الأول ينتمــي عبد الحميد بن هدوقــة الذي سوف نعالج ونحلل روايته ريح الجنوب في هذه الدراسة، ومنهم أيضاً الشاعر محمد العيد آل خليفة، وربما محمد الأخضــر السايحي الأكبر ومنهــم الشاعر مفدي زكريا..

أما الفريق الثاني فمنهم الروائي محمد ذيب ومالــك بن نبي وكاتــب يسين ومولود فرعــون وجمــال الدين بن الشيــخ ومولود معمري ومحمد أركون وهؤلاء باستثناء الأخير لا يعرفون من العربية حرفاً واحداً.. ولكنهم أحسنــوا إلى حد ما فيما دبجوه من كتابات بلغة المنفى كما وصفها مالك حداد..

أمــا الفريق الثالث وهو الذي ما زال في بداية الطريق ويقوده الطاهر وطار والطاهر بن عيشة ومن الشعــراء الشباب عز الدين الميهوبــي، ومجموعة من الشعــراء الشبان والروائيــين وما زالت الطريــق أمامه حتى يتمكن مــن اللحاق بالركــب، إلا أنه يمشي الهوينا كالسلحفاة رغــم الإمكانات الهائلة المتاحة، وهو يتعــثر في مسيرته لأسباب قد يكــون الحديث عنها طويلاً متشعباً ومعقداً أحياناً أخرى، ولكننا نأمل أن تصحح مسيرته دون أن تكون العبرة بالكم، وهذا ممكن ولكن بعد وقت لن يكون قصــيراً والمهم في الأمر الوصول..

هذا وتنبغي الإشارة إلى أن سوق الكتاب الجزائــري خلال العقود الثلاثــة الماضية، قــد عرف كمّــا لا بأس به مــن المطبوعات في مختلــف التوجهات شعراً ونــثراً، إلا أنه وللأســف غلبت على الكثير مــن هذا الكمّ الركاكــة والضعــف والسقوط والــرداءة.. وذلــك عائد لضعف في اللغــة العربية عند الذيــن اختــاروا العربية، لأنهــم لم يتمكنوا مــن دراستها كما ينبغــي، وضعف مؤكد في اللغــة الفرنسية عند الذيــن اختاروا اللغة الفرنسيــة، لأن اللغة بحر ولابد للسمك من البقــاء فيها حتى يتمكن من الحياة، وهؤلاء بعيدون عن المحيط الفرنسي ولكنهم زعموا وادعــوا أنهــم «يتقنونها» أكثر مــن فيكتور هيجو!! وأنا مؤمن بأن الأديب لا يبدع إلا في لغته، تلك التي رضع لبانها مخلوطاً مع لبان أمــه، واللغة فوق كونهــا تراثاً وقواعد فهي ذات طابــع نفسي لا يمكــن عزله عن سائر مقومــات النبوغ والتفوق، خاصة إذا ما كان هذا الإبداع في المجالات الفكرية والأدبية.. وتبقــى الإشكاليــة اللغويــة المستحكمة في الجزائر عائقــاً كبيراً أمــام الإبداع، ولكن مهما كانــت الأسباب والمسببــات، فإننا لا ينبغــي أن نطلب الكثــير والكثير، وليس من الضروري أن يكــون في الجزائر أو مصر أو العراق أو سورية مئــات الشعراء أو الكتاب الروائيين والنقاد، وعند ذلك نكون خياليين أكثر مــن اللزوم، والجزائــر، كغيرها، تسير نحو التطور بخطا بطيئــة، وقد يأتيها دفع ما، فتتحــول وتتقلب من الجمــود والبطء إلى السرعة في النمو والتطور، وهذه طبيعة الأشيــاء، وكل مسيرة تتعرضــ لنكسات أو

عقبات أو قل ارتباك، والوقوف عند حدود هـذا هو الخطأ بعينـه، والتطلع إلى الأمام بثقة وتفاؤل هو المطلوب في حدود الممكن.

كنت كثيراً ما أعرض عـن قراءة النتاج الجزائري الذي يعرضـ علي لكثرة ما أراه في الكثـير منه من ضعـف وركاكة وهبوط وانحطاط، حتـى وقعت في خطيئة التعميم وظننت -مخطئاً- أن النتاج في غالبه سوف يكون على هذا الجانب من الضعف والهزال، إلى أن وقعـت تحت يدي رواية عبد الحميد بن هدوقة (ريـح الجنوب) فعلمت أن الأمر مختلف تماماً، وكنت قبل ذلك قرأت «ذاكرة الجسد» لأحلام المستغانمي وهي وإن أعطيت من الضجيج أكثر مما تستحق بكثير لأسباب معروفة لا مجال للحديث عنها هنا، إلا أنها لا بأس بها، والفرق شاسـع بين الروايتين، وفي كل خير -كما يقولون- غير أن رواية بن هدوقـة تحمل في طياتها الكثير والكثير من الهموم الجزائريـة والإنسانية، بحيث تتسم بالواقعية والموضوعية ولا أحب القول -كما يقولـون- بأنها الواقعية الاشتراكية، بل هي الواقعية الجزائريـة العربية!! وهي والحق يقال موسوعـة في رواية، أو جيل ووطن في رواية، جمعت بين المتعة والثقافة والسياسة والدين والحضارة والاقتصاد معاً، ما أهّلها لأن تكـون عملاً رائداً في فنها، وقد تمكنت من التسلـل بهدوء وثقـة إلى رحاب الأدب العالمي حيث أخـذت ما تستحقه من مكانة رفيعة، هي باختصار شديد، قصة تحمل همّ وتاريخ الشعب الجزائري المناضل المجاهد، في مرحلة حاسمة من حياته في هذا الزمن، ولنعش مع هذه الرواية مع أبطالها وأحداثها، زمنـاً يجعلنا نطل من خلالهـا على معاناة هـذا الشعب بحيث كانـت قرية «الحمراء» التي تدور أحداث القصة على أرضها، رمزاً إنسانيـاً قبل أن تكون رمـزاً عربياً، ورمزاً عربيـاً قبل أن تكـون رمزاً جزائريـاً، إنها الوطن العربي مصغر، والجزائر مكبرة إنها باختصـار تعالج كل المشـاكل، ببعد إنساني ونفسي واجتماعي وسياسي وحضاري معاً، فماذا تحمله تلك الرواية؟

ثالثـاً: مـن هـو عبـد الحميـد بن هدوقة؟

عن كتيب صغـير جمعه الكاتب جيلالي الخلاصي، أنقـل بعض المعلومات عن حياة ابن هدوقـة مسترشداً بهـا، بالإضافة إلى المعلومـات المتوفـرة لدينـا والمتداولة بين المهتمـين بالشؤون الأدبيـة، فهو يتحدر من قرية صغـيرة اسمها «الحمراء» تابعة لقرية أكـبر منها اسمها المنصورة، على بعد بضعة عشـر كيلومتراً من مدينة «برج بو عريريج»، التي هي عاصمة لولاية تحمل اسمها، وعلى

بعد ثمانين كيلومتراً من سطيف شرقاً، ومئتي كيلو متر عن الجزائر العاصمة غرباً، فهو إذن ابن فلاح بسيط، من أسرة بسيطة فقيرة متواضعة كادحة، دون المتوسطة، إلا أنها على جانب من العلم والمعرفة، فأبوه معلم للغة العربية وكفى.. ثقافته الأولى إذن على يد والده، ومطالعته كانت تقتصر على الكتب العربية المتوافرة في تلك الفترة، وهي تلك التي تثقف عليها معظم المثقفين العرب القدامى، كقصص ألف ليلة وليلة وسيرة الزير سالم وسيف بن ذي يزن وبني هلال وغيرها.. كانت ولادته عام ١٩٢٥ اتصل بجمعية العلماء والتحق بالزيتونة في تونس التي اشتغل فيها فيما بعد بالصحافة، وهاجر إلى فرنسا وأقام فيها مدة عاد بعدها إلى الجزائر، وعانى فيها مثلما عانى غيره على يد الفرنسيين، اشتغل في الإذاعة الجزائرية، بعد الاستقلال وأصدر مجموعة من القصص والروايات والدراسات كان منها العناوين التالية:

الجزائر بين الأمس واليوم ١٩٥٩ –ظلال جزائرية ١٩٦٠– الأشعة السبعة ١٩٦٢– الأرواح الشاعرة وهو من الشعر الحر– الكاتب وقصص أخرى ١٩٧٢– نهاية الأمس ١٩٧٥– بان الصبح ١٩٨٠– الجازية والدراويش ١٩٨٦– ثم «ريح الجنوب» عام ١٩٦٤ وفي الحادي والعشرين من أوكتوبر ـــ تشرين الأول عام ١٩٩٦ توفي ابن هدوقة، بعدما ترك ريح الجنوب، التي تكفيه أن تتكلم عنه وتخبر عن أفكاره. وهي التي ستكون موضوعاً لما سنتناوله الآن:

رابعاً.. ريح الجنوب..

لا أدري كيف أبدأ وربما تكون بدايتي صعبة، كبداية «ريح الجنوب»، التي يبدو أنها كانت صعبة على الكاتب، ولكن بمجرد أن انتهى من الصفحات الأولى واجتاز بعض الحواجز النفسية سرعان ما رأيناه ينطلق فيها كالسهم المارق، لا يتوقف إلا عند الحدود التي رسمت له، نعم كانت البداية بالنسبة لي صعبة لسببين: الأول: كانت فكرتي عن الأدب والأدباء في الجزائر محاطة بأفكار سوداوية مغبشة مشوشة، وهذا ما كان يجعلني أبطئ كثيراً في تناول أي أثر أدبي لعدم ثقتي به، والمسألة مسألة ثقة ومن الواضح والطبيعي أن مثل هذا الشعور قد يوقع في الخطأ خاصة إذا ما تمادى المرء في ذلك. والثاني لكون الكاتب نفسه كان ضعيفاً في البداية والظاهر أن الكثيرين يعانون من البداية، وهذا ما وجدته في رواية أحلام المستغانمي، في روايتها «ذاكرة الجسد»، فالبداية كانت ضعيفة ركيكة ثم لم تلبث أن مسحت غبار

الضعف وانطلقت بروايتها، وهكذا كانت البداية مع عبد الحميد بن هدوقة..

تناول الرواية عدد من الكتاب الجزائريين الذين لمعت أسماؤهم لأسباب مختلفة، ليس بينها الجودة والنبوغ والكفاءة على أي حال، هذا بالنسبة للبعض، وكان الذي يشغل بالهم بسبب أو بآخر مسألة الزمن ومسألة مقاصد ابن هدوقة، هل كان يريد أن يهاجم الثورة الزراعية التي أعلنت في السنوات الأولى للاستقلال؟ أم كان يريد السير في ركابها؟ وهل كان زمن الرواية بعد أو قبل تلك الثورة؟ وماذا كان يريد الكاتب أن يقول وإلى ما يرمز بأبطال روايته؟ هل هو علماني أم إنه يهاجم العلمانية؟ هل هو ثائر على الوضع السياسي أم على الوضع الاجتماعي؟ هل نقد الثورة أم أشاد بها؟ إلى ما هنالك من التساؤلات المشروعة حيناً، والمقحمة دون سبب أحياناً أخرى، فبالنسبة لمسألة الزمن فالأمور واضحة لا غموض حولها ولا مدعاة لخوض نقاش حولها، فالقصة طبعت عام ١٩٦٤ ولم تتحدث عن زمن الثورة ولم تتحدث عن زمن ما قبل الثورة، فهي إذن لا تتحدث عن زمن معين، وإن كان ذلك، فإن هذا الزمن هو السنتان الأوليتان من عهد الاستقلال، أما المقصود منها عموماً فهو النقد الاجتماعي والسياسي والأخلاقي والثقافي، هو نقد للعادات والتقاليد، هو حديث عن الفقر الذي يكون عاشه هو واكتوى بناره، وعن الفقراء الذين عاشوا ذل الحرمان والفاقة، وعن الانتهازيين، وعن طيبة الناس البسطاء، تكلم عن القرية وتكلم عن المدينة، لقد صور المجتمع -كما هو- بريشة فنان بارع ووصف الحياة وصف شاعر مقتدر، وبالتالي فلنا نحن أن نحدد الرمز الذي يمكن أن يكون، ولكن ليس الرمز الذي حدده الكاتب نفسه، لأنه ربما لا يقصد الرمز لأي شيء ولكن على القارئ أن يستنتج ما يريد استنتاجه بنفسه، وهذا مالا يفرضه الكاتب، أي كاتب، على أحد، والكاتب كالشاعر تأتيه الصورة وتأتيه اللوحة طوعاً، فيرسلها ناطقة بنفسها معبرة عن ذاتها دون عناء يذكر، ودون أن يدخل بتفاصيلها، ذلك أن الذي ينبغي أن يدخل في تفاصيلها وأبعادها هو القارئ أو الناقد، وكثيراً ما يُحَمِّل النقاد الكاتب مالا طاقة له بحمله، وما لا ينبغي أن يحمله أو يتحمله ــ وتلك هي حالة الصراع المزمن بين المبدع للنص وناقد النص ــ وإنما هو فنان رسم لوحة وعلى المشاهد أن يقف أمامها، ويستخلص منها ما يريد، أو ما يمكن أن يصل إليه بشكل عفوي قد يكون أراده الفنان، أو ما أراده، وهنا يستوي المبدع والمتلقي، ولماذا لا يكون المتلقي عبقرياً أيضاً

كالمبدع؟ وإلا كيف يفهمه وينسجم معه؟ والعبقرية باعتقادي موجودة عند الطرفين في مستوى واحد، وليس من الضروري أن تكون القاعدة عامة ومضطردة، فهناك المشاهد الذي لا يطيل الوقوف عند اللوحة، ولا تعنيه من قريب أو بعيد، فسرعان ما يبتعد عنها كأنه لم يرها، وهنا هل نستطيع الموازنة بين هذا المشاهد والمشاهد الذي يتسمر عند اللوحة ولا يتحول عنها إلا بعد شرائها مهما كان ثمنها، ومن هنا ندرك أن ذلك الذي يجود بالمال الكثير من أجل اقتناء لوحة، وهو لا يحسن أن يرسم شكلاً هندسياً بسيطاً، هو في نفس الوقت لا يقل عبقرية عن المبدع الأساسي، فهو يقرأ العبقرية ويحسها، والعبقري ينتج للعبقري، والعلاقة بينهما أن الأول يكتب والثاني يقرأ ويستوعب ويغوص إلى العمق ويستكنه ما وراء المرئي، وهو يدرك ذلك، وإلا هل يمكن لشاعر فذ أن يعرض قصيدة رائعة على أمي لا يفهم الشعر ثم ينتظر منه الحكم؟ بالطبع لا، ومن هنا انطلقت دعوتنا للاهتمام بالقارئ العادي والعمل على تثقيفه وتعليمه والرفع من مستواه، حتى يتمكن العبقري من تقديم نتاجه لقارئ يفهمه ويحس به ويشاركه همومه، ولذلك فنحن ننصح أولئك الذين يدورون كثيراً حول نقطة لا أهمية لها في السياق، ألا يضيعوا وقتهم ووقت غيرهم سدى، فالزمن في قصة هدوقة هو ما قبل ١٩٦٤ وهذا الزمن مشترك بين الثورة والاستقلال، ولكن الأهم من هذا بكثير هو الحديث عن الإنسان بمعاناته، بصبره بجلده بمآسيه بأحلامه، وهذا كله لا يحده زمن ولا يحده تاريخ فالإنسان هو الزمن والإنسان هو التاريخ، وهو الحدث وصانع الحدث في الوقت نفسه، وهو موضوع اهتمامي واهتمامك واهتمام الكاتب والشاعر، وبقدر ما ينجح هذا الكاتب أو ذاك الشاعر بعرض قيمة الإنسان بقدر ما يكون موفقاً، وبقدر ما يكون ذا جاذبية واستقطاب..

رواية عبد الحميد بن هدوقة تقع في سبعة فصول متماسكة متلاحمة، تكاد لا تحس بأي خلل تقني يجعل حدثاً ينفصل عن الآخر، أو يشعرك بأنه مقحم دون مبرر، وفي العودة لنقطتي الزمن والهدف رأيت أن عدداً من الكتاب ممن تناولوها بالنقد والتحليل، تباروا، ولا أقول تناطحوا، حول مسألة الزمن، وأخذوا يجهدون أنفسهم من أجل ذلك ويفترضون افتراضات ساذجة حول ما كان عمر نفيسة عندما خطب مالك شقيقتها زليخة، ويجمعون على نتائج بديهية لا قيمة للبحث عنها، يقول أحدهم: «فعلى الرغم من أننا لا ندري في أي سنة

ولدت –نفيسة- وفي أي سنة تجري أحداث الرواية؟ فإننا لجأنا إلى التماس أدلة أخرى من شأنها مساعدتنا على استخراج السنة التي تجري فيها أحداث الرواية، فوجدنا أن عبد الحميد ابن هدوقة، قد حدد عمر نفيسة بتاريخ تقدم مالك لخطبة زليخة، وهي أخت نفيسة التي بلغت من العمر آنذاك سن العاشرة، وإن كان الروائي لم يحدد أيضاً السنة التي تمت فيها الخطبة، فإنه أشار فيما بعد إلى أن مالك وزليخة تراسلا سنة كاملة قبل أن تموت هذه الأخيرة في سنة ١٩٥٧، ومعنى ذلك أن الخطوبة تمت سنة ١٩٥٦ أي أن عمر نفيسة سنة ١٩٥٦ كان عشر سنوات فإذا أضفنا ثماني سنوات إلى سنة ١٩٥٦ فإن التاريخ يحدد بسنة ١٩٦٤ ومن خلال ذلك يمكننا القول دون مراء أن أحداث الرواية تجري في سنة ١٩٦٤..» وكأن الناقد يكون قد اكتشف البارود!! وهذا يذكرني بلقاء أجريته مع الشاعرة المصرية المرحومة روحية القليني في السبعينيات، وقد سألتها عن عمرها فأبت الإجابة وابتسمت، عندها داعبتها ملاطفاً، بعد أن علمت سنة تخرجها من الجامعة، وكانت عام ١٩٤٥ وقمت بعملية «العبقرية» التي أجراها ناقد قصة بن هدوقة، وقلت لها عمرك خمسون عاما فضحكتْ وضحكتُ، هذه أمور لاأهمية لها ولا ينبغي على الناقد أن يضيع وقته المحسوب من «عمره» في مثلها، أرأيت إلى هذا التمحل الذي لا طائل تحته؟ إن زمن أحداث الرواية كان وبشكل واضح جداً، أثناء الفترة الأخيرة من الثورة وهو لم يتعرض إلا لحكاية تفجير القطار الذي أودى بخطيبة مفجر القطار، ولم يتعرض لأحداث الثورة إلا بشكل محدود جداً، ويكاد لا يذكر إلا من قبيل التذكر، إذن لم تكن الثورة موضوع جدل في الرواية، إذن فالغالب على زمن أحداث الرواية هو الممتد من عام ١٩٦٢ وحتى عام ١٩٦٤، وهذا واضح بدون هذه الضجة التي أثيرت دون طائل.. ويقول كاتب آخر «إن ريح الجنوب تناولت الفترة التي سبقت إصدار قانون الثورة الزراعية بقليل.. وبالضبط أواخر الستينيات «والظاهر أن الناقد العزيز لايميز بين الستينيات والسبعينيات فهو يطلق الستينيات ويقصد السبعينيات، ويطلق السبعينيات ويقصد الثمانينيات، وفاته أن المقصود بالستينيات هي الفترة الواقعة بين ١٩٥٠ و ١٩٦٠، كما أن المقصود بالقرن العشرين مثلاً هو الفترة الواقعة بين، ١٩٠٠، و٢٠٠٠، والثورة الزراعية كانت في أوائل السبعينيات أي قبل صدور الرواية بقليل أي بعد الاستقلال وهذا أمر مفروغ منه هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن

الكاتب لم يتحدث عن مخاطر الثورة الزراعية أو الإصــلاح الزراعي، باعتبارها واقعة، بل باعتبارها قــد تقع، لأن بطــل القصة ابن القاضــي كان يريــد أن يــزوج ابنته نفيسة لشيخ البلدية مالك، قبل أن يلحقه ضرر من الثــورة الزراعية، ولكنــه كان يريد أن يدرأ عنــه ذلك الخطر الذي لم يكن قد وقع حتى وفاة ابنته نفيســة، وهو تاريخ كتابة الرواية عــام ١٩٦٤، فكيف تكــون حسابات القوم؟ الواقــع أن القصة لم تكن موجهة حسب هذا المنحى الذي تكلفه بعض من جعلوا أنفسهم نقاداً دون أن يكون ذلك من حقهم، ودون أن يكونوا قد وصلوا إلى مستوى النقد، خاصة إذا مــا كان العمل الذي يتوجــه إليه النقد هو في مستوى قصة ابن هدوقة، التي أزعم -ولعلي مصيــب في زعمي- أنها قد ارتقت إلى أعلى المستويــات العالمية، وخرجت من التقوقــع المحلي الذي لا يليق إلا بالمقصرين أمثــال أولئــك المتطفلــين والمتطاولين دون حق.. وحتــى لا أنتقل إلى موضوع آخر قبل التعليــق على الزمن في الروايــة، أقول: إنّ ابن هدوقة كان يتحدث عن نمط من الناس، وسبــل وطرق معيشتهــم دون أن يكون ذلك مرتبطاً بزمن محدد، ولكن علينا أن نستنتج أنّ أهلنــا كانوا يعيشون وربما مازالوا كذلك بمختلــف نماذجهم وأنماطهــم حتى وقتنا هــذا ولم يتغير في الأمــر أي شيء، فالقصة لا ترتبــط بزمن، بمعنى إذا ولى هذا الزمن تغــيرت أنماطــه.. ولكنهــا ترتبــط نفسياً بجماعة طبقــاً للتحليل النفسي الذي اهتم به الكاتب أكثر من غيره.

أبطال الرواية:

– ابن القاضــي فلاح من كبار الملاكين، انتهــازي لا يفكر إلا في نفســه ومصالحه، حتى لو كان تحقيقها علــى حساب كرامته وسعادة أسرته..

– مالك شيخ البلدية، وهو مجاهد صارم غامض مستقيــم في عمله وأدائه لوظيفته، وأحياناً يخرج عن اللياقات في قسوته..

– نفيسة ابنة الفــلاح الانتهازي، طالبة في الجامعــة بالجزائر العاصمة، في الثامنة عشر من عمرها، وهي المرشحة من والدها الفــلاح الإقطاعي، لتكــون خطيبة مالك، وبوساطة هذه المصاهــرة -بتخمينه- ينأى ابن القاضــي بنفسه عما يمكن أن يلحق به من ضرر من جراء قوانين الإصلاح الزراعي أو الثورة الزراعية..

– رابح وهو راعي الغنم الذي يسرح بغنم الفلاح المذكور..

– خــيرة وهي زوجة الفــلاح أم نفيسة، سيــدة عاقلة حكيمة مغلوبة على أمرها من قبل زوجها المستبد عليها..

- الحاج قويدر صاحب المقهى.. وبمقهاه هـذا، يلتقـي الناسـ ويثرثـرون وينشرون الشائعات..

- الطاهر وهو معلـم المدرسة كلفه ابن القاضـي بمفاتحة مالك بأمـر زواجه من نفيسة..

- رحمـة، وهي عجوز تمتهـن صناعة الجـرار الفخارية في القريـة، على علاقة جيـدة بأسـرة ابـن القاضـي، وكذلك هي موضع تقدير واحـترام مالك شيخ البلدية، وهي محترمـة من كل أبناء القرية لها تاريخ جهادي معروف..

وهناك أبطال ثانويون أدوارهم محدودة كأم الراعي البكماء، والشيخ حمودة المشعوذ، ورضا، وهو مسـؤول لا يظهر إلا من خلال مهاتفـة كانت له مع مالك، والمعلم، ثم خالة نفيسـة، وهي لا تظهر لأنها كانت مقيمة في العاصمة، وكذلك زليخة وهي أخت نفيسة، وهـي لا تظهر لأنهـا استشهدت في القطار الذي فجره مالـك ورفاقه أثناء الثورة، ظناً منهم بأنه قطار للجنود الفرنسيين، غير أنه يكون للركاب المدنيين، وتكون زليخة، خطيبة مالـك إحدى ضحاياه، ولعل الكاتب أراد أن ينفذ من هذا إلى الحديث عن الأخطاء التي كانت ترتكب أثناء الثورة.. وهذا لا ينبغي أن يفسر على أنه معارضة للثورة!!!

هؤلاء هم أبطال القصة الذين يصنعون أحداثها المترابطة، وبالطبع فكل واحد منهم يرمز لقيمـة أخلاقية معينـة، تتفاوت من حيث السلب والإيجاب..

أحداثها

تبـدأ الروايـة بخـروج الفـلاح المالك لإقطاعيـة مـن الأرضـ واسعة، مـع ابنه الصغـير إلى السوق، وتحينـه أثناء خروجه التفاتـة إلى غرفة ابنتـه نفيسة، حيث يرى أنها مازالت نائمة ثم تبدأ أفكاره بالتداعي حول هذه الابنة التي نضجت، والتي تصلح أن تكون بديلة لأختها زليخة التي كانت ذات يـوم خطيبة لشيخ البلدية الحالي مالك، إلا أنها استشهدت في القطار الذي فجره مالك نفسـه، أو كان بين مفجريه، على أنه يحمل جنوداً فرنسيين، فكان أن قتل خطيبته دون قصـد.. وكأن الفلاح لم يحزن على ابنته إلا من حيـث كان يمكن أن تكـون زوجة لهذا المجاهد الـذي أصبح بعـد الاستقلال من ذوي النفوذ، وهذا مـا كان يشغل باله حتى فكر بتعويضه من جديد بابنته التي ما زالت طالبة وليس له غيرها مـن البنات، وبذلك يضمن مصلحته، والمصاهرة الانتهازية على هـذا الشكل لهـا تاريخ عنـد العرب، فعن طريـق بناتهم يتقـرب الانتهازيون من ذوي الجاه والسلطان، ولعلها سنة الذين لاتعنيهم

الكرامة من قريب أو بعيد، وهذا ما قصده بـن هدوقة بهذا البطـل الأساسي بروايته، ومن هـذه النقطة تنطلـق القصة بالحوار وتصوير الصـراع وتتابـع أحداثها، وتكون مدخـلاً للكاتب إلى تناول الكثير والكثير من المواضيع الإنسانيـة والقضايا الاجتماعية والأخلاقيـة، وقـد اختار الأبطـال بعناية فائقـة وكان يحسن الانتقـال من فكرة إلى أخرى، دون كبير عنـاء كما كان ينجح جداً بخلق العقدة والحبكـة، ثم سرعان ما يجد طريقاً واسعاً لحلها بأسلوب مشرق وديباجة أنيقة جذابة، وسحر خلاب حتى تكاد تظن أن الكاتـب كان ينثر شعـراً ويبعثه سحراً، لا تمـل من متابعته وأنت تلهـث جرياً وراء النتائـج والمفاجآت التـي سرعان ما ترتسم بمخيلتـك قبل أن يقـع عليها نظرك، وقد نجح الكاتـب بالحوار حيـث وظف ثقافته العالية وفكـره الهادئ الرصين، فكان يوجه رسائلـه بتؤدة ويسر ويعبر عن أفكاره وقيمه بالطريقـة التـي يوصـل بها مـا يشاء من الأفكار، دون جهد ومشقة، فساعدته العبارة وانساقت إليه طوعاً فكنت تحس وأنت تقرأ بـروح الكاتب وعلو كعبه في الثقافة، ورسوخ قدمـه فيما تصدى لعلاجه، فلا تصنع، ولا إربـاك، ولا ثرثرة ولا تكلـف.. كان حديثه عادياً مستساغاً، من حيث العبارات واللغة، ولكنه كان بعيد الغـور بعيد الأثر من حيث الفكرة والغاية..

نفيسـة التي تعـودت علـى العيش في العاصمـة تضيق بهـا الحيـاة في القرية، وكأنهـا باتت منفصلة عـن أهلها بعاداتهم وتقاليدهم، مما كان يجعلهـا تشعر وكأنها في جزيـرة معزولة، من هنا نفذ ابن هدوقة لنقد العادات والتقاليد والمعقدات، وبين لنا كيف أن الأسرة الجزائرية مازالت في الريف تعيش حياة منغلقة صعبة مرة، كأن لم يكفها الفقر بل زادها الجهل والتخلف صعوبة على صعوبة، فضلاً عما تركته حرب التحرير من آثار نفسية واجتماعية على الناس..

يُسفر ابن القاضي عن رغبته الشديدة، في تزويج نفيسة لمالك ثم يبدأ بخلق الأجواء المناسبة عن طريق إثارة الموضوع مع زوجته التي يكلفهـا بالهمس في أذن العجوز رحمة حتـى تكون وسيطاً أو شبـه وسيط، (وهذا يذكرنـا بشخصية أم زكـي في مسلسل باب الحارة السـوري) وتصطرع الأفـكار التي كانت تقضـ مضاجـع الأب فكأنه كان في سبـاق مع الزمـن، فالثـورة الزراعية على الأبواب، والقضية لا تحتمل الانتظار، وتكثر لقاءاته مع مالك بحيـث كان يتعمد تكثيف تلـك اللقاءات، التي غالبـاً ما كان يسودها حوار حاد بين الطرفـين في الأمور العامة،

والتي غالباً ما كانت تنتهي بانسحاب ابن القاضي بطريقة تضمن له عدم الاصطدام مع صهره المقترح، هذا الذي كان لا يتوانى عن توجيه الحوار بحدة إلى خصمه دون مراعاة أو دون مواربة على الأقل، حتى تبدو الخصومة بينهما على أشد ما تكون عليه، غير أن ابن القاضي وبالرغم من تعدد الصفعات التي كان يتلقاها من شيخ البلدية، إلا أنه كان يتحملها بصبر من أجل الوصول إلى هدفه، وفي الحوار كان ابن هدوقة يظهر براعته في تصوير كل من المتحاورَيْن في وجهه الحقيقي فيما يمثله من نمط إنساني ونموذج اجتماعي شائع.. ويوزع الأدوار بطريقة بارعة بحيث لا يطغى جانب على جانب..

الرياح تهب ونفيسة في عزلتها لا يشغل بالها إلا متى تعود إلى العاصمة، حيث خالتها ورفيقاتها، فالحياة في القرية لا تطاق.. كانت نفيسة لا تعلم ما يدور حولها من أمر تزويجها ولكنها كانت تحس بأنها في سجن، فالفرق شاسع بين حياة العاصمة وحياة الريف، ولكن إلى متى تبقى في غفلة عما يدور حولها؟ وبدأت تحس بذلك وكان لا بد للأم «خيرة» المكلفة من زوجها إبلاغ نفيسة التي لابد وأن ينزل عليها النبأ كالصاعقة.. لم تجرؤ خيرة على إخبار ابنتها بالأمر أولاً، ولما كاشفها زوجها فيما لو أخبرت نفيسة بالأمر؟ قالت له (في حوار ننقله كما أداره الكاتب لنرى كيف أن الكاتب يصور البيئة الريفية في الجزائر):

«طرح ابن القائد على زوجته القضية، وسألها ما إذا كانت أخبرتها أم لا فقالت:

– هي هناك بحجرتها تستطيع أن تقول لها أنت..

– أَحَدَّثتيها وأبدت معارضة؟

– قلت لك لم أحدثها ولن أحدثها. هي أمامك إن شئت أن تحدثها أنت!!

– أنا قررت أن تتزوج وقراري قضاء. إذا كنت لا تستطيعين حتى إقناع ابنتك فلماذا تصلحين؟

– أصلح لكنس المعاطن.

– كنس المعاطن.. ؟!! أتريدين أن أكنسها أنا؟

هذه هي رغبة الأب وهذا هو موقف الأم، والصورة بعد ذلك ليست جزائرية فحسب ولكنها عربية على جميع المستويات، خاصة في الريف، هذا هو الأب المستبد وهذه هي سلطته، وهكذا ينبغي أن تكون الزوجة، وهكذا ينبغي أن تخضع البنت لإرادة والدها، وهذا باب التمرد والخلاف والمآسي، وهذا ما كان، فنفيسة بدأت تخطط للهرب، وأفكارها تلك تقود إلى خلق

عقدتــين: الأولى مع الراعــي الذي لم يتعود على مجرد رؤيتها والحديث معها، وقد كلفته بوضــع رسالة في البريــد، موجهة لخالتها، تطلــب منها النصح مهــددة بالانتحار، مما أوحى للراعي «الجاهــل» بأن نفيسة راغبة به، وظنّ -سذاجة- أنها تتحرش به، فتجرأ على اقتحام غرفتها ليــلاً محاولاً الاعتداء عليهــا، وذلــك كان سبباً بطــرده من قبلها ثم هربــه من خدمة أبيهــا، وقد ترتب عن ذلــك عقدتين أثرتا عملية السرد القصصي والانتقــال من فكرة إلى أخــرى، والوصول إلى النهاية وإضفاء المزيد من المتعة والرغبة في مواصلــة القراءة للوصــول إلى النتائج، العقدة الأولى: أن الراعي بعدما ترك العمل كراعي والذي كان يستغرق كل وقته، وأصبح يتجــول بحرية بحيث قــاده التجوال إلى أن عثر على العمة العجوز رحمة، وقد سقطت في الطريــق بعدما ناءت بحملهــا فأسعفها ونقلهــا حمــلاً إلى بيتهــا بعدمــا أسعفها، ثم بعــد حين تموت العجــوز وتكون وفاتها منطلقــاً لأحداث وحــوارات كان من شأنها إثراء القصة بمفاجآت وأحداث واسعة، أما العقدة الثانيــة التي لعب فيها الراعي رابح دوراً مهمــاً وكانت على يــده النهاية، فهي عثوره على نفيسة وقد هربت في طريقها إلى العاصمة وضلت الطريق وتاهت فعثر عليها بعدما لسعهــا الثعبان فأنقذهــا من الموت المحقق، وحملها إلى بيت أمه بعدما عالجها فبرئت، وكان سبب عثوره عليها، هو أنه كان امتهن مهنة أخرى حيث صار حطاباً، وهذا ما جعله يعثر أثناء عمله على نفيسة، وبنفس الطريقــة التي كان عثر فيهــا على رحمة، ثم اكتشف ابــن القاضي أن ابنته تختبئ في بيت الراعي مما حمله على الاعتقاد بأن في الأمر ماينال من شرفه وسمعته، فقصد بيت الراعي بالسلاح الأبيض وهو يرتعد انفعالاً وقد التهبــت في داخله ثورة لا يمكن لها أن تهــدأ دون أن تصــل إلى نتائــج يكون أولها «الثــأر» لشرف الأســرة.. وأول مافعله عند وصوله أنه صرع الراعي وحاول ذبحه، لكن الأم البكمــاء استطاعت إنقاذ ولدها، وربما قتل ابن القاضي عندما هوت على رأسه بما شجه وأسال دمه وكانت نفيسة ترتعد، وهي فاقدة لوعيها أمام مشهد لم يكن بوسعها فيه أن تتدخل لإنقــاذ مايمكن إنقاذه، فالحدث يتســارع كالريح، وهي لاتملك القوة لإيقاف بعض تحولاته، وتعود الابنة إلى بيت أهلها، بعدما فقدت كل شــيء ويسدل الستار على القصة..

من الحوارات التــي سجلها ابن هدوقة والصور الرائعة التي رسمتها ريشته، والتي استطاع من خلالها تصوير المجتمع الريفي

الجزائري، مالو حاولنا نقلها لكان علينا أن ننقل القصة بكاملها، ولكن براعة ابن هدوقة تتجلى في كوننا ونحن نقرؤه، نحس بواقعية الحدث ونحس بأننا أمام أشخاص حقيقيين وعاديين، نحس وكأننا شركاء في الحوار نوشك أن نشارك فيه على أننا جزء منه، وأنا لاأعتقد أن أحداً تمكن من رسم صورة حقيقية للمجتمع الدائري بجوانبه المتعددة -الاجتماعية والدينية والثقافية والسياسية والثورية- كما فعل ابن هدوقة، والرجل بعد ذلك، وكأنه لم يكن ينقل حكاية من الخيال ولكنه كان ينقلها وعلى أنها من الواقع المعاش، دون أن يخالجنا أدنى شك بوجود أبطالها على قيد الحياة، ماعدا الحجة رحمة التي ماتت أثناء السرد القصصي، وكأن بنا فضولاً للذهاب إلى المنطقة التي كانت مسرحاً لأحداث هذه القصة، لنتعرف على أبطالها وكأنهم بشر يعيشون الواقع كما أعيش أنا وأنت، فلماذا لايكون «القهوجي» الحاج قويدر موجوداً أو على الأقل لماذا لاتكون قهوته موجودة ومعروفة حتى الآن؟ ولماذا لايكون مالك مازال على رأس البلدية حتى الآن؟ ولماذا لايكون «الأستاذ» الطاهر حياً يرزق مادامت قرية «الحمراء» موجودة والـ«منصورة» موجودة،؟ وهنا تكمن عظمة وبراعة المبدع التي لاأعتقد أن أحداً يتمكن من أدائها كما فعل ابن هدوقة، فكان أن حالفه النجاح بكل المعايير والمقاييس الأدبية والنفسية، وكانت الرواية ناجحة بكل مافي هذه الكلمة من معاني.

وإذا كانت الحوارات في الرواية تمثل جانباً من الحياة الاجتماعية والفكرية فما أحرانا بذلك الحوار أو بذلك الفصل، عندما استدعى ابن القايد المشعوذ الشيخ حمودة لعلاج ابنته من الإغماء الذي أصابها، وحالة الذهول والضياع التي أعرتها عندما أيقنت أن الزواج القسري واقع لا محالة..

الشيخ حمودة المشعوذ..

في المغرب العربي عموماً مازال الناس أو العامة منهم، الذين يعومون في بحور الأمية والجهالة والتخلف، يؤمنون بالسحر والشعوذة، والشيخ حمودة هو «المتخصص» في هذا المجال والمرتزق منه، وعندما أغمي على نفيسة وساءت حالتها، كان خوف والدها لا من أن يؤدي بها هذا إلى الهلاك أو ما يلحق بها الأذى، ولكن كان خوفه قائماً على أن مرضها قد يؤدي إلى إلغاء صفقة زواجها من مالك، وهذا هو شغله الشاغل، فلما ألمَّ بها المرض وساءت حالتها، تشاور مع زوجته خيرة وقررا استدعاء «الطالب» وهو الاسم الذي يطلق على المشعوذ.. في الجزائر وربما في المغرب..

..ولكن مــن هو «الطالب» الذي تدعوه؟

- قالت الزوجة -

- الشيخ حمودة طبعاً! هل هناك من هو أحسن منه؟ أجاب الزوج -

- الشيــخ حمــودة يكتب جيــداً قلّ من لا يجد الشفاء علــى يديه. قالت الزوجة.. أحضر ابن القايد «شيخه» هذا الذي أجرى معه تحقيقــاً كرجال الشرطــة: اسم البنت اسم أمها عمرها.. وبعــد ذلك يبدأ الشيخ بالعمل، يســرد الكاتب الخطوات التي يقوم بها المشعوذ وكأنه قــد حضر واحدة منها.. «أخذ الشيخ حمــودة يكتب حروفاً و أوراقاً متتالية ثــم ينزلها في جــدول مخمس وهو يتمتم..وأخــيراً يلتفــت إلى ابــن القاضي ويقول:

- إن جنياً من سلالة ابن الأحمر أصابها عندما تخطت مكاناً فيه ماء.

وقال ابن القاضي،

- هل حالتها خطيرة؟

- لاشك في ذلك..ولكنها تعالج بإذن الله

- وماذا تنوي أن تعمل؟

- القــرار يعــود إليك! أنــت الأب، كل ما أستطيع أن أفعلــه أنا هو اطلاعك على الواقع..

- أنــت صاحب الكلمة في هذا المقام كل ما تراه وتشير به ننفذه.

المهم بالنسبة لنا هو شفاء البنت ليس إلا..

- تجــب «العزيمة» وهي نوع من الرقى المعقدة.. اختر معزة سوداء فاذبحها، سلالة ابن الأحمر لاتخرج بــدون إراقة دم وآتوني بمحبس من جمر.

(نفذ الأمر) ولما خلا الشيخ بنفيسة قال لها:

- يجب ألا تتلفظي بكلمة أو حركة إلى أن آمرك بذلك وإلا تفسد «العزيمة» فضحكت نفيسة في نفسها بالرغم مما هي فيه.

دخل ابن القاضي ومعه العنزة مذبوحة.

- اقسمهــا إلى نصفين: نصف ضعه في الجلد واتني بــه، والنصف الآخر افعلوا به ماتشاؤون - قال الشيخ المشعوذ-

«ففعل ابــن القاضي ماأمــر به الشيخ، وجاءت خــيرة فناولته الوقــود الذي طلبه فوضعــه إلى جانبــه وأخرج كيســاً صغيراً بــه عقاقير مختلفة لم تعــرف منها خيرة إلا الجاوي، فوضع جــزءاً منها في النار، وأخذ الورقــة التي معــه وكان عليها صورة هيكل عظمي فوضعها على وجه نفيسة وأمر الأم أن تمسكها ورفع الورقة الثانية التي بها صورة دائرة ملونة وشــرع في القراءة فقرأ بصوت واضح «ونزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنــين» وبعدها قرأ سورتي المعوذتين ثم آية الكرسي وأخيراً شرع في «العزيمة»: «أين ابــن الأحمر؟ أين ابن الأكحل؟ آتوني جميعاً

بجنودكــم وخيولكم ومحلاتكــم..» وأخذت كلماته تمحي في تمتمة لا يفهمها أحد وبين الفينة والفينــة يضع البخور في النار ويعيد بوضوح نداءاتــه : أين.. أيــن..؟ ثم يدخل بالتمتمة وهكــذا فترة من الزمن ثم خاطب الجنـــي وهو متجه إلى الفتــاة: «أخرج الآن لقد تم مرادك وأحضرتُ لك ماتحب، أخرج ولا تعد إلى هذه المخلوقة من اليوم».

ثم يشـــير إلى الأم أن تناوله الورقة التي بها صورة الهيــكل البشري ويكرر نداءه إلى الجنـــي: «أخرج ولا تعد أخرج وإلا أحرقتك بالنار تحركي أنت أيتهـــا الفتاة دعي المارد يخرج إن الدم ينتظره».

تحركت الفتاة وسعلت فابتسم الشيخ وقال مخاطباً المـــارد: «إن الدم في المراح ينتظرك أنت ورفاقك القادمين من السماوات العلى والأراضي السفلى أسرع».

تمت النشــرة وتم كل شيء على مايرام، وكتب الشيخ حجاباً للفتاة كما كتب في جزء من ورقة كتابة غــير مفهومة (وصفة طبية ـــــ رشتة) وقسمها إلى سبع وريقات وناولها مع الحجاب إلى الأم وهو يقول:

تبخــر نفيسة بورقــة كل ليلة مدة سبعة أيــام مع شيء مــن الجاوي (وهــو نوع من البخور) أما الحجاب فتضعه في جلد أحمر وتعلقه والله الشافي»..

شكَرتْه الأم و شكره الأب على «خدمته» وكانـــا يعتقـــدان أن شفاء البنت بـــات أمراً مقضيـــاً بعد أن تمكن الشيـــخ من «إخراج» المـــارد الذي ضربها وأخرج ابن القاضي من جيبه ورقة بخمسين دينـــاراً فناولها الشيخ فدعا هـــذا بالشفاء للمريضـــة وأخذ كتابه والجلد الذي به نصــف العنزة، وقام داعياً بالشفـــاء مرة أخرى، وخرج ابن القاضي مع الشيخ مودعا»..

هـــذه الصـــورة نقلها ابـــن هدوقة وهي التي تحصل بكل تفاصيلها وفيها مايعطينا فكرة عن المعتقدات الشائعة، ويريد أن يقول بأن هـــذا الفلاح الإقطاعي جاهـــل أيضاً، وأن هذا الشيخ المـــزور دجال ونصاب، وأن المجتمع مـــازال يعيش تخلفـــاً يجعله يؤمن بمثل هـــذه الأوهام، ولكن ماعلاقة هذا كله بالإصـــلاح الزراعي؟ ومـــاذا يريد أن يقوله الكاتـــب؟ هل يريد القول بـــأن الفشل الذي ينتظـــره الإصـــلاح الزراعي هـــو بسبب أن المجتمع لا يستوعبـــه لجهله أم هل يريد أن يبالغ في تصوير الانتهازي الذي لا يهمه إلا مصالحه؟ وهو الـــذي يبذل كل مافي وسعه لإتمام الزيجة لما تحمله له من آمال وأحلام وما تحمله لابنته مـــن آلام ومنغصات، دون أن يقارن بين النتائج المحققة ودون أن يفكر بالعواقـــب؟ لقد أعماه الطمع عن كل شيء،

حتى بات ينظر إلى المشعوذ على أنه المنقذ بكل تأكيد..

مهما يكن فإن رواية ابن هدوقة تتحدث عن المجتمع بكل علله ومشاكله وهمومه وانشغالاته وأحلامه.. يوظف فيها الكاتب ثقافته الواسعة وفكره النير وأفقه الممتد ونضجه لاستكمال ما كان يهدف إليه من خلال قصته، وقد نجح غاية النجاح عند استنطاق أبطاله وكان يغوص من خلالهم إلى الكثير من التفاصيل بطريقة ذكية واعية، فكانت الحجة رحمة تنطق بالحكم، وكانت خيرة تنقل لنا صورة الزوجة الجزائرية العاقلة الصابرة، وكان القهوجي ينقل إلينا صورة الرجل الخبير بالناس، أما القهوة فهي تجَمُّعٌ للثرثارين ومكان مناسب لنشر الإشاعات والتجني على الناس.. وكان الراعي صورة أخرى لشريحة عريضة من المقهورين المقموعين الذين لا قيمة لهم في المجتمع، وهم عندما يبتسم لهم الحظ يسقطون في المحضور، ثم يدفعون ثمن شهامتهم غالياً وربما تكون حياتهم، وهو الذي أنقذ الحجة رحمة وهو الذي أنقذ نفيسة ولكنه غير جدير بالحياة كسائر المخلوقين لأنه وباختصار شديد: راعي..!! أما نفيسة فلعل الكاتب أراد، كما يرى بعض النقاد، أن تمثل الجزائر وترمز إليها، وإذا رمزت إلى الجزائر أو إلى المرأة في مجتمع الجزائر، فهي في كلتا الحالتين تمثل حالة ما وترمز إلى وضع ما.. وهكذا بلّغ الكاتب الرسالة، وطرح أفكاره بطريقة تنم عن عبقرية مبدعة وخيال مجنح بالواقع المعاش، فزاوج بين الخيال الممتع والواقع المعاش، فاستحق أن يلتحق بركب الروائيين العالميين، فكان منهم بكامل الشروط التي تتطلبها العالمية عن جدارة واستحقاق لا عن وصولية كوصولية ابن القاضي، ولعله كان كالعجوز رحمة التي ناضلت وكافحت واستحوذت على حب الناس لها دون أن تكون إقطاعية كابن القاضي أو مسؤولة كمالك، وقد ترجم ذلك الواقع تلك الجنازة التي حضرها كل أبناء القرية وأبناء القرى المجاورة، وإذا كان لنا أن نسجل بعض الهنات البسيطة على تلك القصة فهي وإن كانت لاتنال بأي حال من الأحوال من أهميتها، إلا أننا نوردها بشكل سريع.. إذ يبدو أن الكاتب حمل على نفيسة أنها قالت للراعي عندما اقتحم عليها غرفتها ليلاً وهي عارية أخرج أيها الراعي القذر، ثم إنه جعل الراعي يحقد على نفيسة ويتذكر ذلك الموقف عندما وجدها في ضيق شديد وهمَّ بأن يتركها دون أن يقدم لها المساعدة اللازمة، وهذا ماكان ينبغي أن يكون من طبع الراعي بعد

أن وصفه بالطيبـة والشهامة، وإنما كان لا ينبغـي على هذا الراعي أن يخرج من دائرة الندم التي يقتضيها الموقف، لأنه كان مخطئاً حقاً في تصرفه، وأن محاولته الاعتداء على نفيسة مرفوضة من أمثاله أكثر من أن تكون مرفوضة من طبقة الأغنياء، والفقراء عادة مايكونون أكـثر التزاماً بالمثل الأخلاقية من أبناء الطبقـات الأخرى التي هي أكثر ميلاً إلى التحلل والسقوط!! وكان عليه (الراعي) أن يظهر مع نفيسة بمظهر الخجول المعتذر النادم، وهذا مايتناسـب مع عقلية الفقراء البسطاء،كما قلنا، ومـن الأمور التي تؤخذ على القصة، أنـه بالرغم من كل الحوارات التـي كانت تدور بين مالـك كممثل لسلطة وابن القاضي كممثـل للإقطاع والوصولية، وكان في كثـير مـن الأحيان مايكـون فيها الإقطاعـي على حق، وممثـل السلطة على خطـأ، ومع هذا فـإن الكاتـب لم يوجه أي لوم لمالـك، وأظهره بمظهـر المستقيم أبداً مع أنه لم يكن كذلـك، وكانت تنقصه الكثير من الجوانب الإنسانية.. وكذلك الحال فإن الإقطاعـي كان في كثير مـن الأحيان على جانـب من الخلق النبيـل والتمسك بالقيم، واقتحام الراعي لمخدع نفيسة لم يكن ممكناً على الشـكل الذي تم بـه، فبقي من وحي التخيل غير المتاح ثم انظر إلى قول الكاتب:

«كانت حياته (الراعي) الجنسية هي الموجهة لسلوكـه» كم هـو هذا التعبـير ضعيف! ثم انظر إلى عبارته وهو يصف هواجس نفيسة وهـي في فراشها عندمـا هاجمها الراعي: «إن الحرارة كانت كلما تقدم الليل تتخفض، لكـن الحرارة كانـت لدى نفيسـة (نفسية فزيولوجية) أكثر منها طقسية» العبارة ركبها الضعف وركبتها الركاكـة من عدة نواحي، فكأنه قال حرارتهـا «نفسية نفسية»، ولكن بلغتين فضلاً عن ضعـف السياق.. الراعي لم يكـن مخلصاً لمن لم يكن سيئاً معه، ومالك لم يكن منصفاً عندما طلب منه ابن القاضي أن يصلح بينه وبـين الراعي، وابن القاضي هنا كان يحمـل قلباً متسامحاً وروحاً طيبة، وأريد القول هنا بـأن ابن هدوقة كان، كما يبـدو، متأثـراً بالفكر الاشتراكـي الذي لا تعرف الوسطية طريقاً إليه، فالعالم بنظرهم إمـا أسود وإما أبيضـ، وهذا غير صحيح، وغير معقول ففي كل خير وفي كل شر، ولكن هناك كفة راجحة للخـير عند فريق، وكفة راجحة للشر عند فريق، ولهذا يكون الصراع الطبقي حاداً ومتطرفـاً أحياناً، فكل فريق يدافـع عما يؤمن به، ولا يوجد إنسان يؤمن بأن قضيته كلها شر ويدافع عنها..

ومهما يكـن فالرواية رائعة، لاأعتقد أن أحداً من الروائيـين الجزائريين، قد تمكن

من محاكاتهـا، فابن هدوقة وحيد الجزائر، وقد خرج من إقليميتـه إلى العالمية وينبغي أن ننظر إليه من هذه الزاوية، ونتعامل معه علـى هذا الأساس، حتى لو لم يكن إلا «ريح الجنـوب» التي هبـت في الجزائر فتحولت إلى نسائـم كليلة أنعشت الحيـاة الأدبية.. ومن المؤسف أن المجد الذي وصل إليه بعض أشبـاه المتعلمـين في الجزائـر لم يقف على عتبته ابن هدوقة، وربمـا يكون قد أنصف بعد مماتـه، وبذلك فإنه لم يخرج عن السنّة وما هو مألـوف في الوطـن العربي!! ويوم يأتي وقـت يضارعه في الجزائـر مضارع، يكـون الأدب في الجزائر بألف خير، ويكون قد بلـغ مانشتهيه ونتمناه لـه، وأنا أستبعد وصول ذلك الوقت بسرعة، والله أعلم..

المراجع

- رواية الكاتب عبد الحميد بن هدوقة هي المرجع الوحيد باستثناء نصـين أو ثلاثة قد تكون لكل من الدكتور مصطفى فاسي والدكتور عبد الحميد بورايو، وربما الواسيني الأعرج، نشرت في مجلة ألوان لعام ٢٠٠٥.





نفسانية المفاهيم العلمية

موسى ديب الخوري ❁

داهمني الوقت! كنت قد أعددت أفكاراً كثيرة لهذا البحث، وكتبت عشرات الصفحات! وها أنذا أنبذ ما دّونت ولم يبق لدي من الوقت سوى يومين لكتابة محاضرتي! كنت مشحوناً بمعان كثيرة أريد أن أبلورها في خلاصة من صفحات قليلة.. لكنني شُغلت في الأيام الماضية ولم أستطع العمل في موضوع أعلم أنه مختمر في «أعماقي»! وها أنا أمسك بقلمي وقد غابت الأفكار كافة التي كنت قد ملأت الصفحات بها عن ذهني لأبدأ كتابة موضوعي! وهكذا

❁ باحث ومترجم سوري- نائب رئيس جمعية العلوم الكونية.

العمل الفني: الفنان شادي العيسمي.

فإن البحث الذي قضيت ساعات طويلة في التحضير له لا ينبثق الآن من تراكمات الأفكار، بل من انصهار المعاني في «أعماقي» ومن تفجرها في اللحظة!

إن شحنة الشعور التي تنتابني حين أكتب هي التي تصدقني القول حول إذا ما كانت الأفكار المتدفقة فيّ منسجمة مع طبيعتي الذاتية أم لا! فنفسانيتي تبحث باستمرار عن هذا الانسجام ولا تقبل كما هو الحال عند جميع الناس بأفكار لا تنبثق من ذاتية تعطي المعنى وتتقبله في آن واحد. وتكون هذه الشحنة الشعورية في الحالة الأولى هادئة وقوية، وتنساب معها الأفكار كجدول صاف.. أما في الحالة الثانية فإنها تكون مضطربة وضعيفة مما يشوش الأفكار، ومع ذلك فإن هذه الحالة هي السائدة عندي وكما عند الكثيرين، لكنني غالباً ما أستمر فيها حتى تنبثق لحظة الصفاء، وتتحول الكتابة نفسها إلى فعل معدل للشواش ومهدىء للاضطراب! وفي الواقع، فإنني في كثير من الأحيان أكتب ضمن مزيج من الحالتين، حيث يتلاحق الصفاء والشواش في تناوب غير إيقاعي، إنما يمكن أن يؤدي إلى صيرورة منتظمة ذاتياً للأفكار في نهاية الأمر.. وتلكم حال أي تعبير عن ظاهرة أو حالة!

يمكنني الآن مثلاً الانتقال إلى فكرة ثانية! فمنذ قليل قاطعتني صديقة مشيرة إلى مشهد الشمس الغاربة في أفق مدينة دمشق.. نظرت عبر زجاج غرفة المطالعة الثالثة في مكتبة الأسد الوطنية، وسرعان ما استغرقني المشهد! لكنني فجأة تنبهت بطرف عيني إلى مشهد آخر لسماء أخرى! سماء ليس فيها أثر لانتشار اللون الأرجواني في المشهد الأول! فعبر زجاج آخر كانت لوحة أخرى فريدة لغيوم بيضاء ورمادية تمتزج بلون سماوي شفيف.. ولم يكن يفصل بين اللوحتين سوى عمود! وحاولت التركيز على العمود، ورحت بطرف عيني ألمح سماءين مختلفتين! لم يكن العمود ليشكل أكثر من خمس أو سدس اللوحة الكلية.. ومع ذلك كان يقسم المشهد إلى منظرين متناقضين ظاهرياً! وللحظة كادت معرفتي بوحدة المشهد السماوي في الخارج أن تهتز.. لكنني تذكرت في اللحظة نفسها أن ثمة سماوات كثيرة لا نراها ونؤكد مع ذلك وحدتها مع عالمنا! فكوننا واحد، وسموات النجوم نسيج واحد مع الفضاء الكوني!

كنت أعتقد دائماً، وليس لدي حتى الآن ما يثبت اعتقادي، أن معرفة الإنسان لا تنبع إلا من داخله! وأحب الآن أن أعدل قليلاً في هذا الاعتقاد، إذ ليس ثمة ما هو خارج عن

الإنسان! إن نفسانيـة الإنسان هي نفسانية الكون كله، وعقـل الإنسان هو عقل الكون! إننـا لا ندين بمعارفنـا إلا للمعرفة الكاملة الباطنة فينـا ولشعورنا بها، أي إلى وحدتنا مع الكون!

إن اختلاف المشهـد الواحد عبر حاجز بسيـط يشطره يمكن أن يتكـرر عبر ذواتنا الفردية. فنحن نـرى جميعنا المنظر نفسه، لكننـا نحكم عليـه بأشـكال مختلفة حتى وإن استخدمنـا المعايـير والمفاهيم نفسها. وينطبق ذلك على مشهد التاريخ حين نقيمه في اللحظة. وفي الحقيقـة فإن حاجز الآن هـو نفسه الذي يعطي التاريخ معناه. فليس للماضـي وجود بعيـداً عن رؤانـا الذاتية له، ومن هنـا فإن الأسطورة هـي تاريخنا الحقيقي.. إن ما يجلوه لا وعينا في الحاضر يقسم المشهد الجمعـي إلى مشاهد فردية، ويُولَدُ التاريخ الآن ليسجل أسطورة الماضي، أي المعنـى والصـيرورة! كم مـن الأساطير ضاعـت من سجلاتنـا المدونـة أو المروية، لكننا لا نستطيع مع ذلك محوها من لا وعينا وإن كنا لا نتذكرها؛ كذلك فإننا لا نستطيع إنهاض تاريخ عبر أحداث لا نعرف إذا كانت قد وقعـت أم لا! وهكذا فإن الماضي يوازي المستقبل تماماً عند هذه النقطة. إنه مشهد واحـد في الحقيقـة يفصـل بينهما حاجز الآن.. أحدهمـا تغرب فيـه الشمس فتلون السماء ببريـق حلمها، والآخـر ستبلغ إليه ألـوان الحلم عبر حاجز اللحظة! إن تاريخاً نبنيـه للماضي يـوازي في الحقيقة تاريخاً نبنيه للمستقبل! والحاجز الذي يفصل بين مشهدي الماضي والمستقبل هو عينه الحاجز الذي يحقق تعددية رؤانا الذاتية.

ومـع ذلـك، فـإن إدراك الإنسان عبر العصـور لم يكـن إدراكاً لحظيـاً صافيـاً. فكيف يمكن أن نفهـم إدراك المعنى المتفتح عبر اللحظة الحاضـرة كتفتح لمعنى متجدد مع الصـيرورة؟ ربما لم يكـن إنسان العصر الحجري ليهتم لمعنى الوقـت، فحياته كلها كانـت لحظة دائمـة، وربما بهـذا المعنى لم يداهمـه الوقـت وهـو يقتفي أثـر حيوان لاصطياده، لكنه كان يفكر في النهاية بالعودة إلى ملجئه حيث زوجه وأطفاله، ولو بعد عدة أيام مـن ملاحقة الطريدة! إن معنى الزمن يتغلغل في أعمـاق نفسانيتنا، ومع تتبع أثره في أبسط تفاصيل حياتنا ندرك إلى أي حد يتوافق مفهوم الصـيرورة مع مفهوم الحياة والدافع إلى الاستمرار.. كذا فإن الإنسان لم يكـف عبر العصور عن اكتناه معنى الشحنة الدافعـة له، وهو عـبر مشهـدي الصفاء والاضطراب كان ومازال يبني صوراً مجزأة أحيانـاً وموحِّدة غالباً لدفـق هذه الشحنة

الفاعلة فيه ولشعوره بمعنى حياته ووجوده..

كـذا أعـرف أثنـاء تقدمي في الكتابـة أن مـا أنسجـه هو فعل اللحظة والصـيرورة في آن واحد، وأن الكتابـة عمـل مهذب بما هي تقيم التوازن بدرجـة متنامية بين شواش الصيرورة وصفاء الآن! كذلك أعـترف أن الشحنـة التي تدفعني للكتابـة تتألف مـن تراكب شواش للعديد من الشحنات النفسية، لكن قياس هذه الشحنـات الجزئية لا يحمل أي معنـى. إن وجود صديق إلى جانبـي، أو رؤيـا سماء تغرب فيهـا الشمـس، أو التفاتة عاجلة إلى مشهـد سماء مختلفة الألوان قد يلهمني أن أكتب ما لم أفكـر به للحظة سابقة. ومع ذلك، فلا شك أن ثمـة أعماق فيَّ للكتابة.. وهـذا الدافع يتمثل بكون مفهـوم الشحنة المحرِّضـة علـى الكتابـة سيكتسب كذلك مفاهيمـي التعبيرية كافـة ، أي إن الخروج من الداخـل سيوازي عبر حاجـز اللحظة الولـوج إلى الداخل؛ وببساطة أكثر فإن هذا الدافـع الأعمق هو توق إلى الوحدة القائمة في المشهد البكر وحنـين إلى رؤيا الحلم في الواقع!



تـرى، ألا نستطيـع اليـوم أن نرى إلى المفهوم العلمي للزمن أو للشحنة الكهربائية أو لغيرهما من المفاهيم العلمية كتفتح أزلي للمشهد البكر الذي نراه عبر حاجز اللحظة والفرادة الإنسانيـة بأشكال لا تنتهي؟! كذا فإننا لا نستطيع فصل الذات عن الموضوع، وعبر حاجز كينونتنا نفسه ندرك وحدتنا مع مشهد وجودنا. وعبر وعينا لصور وأحلام لا نستطيـع أن نحدد تماماً مواقع مشاهدتها، أفي الداخل أم في الخارج أم في الاثنين معاً، فإننا نستشف المعنى المنساب عبر التحديدية واللاتحديدية، وعبر صفاء وشواش اللحظة

والصـــيرورة! وهكــذا يمكننا أن نـــرى إلى ذاتيـــة إدراكنا للظاهرات علـــى أنها المعنى الكامن في علاقتنا بالظاهرات. وبغير ذلك لا نستطيـــع أن نـــرى إلى المعنـــى المتفتح في اللحظـــة والمتساوق مع موضـــوع مندرج في الزمان! لقد حرضت لدي لحظة رؤيا مشهد الغـــروب معنى كامناً انـــدرج في كتابة قد لا تبدو جلية للكثيريـــن إلا بعد قراءات وربما حوارات عديدة. وما يهمني أن هذه اللحظة توفرت عبر لا نهاية مـــن الاحتمالات طغى فيها احتمال التلاقي على احتمالات التباعد اللانهائيـــة كافة! إن هـــذه اللحمة الفريدة للـــذات والموضوع هي في الوقت نفسه الملهم والمعنى. وعبر معرفة راسخة بوحدة المشهد، تنبثق إمكانيات التلاقي الكوني كافة!

إن الإنسان في بحثـــه عن الحقيقة إنما يبحث في ذاتـــه صور هـــذه الحقيقة. وهو بالتـــالي يبني نفسه وفقـــاً لصيرورة التوحّد مع الكون. وهكذا فإن صيرورة إبداع المفهوم العلمـــي وتفتحه هي صـــيرورة تفتح للنفس وللكون. ويكون المفهوم العلمي بذلك، ضمن جملة أوسع مـــن المفاهيم وضمن حقل أكبر يتألـــف من اللغات وإمكانيات التعبير، نقطة التلاقـــي التـــي يحتمل فيها المعنـــى الشكل التحديدي والإطار الأوسع للاتحديدية! إن رغبتنا في إيجـــاد ثوابت نرتكز عليها خلال صـــيرورة تفتحنا المعرفي هـــي التي تجعلنا نشدد على الجانب العطالي للقانون العلمي أو للنظرية العلمية أو للمفهوم العلمي.. ومع ذلك فإن هذه العطالة التي تؤدي إلى فترات من الاستقرار المعرفي توافق فترات ضرورية لهضم واستيعـــاب مضامين المفهوم كافة أو القانون أو النظرية، الأمر الذي ينعكس على النفس والعقل، فتتســـع آفاقهما وقدراتهما على إبداع واستيعاب معان جديدة..

يشكل المفهـــوم العلمي من هذا المنظور، وبما هو بعد ذاتي معرفي بالنسبة للفرد كما وللجماعة، طيفـــاً للشخص أو حقلاً ممتداً للأنـــا. ويكـــون ثبات المفهـــوم الشكلي على الرغـــم من تطوره المعنوي تعبـــيراً جلياً عن معرفـــة لا تزال قاصرة عـــن إدراك تجليات النفس الخارجية كتجليات داخلية لها. ويُعدُّ تعلقنـــا باللفظ شكلاً من هذه العطالة. ومع ذلك فإن هذه العطالة، وهي مرتبطة في جزء كبير منها بالعطالـــة اللغوية، تكون ضرورية لإدراك تطور المعنى عبر شكلانية تزول شيئاً فشيئاً أهميتها الخاصة تجاه تجدد معناها. وطالمـــا كان إيقاع هذا التجدد للمعنى وهذا الاضمحلال لأهمية الشـــكل متوازناً ضمن بوتقـــة الشواش الجماعـــي، كان ذلك دليل صحة نفسانية على مستوى معرفتنا!

ليس ثمة في الحقيقة ما يمكن أن ندعوه

بالحالة المثالية للمعرفة، إن رؤيا المشهد الكلي تتطلب منا إزالة الحواجز والأطر التي تقسّم اللوحة إلى أجزاء متباينة ظاهرياً. والمفهوم العلمي يلعب هذا الدور المزدوج في فصل المشاهد وإبراز تبايناتها، وبالتالي في تمكيننا من دراستها وفهمها والتعبير عنها بأشكالها الجزئية. إن المفهوم العلمي من هذا المنظور يقصينا عن الحقيقة التي نسعى إليها بقدر ما يقربنا منها. وهذا صحيح أيضاً على المستوى النفسي للمفهوم. فكلما ازدادت مفاهيمنا زادت معارفنا وتشوشت رؤانا، ومن جهة أخرى اكتسبت المفاهيم نفسانية جديدة.. نفسانية قادرة على تجاوز نفسها شكلياً ولفظياً إلى معنى أكثر تجريداً وأقل شواشاً. وتحقق الأنا بذلك رؤيا فريدة، رؤيا ذاتية، إنما على مستوى جماعي!

إن البحث عن حقيقة موضوعية يعني البحث عن حقيقة تجريبية وقياسية. لكن القياس نفسه قائم على مسلمة وحدة المشهد خارج النافذة. وهكذا فإن محيط الأنا يقر في جميع الأحوال بوحدة الأنا مع العالم الأوسع.. وبالتالي فإن المفهوم العلمي يكتسب شخصية متميزة بحق: إنه صلة الوصل والحاجز في الوقت نفسه. يمكننا القول إذاً إن المفاهيم العلمية تكتسب صفات النفس الإنسانية تماماً. فهي بشكل أو بآخر نفوس المعاني العقلية التي أبدعتها النفس بالدرجة الأولى وأعطاها العقل شكلاً تحديدياً. وعلى هذا فإن المفهوم العلمي يشتمل على نموذجي الظاهر العقلي والباطن النفسي. وتستند صيرورة المعرفة التي تفاجئنا بما ندعوه بالكشف أو بالحدس على هذا الأساس المكين، أن الفكرة الوليدة هي نتاج رؤيا داخلية للظاهرة!

ترى إلى أي حد نستطيع أن نرى إلى وحدة المشهد عبر الحاجز الذي يقسمه إلى جزءين؟ وإلى أي حد أيضاً نستطيع أن نرى وحدة الحاجز مع المشهد القائم خلفه؟! وإلى أي حد يتواحد المشهد والحاجز معنا؟!

كلنا يعاني أثناء محاولة التعبير من تقصير اللغة عن نقل شعورنا بالمعنى المعتمل فينا، المعنى الداخلي الذي لا يتغير ولا يتبدل. ومع ذلك فإن إبداعاتنا اللغوية تلقى صدى إيجابياً غالباً حين تنجح في التعبير عن معنى داخلي.. وينطبق ذلك على المفاهيم العلمية من باب أولى. وبقدر ما لا نستطيع التفريق بين المفهوم العلمي ونظرياتنا المعرفية، فإن الحاجز الذي يفصلنا عن المشهد يظل قائماً إنما بحيث يشكل وحدة معه.

رفعت رأسي الآن، فإذا بالمشهد قد تبدل كلياً! حلّت الظلمة محل الألوان الملتهبة. ولاحت بعض الأنوار الشاحبة هنا وهناك.

اختفى تماماً الفارق بين المشهدين على طريق الحاجز.. لكن الحاجز ظل ماثلاً أمامي، لم يتغير! إني أتساءل إذا كان ثباته في هذا الموقع يحمل معنى ما. وفي الحقيقة أنا أمام سؤال أصعب، ترى هل حقاً انعدم أي فارق بين لوحتي السماء المظلمة على طريق الحاجز؟ في الحقيقة لا أشعر بأي فرق. ومع ذلك أعرف أن الاختلاف موجود. لم أكن أتوقع هذه الإجابة بالتأكيد.. لكنني أدركت فجأة وأنا كلي دهشة أن الحاجز الذي كان أمامي لم يكن هو الذي يقسم المشهد إلى قسمين مختلفين. وعرفت بالتأكيد أن الاختلاف الذي أشعره في الخارج نابع مني! وفي الحقيقة خيل إليّ أن غروب الشمس وهبوط الظلام اللذين شهدتهما كانا لانهائيين وأزليين، وكم كنت دهشاً أكثر وأكثر حين رحت أعترف لنفسي أن هذا المشهد لن يتكرر! وفي الحقيقة، فإن بقاء الحاجز أكمل عندي صورة المعنى وقد اكتسى وجهين متعارضين. وفي حين كان الحاجز فاعلاً مع غروب الشمس في تبيان مشهدين مختلفين، أصبح غير فاعل مع حلول الليل. ومع ذلك تكشف لي المشهدان عبر المعنى السلبي نفسه للحاجز..

أو ليست المعرفة العلمية في النهاية هي أيضاً معرفة ناجمة عن حوار بين نموذجين نفسانيين؟ ليس غرضي في هذا البحث إسناد تحليل نفسي للمفهوم العلمي، لكن الليل الذي حل ذكرني بالبرودة التي يمكن أن تحل عبر النظر من زجاج كان يظهر من خلاله إشراق الحرارة في فوضى جميلة! وذكرني الليل أيضاً بسؤال طالما طرحته على نفسي: لماذا نريد أن نعرف؟!

لاشك أن المعرفة الإنسانية تتناسب أكثر مع مشهد غروب الشمس منها مع مشهد الظلمة الدامسة. ومع ذلك فثمة شعور ينتابني أن سكون الليل لا يقل تحريضاً للأسئلة عن أنوار الغروب! ترى إلى أي حد ترتبط حاجتنا للمعرفة بتطور لا عكوس لا نهاية له؟! وهل يمكن لمعرفة أخرى أن تحرض لدينا أي تساؤل على الإطلاق؟!

خلال بزوغ العلوم ونضجها اكتسبت المفاهيم العلمية صفة أساسية عكسها المنهج العلمي نفسه القائم على استخلاص النسق الواحد والمشترك من الظاهرات الطبيعية. ويقودنا التفرد العلمي اليوم إلى الانخراط في نسق معرفي واحد.. ويكاد يغيب عنا ذلك الحوار بين نموذجين يطرحان إمكانيات لا نهائية للمعرفة، وينعكس ذلك على إدراكنا لمفاهيمنا العلمية بالتأكيد. فالمفهوم العلمي ليس إجابة نهائية، وحين يحل الليل علينا أن نتعلم طرح أسئلة جديدة تكشف لنا عن

جوانب جديدة في المشهد الماثل أمامنا،حتى وإن كانت ظلمة دامسة!

إن نفسانيتنا لا تقبل أنساقاً مختلفة في آن واحد. لكن المفهوم العلمي يحتمل أكثر من نسق آنياً. وهكذا فإننا نحمّل المفهوم العلمي صفة عقائدية، ونخضع بالتالي لسياق وحيد الاتجاه في فهم الظاهرة، وهو فهم مبني غالباً على التجزئة وليس على التواصل! إننا ننسى أن تطور المفاهيم العلمية لم يتم على مستوى الشكل فقط، بل وعلى مستوى المعنى أيضاً، وهو مستوى يرتبط بنا مباشرة.

فخلال المرحلة الأولى من تشكل المفهوم العلمي لم يكن له أي شكل تصوري أو إدراكي عقلي. ونلحظ مثلاً أن مفهوم المكان كان بعداً نفسياً خالصاً في الأسطورة القديمة، فهو الرحم الذي يضم العالم وهو البيضة أو المحيط اللّذان سيولدان الصيرورة. ومع تميز هذه المرحلة بالشواش البدئي الذي يرافق أية عملية خلق، فإنها تحمل مع ذلك مغزى عميقاً، فثمة ههنا انتظار للخلق، وتوقع لولادة النظام. وشيئاً فشيئاً يبدأ المفهوم بالخروج إلى عالم الصور، وتنبثق مباشرة معه بعض الأسئلة. إن العقل يحول الشعور العام بالمعنى إلى تساؤلات لا تزال تحمل أثر الشواش. وسرعان ما تبدأ الإجابة بإزالة هذا العماء. وهكذا تحول المكان عند الفيثاغورثيين مثلاً إلى بناء متناسق تحكمه لغة الجمال والأرقام. لكن المكان اليوم تخطى المنظور الجمالي البسيط عندهم إلى هندسات فائقة التجريد وإلى بنى جمالية من نوع جديد. ويمكننا القول إن عالماً جديداً أوسع وأغنى تفتح في الإنسان مع منظورنا الحاضر للمكان. إن الهندسات اللاتقليدية كانت نماذج مكانية هاجعة في أعماقنا، وهي اليوم تعمل على توسيع آفاقنا النفسية والمعرفية. كذلك فإن تكامل المفاهيم وبروز الصلات بينها يشير إلى غوص أعمق فأعمق في لا وعينا، الأمر الذي يحرّض بالمقابل بحثاً عن وحدة أغنى لرموزنا المعرفية والجمالية. فالزمان والمكان ينتميان إلى نموذج أكثر بدئية في لا وعينا، وكذلك الأمر بالنسبة للطاقة والمادة، وللشحنة والحقل،.. إن الحاجز الذي غابت الألوان خلفه يكشف لنا الآن عن معنى أعمق لألوان أشف.. ترانا ألا نبحث مثلاً عن قوة أكثر أصالة في أعماقنا حين نعقد العزم على توحيد القوى الأساسية في الطبيعة؟!

لا أعرف لماذا نريد أن نعرف؟ إن هذا السؤال الذي نطرحه من وراء الحاجز يأتينا من الجهة المقابلة أيضاً، وفجأة ندرك أن المعرفة ليست سهماً وحيد الاتجاه. ولا

يحتاج المفهوم العلمي لأكثر من تأمل بسيط حتى يكشف لنا أننا نتأمل في حلكة الليل نفسها! ففي مرحلة متقدمة من تطور المفاهيم العلمية بات التوازن القائم في المفاهيم نفسها على الصعيدين العقلي والنفسي يكشف لنا عن آفاق جديدة. وهكذا فإن سؤال البدء والمنتهى يتحول إلى استعداد نفسي لتقبل احتمالات جديدة وأنساق جديدة في مفاهيمنا، فيصبح للنظام والشواش ولنشوء الحياة وللثوابت الكونية معنى جديداً، معنى قابل للتجدد في كل لحظة. وعبر هذه المرحلة من تطور المفاهيم العلمية يمكننا أن نرى إلى المرحلة المقبلة التي ستولد فيها علوم جديدة كل الجدة.

إذا كان ثمة بعد نفسي للمفهوم العلمي، وكان مرتبطاً مباشرة بالتطور النفسي للإنسان، فنحن أمام صورة فريدة في الحقيقة لجانب غير ملموس تماماً في مفاهيمنا! إن معرفتنا تقوم على هذه المفاهيم، وأسئلتنا تصاغ وفقها، ومع ذلك فنحن لا نعطي أية أهمية لحرية المفاهيم نفسها!

هل نحن أحرار مثلاً في انتقاء مفاهيمنا؟! ليس معنوياً فقط، بل وشكلياً أيضاً؟!

إن شكلانية معارفنا التي تحولت خلال هذا القرن من شكلانية تحديدية إلى شكلانية احتمالية تُبرز تجاوزاً لنفس سكونية وعودة إلى نفسانية بكر، متحفزة لتقبل معنى جديداً للوجود والحياة. إن المفهوم العلمي نفسه يفلت بعد مرحلة تشكيله العقلية من أطر العقل نفسها ويصبح خاضعاً لتطورات شواشية وبالتالي قادراً على المشاركة في التحرر النفساني للإنسان وفي اختيار المعنى الجديد والاتجاه الجديد للتطور النفسي. وهكذا فإن مفاهيمنا ليست مجرد صور عقلية تقبل إسقاطاً نفسياً ويمكن أن تعبر عن معانٍ داخلية وخارجية في الوقت نفسه، بل هي انعكاس فعال لصيرورة الإبداع والتجدد. وعبر هذه الصيرورة تتبدى لنا آفاق المعرفة آفاقاً احتمالية. وهي بهذا المعنى دليل إمكانيات نفسانية وعقلانية لا نهائية. ومع تفتح هذه الإمكانيات ستظهر احتمالات جديدة بالتأكيد، وسيتحول الاختبار العلمي إلى اختبار للمفهوم نفسه، ويشير ذلك إلى أنه لن يكون للمفهوم العلمي بذاته في المستقبل تحديدية من أي شكل على الإطلاق. وعلى هذا فإن المعرفة في المستقبل لن تكون مرتبطة بمفهوم أو حتى بقانون علمي. ولنحدس منذ الآن أن هذه المعرفة ستكون فعلاً متعددة الاحتمالات، وأن القانون العلمي ومعناه الفيزيائي سيمتثلان لهذه الاحتمالية. وعندها سنخوض في علم معرفي جديد، مفاهيمه متحولة باستمرار وبعيدة عن أطر التحديدية!

يمكننا أن نأخذ كمثال على ذلك مفهوم لا عكوسية الزمن. فنحن لا نقبله على أبسط المستويات لأننا نأمل بتكرار الأيام وخبراتها. إننا نكبر، هذا صحيح، لكننا نريد أن نبقى أطفالاً. إن تصرفاتنا كلها تنحو للمحافظة على وجودنا في الماضي المعاود. وبشكل أعم، فإننا نأمل بالحفاظ على معرفتنا ومعتقداتنا دونما تغيير، وليس المعتقد في جوهره سوى تعبير نفسي عن هذا العود الأبدي، إلى البقاء في زمن يقبل المعاودة، إننا لا نقبل المستقبل بموازاة الماضي، بل نراه عبر مرآة الماضي، ولهذا فإننا لا نتعلق بالماضي كذكرى وتوهم فقط، بل وكحقيقة تشكلنا وتخيلنا.

وعلى مستوى أعمق فإن رفضنا لعكوسية الزمن سيجردنا كما يخال لنا عن إمكانية عودة إلى البدء، إلى طفولة العالم، إلى حقيقة كانت ومازالت هناك، حيث بدأ العالم! إننا نحتاج اليوم إلى ثورة حقيقية على مستوى فهمنا النفسي لذواتنا كما ولنظرياتنا ولمفاهيمنا العلمية. فالحقيقة نفسها ليست حقيقة ساكنة=معاودة عبر الزمن العكوس أو الدوري، بل إنها ماثلة في اللحظة، وتتطور معها بشكل لا عكوس عبر صيرورة حضور هي ماثلة الآن بشكل وستظل ماثلة عبر أشكال متغيرة باستمرار. فلا بد لنا أن نعترف إذاً أن حقيقتنا حقيقة لا عكوسة وأنها في جوهرها توافق سهم الزمان من حيث أن الوجود وعلته على حد سواء يعكسان هذه الحقيقة نفسها.

إن لا عكوسية الزمان كما تبدت لنا اليوم تشاركنا تحررنا من إطار تحديدي للحقيقة وتشرع لنا آفاق معرفة لا تنتهي. كذا فإن مفهوم الزمن يتجاوز إطار مستقبل مكبل بإشراطات ويضعنا وجهاً لوجه مع لحظة تتحقق فيها وتلتقي احتمالات جديدة باستمرار.

إن ولادة مفهوم الزمن فينا يعكس إذاً معنى أوسع لولادة نفسانية متجددة فينا. وهكذا فإن كل مفهوم ستولده يساهم في تجددنا، ومع تفتح أنماط لاوعينا الأولية يتحرر فينا المعنى الذي نشعره ويتحول في كل لحظة إلى خلق جديد. وفي الحقيقة نحن مقبلون على عصر لا تتحدد فيه الحقيقة بأي شكل من الأشكال، العلمية أو غير العلمية. فالمفهوم الذي ترتكز عليه نظرتنا العقائدية أصبح هو نفسه مشاركاً في تحررنا من التحديدية الصارمة. وهكذا، فإن البعد النفسي - العقلي يوسع آفاقنا ويصبح هو نفسه مجال بحثنا الأرحب عن بناء الحقيقة المتجددة. ولابد لنا أن نتصور منذ الآن أن هذه المعرفة المقبلة ستسقط

أو تجـدد كافة معايير المنطـق القائم على علاقـات المفاهيم التحديديـة فيما بينها. وسيكون الناظم الجديد لتطورنا المعرفي هو نفسه ناظمـاً احتمالياً، أي إنه سيتخذ، كما هو الحال الآن، من التحولات النفسية رموز تقدمه الشكلانية.

لعلنا نتساءل عن احتمال تحقق مثل هذه المعرفة. إنه احتمال مرتبط بالدرجة الأولى بوجودنـا من حيث هو يرتكـز على تطورنا المشترك مـع الكون. وضمن هـذا المنظور سيكون تطورنـا المشترك بعداً مفتوحاً على احتمـالات قصوى باستمـرار. إن النهايات الحدية العظمـى في المعرفة الفردية، وهي نادرة الحـدوث في صيرورة تطـور الأفراد معرفياً، تصبح نهايـات قابلة جداً للتحقق على مستوى الجماعات. وهذا القانون ليس تحديدياً في النهايـة. لكنه احتمالي بدرجة ممكنة التحقـق باستمـرار، أي إنه يعكس قانون تطورنا المشترك.

وهنا فقـط يمكننا أن نتحدث عن وعي جماعي كامن، وهذا الوعي الكلي لا يخضع بالتأكيـد لصيرورة تطور نفسـي فردية إلا بقـدر ما تنصهر هذه الصـيرورة في بوتقة الصيرورة الجماعية. وهكـذا فإننا نلج مع تطورنـا الجماعي عتبة مفهـوم أو مفاهيم جديـدة هي الحـل الأمثـل آنيـاً والممكن لمنظومة من الأفعال التي يتدخل فيها الوعي الفردي. وهذا الحـل الأمثل، ويا لدهشتنا، يتجاوز هـذه الحـالات الفرديـة للتدخل ويستمدّ دائماً مـن التجربة الجماعية، كما تدلنا الخـبرات التاريخية المبيَّنـة، إمكانية حـل جمعي قـادر على استخلاص المعنى الحقيقي فقـط للتجربة. ونجد أنفسنا هنا أمام إمكانية عجيبة، إذ إن التحديدية تعود إلى موطـن القيمة الاحتماليـة وتسبغ على المعرفـة ومفاهيمها واقعـاً لا يمكن النفاذ منه!

إن هذه النتيجة تحملنا على الشك بأننا نسقط اليوم مفاهيمنا الحالية على مستقبل مفتوح على الاحتمالات. ويشير ذلك بوضوح إلى أن نفسانيتنـا لا تزال تبحث اليوم، وهي في أوج ترددهـا بـين قبـول الاحتمالية أو رفضهـا، عن مستقر آمـن لها في تحديدية أوشكـت أن تتلاشى، ليس فقط من قاموس مفاهيمنا العلمية، بل ومن محيط نفسانيتنا العميق!

إن أحلامنا وفنوننـا وعلومنا وعقائدنا وطاقاتنـا الإبداعية كلهـا تتحضر لتحول عميق نشهده منذ اليـوم في تحول نفسانية المفاهيـم العلمية. إننا منـذ اليوم نرى إلى الصـراع الهائل القائـم في نفوسنا وعقولنا بـين نفسانية الاعتقـاد الراسـخ والمنظور

ضمن مسيرة خطيــة لا يمكن أن تخرج عن أصولهــا ولا يمكــن أن تكتشــف أفقاً غير أفقهــا، ونفسانية وليــدة جديدة كل الجدة ترتكز على فعل التجدد نفسه، وعلى انفتاح الإمكانيات على إمكانيات جديدة دوماً!

إننا نخرج من عالم الاعتقاد إلى عالم اللا تعلق بأي معتقد، وتصبح المعرفة بالنسبة لنا فعلاً آنياً مفتوحاً على حرية جديدة، حرية قائمــة في اللحظة ولا تخضــع لإشراطات الشروط البدئيــة أو الغايــات التحديدية! وهكذا فإن الحقيقة لم تعد همنا الأول كشكل معــرفي، وتحتــل منــذ الآن صيرورتها فينا مكانة المعنى المتجدد والمجدِّد. وهكذا فإننا نخرج مــن عالم التحديديــة إلى عالم الكلية الفاعلة، ويتبلور شعورنا أننا نصير الحقيقة عبر صيرورة تفتــح مفاهيمنا ولغاتنا. وعبر غوصنا أكثر فأكثر في محيط وعينا الجمعي ينغمســ كل ما يشكل صــيرورة تطورنا أكثر فأكثر في الإبداع الآني لهذا الشعور الحاضر والمتجدد في اللحظة..

تقوم نفسانيتنا إذاً على تجديد مفاهيمنا وليس على الاعتقــاد بها. وهكذا فإن نمط بحثنا عــن حقيقة قصــوى ونهائية يصبح نمطــاً عقيماً، إذ إن نفسانيتنا تأبى أن تحد نفسها بحقيقة مشروطة إلى هذا الحد. وفي حين تزداد مفاهيمنا شفافية، يصبح المشهد الخارجــي أكثر قرباً منــا، ونشعر للحظات أن هــذا المشهد يسائلنا كمــا نسائله وينبع مــن أعماقنا كما نفيض من لا نهايته. وكأنّ منهجاً جديداً للمعرفة يبرز من هذه اللحمة. فالمفاهيم في جلائها لآفاقنا النفسية تفصح عــن شكلانية هــي أشبــه باللامنهجية أو باللامعرفــة! إنه الفعل وقــد صار الفاعل والمفعول به! وببساطــة، فإن الحقيقة التي ننشدهــا منذ الآن فصاعــداً ليست حقيقة مفاهيــم. وسنشهد باستمرار توسعاً متبادلاً للمشهديــن الداخلــي والخارجي على حد سواء..

أشعر عند هذا الحد أنني استطعت إلى حــدّ ما التعبير عما كنت قد فصلت فيه في صفحات طويلة مليئة بالأمثلة وبالتحليلات المدرسيــة الجافة! ومع ذلك ثمة فكرة أحب أن أعرض لها في نهايــة هذا البحث! إذ لا بد أن يتساءل بعضهم كما أتساءل غالباً عن مدى «واقعية» تحليل يقوم على منظور ذاتي في النهاية. وكلمة واقعية هنا لا تحمل معنى الموضوعيــة في الطــرح بقدر مــا تشير إلى إمكانية تطبيقية للمنظور الذاتي في الإطار المراهن للمجتمع.

أين منــا اليوم الشعور بالصحة النفسية لمعارفنــا، ونحن نــرى إلى مفاهيمنا تتحول غالباً إلى عناصــر استهلاكية؟ وكيف يمكن

أن نترجى توسعاً لآفاقنا النفسية والعقلية ونحن لا نعطي أنفسنا فرصة فعلية لهضم معاني ومفاهيم علومنا؟

إن تطور مفاهيمنا يؤدي إلى انفتاح للأنا على العالم، وإلى ظهور مجموعة من الانفعالات والتحديات والدوافع النفسية تترافق بمواجهة سلطة تأسست على مدى سنين طويلة، وهي سلطة نفسانية بالدرجة الأولى تجذرت في أعماقنا عبر عطالة مفاهيمنا وتصوراتنا. ويؤدي ارتباط الاكتشافات العلمية اليوم بالسلطات الاقتصادية والسياسية إلى عطالة إضافية في تطور المفهوم العلمي ويزيد من تشبثنا به بشكل عقائدي، الأمر الذي ينعكس على الحرية البشرية وعلى مجمل النشاط البشري. ونحن لا نستطيع فصل ظاهرة تزايد الهوّة بين العلماء والعامة عن ظاهرة تردّي الذوق في مجمل الميادين كالموسيقى والرسم والشعر إلخ، هذا إضافة إلى عدم الاهتمام الفعلي المبطن باهتمام ظاهري، بمسائل ملحة كتدهور البيئة وانقراض الأنواع والتزايد السكاني والأمراض والأوبئة إلخ.. إن تزايد الشواش الثقافي، مع صعوبة متنامية في تجذر المفهوم العلمي على الصعيدين الواعي واللاواعي للجماعة، يؤدي إلى تفاقم للأزمات النفسية العامة التي تعاني منها المجتمعات.

إن هذا الواقع نفسه يفرض علينا أن نميز بين المفهوم العلمي، أو أي مفهوم آخر أصيل تتفتح الأنا عبره وتدرك حتى في عطالتها أبعاداً جديدة من خلاله، والمفهوم التقني السائد اليوم والذي يجرد المفهوم العلمي من معناه ويجعله مجرد أداة تعبيرية لأغراض نفعية حتى على المستوى العلمي. وبالتالي علينا ألا نرجع سبب تردي ثقافتنا العامة إلى عطالة المفهوم العلمي من حيث صعوبته مثلاً، بل إلى اعتمادنا على شكلانية محددة للفهم ونمطٍ خاص في التعامل مع إبداعاتنا هو نمط النفعية والاستهلاكية. ومثال ذلك برامج التعليم السائدة اليوم التي لا تميل إلى تقديم صورة وافية عن المعنى المتضمن في المفهوم العلمي بقدر ما تنحو إلى إيصال معلومات تقنية تؤدي في النهاية إلى تخصصات مختلفة.

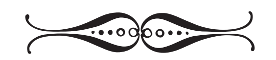
إن تعاملنا مع الظاهرة هو انعكاس لطريقة تعاملنا مع أنفسنا. وطالما كنا ننظر إلى نفسانيتنا كعامل بسيط وفردي لا أهمية له في طرح الحلول لمشاكلنا، فإن صيرورة تفتحنا ستظل خاضعة لإعاقة أساسية ناجمة عن الهوة المتنامية بين فهمنا العقلي وإدراكنا النفسي. ويمكننا أن نلحظ بشكل جلي هذا النمط من التعامل في أدق تفاصيل حياتنا. وإصرارنا على نمط وحيد

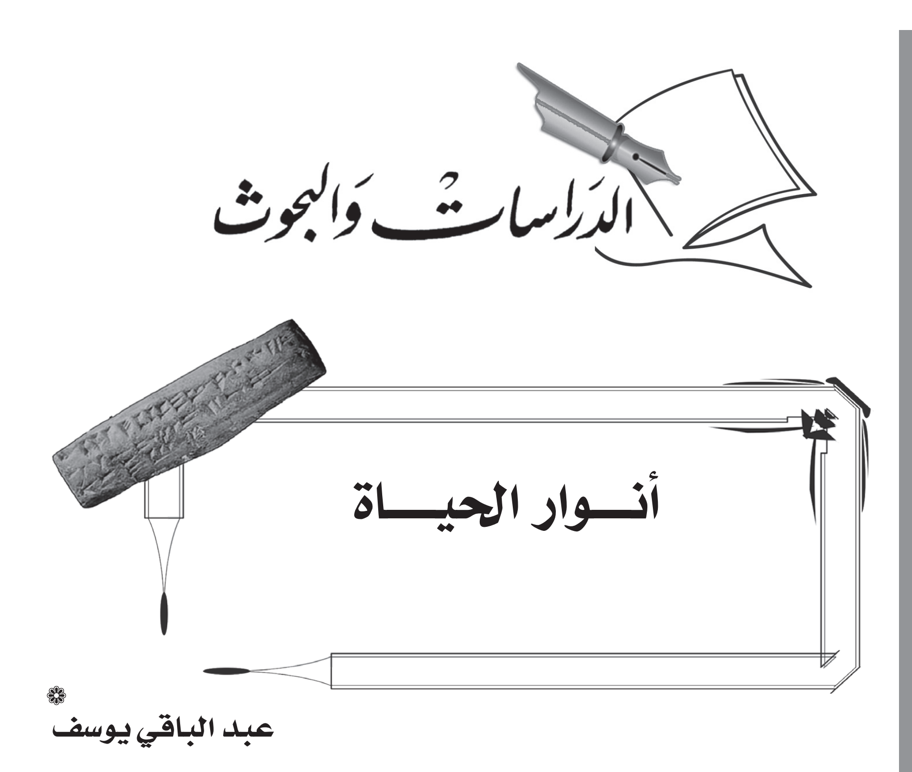
الاتجــاه في المعرفة وفي التطبيق هو ما نعبر عنــه في مجال العلــوم الإنسانيــة بصعوبة إخضــاع النظرية للتجربــة والتطبيق. وما ذاك بسبب شواشــ الذات والموضوع فقط. ففــي علم النفس الفرويــدي خاصة يرتكز البحــث على اتجــاه وحيــد للمعرفة. لكن تطور الموضوع والعارف، أو بشكل آخر تطور المريض والمعالــج، يؤدي إلى علاقة شواشية غير تحديدية على مــدى أفق زمني معين. وفي الحقيقة لا يمكننا التنبؤ بمدى صيرورة العلاج النفســي ليس فقط لأننا لا نستطيع أن نأخذ بعين الاعتبــار المعاملات الثقافية والاجتماعية كافة وغيرها التي يدخل فيها، بل ولأننا لا نعرف على بعد معين مدى تأثير وتأثر اللاوعي الفردي والجمعي الفاعل في التجربــة. وفي الحقيقة فــإن المفاهيم التي يكتسبهــا المعالج والمريض علــى حد سواء هي مفاهيم قابلــة للتعديل ليس فقط على مستوى المعنــى الخارجي، بل وعلى مستوى المعنــى الذاتي الخاصــ، أي تفتح نفسانية المريض والمعالــج. وتطور المفهــوم العلمي بهــذا المعنى هــو تخفيف للحاجــز القائم بين المريضــ والمعالج بحيث أننا لا نستطيع عند نقطة معينة التمييــز بينهما. فانفتاح المشهد بالنسبة للطبيــب هو عينه الانفتاح الذي يشهــده المريض. ومن هذا المنظور لا يحتمــل المفهوم العلمي بعداً ذاتياً فقط، بل يتضمن تأثر العام بالخاص والخاص بالعام، وإمكانية تطابــق الخاص مع العام والحالة المنتظمة مــع الحالــة الشواشية في لحظة معينة!

كــذا يوشــك حلمنا القــديم بمعرفة لا محدودة أن يخبو مــع تشبثنا بنمط نفساني وحيــد الاتجاه ومحكــوم بواقع تــزداد فيه روح الاستهــلاك جشعــاً. إن صراعنــا مع مشكلاتنا اليومية الصغيرة كما ومع أزماتنا الكبرى على مستوى البيئة والصحة والغذاء والازديــاد السكاني وغير ذلك يغوص بنا في تعلق متزايد بحلــول وقتية واهمة. نحن لا نــرى إلى الحــل الحقيقي الماثــل في تجدد الحلــم نفســه.. علينا أن نتذكــر أن ميثاق الإنسان الأول هو ميثــاق داخلي مع نفسه، أي إنــه ميثاق تحرر وليس عهداً يُلزمه بحل وحيد الاتجاه! وميثاقنا هو معرفة حرة غير مشروطة، وهو الميثاق الوحيد الكفيل ببعث الحلم الأول وإعادة المعنى لصيرورة وجودنا، أي لتخليصنــا من أزماتنا النفسية والمادية. وإن كنا لن نستطيع حل المشاكل التي تواجه العالم اليــوم عبر الدراسات العلمية والتقنية والاقتصاديــة، فلا بد أن نتساءل عن فائدة تجاهل الجانب المــوازي لأي عمل يمكن أن نقوم به في هذا الإطار..

إن تجـدد ميثاقنا مـع أنفسنا، وعودتنا إلى المعرفـة التي تقيم التـوازن بين حريتنا وشـروط استمرارنا، ذلكـم هو المعنى الذي تحمله نفسانية مفاهيمنا العلمية!

أنهيت الكتابة وبي عطش بعد إلى معنى لا يزال يشحن قواي ويشدني إلى سبر متزايد العمـق والاتساع لنفسي وللعـالم. لكن هذا العطش دفعني الآن بعـد أن أنهيت الكتابة إلى النهوض والخروج إلى سواد الليل! تركت الحاجز الذي كان يقسم المشهد إلى نصفين ورائي، ومعـه المفاهيم والأفكار كافة.. وها أنـذا أمام سماء رائعـة.. ما أجمل أن نمتد في لحظـات إلى خارج معاييرنـا ومقاييسنا لنجد أنفسنا أمام المعنى الأكثر صميمية في داخلنـا! وإني أرجو لكـم الآن بعد قراءتكم أن تشعروا ولو للحظات بجمال رؤيا المشهد الكوني بعيداً عن المفاهيم والحواجز..





أنـــوار الحيـــاة

عبد الباقي يوسف ❀

إنهــا الحياة الحافلة بالأنوار المختبئــة التي يحتاج الإنسان أن يكتشفها، حتــى تكون مشــكاة يهتدي بها في ظلمة الحياة التــي رأى نفسه يمضي في مناكبها.

كثيرون يعيشون دون أن يكتشفوا هذه الأنوار، فتمضي أعمارهم في ظلام دون أن يلمسوا شعاعاً من النور.

هذه الأنوار هي التي تجعل للحياة معنى، وتملأ الإنسان مسؤولية تجاهها، تجعله يسعى ما بوسعه حتى يقدم شيئاً مجدياً للحياة.

❀ أديب وباحث سوري

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

عندما يمتلــئ الإنسان بالحيــاة، فإنه يكتســب من هــذا الامتــلاء الحرص على حياته أولاً، ومن ثم على حياة الآخرين الذين هم شركاء له في الحياة، ولكنه إذا فقد هذا الحرص علــى حياته يكون من العسير عليه أن يحرص على حياة من دونه.

إشراقــة الحيــاة في كتابـات ألبيــر كامو

نستطيع القول أن هذا الكاتب دافع دون هوادة عن الحياة.

وكرس كل كتاباته مــن أجل الدفاع عن حــق الإنســان في حياة حــرة كريمة. وهو فيلسوف، وروائي، ومسرحي إنساني النزعة في جل ما ترك من إبــداع الذي تكلل بنيله جائــزة نوبل للآداب سنــة ١٩٥٧ وهو ثاني أصغر كاتــب يحصل على هذا الجائزة بعد /روديارد كبلنغ/ كما أنه أصغر من مات من كل الحائزين على جائزة نوبل.

ولــد كامو يوم ٧ نوفمــبر ١٩١٣ بمدينة الذرعان بالجزائــر، ودرس حتى نال إجازة الفلسفــة في الجزائــر وكان يدرس ويعمل في /الأرصــاد الجوية/ معاً، وبدأت ميولاته الإنسانيــة بالظهور وهو يــرى بلاده تحتل بلداً. عندئذ بدأ بالكتابة بشكل جريء وهو يدين هذا الاحتلال.

في الجزائر بــدأت كتاباته الأولى ودعا كامو إلى: (إن أكبر معركة يجب أن يخوضها الإنسان هي معركته مع نفسه، معركة ينتصر فيها حب العدالة على شهوة الحقد).

وهنــا بدأ يديــن الاستعمــار الفرنسي للجزائر.

يكتــب كامو في تلك المرحلــة التكوينية: /إن الحــب الذي نتبادله مع مدينة هو على الأغلب حب ســري. إن مدناً كباريس وبراغ وحتــى فلورنسا، لهــي مــدن منغلقة على نفسها وتحدد بالتالي العالم الخاص بها، لكن الجزائر، مع بعض الأوساط الممتازة كالمدن على البحــر، تنفتح في السمــاء مثل فم أو جرح.

لا بــد للمرء دون شــك أن يعيش حقبة طويلة في الجزائر ليفهــم أي جفاف يمكن أن يحدثه الإفراط في الثروات الطبيعية، يا للبلد الفريد الذي يهب الإنسان الذي يغذيه عظمتــه وبؤسه في آن واحد، فأي عجب إذا كنت لا أحب وجه هذا البلد إلا وسط أبنائه الأكثر فاقة.

إن كل شــيء في الجزائر بالنسبة لي هو شاب وملجأ ذريعة للانتصارات. إن القيم هنا وثيقة الارتباط والنكتة المحبذة عن القبّارين الجزائريــين حين تكــون عرباتهــم فارغة أن يصيحــوا بالصبايا الجميــلات اللائي يصادفونهن: /أتصعدين يا حبيبتي/[1]

يحـــاول كامو أن يعطي صـــورة واضحة عن القاع الاجتماعـــي: /إن أيام الآحاد في الجزائر من أكثر الأيام كآبة. إنني لا أعرف مكاناً أبشع من مقبرة /برو/ إن أكداساً من الذوق الفاسد بين أطـــر سوداء تكشف عن كآبة رهيبـــة في هذه الأمكنـــة التي يكشف فيها الموت عن وجهه الحقيقي/.

مـــن هنـــا تأتي دعـــوة كامـــو إلى تمرد الجزائريـــين في وجه الاستعمـــار الفرنسي فيعلن موقفـــه الواضح قائـــلاً: /إن نفوس الفرنسيين مليئة بالحقـــد، وهو حقد أسود أرفضـــ أن أشـــارك فيه لقـــد كلفتنا هذه القضية كثيراً وما زالت تكلفنا/.

كل هـــذا في سبيل حق الإنسان في حياة حـــرة كريمة، وعلى هـــذا الإنسان أن يتمرد في وجـــه الظلم والقســـوة ويناضل من أجل التخلص من كل أشـــكال العبودية في سبيل الحياة التي هي أفضل ما وهب للإنسان على الأرض، فحتى نحترم الحياة ونليق بها علينا أن نسعى من أجل الحريـــة، حريتنا وحرية الآخرين على دروب التكاتف الإنساني.

بطبيعة الحال فإن كتابه الهام /الإنسان المتمرد/ أوضح مايرغب كامو في قوله.

من جهـــة أخرى لجأ كامـــو إلى الكتابة المسرحية ليتفاعل بشكل مباشر مع الجمهور، وقـــد كانت لمسرحياتـــه ردود أفعال قوية في مختلف أنحاء العالم.

لبث مركـــزاً على منهجـــه الإنساني في المســـرح، واغتنم هذه الخشبـــة ليتفاعل مع الجمهور وجهاً لوجه.

يدافع هـــذا الكاتب عن حق الإنسان في الحياة، ويديـــن أي شكل من أشكال التدخل في ممارسته للحياة.

ثمة مسرحية هامـــة لكامو تصور نهاية الإنســـان الشريـــر نهايـــة مأساويـــة، وهي مسرحيـــة تحذيرية بعنـــوان: /**سوء فهم**/ كتبها عام ١٩٤٤.

وفيها امرأة وابنتها تديران فندقاً، وكلما نـــزل نزيل في هذا الفنـــدق، قتلتاه، وسطتا على ثروته.

تمضي الأحـــداث، والأيـــام، وذات يوم يعود الابـــن المهاجر إلى أمه وأخته نزيلاً في الفندق، ومن باب الدعابـــة يقرر أن يخفي شخصيته أول الأمر، حتى ينام، وفي الصباح يقدم لهما المفاجأة السارة.

يكون الرجـــل سعيداً في غرفته بالفندق لأنـــه بالقرب مـــن أمه وأختـــه، وفي غرفة أخرى تخطط الأم كيف تغتاله لتحصل على ثروته، خاصة وقد رأت هذه الثروة. وكالعادة تنجحان في هـــذه المهمة، وفي ذروة الابتهاج للحصول على الثروة، تكتشفان الحقيقة من أوراقه.

هنـــا تولد الصدمة الكـــبرى، وكأن كامو



يقول: إن مــن لايحترم حياة الآخرين، فســوف يأتي عليه يوم لايحترم حياته أيضاً، وكما يعتدي على حيــاة الآخرين، فســوف ينقــاد ليقضي على حياته أيضاً. وبالفعل تقرران الانتحار مع هــول الصدمة، وعندهــا تقــول الأخــت: /**الحياة أقسى منا جميعاً**/.

يقول كامــو: /هناك نوع مــن التفــاؤل ليســ بالطبع مــن سجاياي لقــد ترعرعنا أنــا وسائر أبنــاء جيلي على قــرع طبول الحــرب العالمية الأولى، وقــد تابع التاريــخ منذ ذلك الحين حكاية القتل والجور والعنف إلا أن التشاؤم الحقيقــي كالــذي نــراه اليــوم يكمن في استغلال هــذه الوحشية والخزي. أما فيما يتعلــق بي فقد ناضلت دون هوادة ضد هذا الانحطاط، لست أكره إلا أولئك المتوحشين، وفي أحلــك أعماق عدميتنا لم أكن أنشد غير سبيل لتجاوز العدمية/.

مثل هــذه الأفــكار، وضعــت كامو في مواجهة مع أفكار أخرى خاصة مع أصدقائه، وبسبب ذلك افترق كامو عن صديقه الحميم جان بول سارتر.

ليس بوسع أحد أن يتحدث عن كامو دون سارتر حيــث أن اسميهما اقترنا بالوجودية، وفيما بعد انفصــلاً فصلاً عميقاً في الفكر والصداقــة، فكامــو يتجه نحــو: /إننا غير مسؤولين عن أمنا وأبينا، أو اسمنا، أو ديننا، فكلها حصلت قبل وجودنا، أما المستقبل، أو المصير فنحن مسؤولون عنه، وعلينا أن نقرره، ونختاره، وهذه هي الحرية المسؤولة/.

فيما يتجه سارتر نحو: /إن الحرية هي الرعب/.

ويتجه كامو نحو: /التكاتف الإنساني/

ويتجــه سارتــر نحــو: /الآخــرون هم الجحيم/

ويرى كامـــو: /عندما يبـــارك الأسقف حكم الإعدام، يكـــون في رأيي قد خرج عن دينه، وحتى عن إنسانيته/.

ويرى سارتـــر: /إننا نعيش في عالم مليء بالشر، ولهذا فإننا لا نستطيع أن نسيطر عليه إلا إذا كنا قساة ولوثنـــا أيدينا بالجريمة/. وعلـــى الفور يعلن كامـــو انفصاله التام عن الشيوعيـــة، فيرسل إليـــه سارتر برسالة من ضمنها: /هنـــاك أشياء كثـــيرة تربط بيننا وأخـــرى قليلة تفرق بيننا ولكن هذه الأشياء القليلـــة بالغـــة الخطورة بحيـــث أصبح من المستحيل أن نلتقي/.

وعندما توفي كامو قال عنه سارتر: /إنه كان أحد أهم أخلاقيي العصر الكبار/.

وقال في روايته الكبرى الغريب: /ما كاد غريب السيـــد كامو يخرج من المطبعة حتى نال أكبر قيمة دفعت الكثيرين إلى القول بأنه خير كتاب صدر بعد الهدنة، وأنه هو ذاته، في وسط النتاج الأدبي لهذه الأيام، فقد تلقيناه في الطرف الآخر من ضفة البحر المتوسط، ليحدثنا عن الشمس في ذلك الربيع الحسي الذي لا يعكره هباب الفحم/.

كان كامـــو مقبـــلاً بشـــكل غريب على الحياة، يعيشـــ كل تفاصيلهـــا، ويسعى إلى تحقيق حياة إنسانية لـــه ولغيره، وقد تفرغ للعمـــل الإنساني، وفي عـــام ١٩٥٢ لم يتردد من تقـــديم استقالته في منظمـــة اليونسكو احتجاجـــاً على قبـــول الأمم المتحدة لقبول عضوية إسبانيـــا، وهي تحت حكم الجنرال /فرانكـــو/، ثـــم أدان السوفييـــت للطريقة التـــي قمعت فيها انتفاضة العمال في برلين الشرقية عام ١٩٥٣.

في ذروة تعلقـــه بالحيـــاة يسطر كامو: / كل رعبـــي من الموت يكمـــن في غيرتي على الحيـــاة.. إننـــي غيور ممـــن سيعيشون من بعدي.. وممن سيكـــون للأزهار والشهوات إلى المرأة معنى من لحـــم ودم بالنسبة لهم. إنني حســـود لأنني أحب الحياة حباً جماً لا أستطيع معه إلا أن أكون أنانياً/.

ولكـــن الموت يأتـــي ليخطـــف كل شيء فيقـــول كامو في ذروة يأســـه: /ولا أسوأ من المرض في هذا الصدد. إنه دواء ضد الموت، إنه يمهد له، إنه يحلق مرانا مرحلته الأولى، الإشفـــاق على الـــذات، إنه يدعـــم الإنسان في جهـــده الكبير في التهـــرب من يقينه بأنه سيمـــوت بأســـره وأشعر عندئـــذ أن التقدم الحقيقي الوحيد للحضـــارة، التقدم الذي يتعلق بـــه البشر من زمن لآخر، هو أن نبدع ميتات واعية. إن ما يدهشني دوماً هو فقر أفكارنا عن الموت/.

إن كامـــو يتحدث عن المـــوت من خلال مـــوت الآخرين وعندما يتحـــدث عن نفسه

لا ينجــح في تصوير هذا المــوت ولكنه يرى أن الإبــداع هو خير وسيلة لمجابهة الموت إنه الموت الواعي والناضــج: /أقول في نفسي، سأموت، لكــن هذا لا يعني شيئــاً لأنني لا أتوصل إلى الاعتقاد بــه ولا يمكن أن تكون لي إلا تجربة موت الآخرين لقد رأيت أناساً يموتــون، رأيت على الأخصــ كلاباً تموت، وكان لمسها هو الــذي يبلبلني أفكر عندئذ: الأزهار، الابتسامــات، الشهوات إلى المرأة، أريد أن أحمل صحوي حتى الثمالة وأن أنظر إلى نهايتــي بكل إسراف غيرتــي وسعادتي، وبمقدار مــا أنفصل عن العــالم أخاف من المــوت/. لكن هذا الصــوت الراجف يموت مبكراً وينفصل تماماً عن العالم، إنه في ذروة احتفالــه بجائزة نوبل للآداب، وذروة التألق العالمي والمجــد والشهرة والــثروة يسير مع صديــق له، وفجأة تصــدم سيارتهما بجذع شجــرة على طرف الطريق، ويكون كامو هو المفارق للحياة في هــذا الحادث الذي غدا عالمياً يــوم ٤ يونيــو ١٩٦٠. وكان كامو قد كتب في بدايــة حياته: /إن أكثر موت عبثية يمكن تخيله هو الموت في حادث سيارة/.

ثمــة فكــرة أخــرى طرحهــا كامو في مسرحيتــه /صلاة إلى بتــول/ [٢]. في هذه المسرحيــة يطرح قضية الحب والموت بشكل إنساني مؤثر.

وهــي مــن المسرحيــات التــي تطــرح الحساسية العاليــة في علاقة حب عميقة، ولكن الشــاب يقلقه دوماً الموت الذي يبعده عن حبيبته.

البطل ينتابه قلق وجــودي، وهو يتخيل موتــه، والابتعاد عن حبيبته، وفي هذا القلق ينادي

/دييجــو/ حبيبته: إننــي أكره جمالك لأنــه سوف يحيا بعد موتي.. ملعون هو لأن غــيري سيتمتع به.. لن أكون وحدي هناك.. ماذا يهمني من حبك إن لم يتعفن معي.

الحياة تقترن هنا بوجود مَن نحب، وإذا خلت الحياة من الحب، خلت من الدفء.

وهذا يذكرنا بكتاب لكامو هو /أسطورة سيزيف/

إن ألبــير كامــو يسعى لقــول معتقداته من خلال أعماله، ويــترك لشخوصه مهمة حمل هذه الأفــكار فيكتب بود عن سيزيف ذاك الرجــل الذي يحلم بالعودة إلى الحياة. سيزيف الذي أمــر زوجته بإلقاء جسده في الطريــق بدون كفن عند موته ليمتحن مدى حبها له، يرى نفسه فجأة في الجحيم وبيده صخرة يرفعها إلى قمة جبل مرتفع بالشقاء، ومــا إن يوصلها حتى تعــود فيعاود رفعها. وهــذا هو عقابه، فقد حكمــت عليه الآلهة هذا الحكم، لأنه أفشــى أسرار الآلهة. لقد

اختطف/جوبير/أجين/ابنة/أزوب/فأدهش اختفاؤها والدها الذي شكا الأمر لسيزيف فعرض عليه الأخير - وكان على علم بالاختطاف- أن يدله على مكانها ويفشي السر بشرط أن يمد قلعة /قورنثه/ بالماء وهو بذلك يفضّل بركة الماء على صواعق السماء فيعاقَبُ بالأشغال الشاقة المؤبدة في الجحيم برفعه الصخرة إلى الأبد.. ذات مرة يتوسل إلى /بلوطون/ حتى يعطيه استراحة ليعود إلى الحياة ويرى زوجته وبعدها يعود بأقصى سرعة، ويرق له قلب بلوطون ويمنحه إجازة قصيرة ويأذن له الخروج من الجحيم ويعود سيزيف. عاشق الحياة. ليفتح عينيه على الجمال والشمس والهواء وعند انتهاء المهلة يرفض العودة ويهرب متخفياً عند منعرج الخليج تحت تهديدات الآلهة حتى نفد صبرها فتدخل /مركور/ بنفسه بقرار من الآلهة وأمسك بسيزيف من رقبته وأعاده بالقوة إلى حيث صخرته.

يقول دييجو: لا أريد أن أموت وحدي وأغلى شيء عندي في العالم يشيح بوجهه عني ويرفض أن يتبعني.

وتأتي الإجابة الجميلة والتي بطبيعة الحال ترضي كامو نفسه أولاً، فتقول فكتوريا جملتها الرائعة: إذا كان يجب أن تموت يا حبيبي، فإنني أحسد حتى الأرض التي سوف تقترن بجسمك.

يقظة الحياة

يكتشف الإنسان أنوار الحياة عندما يشعر بأنه أصيب بمرض، وهذا المرض لن يمهله كثيرا حتى يخرج من الحياة، عندئذ يعيش الحياة بكل قوتها في تلك اللحظات التي تلبث وكأنها تهرب من بين فراغات أصابعه.

سوف أتحدث عن تجربة شخص تخيل بأنه مريض، وأنه مفارق للحياة بعد أيام معدودة، بيد أن الحقيقة لم تكن ذلك.

ما يهم هنا أنه لم يعد يحتمل قوة الحياة التي تدفقت في عروقه عندما علم الحقيقة.

عاد السيد عبد الوهاب إلى الفندق في الساعة الواحدة ليلاً وهو يتصور جلوس الرجل العجوز خلف الطاولة وعلى يساره لوحة المفاتيح، ذلك الرجل الذي استقبله صباحاً بابتسامته البشوشة عندما سأله عن غرفة شاغرة، طرق على المائدة، ولم يجبه أحد.

يبدو أنه نائم، قال السيد عبد الوهاب، ومد كفه إلى لوحة المفاتيح، وسحب المفتاح رقم /٢/ وهو يتجه صوب غرفته، تناهى إلى سمعه صوت سقوط صحن زجاجي على البلاط. أيقظ الصوت شهيته لاحتساء

فنجـــان قهـــوة، تخيـــل جلوســـه في الغرفة يحتسي القهـــوة، وألحت الرغبة وقادته إلى مصـــدر الصوت، مد يـــده ودفع باباً صغيراً خلـــف لوحة المفاتيح، فانفـــرج الباب، وأدى إلى غرفة صغيرة بمساحـــة مترين مربعين، دخلها ورأى شخصاً يولي بظهره إليه ويحرك طعامـــاً على سخان كهربائـــي تأحأح السيد عبد الوهـــاب، فاستـــدار الشخص بحركة بطيئة ولمـــا رآه ارتعد وعلاه ارتباك، فبادره السيد عبد الوهاب: آسف الآن فقط أنهيت مشواري، فلم يرد عليه الشخص الذي أدار ظهره كـــرة ثانية وعـــاد إلى تحريك طعامه وبعد قليل حمل صحنـــاً من الكوسة المقلية بالبيضـــ ومـــر بجانبه خارجـــاً، رأى نفسه وحيـــداً في الغرفـــة فدنا إلى الـــبراد، ورفع قنينة من الماء البارد إلى فمه عندئذ تناهت وقع خطـــوات، فاستـــدار والقنينة في فمه رأى ذات الشخصـــ يدنو من البراد ويسحب ربطة الخبز من الـــدرج الأسفل الذي يشبه صندوق، فوضـــع القنينة مكانها قبل إغلاق البـــاب، قال له الشخص هذه المرة وهو يهم للخروج: تفضل كل معي.

أجابه وهو أيضاً يهم بالخروج: لا شكراً، عندما تفرغ، أرجوك اجلب لي فنجان قهوة إلى الغرفة رقم /٢/.

أجاب الشخص وقـــد وقف في المدخل: أنا نزيل مثلـــك، يبدو أن العامل المناوب نام في إحدى الغرف الفارغة، نظر السيد عبد الوهـــاب إلى الخبز في يـــده، أردف قائلاً: أنـــا مستأجر غرفة شهريـــة هنا، هل نزلت اليوم؟؟

أجل اليوم هـــو الأول، أعنـــي هذه أول ليلـــة لي. قال له الشخصـــ بلهجة ضيافية: لا يهمك، سأعمل لك القهوة بشرط أن تعتبر نفسك ضيفي.

ما دمـــت تسكن هنا بصفـــة دائمة فأنا ضيفك.

قالها مازحاً واتجه إلى غرفته.

تصفـــح كتاباً، وبعد نحو ربع ساعة دخل الشخص يحمل فنجاني قهوة تتوسطهما كأس ماء. وعندئذ لم يجد السيد عبد الوهاب بداً لتكرار اعتـــذاره الشديد وسوء الفهم، ولكن الشخصـــ ذكره بالشرط الذي بموجبه صنع له القهوة، فطلب إليـــه الجلوس وهو ينظر إلى الفنجانين وعند جلوسه سأله الشخص:

وهل ستمكث طويلاً؟؟

: قال وهـــو يرتشف القهوة المغلية جيداً والمرتفعة الحرارة:

حوالي ستة أيام فقط وأنت؟؟

لا أدري هـــذه مسألـــة خاصة، هل جئت لعمل، أم لزيارة أحد؟؟

لا هـــذا ولا ذاك، جئت لزيارة اللا أحد،

اعتدت على هذه الزيـــارات كل ستة شهور، أزور من لا أعرفهم مثل زيارتي لك الآن.

قـــال الشخص وهو يحدق بعبد الوهاب ملياً: هذه الزيـــارات ضرورية على ما يبدو لأي شخصـــ وليس لك فحســـب. قال عبد الوهاب: أحياناً نضجـــر من الذين نعرفهم ونلجـــأ إلى الذين لا نعرفهم ولم يسبق لنا أن رأيناهم.

ولكن هل تسمح لي أن أسألك سؤالاً؟

قال الشخص: وهل جلوسنا لغير الحديث والأسئلة والتعارف؟؟

السيد عبد الوهاب: ماذا تعمل؟

الشخص: يا سيدي أنا الآن متوقف عن العمل.. وغرق في صمت كئيب.

السيـــد عبد الوهاب محـــاولاً طرد شبح الصمت: أعني مهنتك في الحياة؟

فرفع الشخص رأسه وأجاب: كنت أعمل في الخـــارج ولبثت خمس سنـــوات متواصلة خـــارج البلاد، سافـــرت في ســـن العشرين وعدت منذ ثلاثة شهور.

وبيتك، ألا أهل لك؟؟

لي أهل ولكـــن منذ ثلاثة شهـــور تفشل محـــاولات الذهـــاب إليهم، لقـــد فقدت كل شيء فماذا أفعل بأهلي،، إنهم يعجزون عن تقديم أي عون لي،،

أنا أكبرك بخمس سنوات وأقول بأنك ما تـــزال تتعثر بمد قدمـــك إلى الدرجة الأولى من درجات الحيـــاة لم تشرب كأساً من النهر الـــذي ستشربه، اليأس في سنك لا يعني غير الهزيمة في أفضل التفسيرات. قال وما زال محافظاً على هدوئـــه: يا سيدي قد يحدث وأغرق في نهري قبل أن أشربه.

قـــال السيد عبد الوهـــاب وهو يواصل كلامه دون انقطاع: الذي يجدي هو أن تصر على شربه وتدافع عن حقك للحصول عليه، وإن شئـــت اسبح فيه كمـــا تسبح الطيور في الفضاء.

ولمـــا أخذ الحديث هـــذا الاتجاه المتوتر عرض الشخص علـــى السيد عبد الوهاب فنجـــان قهوة آخر في غرفتـــه والسهر حتى طلوع النهار ثم دعاه إلى وجبة الغداء مقدماً فوافـــق السيد عبد الوهـــاب على أن يعذره من الغداء وخرج ببيجامته نظر في فراغات الممر وقاده الشخص وهو يقول: ليس هناك أطيب من السهر في الفنادق.

جلس السيد عبد الوهـــاب على كرسي في الغرفة وخـــرج الشخص ليحضر القهوة وكانت الساعة تشير إلى الثالثة وعشر دقائق صباحـــاً فهتف به عبد الوهاب إلى الممشى: على فكرة، ما اسمك؟؟

جاء الصوت من الممشى: عائد.

تأمـــل محتويات الغرفـــة كل شيء يوحي

بأنــه سيهجــر الغرفة صباح الغــد، الثياب مرمية علــى الأرض،نقود ورقية ذات فئات صغــيرة مرمية في الزوايــا، أحذية مقلوبة، صحــون متسخــة تأكلها العفونــة، فناجين قهــوة مكسورة، علاقة ثياب مخلوعة، ودلف عائد حاملاً القهوة وقال: هل أعجبتك هذه الفوضى؟

- تعجبنــي الفوضــى إذا كانت منظمة، ولكن الرائحة الكريهة تخنق، هل أعينك في الترتيب وخلق فوضى منظمة؟؟

قال عائد: لا أشعر بأي رغبة لذلك،

أرجــوك قل لي ما تخفيــه، ثلاثة شهور وأنت لا تعمل وتعيشــ في هذه الغرفة، هل تفسر لي؟؟؟

جلس عائد وقال: سأقول لك يا صديقي وأنا أعــرف بأنك لا تستطيــع أن تقدم لي شيئاً.

وتحدث عن طفولته السيئة وهروبه من البيــت إلى العاصمة والأعمال التي قام بها وهــو في الثالثة عشرة من عمــره ثم سفره إلى لبنان، ومن هناك سفره إلى خارج البلاد بجواز سفر مــزور، وبعد خمس سنوات من العمل استطــاع أن يدخر مبلغاً جيداً وفكر بالعــودة إلى قريتــه وبنــاء بيــت خاص به والقيــام بمشــروع تجــاري، وفي أثناء هذا التخطيط جاءته صاحبته وأعلمته بإصابتها بالإيــدز وقال عائد وهو يحــدق إليه بقوة: غــادرت البلاد على الفور وعدت إلى بلدي، لم أذهب إلى قريتي إنني متردد كيف تريدني أن أذهب وأنا واثق مــن إصابتي فالاتصال الجنسي كان دائماً بيننــا، منذ ثلاثة شهور أسكن هنا أنفق نقود مستقبلي، كم أنا ساذج، تافــه، لا مستقبل لي، سأموت قريباً، أجل لا بد أن أموت بعد شهــور قليلة، بعد سنة في أقصــى حدود سخاء هــذا المرض البخيل، وليســ أمامي إلا أن أعوضــ نفسي، لا بد أن أعيش خمســين سنة في سنة واحدة، لن أنام لحظة واحــدة،،، سأعيش كل تفاصيل الحيــاة ولحظاتها في هذه الفــترة المتبقية من عمري، لدي مبلــغ جيد يساعدني على تحقيق رغباتي، هــل تعتقد يا عبد الوهاب أن ذلك سيقدم لي شيئاً؟؟؟

ولم تخــرج الكلمــة المضبوطــة مــن حنجرته.

ونهض وقد امتلأت عيناه بالدموع فنظر إليــه عائد نظرة من ندم على أمر قاله قبل لحظات وخرج عبد الوهــاب دون أن يقول كلمة واحــدة ولبث سهراناً حتى الثانية بعد الظهــر، عندئذ نام ولم يفــق إلا في الثامنة صباحاً.

فارتدى ثيابه وخرج، لمحه في الممر المؤدي إلى الأسفل، رفع كتفه مسلماً، استجاب عائد

وهـــو يدنو إليه: أرجوك اعذرني، ولكن هذا ما حدث، ليست لدي إضافة.

فقال عبد الوهاب: أتمنى لك الشفاء.

أين ستذهب؟؟

إلى السوق

هل ستأخذني معك؟؟؟

إن شئت لامانـــع لدي، لكن قبل ذلك لي رغبـــة في ترتيب غرفتك، ثم أن ترتدي ثياباً جديدة.

ووافق عائـــد على الاقـــتراح وعادا إلى الغرفـــة، استغرقـــت عمليـــة الترتيب نحو ساعـــة ونصف: عـــادت إلي الرغبة للحياة. قالها عائد وأمسك بيـــد صديقه وهبط به درج الفنـــدق، هبطا إلى قلـــب المدينة، وبدأ عائد يقبل على شراء كل شيء وينفق النقود بتبذيـــر كمن يود التخلص منها. ابتاع أربعة بناطيـــل ومثلها من القمصـــان الصيفية لي وله ومجموعـــة هدايا كان يهديها إلى الناس في الطرقـــات ويقول: لمـــاذا تمنعني من أن أكـــون مبذراً للحظات فقـــط في نهاية هذا العمر، ليس مبذراً بالمعنى الديني، بل سخياً إن شئت بمفهومـــي؟؟ وفي الواقع ما صرفه في ساعتين فاق ما جلبته معي لقضاء أسبوع أضعـــاف المرات، وربما لو كنت في موقفه لما ترددت عن فعل ذلك ورغم هذا فلا أعرف، ولســـت متأكداً أنني سأمـــوت قبله أو بعده، فقـــط هذه اللامعرفية مجديـــة وكلما زدت جهلاً بها كلمـــا تمسكت بالحياة وكلما زدت علمـــاً بها صـــرت مثل عائد. هـــذا الجهل الأعمق يمنحني القدرة على الاتزان وفجأة هتف عائد بطفولة: عبـــد الوهاب أرجوك انظر، ذاك الشاب انظر إنه في عمري انظر إلى أناقته، ونظرت إليه قائلاً: ما به يا عائد لقد واعد حبيبته في الحديقة وتأنق لها.

فقـــال عائد في حزن لـــن أنساه أبداً: لا أحســـده على شيء فقـــط أحسده لأنه ليس مصاباً بالإيدز.

وانحدرت دموع صادقة من عينيه وبعد قليـــل وضع ورقة نقديـــة بفئة عالية في يد طفلة تمشي مع والدتها، دون أن تراه الوالدة ومشينا وقال مرة أخرى بذات الحزن المؤلم: أرجوك انظر إلى هذه الفتاة الجميلة.

قلت وأنا أنظر: ما بها يا عائد؟؟

ليست مصـ،،،،، ولم تدعه الغصة يكمل.

وبدأ يتصرف كالأطفال، يشتري الألعاب، والدمـــى، والسكاكـــر، كل تصرفاتـــه كانت تلفت نظـــري وكنت أتحاشاهـــا في مواقف وأبتعد عنـــه، وكنت أصر على عدم استيائي في مواجهتـــه، وأردد في سري: سوف يموت غداً.

عدنـــا إلى الفندق مســـاءً، دخلنا غرفته واقـــترح أن نأخذ غرفة بسريرين، فقلت له: كما تريد يا عائد.

استفــاق السيد عبد الوهاب في الساعة السابعــة صباحاً مد يده إلى سماعة الهاتف وطلب غرفة عائد،عندئذ قلت له إنني عزمته على وجبة الفطور في محاولة للاعتذار على تركــي المفاجئ له ليلة البارحــة وبعد نحو ربــع ساعة جاء عائد مرتدياً ثيابه، فدخلت الحمام ولدى خروجي قال عائد: أتعرف؟؟

قلت: لا

قال: أحسدك لأنك لست..

ومددت يدي إلى شفتيه: أحياناً نتعلم من المرض أكثر من تعلمنا من الشفاء، ويمكن أن نتعلم مــن المرض في سنة مــا لم نتعلمه من الشفاء في ثلاثين سنة.

فقال عائد: دومــاً تحسسني بالانتصار حتــى وأنــا في آخــر خطــوات الهزيمــة والاستسلام.

قلت: ليست المسألــة في أن أعيش يوماً وسنة بعدك أو قبلك وفي جميع الأحوال لن نكون بعد سنــوات في الحياة هنا قد أخرج الآن وتصدمنــي سيــارة فأذهــب بحادث، عندئذ وفي لحظات الاحتضار قد أحسدك علــى مرضك لأنه لــن يقتلك بعــد دقيقة واحدة على الأقل.

أقفلــت باب الغرفة أودعــت المفتاح في لوحة المفاتيح وخرجنا، صار عائد يقفز على الدرج كالأطفال، نزلنا إلى قلب العاصمة.

قال عائــد: أتعرف قبــل التعرف إليك كنت أنتظر الموت فقط الآن أحس بأنه يتعثر بخطواته وينتظر ذهابك لينهض ويهرع إلي، لا يمكــن للإنســان أن يخسر كل شيء دفعة واحدة،،

قلــت: لن أتــركك.. ما رأيــك أن تقبل دعوتــي لزيارتي في مدينتــي وتترك الموت هنا؟

شدته عبارة /تترك المــوت هنا/ وقال: سأجيء

قلت: أنا مستعد

قــال بجدية: وأنا أيضــاً، وازداد وجهه تفتحاً.. كل ما فيه بدأ يشرق، إنه في عنفوان الشبــاب والمراهقة، ويلفــت أنظار الفتيات بقدرة عجيبة ولكنــه لا يأبه بهن، كلما يرى شاباً يهتف انظر يــا عبد، إنه غير مصاب، ليتني كنته.

وما أقسى وقع هذه العبارة على سمعي، ويكررها بحسرة، وفي نهاية الشارع جلسنا في حديقــة صامتة لا أحد فيها، استرخى عائد على الكرسي ولأول مرة تحدث بحكمة وقال وهو لا ينظر إلي: أتعرف يجب أن يصاب كل شخص بالإيدز ثم يشفى ليدرك قيمة عدم إصابته الثرية.

وبعد قليل قال: على كل شخص إذا أراد أن يستوعب الحيــاة أن يعيش هذا الشعور

ثم يشفى، وصمــت، نظر إلي، ثم عاد إلى / اللاشيء/

واسترسل: الإيدز خطوة الإنسان الأخيرة لولادة حياة أكثر نضجاً،

وقال: إن الله يحبنا جميعاً..

ثم دفــن وجهه في راحتــي كفيه وتمتم كأنما يغنــي: لا أريد شيئاً ســوى أن أحس للحظة واحدة بأنني لست مصاباً أن أعيش هذه اللحظة، متحرراً من هذا الشبح القاتل الــذي يزداد ثقلاً علــى حركتي ورغبتي في العيشــ، لا أحد بمقــدوره أن يتفهم الحياة بقــدري في هــذا اليوم البائســ من حياتي إنني أمقــت الإيدز، لو كان رجلاً لتصديت له، أشعــر بسفالته، بمكره مثــل الماء الذي يتسرب تحــت التبن،ليس بوسع مخلوق على وجه الأرض أن يتعلق بالحياة كالذي داهمه الإيــدز الجبان، أنا أفهــم تماماً بأنه جبان، وينظر إلى إنجازات البشر بحقد أعمى أكثر من زملائه إنني أعيش الموت لحظة بلحظة يا عبد،، الآخرون ربما ينسون هذا الإحساس المدمــر، لأن المــوت يبدو علــى البعد دوماً ولا يذكرهم، أمــا أنا فأتذكره كلما شاهدت شخصــاً بــدون إصابــة، أعتقد بــأن عدد سكاننا يتجاوز ستة عشر مليوناً وإنني واحد فقط من كل هؤلاء، هذا الإحساس يدمرني ويخنقني.الآخرون لايستوعبون هذا الرعب عندما يقولــون: سنموت غدا، ولايدرون أي غد يعنون، إنها تخرج على صيغة نكتة، وقد لايعيشون هــذا الواقع الأليــم إلا لحظات الاحتضــار الأخيرة، حتــى الطبيب يرفض أن يضعهم في مواجهــة رعب كهذا، أما أنا فأعيش حياتي كلهــا في احتضار دائم وكل يوم يصرخون في وسائل الإعلام وفي الشوارع والملصقــات: لن تشفى. وتتعــالى صيحات التهديد والوعيد وكأنني لست واحدا من بني البشــر، وكأنهم بدون خطايــا. ليتهم جربوا لحظــة ألم واحدة من لحظاتــي الجحيمية لمزقوا كل هــذه الملصقات، ولتحدثوا بشيء من تكاتــف إنساني. مع هذا اليأس. أواصل حياتي وأعيش هذه الوخزات الروحية المؤلمة أياما متلاحقة لاتنتهي وأتمسك بها لتمكنني من العيش، وكلما تحققت أمنيتي في العيش أياما أخرى انتشر المرض في حواسي واحتل كل ذرة من جسدي.

كنت أتصــور عودتي إلى قريتي الطيبة، وإلى أخوتي الصغــار الذين ولدوا ولم أرهم بعد، ولا أعــرف ملامحهــم، قريتي أعظم مــن كل تلك البلاد، لا لن أرجع إليها حاملا الموت، لن أحمــل إليها الدمار، كان علي أن أعود سليمــاً مثلما خرجــت، وأحمل إليها الحيــاة. أفضّــل البقــاء هنا، المــوت هنا، وأحيانــا أفكر بالانتحار في ظروف غامضة

حتى لاينكشــف مرضي، لقد مات كل شيء بالنسبة إلي، غربت شمسي في أولى إشراقتها ولن تشرق ثانية. وتغير لون عائد، ركبه شبح الموت، ماتت الحياة في نبرات صوته الخافتة التي بدت لي الأخيرة التي تصدر منه، وصار ينظر إلي ببؤس العالم: /أنا والحياة كلانا أخذ حقه من الآخــر/. لن أستمع إلى موسيقاكم بعد الآن، لن أغني، لن أرتدي ثيابا جديدة، لن أرى خيــوط الشمس الأولى، سارتمي في ظلمة أبدية ولايزور قبري أحد، لاأحد يزرع وردة، ولا أحد يتمهل للحظة واحدة بجانبي، هناك عندما تسلبني الحياة كل شيء، حتى هذه الأنفاس المتبقية الميتة. لن أضيف كلمة أخرى، أشعر بصــداع في رأسي يفقدني كل لحظة تــوازن، هل ستأخــذني إلى الفندق، أرجوك لاأريد أن أموت في الشارع، أريد أن يحدث ذلك وأنا بمفــردي، أن يحدث ذلك بخفية تامة وأنا ممدد على سرير الموت دون أن يكون بوسع أحد أن يصوب النظرة الأخيرة إلى موتي. وأخذت عائد إلى الفندق والدموع تملأ عيني، إنه في أكثر لحظات حياته بؤساً، لم يسبق لي أن شاهدت مبلغ هذا البؤس لدى مخلوق. وصلنا الفندق بسيارة وكأنها سيارة إسعاف، دخلنا غرفته، لم أتركه، كنت خائفاً عليه، واستلقيــت إلى جانبه في سريره حتى الصباح. استفقــت رأيته نائماً ولكن ملامح وجهه بــدت هادئة مسترخيــة، وبعد قليل فتــح عينيه عندمــا تركت السريــر، ابتسم لي وصـــار يقبلني بحرارة أشــد من حرارة ظهــيرات تموز. همست لــه: انظر ياعائد، هنــاك من لايظفر سوى بسنتين من الحياة، ومن لايظفــر سوى بشهريــن، أنت ظفرت بخمس وعشرين سنــة مجانية بدون مقابل، أي شيء آخر تريــد، لنفرض أنك مت منذ ثلاث سنــوات، أو أنك ستمــوت بعد عشرة أيام، ما الجديد في الأمر، يكون الأمر مؤلما عندما يترك المــرء الحياة ويدرك أن هناك مــن لا يموت، الموت هومصيبنا جميعاً، وفي لحظة المــوت يتساوى معك مــن عاش مئة سنة، يمكن لــك أن تكتشف الحياة كلها في سنة واحدة من سنوات عمرك ما لم يكتشفها من عاش مئة سنة.

خرجت هــذه العبارات من فــم السيد عبد الوهاب وهي محــاولات أخيرة لتهدئة صديقه، وقد استجاب لبعضها، واقترح عليه السهر الليلة حتى الصباح في إحدى النوادي الليلية، وفي أمسية لن ينساها اتجها إلى ناد على نهر بردى، جلسا على مائدة عامرة تحت الأشجــار واتفقا أن العمــر كله كان تمهيدا لهذه الليلة وأما مــا يأتي بعدها فلايهم إن طال أو قصر. أجــل أيها السيد سأروي لك مــرة أخرى وقائع إجازتــي. لقد رجعنا إلى

الفندق في الخامسة صباحاً، نمنا مرة أخرى على سريره، واستفقنا في الثانية ظهراً، كان عائد في قمة توهجه وعشقه للحياة ويدندن بأغنيات دافئة فقلت له: لقد أمضيت عشرة أيام معك هل تسمح لي بالعودة؟

وفجأة عانقني وصرخ بهستيريا: أرجوك لاتتركني.

قلت: لنسافر معاً.

قـــال: فيما بعـــد، أنت لســـت مرتبطا بوظيفـــة، لايهمـــك. فقلـــت ولاأدري كيف خرجت العبارة من فمي: ياعائد قد لاتكون مصابا.

قال: هـــذا مستحيل، المرض ينتقل عبر الاتصال، وأنا اتصلت معها كثيراً

قلت: إنه احتمال، ما رأيك بالتحليل؟

قال: هذا هذيان

قلت: لن نخسر شيئـــاً أرجوك.. ووافق مكرهـــا. دخلنـــا المشفى الخاصـــ وشرحنا الأمـــر للطبيـــب الذي غرز إبـــرة في ساعد عائد، سحب قليلاً من دم وطلب أن نراجعه بعد يومين ليخبرنا بالنتيجة.

وطـــوال هذين اليومـــين عاش عائد في توتر وأحيانا لاينـــام ساعة واحدة وهو يعد الساعـــات الذاهبة والساعات المتبقية، أجل كان يعد الساعات ساعة بعد ساعة، وعندما جاء الموعد، لم يأت، طلب إلي الذهاب بمفردي وجلب النتيجة، ولســـت أدري أي احتمالات كان يضـــع، ولماذا قرر الخـــروج من الفندق معي، وعندما قلت لـــه: أين ستذهب خلال هـــذه الساعة؟ لم يجبنـــي، واكتفى بإعلامي أننا سنلتقي في الفندق لدى عودتي. سلّمت على الطبيب وطلبت منه النتيجة فأحضرها وناولها لي قائـــلاً: لديك فقر دم.. وقبل أن يكمـــل قلت: لست أنا، إنـــه صديقي. فقال: آســـف لم أعد أذكـــر، ثـــم أردف وهو ينظر في نتيجـــة التحاليل ويناولهـــا ليدي: ونسبة السكـــر قليلة في دمه، أنصحه بتناول الكاتو والكليجة بدلاً عن الخبز لبضعة أيام. قلت: ألا يوجد إيدز؟ فنظر إلي قائلاً: قلت لك كل شيء.. هل سمعتني بما أقول؟ قلت: لا ولكن أريدك أن تقولهـــا، أن تلفظها حتى يطمئن قلبي. قـــال: لايوجد ماتقول. سحبت نتيجة التحاليل من يده بفرح طفولي غامر وهرعت صوب الفندق ركضاً وأنا أظن أن أي وسيلة نقل لن تكون أسرع مني، رأيت عائداً متوتراً في انتظاري وما إن رآني حتى انتصب واقفا: هـه أخبرنـي.

قلت: دعني أسترد أنفاسي،

قال: هل أعطاك النتيجة؟

قلت: أجل اِصبر قليلاً.

قال: قلها، أرجوك

قلـــت وقـــد نهضـــت بعد لحظـــات من

جلوس: أنت لست مصاباً يا عائد، بإمكانك الآن أن تعيشــ شعور الغــير مصاب. علاه اصفــرار بعكس ماتوقعت، وبعــد قليل مد كفه إلى الجهة اليســرى من صدره وضغط بقــوة وقد احتقن وجهــه بصورة غريبة، ثم ببــطء شديد رمى جسده علي.. قلت: عائد مبروك. وأحسستُ بثقل غير عادي لجسده، تراجعــت إلى الخلف خطــوة، وسقط عائد علــى الأرض دون حراك، صحت به ولم يرد، أعلمت صاحب الفنــدق، وبعد قليل جاءت سيــارة الإسعاف وأخذته جثــة هامدة. في نفس اليوم أعــددت حقائبي، تركت الثياب التــي اشتراها لي عائد، واتجهت إلى محطة القطار وأنــا ألتفت خلفي وأتوقع أن يأتيني صوتــه من نافــذة غرفتــه في ذاك الفندق الضخم.

غابرييل غارسيا ماركيز

عندمــا ودع العالم الأيــام الأخيرة لعام ٢٠٠٨ أحس الكاتب الكولمبي الشهير غابرييل غارسيــا ماركيز بأنه يقترب من وداع الحياة خاصة وأنه يعــاني من مرض عضال فكتب رسالتــه الأخيرة إلى العــالم، وفيها يوصيهم بحب الحيــاة واغتنام أي فرصــة من أجل تقديم شيء نافع للحياة.

يقول ماركيز:

لو وهبني
الله حيــاة أطول لكان مــن المحتمل ألا أقول
كل ما أفكــر فيه، لكننــي بالقطع كنت سأفكر
في كل ما أقوله.
كنت سأقيّــم الأشياء ليس وفقاً لقيمتها المادية، بل
وفقاً لما تنطوي عليه من معان.
كنت سأنام أقلّ، وأحلم أكثر في كل دقيقة نغمض فيها
عيوننا نفقد ستين ثانية من النور، كنت
سأســير بينمــا يتوقف الآخــرون. أظل يقظاً
بينما يخلد آخرون للنوم، كنت سأستمع
بينما يتكلم الآخرون. كنت سأستمتع بآيس كريم
لذيذ بطعم الشكولاتة.
لو أن الله أهداني بعض الوقت لأعيشه كنت سأرتدي
البسيــط من الثياب، كنــت سأتمدد في الشمس
تاركاً جسدي مكشوفاً بل وروحي أيضاً.
يا إلهي..
لــو أن لي قليلاً مــن الوقت لكنت كتبت بعضاً

منــي علــى الجليــد وانتظــرت شروق الشمس.

كنـــت سأرســم علــى النجــوم قصيدة «بنيدتي» وأحلام «فان كوخ»

كنت سأنشد أغنية من أغاني «سرات»

أهديها للقمر، لرويت الزهر بدمعي، كي

أشعر بألم أشواكه، وبقبلات أوراقه

القرمزية

يا إلهي..

إذا كان مقدراً لي أن أعيش وقتاً أطول، لما

تركت يوماً واحد يمر دون أن أقول للناس

إنني أحبهم، أحبهم جميعاً، لما تركت

رجلاً واحداً أو امرأة إلا وأقنعته أنه

المفضل عندي، كنت عشت عاشقاً للحب.

كنت سأثبت لكل البشر أنهم مخطئون لو ظنوا أنهم

يتوقفــون عن الحب عندما يتقدمون في السن،

في حــين أنهم في الحقيقــة لا يتقدمون في السن

إلا عندما يتوقفون عن الحب.

كنــت سأمنــح الطفل الصغــير أجنحة وأتركه يتعلم وحده

الطيران كنت سأجعل المسنين يدركون أن تقدم

العمر ليس هــو الذي يجعلنا نموت بل: الموت

الحقيقي هو النسيان.

كـم مــن الأشيــاء تعلمتها منــك أيها الإنسان، تعلمت

أننــا جميعــا نريــد أن نعيشــ في قمة الجبل،

دون أن نــدرك أن السعــادة الحقيقيــة تكمن في

تسلق هذا الجبل، تعلمت أنه حين يفتح

الطفــل المولود كفــه لأول مرة تظل كف والده

تعانق كفــه إلى الأبد، تعلمــت أنه ليس من

حق الإنســان أن ينظــر إلى الآخر، من أعلى

إلى أسفــل، إلا إذا كان يساعــده علــى النهوض

تعلمت منك هذه الأشياء الكثيرة، لكنها

للأسف لــن تفيدني لأني عندما تعلمتها كنت أحتضـر

عبر عمــا تشعر به دائماً، افعل ما تفكر فيه.. لو كنت

أعرف أن هذه ستكون المرة الأخيرة التي

أراك فيها نائماً، لكنت احتضنتك بقوة،

ولطلبــت مــن الله أن يجعلنــي حارساً لروحك.

لو كنت أعرف

أن هـــذه هـــي المرة الأخـــيرة التي أراك فيها
تخرج مـــن البـــاب لكنـــت احتضنتك، وقبلتك، ثم
كنت أناديك لكي احتضنك وأقبلك مرة أخرى.
لو كنت أعـــرف أن هذه هـــي آخر مرة أسمع فيها صوتك لكنت
سجلت كل كلمة مـــن كلماتك لكي أعيد سماعها
إلى الأبد.
لو كنت أعرف أن هذه هي آخر اللحظات التي أراك فيها لقلت
لك «أننـــي أحبك» دون أن أفترض بغباء أنك
تعرف هذا فعلاً..
الغد يأتي دائماً، والحياة تعطينا فرصة لكي نفعل
الأشياء بطريقة أفضل.
لو كنت مخطئـــاً وكان اليوم هو فرصتي الأخيرة فإنني
أقول كـــم أحبك، ولن أنساكـــم أبداً. ما من
أحد، شاباً كان أو مسناً، واثق من مجيء
الغـــد، لذلك لا أقلّ من أن تتحرك، لأنه إذا لم يأت الغد، فإنك بلا شك
سوف تندم كثيراً على اليوم الذي كان لديك فيـــه متسع كي تقـــول أحبك، لن تبتسم لأن
تأخـــذ حضنـــاً أو قبلـــة أو تحقق رغبة أخيرة
لمن تحب.

❁ ❁ ❁

تمجيد الحياة

الحيـــاة مقدســـة في كل المذاهـــب والمعتقـــدات، ولذلك فإن الـــذي يؤذي حياة الآخرين، يدينه الناس جميعا في ذلك.

وقد جاءت الدعوة إلى الاستمتاع بمباهج الحياة حتى في الدين.

يقول الله لرسولـــه الكريم: /وابتغ فيما آتـــاك الله الدار الآخـــرة ولاتنس نصيبك مـــن الدنيـــا وأحسن كما أحســـن الله إليك ولاتبغ الفســـاد في الأرضـــ إن الله لايحب المفسدين /٣/. ويقـــول: /وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منـــه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونهـــا /٤/ وآية لهم الأرض الميتـــة أحييناها وأخرجنا منهـــا حبا فمنه يأكلون وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنـــا فيها من العيـــون /٥ ويبيِّن النعم للناســـ قائلاً: /وأنزل لكـــم من السماء ماء فأنبتنا بـــه حدائق ذات بهجة ماكان لكم أن

تنبتوا شجرها/ ٦ويوجـه الناس ليستمتعوا بالنعمة ويعيشوا الحياة بطولها وعرضها:/ كلوا واشربوا من رزق الله ولاتعثوا في الأرض مفسدين /٧.

والحقيقة فإننا إذا نظرنا إلى سيرة النبي (ص) فنجدها كانت سعياً مستمراً في سبيل الحفاظ علـى حياته من أجـل أن يكتشف الحيـاة ويعمل فيهـا وينشر فيهـا رسالته، لأن كل يـوم هو بمثابة إشراق جديد في نشر رسالة الإسلام، فالهجـرة هي بذاتها كانت هجرة للتجنب عـن الموت الذي يترصده في مكة، للانفتاح على حياة جديدة ناشدها في المدينة.

لقد كانت الهجرة بحثاً عن الحياة التي لـن يستطيـع أن يفعل شيئـاً بالنسبة لنشر رسالـة الإسلام دونها، ولذلـك كانت القوة مرتبطة بوجود الحياة، وكان الحزن يقع عليه عندما يفقد المقربين الذين كانوا يقفون إلى جانبـه ويساندونه في مسيرة حياته، فعندما ماتـت خديجة، شريكـة الحيـاة، وعندما مات أبو طالب العـم المساند له لم يسم عام الموت هـذا بعام /الفرح /بـل أسماه /عام الحـزن/. وحتى في مراحـل الألم كان يلجأ إلى الله يسألـه: /اللهم إليـك أشكو ضعف قوتي وقلـة حيلتي وهواني علـى الناس يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربـي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكته أمـري؟. إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو يحل علي سخطك لك العتبى حتى ترضى ولاحول ولاقوة إلا بك/.

أمـا عندما تظهر بوادر الفقر في الناس فـإن الرسول عليه الصـلاة والسلام يكون أول مَنْ يدعو ربه ليدر على الناس بالخيرات قائلا: /اللهم إن بالعباد والبلاد من الجهد والجوع والضنـك مالانشكو إلا إليك، اللهم أنبت لنا الزرع وأدر لنا الضرع، وأنزل علينا من بـركات السماء، وأنبت لنـا من بركات الأرضـ، واكشف عنـا البـلاء مالايكشفه غيرك، اللهم إنا نستغفرك إنك كنت غفاراً، فأرسل السمـاء علينا مدراراً/. يقول شيخ الإسلام الثـاني ابن القيم الجوزية – رحمه الله – في الهـدي النبـوي في أواخر الوفود (فصل في قدوم وفد بني عبس): وقدم عليه بنـو عبس فقالوا: يارسـول الله قدم علينا قراؤنا فأخبرونا أنه لاإسلام لمن لاهجرة له، ولنـا أموال ومواش وهـي معاشنا، فإن كان لاإسلام لمـن لاهجرة له فلا خير في أموالنا ومواشينا بعناها وهاجرنا عن آخرنا.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: /

اتقوا الله حيث كنتم فلن يلتكم من أعمالكم شيئـا/. ويقـول: /إن قومـا شـددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم فتلك بقاياهم في الصوامع والديارات/.

في إحدى الحوارات أراد نفر من صحابة رسـول الله صلى الله عليه وسلم أن يتباهوا بأنمـاط عبادتهم فقال أحدهم: أما أنا فلا آكل اللحم، وقال آخـر: أنا لاأتزوج النساء، وقال آخر: أنا أصـوم ولا أفطر وأصلي ولا أنـام، فقال النبي (ص): أما أنـا فأصوم وأفطر، وأصلي وأنـام، وآكل اللحم وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني.

نداء الحياة

بغتة أحس السيد /ميم/ بصعوبة تنفس، ولما فتح عينيه وسط ظلام دامس أدرك بأن صعوبة التنفس ذاتها هي التي أيقظته من نومه، ولايدري لماذا باغته شعور ظلامي بأنه في قبر. نظر إلى النواصة، رآها مطفأة وهذا ما عـزز الشعور بالموت لديـه، ومن ناحية أخرى فعندما صوب عينيه إلى أسفل الباب المحكـم عله يرى نـورا، أحس بخيط من الدخان يتسرب من الأسفل إلى المكان المظلم الذي يحتوي جسده الذي بات يرتعش تحت لحاف غـدا عليه بثقل جبل. تمتم السيد / ميم/ بكلمات وكأنهـا الأخيرة التي يتمتمها لنفسه: هاهو الدخان الأسود يزحف إليك، يتحلـق كحبـل مشنقة حول رقبتـك وأنت لاتستطيـع فكاكا منه، تعجـز عن إبداء أي حركـة في مواجهتـه. أمـام هـذا التوبيخ الداخلي الـذي وجهته نفسه إليـه أراد أن يبدي حركة ولو صغيرة علها تشجعه للنهوض والتقدم نحو الباب لفتحه، بيد أنه فشل في أي محاولة للتحرك فعـادت نفسه تخاطبه بذات النـبرة: إنك ميت.. فقـط الميت هو الذي لايقدر على حمل جسده.. هاهو الذي ظللـت طوال عمرك تتهـرب منه يقتحمك ويحيلك إلى كائن عديم الحراك، وبعد قليل يحيـل جسدك إلى جثـة متفسخة وكأنك لم تكن، كأنك لم تعش. كم من الأصدقاء لديك، كـم من الشوارع التي تمضـي فيها، كم من الطقوس اليومية التي تقوم بها، سيغدو كل ذلك إلى صورة من الماضي الذي لايعود، لقد فقدت كل شيء، فقدت حياتك كلها. لم تكن تصدق أن الموت حقيقة يواجهها الإنسان، لم يكن أي موت بوسعه أن يقنعك بموت الإنسان موتاً كلياً واختفائه من الحياة الحافلة التي يعيشهـا. إنهـم يذهبـون إلى أماكن أخرى يعيشـون الحياة بكل دفقاتهـا، هذه الحياة التي لا تنطفئ في الإنسان أينما حل.

اكتظـت الحجـرة بالدخـان ورأى في لحظات أن الاختفاء الحقيقي هو جموده في الفراش مستسلمـاً للدخان وبالكاد خرجت

من فيه عبارة متلعثمة: /لكنني لست ميتاً/. عندما تناهى إليه صوته وأحس بأن الصوت اخـترق الظلام والدخان معا تأكد بأنه ليس ميتاً، فأطلق قهقهات مجلجلة لامتناهية أحس على إثرها بقوة هائلـة تجتاحه، نهض من الفراشـ يواجه الدخــان والظلام ومد يده إلى زر الضـوء فامتلأت الغرفـة نوراً، رأى الظلام والدخــان يتعانقان ويخرجان بجبن مــن تحت الباب. واصــل قهقهاته المجلجلة التي ملأت نفســه بنشوة الحياة من جديد، ثــم ارتدى ثياب الخروج وفتــح الباب، رأى الجيران يتلفون حول بابه يحدجونه بنظرات غريبة، أدرك للتو بأن قهقهاته المجلجلة تلك هي التــي أخرجتهم من بيوتهم، ألقى نظرة سريعــة إلى ساعته رآها تشـير إلى الواحدة ليلاً، في تلك اللحظات أحس برغبة جامحة في أن يمضــي في الطرقــات تحت قناديل الليل، أقفل الباب خلفه ومضى يهبط الدرج غير آبه بالنظرات التي تركها خلفه.

ليســ من سبيل إلى الحيــاة سوى سبيل الحياة ذاتها، وفقــط عندما يستيقظ المرء على ثقافة الحياة، وتشرق في حناياه شمس الحيــاة سوف يدافع بشراسة عن حقه وحق الآخرين للظفــر بمتاع الحياة، وسوف يقبل علــى العيش الكريم بقوة ويحيا كل تفاصيل الحياة التي انفتح عليها بقوة.

كانت آغاثا كريستي تقول عن الحياة:

/هذه نزهاتي الطويلة قد انتهت، وحمام البحــر الذي آسف عليه، وتناول شريحة من اللحــم الـ(ستيك) أو التفاح، أو ثمار العليق، وهاهــي متاعب الأسنــان أيضا، والحرمان من الطباعــة الأولى الدقيقــة، لكن مازال هناك الشــيء الكثير.. الأوبرا.. الموسيقى.. ومتعة الإيــواء إلى السرير والذهاب في نوم عميق أحلم فيه بأشيــاء متنوعة. شكرا لله على هذه الحياة الجميلة التي عشتها، وعلى كل هذا الحب الذي لقيته/.(*)

جاء الإنســان إلى الحياة ليعيشها بكل مــا في جسده من ذرات حياة، وليس ليمضي فيها ميتــاً، أو يسير في مناكبها أعمى وهو بصير. فتح الإنسان عينيه على الحياة حتى يسعى إلى بناء حياته الدنيا والعمل الدؤوب فيها في سبيل بلــوغ وسائل الراحة والرفاه، ويحيلهــا إلى جنــة، وهو كلما نجــح في أن يحيــل حياته الدنيــا إلى جنة حقق رسالته الإنسانيــة وكان جديرا بالحياة التي عاشها وبالتالي كان جديــرا بقطف الزهور بمجد وضياء وكرامة.

فــأن تكافح طوال حياتــك لتحيي نفساً واحدة ستكون كمن أحيا الناس جميعاً، وأن تقتــل نفساً واحدة – حتــى لو كانت نفسك – ستكون كالذي قتل الناس جميعا. لايحتاج

الإنســـان أن يعيش بانتظار أن يموت بمرض العمى الدنيوي ، ولكنه يحتاج إلى أن يعيش وكل حواسه مستيقظة لاستقبال كل ذرة من ذرات الحياة التي هـــو فيها فعلياً. وعندما يعيشــ الإنســان وهو يعيشــ يقظة الحياة ويعيشــ الآخرون لن يجــد أحدا يتدخل في شؤونه الخاصة أو العامة مهما كان شكلها.

يأتي نداء الحياة ليجعل الإنسان واقفاً في الوســط من الأمور، يمكن له أن يقف في المواقع الوسطى من الأمــور ليكون بإمكانه أن ينسجم مــع الليل كما ينسجم مع النهار، ويعيشــ ذروة الحــرارة، كما يعيشــ ذروة الصقيــع. وينظر إلى زهــور الربيع العامرة علــى أشجارهــا كما أنه كذلــك ينظر إلى أوراق الخريف وهـــي تتساقط. دوماً يمكن أن تســـأل نفسك أو تسأل الآخرين: ألا أكون على خطأ وأنا أمضي كل حياتي في العمل.

ثم: ألا أكون على خطأ أيضاً وأنا أمضي كل حياتي في مقهى.

الهوامش

(*) عاشــت كريستي ثمانين ســنة، وأنتجت ثمانين كتاباً واعتبرت أعظم سيدة في العالم سنة ١٩٧١ ورسخ اسمها منذ ذلــك التاريخ في ضــمائر ملايــين القراء من مختلف بقاع العــالم ومن مختلف اللغات الحية، فقــد بيع لها ملياران ونصــف نســخة من مجمل مؤلفاتها، وهو الرقم الذي لايتجاوزه أحد في العالم. تصــف كريســتي مرحلة طفولتها: /كان شــعري مرفوعاً كما كان دارجاً في تلك الحقبة ويســمى – على الطريقة الإغريقية – مع ضفائر عالية تحيط بها عصابة حريرية بيضاء ملونة. كان هذا الزي فعلا زيا أنيقا.

وعن مرحلة طفولتها تقول: من أمتع ســنوات حياتي وأســعدها، سنوات طفولتي الأولى، كان لدي بيت وحديقة كنت أعشقهما، ومربية ممتازة، وكان أبي وأمي يجسدان الحب والحنان وجعلا من حياتهما حياة ناجحة وهانئة /.

المراجع

١-المقصلة — أعراس -ألبير كامو، ترجمة: جورج طرابيشي- منشورات دار المدى للطباعة والنشر – دمشق ٢٠٠٧.
٢ – صلاة إلى بتول – ألبير كامو – ترجمة علي الجندي — المكتب التجاري للطباعة والنشر – دمشق ١٩٦٣.
٣ – سورة القصص — الآية ٧٧.
٤ – سورة النحل — الآية ١٤.
٥ – سورة يس — الآية ٣٣.
٦ – سورة النمل — الآية ٦٠.
٧ – سورة البقرة — الآية ٦٠.



هجرة الأدمغة العربية ودورها في اختلال الهرم السكاني

علي البيرق*

«الإنســـان بطبعه مفطور على حب الاستطـــلاع والاستكشاف فهو يسعى دائماً إلى التغيير المكاني والاجتماعي والاقتصادي وعلى وجه الخصوص كان الإنســـان العربي رائـــداً في هذا الاتجاه، ويحدثنا التاريـــخ كيف أن الإنسان العربي ضمن إطار القبيلة كان كثير الارتحال والتجوال من منطقة إلى أخرى بحثـــاً عن مصـــادر الحياة التي توفر له القسط الأوفـــى من العيش الكريم، ويحدثنـــا التاريخ أيضاً عن تلك الهجـــرات العربية الكثيرة في الزمن البعيد قبـــل الميلاد على أثر خراب سد مأرب وانتشـــار العرب على مساحة الوطن

* معيد في قسم علم الاجتماع جامعة دمشق.

** العمل الفني: الفنان محمد حمدان.

العربي الكبير المعـروف حالياً وما نتج عنه من حـروب فيما بينهم أو مع أقوام آخرين، ويمكن رد الهجرة مـن الوطن الأم إلى عدة أسباب نذكر منها على سبيل المثال: البحث عن الرزق ومحاولة تغيير الواقع إلى الأفضل. الاضطهاد الديني والسياسي والاجتماعي حب الاستطلاع والاستكشاف وطلب العلم. ولن نعود في هذه العجالة إلى تلك الهجرات السحيقة من الزمن بالنسبة لواقعنا المعاصر وإنما نقتصـر على الهجـرة والمهاجرة إلى خارج الوطن العربي»[١] لن نتحدث أو نسهب في الشرح عن الهجرات الفردية والجماعية بدءاً من أيـام الاحتلال العثمـاني ومروراً بالاستعمار الفرنسي والبريطاني ولن نخوض غمـار الحديث عن قوافـل المهاجرين التي ركبـتِ البحر لأول مرة وهامـت به مُيممةً وجهها شطرَ الأمريكيتين أو ما يسمى بالعالم الجديد وذلـك ابتداءً من عـام /١٨٦٠م/ وإنمـا سنـدع آلامنا تشحـذُ هممنا ونحن نقرأ بالأرقـام الإحصائية والبيانية الوقائع المسجلة في موضـوع بحثنا هذا وهو هجرة الأدمغة والعقول العربية.

آ. هجرة الأدمغة العربية

١- الـدور الـذي قامت بـه العقول المهاجرة في عهود الحضارات القديمة

«إن أهـم خسارة تتكبدها الدول النامية هي الخسارة المتجسدة في النزيف المتواصل لأعـدادٍ كبـيرة ومتزايـدة، مـن علمائهـا ومهندسيهـا وأطبائها وفنييهـا، وجزء من الأيـدي العاملـة المدربـة والماهـرة وذلك لصالح الدول الرأسمالية المختلفة، والواقع إن مسألـة هجرة العقول والكفاءات العلمية والفنيـة هي من أقدم المسائل التي واجهتها البشرية منـذ عهود الحضـارات القديمة بل يمكنُ القولُ إن تلـك العقول والكفاءات قامت منذ تلك العصور السحيقة بدور رئيس في نقـل أهم إنجـازات البلد الذي هاجرت منه إلى البلد الذي هاجرت واستقرت فيه، كما يمكن القـول إن تلك الهجرات أوجدت تفاعلاً خلاقاً بـين الحضارات منذ القدم، وخاصـة بـين الفلاسفة والعلمـاء المنتمين إلى مختلف الحضـارات التي احتكَّ بعضها ببعض»[٢].

«وكانت النظرة إلى هجرة العقول قائمة على الخـوف مـن أن الفلاسفـة والعلماء والفنيـين سينقلـون معهـم أساليب تفكير حضارتهم، وأسرار علومها وحرفها وزراعتها وكانت الصين من أكثر البلدان تشدداً حيال هجرة علمائها إلى الخـارج إلاّ أن ما يجب أن يحصل لابـدَّ أن يحصل إذا جاز التعبير فعلى الرغم من كل العراقيل والعقبات التي كانت تضعها البلدان فـإن موجات الهجرة والتنقـل في صفـوف الفلاسفـة والعلماء والحرفيين والصناعيين والزراعيين وغيرهم

لم تتوقف طوال التاريخ حتى في الصين القديمة استطاع عدد من رجال الكفاءات أن يهاجروا إلى دول وحضارات أخرى، حاملين معهم بعض اختراعات الحضارة الصينية إلى الهند والعرب التي انتقلت فيما بعد على أيدي العرب بعد أن أدخلوا عليها تحسينات في كثير من الأحيان إلى الغرب المتعطش إلى كل جديد وإلى إقامة حضارة جديدةٍ جبّارة»[٣].

«وكذلك هاجر بعض علماء الحضارات القديمة من وادي النيل، ومن بلاد ما بين النهرين عندما اشتدت عليهم الظروف الداخلية، وبعد أن عرفوا أمكنة أكثر تقديراً ورحابة صدر لمعرفتهم وجهودهم الخلاقة ومن أشهر هجرات الفلاسفة والعلماء تلك التي حملت فلاسفة وعلماء الجزر اليونانية على الرحيل والاستقرار في أثينا قبل عدّة قرون من ميلاد السيد المسيح، ولا تقلُ أهميةً عنها هجرة بعض أشهر فلاسفة الإغريق وعلمائهم إلى الإسكندرية بعيداً عن اضطهاد الطغاة ؛ وأملاً في إيجاد مناخ الحرية المواتي لعمل الفكر والمفكرين. وقد استطاعوا بالفعل إقامة مركزٍ حضاري جديد، يفوق في أهميته وعظمته مركز أثينا نفسها».[٤]

٢- حجم الكفاءات المهاجرة من الدول العربية وتركيبها في الهرم السكاني

«إن حياة الأمم وأحوالها لا تسير على وتيرة واحدةٍ بل إنها تتغير وتتطور على الدوام، ويكون هذا التطور تارةً على شكل تقدّم واعتلاءٍ وطوراً على شكل تقهقرٍ وانحطاط، والأمة العربية خضعت لهذا القانون العام مثلُ سائر الأمم وتعرَضت لتطورات كثيرة وكبيرة طوال تاريخها المديد ولكنها شذّت عن سائر الأمم بالاختلاف الهائل الذي بدا بين ماضيها وحاضرها خلال هذه التطورات. كانت خارقةً وثبتها نحو المجد والاعتلاء ولكنها صارت بعد ذلك خارجةً عن المألوف في انحدارها السريع نحو مهاوي التقهقر والانحطاط أيضاً»[٥]

ولعلنا إذا تذكرنا وتذاكرنا أسباب هذا التقهقر فإنه تطالعنا جملة أسباب عديدة يتصدرها سبب أساسي رئيسي هو هجرة الأدمغة أو نزيف الأدمغة «فمما لا يقبل الجدل أن الدول النامية تخسر سنوياً آلاف العلماء والأطباء والتقنيين لصالح الدول المتقدمة، وخاصة لصالح الولايات المتحدة وكندا وبريطانيا فخلال عامي ستة وستين وتسعمئة وألف، وسبعة وستين وتسعمئة وألف فحسب هاجر من ثماني عشرة دولة نامية بينها سبع دول عربية أكثر من سبعة

آلاف عـالمٍ وطبيـبٍ وتقنـيٍّ إلى الولايـات المتحدة وحدها، وذلك دون الأخـذ بالحسبـان طلاب هـذه الدول الذيـن تخرجوا في الولايـات المتحدة واستقروا فيها خلال العامين المذكورين»[٦].

«ويقـدّر أن أربعـةً وعشرين ألـف طبيب، وسبعـة عشرَ ألف مهندسٍ، وسبعة آلاف وخمسمئة من المشتغلين بالعلـوم الطبيعية قـد هاجروا من الدول العربية إلى الولايات المتحـدة وأوروبـة الغربية حتى عـام ستة وسبعين وتسعمئة وألف، وأن هؤلاء يشكلون خمسـين في المئة وثلاثـة وعشرين في المئة وخمسة عشر في المئة على التوالي من ميادين الطـب والهندسة وعلوم الطبيعة، كما يقدّر بأنـه من حوالي سبعـةٍ وعشرين ألف عربيٍّ يحملون درجة الدكتوراه، ما يُقارب نصفهم قـد هاجروا إلى الولايـات المتحدة وأوروبة الغربيـة في عام ثمانـين وتسعمئة وألف»[٧] وبشكل آخر أكثر دقة وتفصيلاً فإن «حوالي ستـة آلاف عالم ومهندس قـد هاجروا من الدول العربية إلى الولايات المتحدة وحدها، بينهـم حوالي ثمانيـة وستـون في المئة من المهندسين وستة وعشرون في المئة من علماء الطبيعة وستة في المئة من علماء الاجتماع.

ومـن الضروري القـول إن هذه الأرقام



لا تشمـل أعـداد العلمـاء والمهندسـين الذين استقـروا في الولايـات المتحدة بعد تخرجهم»[٨]

وفي إحصائية ثانية تعـود إلى منتصف عقد السبعينيـات أجراها أحـد الباحثين في شـؤون هجـرة الأدمغة العربيـة بينت هـذه الإحصائية بأن ما نسبته /٥٠ ٪/ من الأطبـاء العـرب و/٣٦ ٪/ مـن المهندسين العرب وعلماء الطبيعة والفلك والجغرافية و/١٥ ٪ مـن العلمـاء المشتغلـين في العلوم الطبيعيـة والاجتماع والفلسفـة والفيزياء قد استقـروا آنذاك في أوروبـة والولايات المتحدة في حـين تصاعدت هذه النسب في عقد الثمانينيات ليبلغ مثلاً عدد المهاجرين العرب من ذوي الكفاءات العلمية والمقيمين في الولايات المتحـدة الأمريكية وحدها ما يزيـد على /مئة ألف شخـص أو يزيدون/ ولا شك بأن هذه الكفاءات خسرتها الأقطار

العربيــة في مراحل حساســة لتستقر هذه الأدمغة في بلاد الاغــتراب وتجدر الإشارة إلى أن حــوالي ثمانية وسبعــين في المئة من هــذه الهجرة جاءت من ثــلاث دولٍ عربية فحسب: مصــر (٥٧، ٪) ولبنــان (١٠،٧٪) والعراق (١٠،٦ ٪) وتأتي بعدها سورية (٦،٥ ٪) والأردن (٥،٦٪) وفلسطين (٤،٦ ٪)»[٩]

ويلاحــظ أن هجرة الكفــاءات العربية إلى الخارج، تتقلّــب بشكل ملحوظ من سنةٍ إلى أخــرى نتيجةً لأسبــاب داخليةٍ وأخرى خارجية طارئة.

ب. نزيف الأدمغة في الدول النامية

١- المحافظــة علــى العلمــاء والاختصاصــين هــل أصبحــت مسألــة حيوية في العصر الحديث.

قبل أن ندخل في صلب الموضوع ونحاول الإجابــة عن السؤال المطــروح آنفاً لنتعرف أولاً على أنواع نزيــف الأدمغة كما حددها برنامــج الأمم المتحــدة للســكان والتنمية والذي جاء فيه ما يلي:

«يفرق العلماء بين ثلاثة أنواع من نزيف الأدمغــة الذي تعــاني منه الــدول النامية: النوع الأول: هو ما يعرف بالنزيف الخارجي للعقول وهو ما تركــز عليه عادة الدراسات المهتمــة بهــذا الموضوع، والنــوع الثاني هو ما يطلــق عليه: النزيــف الداخلي للعقول، ويمكن تعريفه بأنــه الميل عند علماء الدول الفقــيرة وفنّييها إلى التصــرف من الناحية العلمية على أساس أنهم أعضاء في المجتمع العلمــي الذي يتركز عــادة في الدول الغنية فإذا أراد أحدهم الحصول على جائزة نوبل، أو الاعتراف به من أجــداده في الخارج، أو نشــر بحوثــه في المجلات العلميــة الرائدة كان عليــه أن يوجه بحوثه إلى تخوم العلوم، والاهتمام بهــذه التخوم قد يكون في معظم الأحيــان غــير ملائم للمستــوى العلمي في البلد النامي المعنــيّ ومشكلاته الملحة التي يتوجب مواجهتها وإيجــاد الحلول لها. أما النــوع الثالث من نزيف العقول فيطلق عليه تسمية النزيف الأساسي للعقول ويعرّف بأنه: إخفــاق العقول البشرية في بلــوغ طاقاتها، وإمكاناتهــا نتيجة لسوء التغذية الذي يعاني منه الأطفال الصغار في الدول النامية خلال الفــترة الممتدة بــين الشهر التاســع والسنة الثالثة من أعمارهم وهي الفترة التي يتكون فيها معظم دماغ الإنسان فكمّ من الأشخاص في الــدول النامية، بدل أن يصبحوا عباقرة وعلمــاء كبــار تحولوا إلى متخلفــين عقلياً وجسدياً نتيجة لسوء التغذية والرعاية التي يعانون منها»[١٠] وبالعودة إلى سؤالنا السابق «هل أصبحت مسألة المحافظة على العلماء والاختصاصيــين مسألــةً حيوية في العصر الحديث ؟! والجواب هو: بامتياز! نعم. لأنه في هذا العصر «العصر الحديث» ازداد وعي

الدول المتقدمة للأهمية البالغة لدور العلماء والفنيين في تقدم الحضارة وفي خلق القوة المادية والاقتصادية والعسكرية للدفاع عن منجزاتها ولمواجهة تحديات الآخرين لها فقد أصبحت مسألة المحافظة على العلماء والاختصاصيين والفنيين داخل أوطانهم أو جذب كفاءات الآخرين مسألة حيوية للغاية، وذلك ليس نتيجة لزيادة وأهمية هذه الكفاءات في التطور فحسب وإنما لسهولة تحرك أصحاب الكفاءات وهجرتهم إلى الأمكنة التي توفر الحوافز المادية وغير المادية لتطورهم مهنياً وفكرياً ومعيشياً»،[11] وكلنا يذكر المنافسة الشرسة بين الحلفاء خلال الحرب العالمية الثانية للحصول على أكبر عدد من العلماء الألمان ممن يعملون في ميدان الذرة والميادين التي تجاورها

«وقد أخذ موضوع هجرة العقول يحظى بأهمية بالغة من المسؤولين في المستويين الوطني والدولي، ومن العلماء المهتمين منذ أوائل الستينيات بعد أن أصبحت هجرة العلماء والمهنيين من الدول النامية إلى الدول الرأسمالية المتقدمة من أهم الظواهر في العلاقات الدولية وأخطرها وليس هذا بالأمر المدهش لأن هجرة منظمة بجزء هام من الأيدي العاملة المدربة والكفيّة تكنولوجياً من دولة نامية، يخلق تحدياً خطيراً لتطور هذه الدولة اقتصادياً وتكنولوجياً وعلمياً[12]» ومن المعروف أن الأيدي العاملة والمتخصصة تخصصات دقيقة في المجال التكنولوجي، هي أهم وسيلة تتحقق من خلالها إقامة قاعدة تكنولوجية وطنية، وإدخال التطورات العلمية في مجال إنتاج السلع والخدمات وتوزيعها وتنتج بالتالي خسارة دولة نامية لجزء هام من هذه الأيدي والعقول العقبة الأساسية في طريق خلق مثل هذه القاعدة التكنولوجية وتطويرها وحسن استغلالها وهكذا فإن الدول المتقدمة عندما تخلق كل أنواع الحوافز لاستقطاب العقول العلمية المبدعة من الدول النامية إنما تعمل في الواقع على تأخير هذه الدول في تطوير نفسها علمياً وتكنولوجياً واقتصادياً»[13]وقد يسأل البعض منا في غمرة كل ما ذكرناه وسنأتي على ذكره مما قدمته الدول المتقدمة لاستقطاب هؤلاء العلماء ماذا قدمت الدول النامية للمحافظة على علمائها ؟! والجواب بامتياز لا شيء.

٢ ـ دور نكسة حزيران وانتصار تشرين في هجرة العقول من البلاد العربية وإليها وأثر ذلك على الهرم السكاني:

«لقد بلغت هجرة العقول العربية أوجها ـ كما أسلفت سابقاً ـ في الفترة ما بين عامي سبعة وستين وتسعمئة وألف، وسبعين وتسعمئة وألف وذلك لسببين

رئيسين هما: تسهيلات منح سمات الهجرة إلى الولايات المتحدة والآثار السلبية المدمرة لنكسة حزيران عام سبعة وستين وتسعمئة وألف التي وقع ثقلها النفساني بشكل أكبر على المثقفين العرب إذ وجدوا في الهجرة هروباً من واقعهم السياسي والاجتماعي والاقتصادي المر، وبالمعنى نفسه فإن تباطؤ هجرة العلماء والمهندسين العرب بعد عامي ثلاثة وسبعين وأربعة وسبعين وتسعمئة وألف يرجع، من جهة، إلى نشوة الانتصار التي خلفتها حرب تشرين التحريرية التي قادها عظيم أمة يعرب القائد العربي الكبير الخالد حافظ الأسد والتي ساعدت ليس على إبقاء الكثير من العقول العربية في أوطانها فحسب، إنما أسهمت أيضاً في عودة كثير من الكفاءات العربية المهاجرة إلى أوطانها على أمل الإسهام في نهضة تلك الأوطان».[١٤]

«ومن جهة أخرى فإن تباطؤ الهجرة يرجع إلى الصعوبات التي أدخلتها الولايات المتحدة الأمريكية منذ عام واحد وسبعين وتسعمئة وألف على منح سمات الهجرة إليها نظراً للأزمة الاقتصادية التي بدأت تواجهها بشكل متصاعد».[١٥]

«وعلى الرغم من الأهمية المؤقتة لهذه العوامل الطارئة، فإن عوامل الجذب والطرد العميقة والطويلة المدى للكفاءات العربية هي التي لها الدور الحاسم والكلمة العليا».[١٦]

ج. هجرة العقول العربية «واقع ينتظر الحرف»

١. عوامل جذب العقول من الدول النامية إلى الدول المتقدمة.

«ومما لا شك فيه أن قرار المرء للهجرة هو في الأساس قرار شخصي، يتوقف على الظروف الخاصة للشخص الذي يتخذ القرار، غير أنه بالإضافة إلى ذلك، ثمة عوامل اقتصادية وعلمية وتربوية واجتماعية ونفسية وسياسية تعتبر مسؤولة إجمالاً عن النزوح ويمكننا إرجاع العوامل والأسباب إلى عاملين أساسين: عوامل خارجية «تجتذب» المهندسين والأطباء والطلاب، يقابل ذلك عوامل داخلية / «تدفعهم» للسفر أو تضغط عليهم وتجبرهم»[١٧] وللأمانة العلمية فهناك «عدد من العوامل المباشرة وغير المباشرة التي تعمل على جذب الكفاءات العلمية والتكنولوجية من البلدان النامية إلى البلدان المتقدمة وخاصة إلى الولايات المتحدة وكندا فهناك أولاً العامل الاقتصادي الذي يجذب الكفاءات العلمية من دول ذات دخل منخفض جداً، إلى دول ذات مستوى معيشة رفيع وكقاعدة عامة، كلما كان البلد النامي أكثر فقراً، كان أثر هذا العامل أقوى والعكس صحيح، وهكذا فإن أصحاب الكفاءات

الذين يأتون من دول نامية مثل بنغلاديش وباكستان والهند ومصر والمعروفة بانخفاض شديد في مستوى المعيشة فيها يكون العامل الاقتصادي أكثر أهمية مما هو عليه بالنسبة إلى الكفاءات المهاجرة من دول نامية كلبنان والأرجنتين»[١٨]

«إن ميل علماء الدول الفقيرة (النامية) وفنييها للهجرة لا يرجع إلى جاذبية المرتبات العليا التي توفرها الدول الغنية المتقدمة، فالعامل المادي ليس العامل الأكثر أهمية وراء هجرة العلماء والمهندسين والفنيين من بلدانهم إلى الدول الأكثر تقدماً فهناك أولاً المزايا التي يحققها العالم والتكنولوجي من الاحتكاك والعيش في الوسط العلمي والاستفادة من وجود بنية علمية تحتية واسعة من التجهيزات والمختبرات العلمية.

وتسهيلات النشر العلمي، التي توفرها المجتمعات المتقدمة في حين تفتقر إليها الدول النامية بشكل مروع»[١٩]

«كذلك فإن نسبة هامة من طلاب الدول النامية ـ بما فيها الدول العربية ـ الذين يتلقون دراساتهم العليا في الدول الرأسمالية المتقدمة يفضلون الإقامة الدائمة في هذه الدول، إما مباشرة بعد تخرجهم، أو بعد عودة قصيرة إلى أوطانهم الأصلية، لأنهم يكتشفون أن معظم ما تلقوه من دروس وتخصص هو أكثر مردوداً مادياً ومعنوياً، ومهنياً في البلد المتقدم منه في الوطن النامي الأم وذلك لأن النظام التعليمي في الدول المتقدمة موظف لحل المشاكل التي تعاني منها هذه الدولة وليس لمواجهة مشاكل الدول النامية التي يأتي منها الطالب الأجنبي وكل ذلك يؤدي إلى جعل الطالب الأجنبي بعد تخرجه أكثر ارتياحاً نفسياً ومهنياً إذا استقر في الدولة المتقدمة، التي تلقى علومه العليا فيها، من العودة إلى وطنه الأصلي الذي لم يتدرب بشكل منظم ومنهجي على الإسهام في حل مشاكله وأعبائه الملحة»[٢٠]

«ومن عوامل الجذب التي تمارسها الدول المتقدمة في استقطاب الكفاءات تسهيل الحصول على الإقامة الدائمة، ومن ثم الجنسية وإشعارها بالانتماء والمساواة وينطبق ذلك بصورة أكبر على الولايات المتحدة وكندا، وإن كان من الضروري القول إن هذه الدول تضع بين وقت وآخر بعض القيود على إقامة الكفاءات ،عندما تواجه وضعاً اقتصادياً صعباً يتجسد في ارتفاع معدلات البطالة حتى في صفوف الكفاءات الوطنية كما هو حاصل في السنوات الأخيرة، ومن عوامل الجذب الشخصية التي تعمل على إبقاء الطالب الأجنبي في الدول المتقدمة التي درس فيها، الزواج من مواطنة من الدول المتقدمة، وإنجاب أطفال تعلموا اللغة الأجنبية دون لغتهم الأم مما يعقد

إمكانيــة التكيــف، إذا عــادوا إلى بلادهم، على أنه من الضروري القول إن كثيرين ممن يتزوجون مــن بنات الــدول المتقدمة، إنما يقدمون على ذلك بغية البقاء في تلك الدول وهناك استثناءات في بعض الأحيان».(٢١)

٢- عوامـل طـرد الكفـاءات مـن الدول النامية:

«إن مــن العوامــل التي تسهــم إسهاماً مباشــراً أو غير مباشــر في تهجير الكفاءات مــن الــدول الناميــة إلى الــدول المتقدمة أكــثر من أن تحصــى، إذ إنها ترتبط بشكل أو بآخــر بخصائصــ التخلــف والتبعيــة التــي تعاني منهــا الدول الناميــة في شتى المجالات الثقافيــة والتعليمية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعسكرية، فهناك العامل الاقتصادي الــذي عُدَّ عامل جذب للكفــاءات من الــدول الناميــة إلى الدول المتقدمــة، فعامل الفقر يطرد الكفاءات من الدول النامية، وعامل ارتفاع المعيشة يجذب هذه الكفــاءات ومن المعــروف أن الأنظمة التعليميــة السائدة في الأكثرية الساحقة من الــدول النامية بما فيها الدول العربية وهي تقليد غير ناجح لأنظمة الــدول المستعمرة سابقاً، فغياب التخطيط التربوي والتعليمي، بشــكل عضوي وطبيعي، عن خطط التنمية الاقتصاديــة والاجتماعيــة. إذا وجــدت. يجعل النظام التعليمي يولد فائضاً في بعض التخصصــات وعجزاً في تخصصات أخرى يكون البلــد النامي بأمســ الحاجة إليها، ووجود فائض هــام في بعض التخصصات لايستطيع الاقتصاد المحلي استيعابها بنجاح وكفاءة يفتح الباب أمــام هجرة العقول إلى البلدان الأكثر قدرة على ذلك،. وكما لوحظ فــإن النظــام التعليمــي الموروث مــن أيام الاستعمار، غالباً ما يمنــح الطالب الناجح تعليمــاً أكثر فائــدة للدولــة المستعمرة منه لبلده».(٢٢)

والــذي حصــل في الــدول العربية في العقديــن الأخيرين، هو توسع كمي أو أفقي هائــل، في عــدد المدارس وعــدد الطلاب والخريجــين في شتى المستويــات الابتدائية والثانويــة والجامعيــة والدراســات العليا. ويقــدر أنه لو استمرت الاتجاهات الحالية، فإن عدد المتخرجين من الجامعات العربية (والتي كان عددها في عام ثمانين وتسعمئة وألــف يقارب الخمسين جامعــة، وسيناهز ثلاثــة عشر مليوناً في عام /٢٠٠٨/ يقابلهم عدد مساو من الطلاب في مختلف السنوات الجامعية وبذلك سترتفــع نسبة الخريجين الجامعيــين من عــدد الســكان الراشدين مــن حوالي ٠,٨ ٪ في عــام خمسة وسبعين وتسعمئــة وألــف إلى حــوالي ١١,٣ ٪ عام /٢٠٠٨/».(٢٣)

وهــذا يعني وفق تقــويم أحد المراقبين

للوضع، تخريج آلاف الجامعيين وهم مزودون بتعليم أعرج ممسوخ، لا يؤهلهم للإسهام الفعلي في حل مشكلات بلادهم الحاضرة، ناهيك عن المساعدة على دفعها بسرعة إلى الأمام.

«وفي ظل هذا النمط من التوسع التعليمي غير المخطط والموظف للحاجات التنموية يصبح بالإمكان فهم حدوث فائض كبير في خريجي بعض التخصصات، ونقص شديد في بعضها الآخر، مما دفع بعض الدول العربية إلى سن تشريعات لتوظيف الخريجين الجامعيين في الوقت الذي لاتحتاج الدولة إلى اختصاصاتهم، مما يزيد التكدس الوظيفي والبطالة المقنعة في وزارات الدولة وإداراتها وهكذا فإن وجود نقص وبطالة بين عناصر الطاقة البشرية العالية في المجتمع ذاته هو أشبه بوجود تضخم وانكماش في اقتصاد هذه الدول ذاتها لذلك نخلص إلى أن هذا الوضع لا بد أن يكون نتيجة اختناقات هيكلية ومؤسسية.[٢٤]

وكما أن العامل الاقتصادي، كما رأينا هو عامل طرد وجذب في آن واحد كذلك «فإن النظام التعليمي السائد في الدولة المتقدمة يعمل على جذب الطالب الأجنبي وإغرائه، كما أن النظام التعليمي في البلد النامي يعمل على طرد جزء من الكفاءات التي يخرجها وكما أن توفر البيئة العلمية والتجهيزات والمختبرات العلمية في الدول المتقدمة يشكل عامل جذب للكفاءات من الدول النامية، فإن غيابها في الدول النامية يشكل عامل طرد لها فالمختص لا يجد في بلده تلك العوامل التي جعلت منه مختصاً بارزاً في الخارج وسمحت له بالعطاء المنتج الفعال».[٢٥]

«وفي كثير من الأحيان يرجع المختص إلى بلده الأصلي وكله حماسة وفي ظنه أنه يحمل بيديه مفتاح حل المشاكل التي يعاني بلده منها، فيواجه وضعاً يثبط عزيمته، فبالإضافة إلى ميله الطبيعي إلى المبالغة في قدرته وخبرته الذاتية، ومعرفته ظروف بلده الأم يواجهه عدد من القيود والمعوقات التي تدخل اليأس إلى نفسه، وتحمله على التفكير بالعودة من حيث أتى في أقرب فرصة ممكنة.»[٢٦]

«من هذه المعوقات عقدة الأجنبي التي يواجهها في بلده. فكم من مرة يجد المختص نفسه تابعاً لخبير أجنبي، كانا معاً في الدراسة الجامعية وكان العربي يفوقه علماً وإنتاجاً وكم من مرة يكتشف المختص العربي أن امتيازاته المادية لا توازي نصف امتيازات الأجنبي وله الخبرة ذاتها والشهادة نفسها»[٢٧]، وخير مثال يذكر في هذا الموضوع المملكة العربية السعودية والذي يفوق فيها

راتب الموظـف الأمريكي أو البريطاني حتى لـو كان)(...) لابس بنطلون(راتب الموظف العربي بثلاثـة أضعاف حتى لـو كان هذا العربي برفيسوراً في الفيزياء النووية أو علم الاجتمـاع إذا أردتم. ويجد المختص العائد إلى بلده نفسه وجهـاً لوجه مع بيروقراطية قاتلـة، فكل أمر في البلاد العربية والنامية، يحتاج إلى ألـف معاملة، وكل معاملة تحتاج إلى عدة مراجعات، فشـراء جرار مثلاً من وزارة الزراعة يتطلـب أن تبدأ المعاملة من وزارة التعليـم العالي وتمر علـى الداخلية فالخارجية هذا إذا لم تركب إحدى الطائرات إلى سفاراتنا في إريتريا أو الصومال قبل أن تهبط مبنى وزارة الدفاع وتستقر لسنين في مستودعاتها إلى أن يأتيها الفرج وتركل ككرة منتخباتنا وعبر اتحادنا الرياضي إلى تايوان أو أفغانستان.

«كما يواجه صاحـب الكفاءة العائد إلى بلـده غياب نظام للحوافز /يكافئ المواطن الكفـي والمجتهد ويعاقب الكسـول/ بل إن نظام التوظيف والترقيـات يعاقب الموظف النشيـط لأنه يثير بنشاطـه متاعب لمن هم أعلى منـه ويضيق أحياناً علـى الكفاءات العليا في مجـال السفر إلى الخارج للإسهام في المؤتمـرات والنـدوات العلمية والعالمية، ويرسـل إليها مـن ليس مختصـاً أو متابعاً لتطورات العلم والتكنولوجيا، لأنه أثير لدى المسؤولـين عـن ذلك، فيحـرم الأكثر خبرة وقـدرة على الاستفـادة والإفـادة من مثل هذه المنتديات العلمية الدولية»[٢٨] والقصص على ذلك كثيرة وكثيرة.

٣. العوامـل التـي تهجر الكفاءات العربية باتجاه الغربة:

تطالعنـا كباحثين ودارسـين جملة من العوامل والأسباب التـي تقف خلف هجرة العقـول والكفاءات والخـبرات العربية إلى الخارج من هذه العوامل:

١- انخفاضـ المستـوى المعاشي: وهذا يرتبـط بالظروف الاقتصاديـة السائدة في الوطـن العربي من جهة ومـن جهة أخرى بانخفاضـ دخولهـم ومستويـات حياتهم المعيشية مقارنة بفئات اجتماعية أقل علماً وخبرة.

٢- إشكاليـة التعليـم والبحث العلمي: ففي المرحلـة الجامعية وفي بلـدان عربية مختلفة نلاحـظ بأن جامعـات تلك الدول تعد الطالب ليصبح أكـثر حماساً للدراسة بالغرب وسياسة التعليم هذه قد تؤدي أحياناً إلى فـرز الخريجين إلى مواقع عمل مجافية لاختصاصهم ولا تتناسب وكفاءاتهم.

٣- ممارسة العولمة الثقافية والاقتصادية في عصرنا الراهـن من ضغط على الأفكار والقيم والتقاليد العربية باتجاه محو معالمها

وإحلال القيم والسلوكيات والأفكار الغربية مكانها.

٤- ضعف فعالية المراكز العلمية والبحثية العربية وبعدها عن الارتباط بالتنمية.

٥- ضعف الإنفاق الحكومي على إدارات وأنشطة البحث والتطوير العلمي

٦- اعتماد الحكومات العربية بصفة رئيسية على الخبرات والثقافات الغربية إذ أحصت دراسة عربية حديثة بأن ما نسبته/ ٩٥ ٪ من الأعمال الاستشارية في البلدان العربية، وخصوصاً دول الخليج تقوم بها مؤسسات غربية.

٧- وأخيراً وليس آخراً، فإن من أهم العوامل التي تهجر الكفاءات العربية باتجاه الغربة، يكمن في الوضع العربي الذي يتصف بقلة الاستقرار وتسلط الروح الفردية وفي مثل هذا الجو يصعب على المفكر والمتخصص أن يتلاءم مع الواقع، مما يجعل صاحب الكفاءة العالية والفكر المبدع الأصيل يشعر بالاشمئزاز والإحباط والعجز عن التكيف والعطاء فيميل إلى التفكير بالهجرة إلى دولة متقدمة.(٢٩)

في مقابل هذه العوامل والأسباب التي تدفع بطاقاتنا البشرية المؤهلة والخبيرة نجد في الطرف المقابل . البلدان المتقدمة قوى جاذبة تحتوي على عوامل وعناصر من شأنها جذب واستقطاب هذه الطاقات واحتضانها والإفادة من جهودها وخبراتها حيث يضمن المحيط العلمي الأكثر تقدماً تأمين مستوى معاشي جيد، ويوفر ضمانات اجتماعية وخدمية ووسائل ترفيه جيدة، ومجموع هذه المتطلبات تصبح ملاذاً لأحلام الأدمغة والعقول العربية.(٣٠)

٤. الآثار المترتبة على هجرة الأدمغة . آفاق وتطلعات .

في إطار تساؤلنا عن الآثار والنتائج المترتبة على هجرة الأدمغة والعقول العربية واستقرار أبنائنا في الخارج تطالعنا جملة النتائج التالية:

أولاً- النتائج الاقتصادية:

١- إن هجرة الأدمغة العربية إلى الخارج تشكل خطراً على القوى العاملة النوعية ورفد البرامج التنموية والاقتصادية العربية وهذا يؤثر بالطبع على مستوى الأجور.

٢- فقدان الدول المصدرة للأدمغة العربية أي مردود لقاء ما أنفقته على تعليم هؤلاء الأفراد.

٣- حرمان الدول الأم فرصاً استثمارية هائلة مقابل انجذاب هذه الكفاءات نحو البلدان التي توفر المناخات الملائمة للاستثمار.

ثانياً: النتائج الثقافية:

١- الهجرة تضعف وتحرم الجامعات

والمعاهــد والمؤسسات العلميــة من الكوادر المختصة.

٢- تساهم الهجــرة في إخفاق مقدرتنا على إنشاء مراكز الأبحاث العلمية والتقنية

في غياب هذه الكــوادر والأدمغة تكمن خطورة الغــزو الثقــافي لوطننــا ومحاولة تفريقــه من الداخل من العقيدة ومن هويته القومية.

أما السؤال الذي يطرح نفسه علينا الآن كيف يمكننا أن نستفيد من الكفاءات العربية التي استقرت خارجــاً باتجاه مشاركتها في خدمــة قضايــا أوطانها الأصليــة / جواباً نقول:

١- لا بد من استنفار الجهود الإعلامية والثقافيــة لنوضح لهــؤلاء المغتربين مشاكل بلدانهم.

٢- الاتصــال مــع المغتربــين لرعايتهم وتقديم الخدمات اللازمة لهم ولأبنائهم.

٣- وضــع برامــج ونشاطــات لدعــوة المغتربــين إلى الوطن الأم لإلقاء المحاضرات العلمية والثقافية.

٤- إشــراك المغتربــين بالأنشطــة الدبلوماسية والتمثيليــة لأوطانهم الأصلية في بلدان إقامتهم واغترابهم.

٥- تقــديم التسهيلات لزيــارة الوطن الأم. (٣١)

رب سائــل يسأل كيف نحــد من نزيف الكفاءات والخبرات؟ والجواب: يمكن لنا أن نحقق ذلك بإيجاد نظــم قانونية وتشريعية توفــر الدعــم المــادي والمعنــوي لأصحاب الاختصاصــات لرفــع مستواهــم المعاشي وتقــديم الحوافز التشجيعيــة والتسهيلات الضريبية والجمركية. . إلخ.

- احترام الجانب الإنساني لهذه الأدمغة في حرية الرأي.
- ربــط سلم الوظائف بشــرط الكفاءة والخبرة.
- خلق روح المبــادرة لديهم للمشاركة في رفع صروح التنمية.
- التقليــل مــن شعور هــذه الطاقات والأدمغة بالغبن مقارنة مع الخبرات والأدمغة الأجنبية مقابل مردود مادي ومعنوي.

إيجاد منظومة عربية تستقطب الخبرات والأدمغة وزجهــا في عملية التطوير التقني والاقتصادي.

«كمــا يجب أيضاً أن يكــون للدولة دور هــام وأساسي وحاســم في توطيد علاقات المهاجرين (المغتربين) بالبلد الأم والحق يقال إن الجمهورية العربيــة السورية وخصوصاً بعد قيام التصحيح المبــارك بقيادة القائد الخالد حافــظ الأسد أولــت المغتربين جل اهتمامهــا وبالغ عنايتها ورعايتها ففي بلاد اغترابهم استطاعــت أن تؤسس لهم العديد من المؤسسات الاجتماعيــة وأبرزها (الفيا

آراب) الهدف منهــا توحيد الكلمة والدفاع عن حقوق العــرب فالغاية واحــدة والأمة واحــدة والكلمة واحدة لأجــل رفعة الوطن وأصالــة الأمة وقد تــوالى عقد اجتماعات (الفيــا آراب) السنويــة في بــلاد الاغتراب وبدعــم ســوري وأضحت (دمشــق الأسد) الموطــن الأم ملتقــى لكل العــرب وفتحت أمامهم أبــواب الاستثمــار المريح والمدعوم من قبل الدولة وإدخال ما يرونه مناسباً من وسائــط للنقل ومن أثاث وقطع غيار وآلات خدميــة وأفسحــت المجال أمــام المبدعين بتوفــير الإمكانــات اللازمة وتمنــح جوائز قيمة أبرزها جائــزة (الشهيد باسل حافظ الأسد) للأبحاث العلمية. وهناك المزيد من هذه العطاءات نلحظهــا ونراها كل يوم في ظل القيادة المثلى للقائد الأمل السيد الرئيس بشار حافظ الأسد، وما وزارة الدولة لشؤون المغتربين التــي أحدثت بقرار مــن سيادته غــير غيض بسيط من هــذا الفيض العارم المتدفق.

خاتمة البحث:

خلاصة القول:

«إن الوطــن العربــي محتــاج إلى عقول مدركة تسهم في تقدم العلم وتعمل على تطوير الفنون والصناعات وإن خلو هذا الوطن في أيامنا من العلماء المبدعين لا يرجع إلى نقص في استعدادات أبنائه، أو عجز في طبائعهم، بل يرجع إلى أسباب تربوية واجتماعية طارئة ولــو توافرت لعلمائنا بعضــ الشروط التي توافرت لغيرهم من علماء الأمم الأخرى لما قل إبداعهم، ولا أجدبت عقولهم فليعمل كل شاب منا على إتقــان علم من العلوم أو فن من الفنون، وليعــن بتنمية روح الاختراع في عقله وليعلــم أن خير وسيلة لإخراج البلاد العربية من تخلفها هي الاختصاص العلمي والإبداع الفني والصناعي والتقني».[٣٢]

ختام القول:

لنقــف جمعياً وقفة رجــل واحد لنفتح أذهاننا وعقولنا قبل أسماعنا وآذاننا لنقف هذه الوقفة الشامخة وسنتذكر معاً الخطاب التاريخي الذي وجهه القائد الخالد حافظ الأسد إلى مؤتمر الشبيبــة والطلبة العالمي المنعقد في موسكو عام /١٩٨٣/ والذي قال فيه سيادتــه «إذا كان لكل جيل من الأجيال مسؤوليــات تخصــه، فإن اختــلاف أفراد الجيــل الواحد بعضهم عــن بعض يفرض عليهــم مسؤوليات مشتركة يمكن جمعها في ميثاق واحد نطلق عليه اسم ميثاق الشباب،» فإذا ذكر الشباب ذكــر معه الأمل الاعتزاز بالنفس، والإقــدام والإيثار والبطولة، فسن الشباب سن المبالغــة في كل شيء لا بل هي سن الحماسة، والطموح والتفاؤل ولكن بعض شبابنــا قلبــوا إيمانهم إلى شــك وتفاؤلهم إلى تشــاؤم واطمئنانهــم إلى قلــق وأملهم

إلى يأس، تمر بهم الأيام كما تمر الأحلام حاجاتهم ثقيلة، ونفوسهم ضيقة، يحبون اللذات الرخيصة والنجاح السهل ويفضلون اللهو على الجد والراحة على المشقة. نعم لو استطاع الإنسان أن يقلب اتجاه الزمان ويرجع من الشيخوخة إلى الكهولة ومن الكهولة إلى الشباب. لعرف كيف يستمتع بالحياة وكيف يحدد مسؤولياته في كل مرحلة من مراحل العمر إلا أن الشيخ لا يصبح شاباً كما أن الشاب لا يعرف قيمة الزمان ولا يحرص على شبابه حرص الشيخ على حياته، وتلك هي مأساة الحياة. الطفل لا يدرك مستقبله والشيخ لا يخرج من ماضيه، والشباب لايعرف حاضره، ولا سبيل إلى التغلب على هذه المأساة إلا إذا شعر كل جيل بما يخصّه من المسؤوليات، وعرف كيف يوفق بينها وبين حاجاته واستعداداته.

أيها الشباب والأخوة إن الشباب لايبلغ غايته إلا إذا تعود العفة والحكمة والشجاعة والعدالة والصدق والنظام والإقدام والإخلاص والمروءة، لذلك فأول أمر يجب على الشباب أن يتعهده على نفسه هو: صيانة شبابه من العبث ووقايته من المرض وحفظه من الفساد الخلقي، والضلال الفكري. وثاني أمر يجب أن يتعهده الشباب هو التفاؤل بالخير. وثالث أمر الإخلاص للحقيقة. ورابع أمر الإيمان بالعقل والعلم. وخامس عهد هو الشعور بالمسؤولية والتقيد بالنظام والثبات في العمل. وسادس عهد هو بناء علاقات سوية مع الناس على مبادئ الأخلاق الفاضلة والقيام بما يفرضه عليه القانون. وسابع عهد وهو أساس كل تلك العهود: الإخلاص للوطن، الإخلاص للوطن، الإخلاص للوطن».[٣٣]

خلاصة القول:

لقد آن لنا جمعياً أن نشرب من المنهل الروي الصافي الذي شرب منه قادة الفكر في كل زمان ومكان، وأن نسير في طريق الحرية والحق والإبداع حتى نبلغ المؤمل منا فليقل كل شاب في نفسه إن الحياة مثل وأمل وعمل فهي مثل من جهة ما هي خبرة واقتباس وهي أمل من جهة ما هي تطلع إلى مستقبل أفضل، وهي عمل من جهة ما هي إصلاح للحاضر.

فإذا ما استطعنا نحن الشباب أن نحقق ذلك كله بعزم وصبر، إذا استطعنا أن نعيش فكر وقيم ومبادئ القائد الخالد حافظ الأسد أمكننا أن نقول بكل ثقة واطمئنان إن المستقبل لنا، ويا أيها المهاجرون مرحباً بكم وبعودكم، عودوا فالديار قد أصبحت عامرة والقفار تحولت إلى جنات خضراء، والغيث طل وجرت السيول.

الهوامش

١- الفاعوري، نادر، المغتربون ودورهم في خدمة القضايا القومية، المناضل، العدد ٣١٣، ٢٠٠٢، ص٨٨ — ٨٩.

٢- كرم، د. انطونيوس، العرب أمام تحديات التكنولوجيا، سلسلة عالم المعرفة، ١٩٨٢، ص ٤٩.

٣- نفس المرجع السابق، ص ٤٨ — ٤٩.

٤- د. كرم، انطونيوس، اقتصاديات التخلف والتنمية، دار الفارابي، بيروت، ط ٤، ١٩٩١، ص ٣٢.

٥- محمود، د. زكي نجيب، عربي بين ثقافتين، سلسلة كتاب العربي، الكويت، ١٩٩٢، ص ١١٨.

٦- زيت ،. د. إلياس، هجرة الأدمغة والهجرة المضادة، مركز الأبحاث، بيروت، ١٩٧١، ص ٨١.

٧- نفس المرجع السابق، ص ٨٣.

٨- نفس المرجع السابق، ص ص٨٤- ٨٥.

٩- د. اليكسانف، المغتربون تجربة الهجرة إلى أمريكا، ترجمة: د. فؤاد أيوب، م: د. محمد محفل، دار دمشق للطباعة والصحافة والنشر، ١٩٨٩، ص ٧٢.

١٠- محمود ،د. زكي نجيب، نافذة على فلسفة العصر، سلسلة كتاب العربي، الكويت، ١٩٩٠، ص ٦٧.

١١- كرم، د. أنطونيوس، العرب أمام تحديات التكنولوجيا، ص ٥٧.

١٢- كرم، د. انطونيوس، اقتصاديات التخلف والتنمية، ص ٣٧.

١٣- محمود، د. زكي نجيب، عربي بين ثقافتين، ص ١٠١.

١٤- كرم، د. انطونيوس العرب أمام تحديات التكنولوجيا، ص٦٢.

١٥- د.اليكسانف، المغتربون تجربة الهجرة على أمريكا، ترجمة د. فؤاد أيوب، ص٨٠.

١٦- محمود، زكي نجيب، نافذة على فلسفة العصرص٨٢.

١٧- زين، إلياس، هجرة الأدمغة والهجرة المضادة، ص٥٣.

١٨- كرم ،د. انطونيوس، العرب أمام تحديات التكنولوجيا، ص٥٤.

١٩- نفس المرجع السابق، ص ٥٥.

٢٠- د. اليكسانف، المغتربون تجربة الهجرة على أمريكا، ص٨٤.

٢١- نفس المرجع السابق، ص ٨٧.

٢٢- زين، إلياس، هجرة الأدمغة والهجرة المضادة، ص ٥٦.

٢٣- كرم ،انطونيوس، اقتصاديات التخلف والتنمية، ص ٤٢.

٢٤- نفس المرجع السابق، ص ٤٧.

٢٥- كرم، د. انطونيوس العرب أمام تحديات التكنولوجيا، ص ٥٧ ـ ٥٨.

٢٦- نفس المرجع السابق، ص ٥٨.

٢٧- د.اليكسانف، المغتربون تجربة الهجرة على أمريكا، ترجمة د. فؤاد أيوب، ص ٩١.

٢٨- كرم، د. انطونيوس، العرب أمام تحديات التكنولوجيا، ص ٦٠-٦٤، بتصرف.

٢٩- الفاعوري، نادر، المغتربون العرب ودورهم في خدمة القضايا القومية، المناضل، العدد ٣١٣،٢٠٠٢، ص٩٤.

٣٠- نفس المرجع السابق، ص ٥٩.

٣١- نفس المرجع السابق، ص٩٥ ـ ٩٦.

٣٢- صليبا، د. جميل ميثاق للشباب العربي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٣، ص ١٣٧.

٣٣- نفس المرجع السابق، ١٣٥ ـ ١٣٦.

المصادر والمراجع

١- د. انطونيوس كرم، العرب أمام تحديات التكنولوجيا، سلسلة عالم المعرفة ١٩٨٢.

٢- د. انطونيوس كرم، اقتصايات التخلف والتنمية، دار الفارابي، بيروت، ط٤، ١٩٩١.

٣- د. صفوح الأخرس، علم الاجتماع العام، مطابع مؤسسة الوحدة، دمشق، ط٢، ٢٠٠٥م.

٤- د. زكي نجيب محمود، عربي بين ثقافتين، سلسلة كتاب العربي، الكويت، ١٩٩٢.

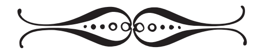
٥- د. زكي نجيب محمود، نافذة على فلسفة العصر، سلسلة كتاب العربي، الكويت، ١٩٩٠.

٦- د. جميل صليبا، ميثاق للشباب العربي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٣.

٧- د. إلياس زين، هجرة الأدمغة والهجرة المضادة، مركز الأبحاث، بيروت، ١٩٧١.

٨- د. اليكسانف، المغتربون تجربة الهجرة على أمريكا، ترجمة د. فؤاد أيوب، م.د. محمد محفل، دار دمشق للصحافة والطباعة والنشر ، ١٩٨٩م.

٩- نادر الفاعوري، المغتربون العرب ودورهم في خدمة القضايا القومية، المناضل، العدد ٣١٣. ٢٠٠٢.





نماذج للتعامل الشعري مع التاريخ والزمان، مباهاة وهجاء!

د. خير الدين عبد الرحمن ❀

أكاد لا أعرف استعمالاً لمصطلحي التاريخ والزمان في شعر أمة من الأمم بمثل ما كثر هذا الاستعمال في الشعر العربي، حتى بات بعضنا يصف هذا الاستعمال بالهوس المرضي! صحيح أن الأمر لا يقتصر على الشعر، بل يتكرر في حياتنا اليومية وخطابنا العادي، وبالتالي يصير طبيعياً أن ينعكس هذا في نثرنا وشعرنا وحواراتنا، لكن ما يميز هذا التكرار هو غزارته في شعرنا خاصة من ناحية، وسرعة - بل خفة- تقلب موقف شعراء كثر من التاريخ والزمان فيما بين نقيضي التفاخر والهجاء،من ناحية ثانية!

❀ باحث ودبلوماسي سوري.

العمل الفني: الفنان محمد حمدان.

يتم هذا التقلب بسهولة - بل وبخفة أحياناً- ولا يقتصر على الموقف من التاريخ والزمان، فيمتد حتى إلى الأهداف والشعارات- بل إلى الانتماء ذاته، بحيث شهدنا في العقود الأخيرة كيف جعلت صدمات الهزائم والانهيارات وفصول الإحباط المتوالية وتبدد الآمال بعضنا يقفز من تطرف في تمجيد انتمائنا العربي والتباهي والاعتزاز الهائل به إلى تنكر للانتماء واستقالة منه! بالمناسبة، لم ترد كلمة التاريخ إطلاقاً في أي من آيات القرآن الكريم، وهذا ما يزيد من دواعي التعجب لكثرة ما نستعمل ونتداول هذه الكلمة، ونغرق في غياهبها.

ولئن تزاوج التاريخ، الذي لا سبيل إلى يقين بصواب ما وصلنا منه وعنه،مع الأسطورة على نحو ما، فقد لاحظ الدكتور محمد عجينة في توطئة كتابه (موسوعة أساطير العرب) أنه لم تعد الأساطير أو «أساطير الأولين» و«الفكر الأسطوري» عبارات شنيعة.. وإنما غدت نمطاً من أنماط التعبير والتفكير جديراً بكل عناية واهتمام.. لاسيما إذا اعتبرنا أن أشكال الفكر الأسطوري قد تبدو من خلال بقاياها المترسبة في العادات والممارسات اليومية.. فالإنسان وحده هو الكائن الذي لا يقنع بما هو موجود.. فينشئ الرموز والأنظمة الرمزية إعراباً منه عن توقه الأبدي إلى آفاق أخرى غير التي يقع عليها منه الحس والإدراك وعن نزوعه إلى أن يصنع عالماً معبراً عنه إلا أنه لا يستوي وإياه فإذا هو يطمح إلى تجاوزه باستمرار..

❁ ❁ ❁

لئن تعامل الشاعر المتصوف المبدع جلال الدين الرومي مع الزمن في تجاوز للمقاييس السائدة والمفهوم المتداول، كما في قوله:

«صه، إلى متى أئن؟

فحتى مئة قرن سيظل هذا العالم يدور على آهاتي،

ويلف على حسراتي..»

فإنه كان يتمثل مفهوم المتصوفة عموماً للزمن، كما هو الحال عند محي الدين بن عربي مثلاً نضرب مثلاً على تجاوز الفهم السائد المتعارف عليه للزمن والمحسوس معاً،إذ من أهم معتقدات الصوفيين الإسلاميين اعتبارهم أن الزمن وهم، أو على الأقل اختراع إنساني، ويجمعهم الاعتقاد بانقسام الوجود.. حيث الحقيقة الحقيقية تكمن في الكل والوحدة، لا في التجزؤ أو الفردية، تجاوز ابن الفارض الواضح للزمن في قوله:

شربنا على ذكر الحبيب مدامة

سكرنا بها قبل أن يخلق الكرم

وفي الشعر المعاصر بسائر صنوفه، الزاخر باستخدام مصطلحات الزمن والوقت والتاريخ، تلقي آلام النكبات والهزائم والنكسات والمحن والانهيارات ظلالها على تفاعل الشعراء مع تلك المصطلحات.هنا ننأى عن شعر التكسب والمديح النفاقي معها، قالباً الحقائق وماسخاً الوقائع. ظل مطلع النشيد الوطني السوداني مثلاً يتكرر في خواطر ملايين الناس وأسماعهم سنيناً على نحو يومي تقريباً: «أمتي يا أمة الأمجاد والماضي العريق» لكنهم بعد عقود من سقوط الأقنعة وتمزق الغلالة الخادعة، أيقظتهم قسوة الواقع من أسر رغبات مشتهاة تخيلوها وقائع راسخة، ومن شرنقة أوهام راحت تتبدد، ويتضاعف الألم ليبلغ مبلغاً قاسياً عندما ينتقل الشعر من مبالغات الصور الزاهية والوعود السهلة إلى مصارحة الذات والغير، كما في زفرات حرى للشاعر النبطي الإماراتي المرحوم خلفان بن مصبح تقول:

مجد العروبة ماله لا يستثار ولا يثور؟

أتهاونا قد صابهم أم صابهم ياذا فتور؟

(ص ٧٥من ديوانه)

مضى الشاعر نفسه، فانتقل من التساؤل إلى المجاهرة بالنقمة محدداً مسؤولية أفول مجدنا:

مجد العروبة قد أفل

عن عرشه بيد البنين

وتقسمت أوطانهم

بيد الطغاة الجائرين

(ص ٧٦)

ويتخذ الشاعر العماني سيف الرحبي الموقف نفسه في ديوانه (رجل من الربع الخالي) ساعياً إلى إيقاظ الغارقين في خدر التغني والتباهي والاعتزاز بما فعله أوائلنا، فيصفع المخدرين قوله:

كم يلزم الإنسان من المليارات

كي يغسل تاريخه من الوحل؟

يفضح محمد الرطبان بدوره المؤرخين، بمثل ما يعري تعامل الأمة بأسرها بالتاريخ، فيقول:

نحن أمة تعوّدت على أن تكتب تاريخ ما يحدث..

ولم تتعوّد على أن تضع على الهامش نقداً -ولو قليلاً- لما يحدث

وليتنا كنّا نسجل ما يحدث.. كما حدث..

بل إننا نسجله كما يريد صانع الحدث!

...

ما الذي يجعل «نابليون» رجلاً عظيماً و«هتلر» رجلاً سيئاً وطاغية؟

وكلاهما لا يجيد سوى الغزو وإشعال الحروب.

إنهم المؤرخون.. وأشياء أخرى.

احصل على «مؤرخ» سيئ، تحصل على «تاريخ» جيد. (الوطن، الرياض، ٢٦/٥/٢٠٠٧)



هل تذكر هذا الشاعر قول رئيس الحكومة البريطانية الأسبق ونستون تشرشل: «أعلم أنّ التاريخ سيكون رحيماً معي لأنني أنوي كتابته بنفسي» أو تذكر أن المسكوت عنه في التاريخ، وما هو محظور مداناة خطوطه الحمر، هو أضعاف المعلن والمقروء والمسموح بتداوله، فالأقوياء والمنتصرون هم الذين أملوا على المؤرخين ما قالوا، وما سوف يقولون!..

❁ ❁ ❁

لأدونيس مع التاريخ شأن مختلف. ليس التاريخ عند أدونيس رمزاً، ولا أداة تحريض، ولا مدعاة تفاخر وزهو، ولا مشجباً لتعليق الهزائم والخطايا، وإنما هو مادة متحولة، تتغير صعوداً وهبوطاً. لعل أوضح تعامل شعري لأدونيس مع التاريخ هو في قصيدة (مرآة التاريخ):

- : الموت

(بقية الرطوبة الأولى تجففت وانعصرت

من طينها الساعات،

ما تبقى صار إلى ملوحة

أو ربما صار إلى مرارة

- جذور الحياة:

(وقيل فيه ماء

تأخذه الشمس لها غذاء

تصنع من فتاته البخار أو تصبه كالجمر

في حفرة عظيمة كالدهر

ثم يعود مطراً)

- حياة التاريخ:

(ووقف الماء معي زمانا

..

وصارت الأمواج كالحجارة

هل بلغ التاريخ منتهاه؟

هل أومأت شمسي إلى سواه؟)

- التعامل مع التاريخ

(والتاريخ مثل الطائر

منبسط في جسد الإنسان

يصدح، أو يطير، أو يعيش في القبور).

بينمـــا ينظر يوسف أبو لوز إلى الزمن – ليلاً ونهاراً–من منظور آخر، فهو قد قال:

جلد النهار وجلد الليل صنوان.

والليل أنثى،

وهذي ليلتي امرأة زنجية،

وشَمَتْ سيقانها بدم من قلب مرجان.

قد كنتُ أسكن في بحر وأخرجني

قوم زنوج من البحر البسيط،

إلى رمل البسيطة،

ذئباً يرتدي كفناً في مائه الفاني.

وأشرب الليل،

حتى إن بدا قلماً قرن الضحى

قمت من شربي ليحملني

جلد النهار إلى وشم هو الثاني (٢٠٠٦/٩/٢٣)

وهكذا، يتقنع الشاعر ويحلم في تنقله ما بـين وشم ووشم.. يحلم في يقظته وفي نومه وفي خياله:

لست أندلسياً،

ولا شأن لي بملوك الطوائف،

لو كنتُ أندلسياً لأهديتُ قلبكِ شعراً

قليل البلاغة

لا بالمديد،

ولا بالموشحْ.

..ولو الأمر لي

لطرحت خزاماكِ في كل مطرحْ (٢٠٠٥/٢/٦)

...

لست ذئباً ولا من طباعي

العواء على الليل ظناً من الحيوان

بأن الليالي قطيع،

وما جعت يوماً،

ولا نِبْتُ صيداً

فمثليَ من دون ناب

لست ذئباً، ولكنْ

تَقَنّعتُ وجهاً لذئب

لكي لا تعض حياتي الكلاب (٢٠٠٥/١٢/٦)

(مقتطفـــات مـــن مجموعتـــه الجديدة نشـــرت في «الخليـــج الثقـــافي– الشارقة– ٢٠٠٧/١١/٣).

قبل هذا وذاك، بلغـــت حدة نزار قباني ذروة مـــن ذراها عندما فضح زيف «نصف» ما تعلم من تاريخ في قصيدته (من قتل مدرس التاريخ)، بقوله:

ما لنا.. ما لنا.. نلوم حزيران

وفي الإثـــم كلـنـا شـركـاء..

الـبـطـولات مـوقـف مـسرحي

ووجـــوه الـمـمـثـلـين طـــلاء..

وفـلـسـطـين بـيـتـهـم كـمـزاد

كـل شـار يـزيـد حـين يـشـاء..

في زمن الطفولة قرأت آلاف الأقاصيص
عن النخوة.. والنجدة.. والعزة.. والإباء
والفداء.. والسخاء.. والشجاعة
ثم اكتشفت عندما دخلت في الكهولة
بأن نصف ما قرأته في حصة التاريخ
ما كان سوى إشاعة!

بل إن القفز بين موقفين نقيضين على لسان الشاعر نفسه بين قصيدة وأخرى، طال بينهما زمن أو قصر، وحتى في نفس القصيدة أحياناً فبعدما يعلن نزار اكتشافه بأن نصف ما قرأه في حصة التاريخ ما كان سوى إشاعة، عاد ليقول في نفس القصيدة:

لو قرأنا التاريخ.. ما ضاعت القدس
وضاعت من قبلها الحمراء
يا فلسطين لا تزالين عطشى
وعلى الزيت نامت الصحراء
يا فلسطين لا تنادي قريشا
فقريش.. ماتت بها الخيلاء
ذروة الذل أن تموت المروءات
ويمشي إلى الوراء الوراء!

ولا يلبث أن ينفي التاريخ أصلاً قبل مجيء الفدائيين، إذ قال في القصيدة نفسها:

قبلهم لم يكن هناك قبل،
ابتداء التاريخ من يوم جاؤوا

أكثر من هذا، أقر نزار نفسه في قصيدة (هوامش على دفتر النكسة) أنه قد تحول في (لحظة) من حال إلى حال،من شاعر يكتب الحب والحنين إلى شاعر يكتب بالسكين، فقال واصفاً تحوله:

أنعي لكم يا أصدقائي اللغة القديمة
والكتب القديمة
أنعي لكم
كلامنا المثقوب كالأحذية القديمة
ومفردات العهر والهجاء والشتيمة
أنعي لكم.. أنعي لكم
نهاية الفكر الذي قاد إلى الهزيمة..
يا وطني الحزين
حولتني بلحظة
من شاعر يكتب شعر الحب والحنين
إلى شاعر يكتب بالسكين..

..

خلاصة القضية توجز في عبارة:
قد لبسنا قشرة الحضارة، والروح جاهلية
بالناي والمزمار
لا يحدث انتصار..

أما الشاعر العراقي معروف الرصافي، فقد استوقفته مسألة العبث بالتاريخ، فذهب إلى رفض معظم كتبه وشخوصه ورواياته، واتهمها بالتلفيق إذ قال:

نظرنا بأمر الحاضرين فرابنا
فكيف بأمر الغابرين نصدق

وما كتب التاريخ في جل ما

روت لقرائها إلا حديث ملفق

اختار محمد الماغوط صعود أحد التلال القريبة من التاريخ والاستنجاد ببعض رموزه، طارق والخنساء والمتنبي، والجلوس عارياً بانتظار ربيع تنبت لنا فيه أهداب جديدة و.. دموع جديدة:

سأصعد أحد التلال

القريبة من التاريخ

وأقذف سيفي إلى قبضة طارق

ورأسي إلى صدر الخنساء

وقلمي إلى أصابع المتنبي

وأجلس عارياً كالشجرة في الشتاء

حتى أعرف متى تنبت لنا أهداب جديدة،

ودموع جديدة في الربيع؟.

وإذا كان الماغوط هنا قد استخدم مكاناً (أحد التلال) ليلغي قروناً تفصله عن من قذف سيفه إلى قبضته وأوسد رأسه إلى صدرها وأعار قلمه إلى أصابعه، فقد جاء اختزال المكان والزمان طاغياً لدى (لاو تشو)، الشاعر الصيني، إذ دفع بخياله ليحيط بالعالم ويتجاوزه إلى السماء:

من غير أن تسافر بعيداً،

تستطيع أن تعرف العالم كله

من غير أن تنظر من النافذة

تستطيع أن ترى طريق السماء

وحين عاش أبو القاسم الشابي حقبة حفلت بالتفاؤل والأمل والثقة بالذات وبالغد والأمة، قال:

لك الويل ما صرح المظالم من غد

إذا نهض المستضعفون وصمموا

ترى هل كان الشابي سوف يحافظ على نفس درجة الثقة بالغد لو أنه عاش انهيارات أيامنا؟

تكالبت على المبدع الضرير عبد الله البردوني آلام محنته الذاتية، ومحنته اليمنية الوطنية، ومحنته العربية القومية لقد رأى البردوني ما حوله فوضى متناقضات تتزاوج وتتحالف وتتصارع، فقال واصفاً حاله وحالها:

وتلاشى شعري ونام شعوري

نومة الليل فوق صمت القفار

وأنا في دمي أسير وفى أرضـ

ـي شريد مقيد الأفكار

وجريح الإبا قتيل الأماني

وغريب في أمتي ودياري

كل ما حولي علي غضوب

ناقم من دمى على غير ثار

امتدت فوضى الأشياء والأحوال إلى الموت ذاته، فراح يقول:

قتلوني مرات   أكتب كي لا تقتل

بدم الموت الثاني   تمحو الموت الأول

حاولت بلا جدوى، ماذا أعمل؟

ولم يلبث أن ألقى مرساة اتهامه على شاطئ الزمان كسواه، فقال:

هرب الزمان من الزمان

وخوت ثوانيه الغبية

حتى الزمان بلا زمان

حتى المكان بلا قضية

الليل يبحث عن ضحى

والصبح يبحث عن عشية!

..

ومؤمركات يرتدين

قميص ليلى العامرية

حاول البردوني تفسير الأمر على نحو مختلف في قصيدة أخرى، لكنه ظل غامضاً بقوله:

فظيع جهل ما يجري

وأفظع منه أن تدري

وهل تدرين يا صنعاء

من المستعمر السري

غزاة لا أشاهدهم

وسيف الغزو في صدري

وكان أكثر وضوحاً في التفسير إذ قال في قصيدة ثالثة محدداً المسؤولية في سلوك الإنسان، لا في غدر الزمان ولا في بؤس المكان:

ما أصدق السيف! إن لم ينضه الكذب

وأكذب السيف إن لم يصدق الغضب

ماذا فعلنا؟ غضبنا كالرجال ولم

نصدُق..وقد صدق التنجيم والكتب

تسعون ألفاً لعمورية اتقدوا

وللمنجم قالوا: إننا الشهب

..

عروبة اليوم أُخرى لا ينم على

وجودها اسم ولا لون ولا لقب

..

ماذا أحدث عن صنعاء يا أبتي

مليحة عاشقاها: السل والجرب

الحاكمون وواشنطن حكومتهم

اللامعون وما شَعُّوا وما غربوا

القاتلون نبوغ الشعب ترضيةً

للمعتدين وما أجدتهم القُرَب

وقال أيضاً:

لماذا العدو القصي اقترب

لأن القريب الحبيب اغترب

لأن الفراغ اشتهى الامتلاء

بشيء فجاء سوى المرتقب!

أراح كثيرون أنفسهم بأحكام قاطعة تبرر الانكفاء يأساً عندما يتعلق الأمر باليمن (!) زعماً بأن المحنة الوطنية اليمنية مزمنة، شائكة، تتعس كل من يقترب محاولاً حلها! وإلا أي تفسير لقوله:

وأتعس الناس في الدنيا وأنكدهم

من يركب الليث أو من يحكم اليمنا

قبل عبد الله البردوني كان الشاعر المبدع عمر أبو ريشة قد تعامل على نحو متفجر مع الدهر والأزمنة والعصور والذين يمتطونها، أو قل يمتطوننا، إذ قال:

تلكم الأعصر التي في حماها

وقف الملك مطرقا خزيانا

ما أظن العصور مرت عليها

فتلفت أما تراها الآنا

وسار في قصيدة أخرى على نهج من سبقوه وزامنوه من شعراء عرب كرسوا نهج القدامى، كالمتنبي الذي بالغ في الاعتداد بنفسه:

سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا

بأنني خير من تسعى به قدم

أو كأبي العلاء المعري الذي قال:

إني وإن كنت الأخير زمانه

لآت بما لم تستطعه الأوائل

فقد قال أبو ريشة متحدياً الزمان:

لم ترتشف دمعي شفاه الهوان

ولم يناد الدهر هذا جبان

فاعصف فإني صخرة يا زمان!

وحتى عندما أراد شعراء كثر الاعتزاز بالشعب أو بالأمة ولو من خلال متكلم فرد، فقد نزع عديد منهم إلى تحدي الزمن والقدر. ألم يقل يوسف الخطيب في ديوانه (العيون الظماء للنور):

أنا مشعل أنا مارد جبار

لا الريح تخمدني ولا الإعصار

ومشيئتي قدر على أقدامه

تتمسح الأيام والأقدار!

فيما بدا موازياُ لقول ابن هانئ مخاطباً المعز لدين الله الفاطمي:

ما شئت لا ماشاءت الأقدار

فاحكم أنت الواحد القهار!

بل إنه جعل من نفسه- أو من يمثل وينطق باسمهم- وقوداً يتحكم بتعاقب الليل والنهار:

هذا أنا في الليل أضرم جذوتي

ليبين لي قبل النهار نهار

كان جلال قضيماتي مثلاً بعد نصف قرن من قصيدة الخطيب أقل جموحاً، وأكثر واقعية، فالتزم حدود الطبيعي في صورة جميلة تثق بالغد وتوقن بفرج لا بد قادم، فقال في قصيدته (وطن أنت):

فإذا النور أغرقته الدياجي

أعلن الصبح أنه المصباح

كان يوسف الخطيب نفسه قد عاد فأنهى قصيدة له متحدثاً عن:

شمس لا غروب لها

تتحدى الليل أن يقبل

والغروب أن يكون!

لكن هذا الشاعر الثائر انتهى محبطاً، ولم يلم القدر أو الزمن الذي طالما تحداه واستخف به، وإنما تبرأ ممن خانوا وخادعوا وفرطوا في آخر قصيدة له (إعلان براءة) التي نشرت في صحيفة اتحاد الكتاب العرب (الأسبوع الأدبي، ٢٠٠٦/٦/١٠). وحتى في هذا التبرؤ، لم ينس (الزمن) إذ خاطب هؤلاء قائلاً، «من تخدعون يا حواة آخر الزمن». وهكذا لم يستطع التحلل من هاجس ذات الزمن الذي جعله قبل خمسين سنة يبدأ قصيدة (أغنية انتصار لطروادة) قائلاً: **«كأن قبل اليوم لم يغم على مدينة مساء..»**

وينهيها بقوله: **«كأن قبل اليوم لم يلح على مدينة صباح..»!**

أما المرحوم محمود درويش، فقد كان للزمن والوقت والليل والنهار والتاريخ والقدر في بواكير شعره نصيب كبير أيضاً، وكذلك قد استفزته «المواعيد البطيئة» في حياتنا العربية، لكنه تعامل مع هذه المصطلحات بواقعية أكبر، وتهيب أن يوغل في التنافخ والمناطحة والادعاء. نذكر من قديمه مثلاً قوله في قصيدته (عن الإنسان) من ديوانه (أوراق الزيتون) المنشور سنة ١٩٧٤:

يا دامي العينين والكفين

إن الليل زائل!

لا غرفة التوقيف باقية

ولا زرد السلاسل!

نيرون مات، ولم تمت روما

بعينيها تقاتل!

وحبوب سنبلة تجف

ستملأ الوادي سنابل..!

❁ ❁ ❁

لكي لا يتوهمن أحد أن كثرة التشاغل بالتاريخ والزمن احتكار للعرب، لم يتركوا لسواهم شيئاً منهما يتعاطى به، نستذكر قول كارل ماركس، الذي استقطب مئات الملايين من الناس يوماً، واستعدى مئات الملايين أيضاً:

«التاريخ ماكر، فهو قادر على جعل بطل الأمس التراجيدي، نكتة اليوم الكوميدية».

بهذا الفهم للتاريخ. ماكراً، لعوباً، مهذاراً.. تعامل كثير من الشعراء والأدباء في أوروبة وأمريكا وقد وافق بعض الكتّاب العرب على هذا التعريف للتاريخ، فقال خيري منصور مثلاً: «التاريخ ليس مبارزة تحتكم إلى الفروسية وقيمها، إنه محشو بالدسائس والمكائد والمؤامرات حتى جذوره» (الخليج، الشارقة، ٢٠٠٧/٦/٤) لكن ما ذهب إليه كارل ماركس لا يبتعد عن جوهر ما قاله أبو الدرداء قبله بألف وثلاثمئة سنة:

«معــروف زماننا منكر زمــان قد فات، ومنكره معروف زمان لم يأت».

انسحب هــذا الفهم الماركســي للتاريخ علــى الزمن أيضاً بشكل ما في قول الشاعر والمسرحي الألماني المبدع (رتولد بريخت):

«أي زمن هذا الذي يوشك فيه الحديث عن

الأشجار أن يكون جريمة،

لأنه يعني الصمت عن فظائع أشد هولاً».

وذهــب الشاعــر الروســي (يفغينــي يفتوشينكــو) أبعد مما بلغه بريخت، إذ قال في إحدى قصائده:

«لم تكن الكلاب تعثر على اللحم،

فكانت تضطر أن تأكل الزمن!».

أما الشاعرة البلجيكية (ميريام فان هيي) فتعاملهــا مع مصطلح الزمن مختلف فتقول مثلاً في قصيدتها «في الطريق السريع»:

«كان بإمكانك أن ترى

كيف كانت الريح تسف

كان يوم أحد، صباحا

خارج حياته وحياتنا

وقف هادئا تماما

مثل حصان في مرج مر عليه الزمن

مكثنا ساعة أو أكثر

غير قادرين على الكلام

عندها تناولت ورقة وكتبت:

هنالك كلب يقف على السطح

وكان الوقت صباحا باردا

ونحن نسير مسرعين في الطرقات..»

ولله في خلقه شؤون!

❁ ❁ ❁

نهــى الإمام علي بن أبي طالب عن شتم الزمان ولومــه، التزاماً بما حضــ القرآن الكريم عليه، وهــو ما شددت السنة النبوية عليــه أيضاً، من تحمــل الإنسان والمجتمع والأمة مسؤولية أعمالهم «**وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى**» وكذلك «**فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ× وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ**»، لكن مبالغات أكثر شعرائنا المعاصرين ذهبت بعيداً في لوم وتحدي الزمن والأقدار والتأرجــح بين التغني بالتاريخ أو شتمه لقد دعــا الإمام الشافعــي إلى التحلل من ندب الحظ ولوم الأيام وشتمها، فيما يخرج عن المسؤولية البشرية من قضاء وقدر:

دع الأيــام تفعل ما تشاء
وطب نفسا إذا حكم القضاء
ولا تجزع لحادثة الليالي
فما لحوادث الدنيا بقاء

لكن واقع الحال في حياتنا المعاصرة هو تفاقــم واستشراء توجيه اللــوم إلى الأقدار والزمــان والليــالي والتاريــخ في كل صغيرة وكبيرة في حياتنا العربية المأزومة.

ويكاد المرء يعذر شعراء صفعتهم الوقائع وصدمتهم الأحداث التي كنست أحلاماً وردية زرعوها في مخيلات الناس، وبددت قلاعاً من الوهم أقاموها على تخوم غد زعموه واعداً بالانتصارات، وعرت أصناماً بشرية أغووا الناس بعبادتها زاعمين أنها صانعة معجزات فبدت إمعات هشة بائسة أليس هذا حال أكثرنا، فلماذا يلام الشعر والشعراء عندما تتقافز تلك الأصنام البشرية من وعودها إلى نقيض ما بشرت به وادعته ووعدت به من تحرير وتوحيد واستعادة كرامة وتحقيق رفاه، ومع ذلك تظل تجد من يسجد لها غباء أو نفاقاً أو رعباً أو قهراً؟ ألم يصبح حال وعود وعهود وأهداف مدعاة سرعان ما نكص أصحابها عنها بعد أيمان مغلظة على إنجازها أشبه بغودو الذي لن يأتي، أو بميعاد عمر بن أبي ربيعة إذ اشتكى:

كلما قلت متى ميعادنا

ضحكت هند وقالت بعد غد!

وفي سياق ما شاع بين عرب الأمس من إلقاء اللوم على الزمان والتذمر منه، حذرت أبيات مرة السخرية، نسبت للشاعر المصري حسن بن خاقان، ونسبها بعضهم إلى شاعر دمشقي، من طغيان هيمنة اليهود على عالمنا قبل نحو قرنين:

«يهود هذا الزمان قد بلغوا

غاية آمالهم وقد ملكوا

المال منهم والجاه عندهم

ومنهم المستشار والملك

يا أهل ذا العصر قد نصحتكم، تهودوا، فقد تهود الفلك!»

لكن نزار قباني عارض هذا في خطابه إلى أطفال انتفاضة الحجارة في فلسطين الذين اعتبر أنهم «بهروا الدنيا وما في يدهم إلا الحجارة، وأضاءوا كالقناديل..»، فقال:

«إن هذا العصر اليهودي وهم سوف ينهار لو ملكنا اليقينا..»

لقد لمس نزار تراكم فعل يؤسس لغد مختلف مع تعاقب أجيال الفداء والإصرار الأسطوري الفلسطينية، ويدرك أن الحاضر في حياة الأمم -كما في حياة الفرد- هو لحظة الفعل الذي يُصنع المستقبل به. وكأنما أنساه تراكم هذا الفعل ما كان قاله قبل سنوات قليلة في موضع آخر سوداوي من قصيدته (من قتل مدرس التاريخ) التي استشهدنا ببعضها أعلاه:

«من أين يأتينا الفرح

ولوننا المفضل السواد

نفوسنا سواد.. عقولنا سواد

داخلنا سواد.. حتى البياض عندنا

يميل إلى السواد

من أين يأتينا الفرح

وكل ما يحدث في حياتنا مسلسل استبداد».

وهو نفسه قد قال في قصيدته «منشورات فدائية»:

«يا آل إسرائيل لا يأخذكم الغرور

عقارب الساعة إن توقفت

لا بد أن تدور

إن اغتصاب الأرض لا يخيفنا

فالريش قد يسقط من أجنحة النسور

والعطش الطويل لا يخيفنا

فالماء يبقى دائما في باطن الصخور

هزمتم الجيوش، إلا أنكم لم تهزموا الشعور

قطعتم الأشجار من رؤوسها

وظلت الجذور».

تدفقت مياه كثيرة في جدول حياتنا العربية منذ تحدث نزار قباني بهذه الثقة عن عودة عقارب الساعة إلى الدوران بعد توقفها. كان من تلك المياه ما هو آسن وملوث وموبوء.

وبعد، قد يكون التاريخ ماكراً، وقد يحلو لكل منا أن يتهم الزمن بالغدر، أو أن يسم الأقدار بالظلم والعبث، لكن جوهر الحقيقة هو أن الإنسان مصدر ما يكابده الإنسان، وأن التغيير يبدأ من الذات وبها، شعراً ونثراً وسلوكاً! لذلك خرج من يصف راهننا وما تراكم من إحباط وانكفاء بصراحة أشد، وبواقعية أدق، كقول د. قاسم عزاوي في قصيدته (صرخة):

«ما عاد يشغلهم سوى

فاتورة الماء التي ارتفعت

وسعر الكهرباء

والخبز والمازوت

في حمى الغلاء

فالقوم قد صاروا عبيدا للرغيف»!

وقد استخدم عزاوي نفسه تعبيراً مبتكراً في حديثه عن الوقت إذ قال:

« عبثا تسير على رمال الوقت

ممتطياً ظلالك

فاردا جنحيك

متكئا على كتف الفرات

لا تبك يا بن أمي على قتلاك

فالموتى استراحوا

وأنت وحدك في الفلاة

وليس يسعفك الصفير

وقد غزاك الخوف

والوجع المقدد

والدوار..»

لكن هذه الواقعية في التعامل مع الزمن -ماضياً وحاضراً- المتحررة- إلى حد بعيد- من الشعاراتية والغرق في التباهي قد نحت منحى آخر لدى جيل الشعراء الجديد في عدة مجتمعات عربية. نقرأ مثلاً عن تزاوج

محنة الفرد/ الوطن في قصيدة (عند برودة المرمر) للشاعر العراقي ماجد موحد:

«تبا للنهايات!

تأخذ دهري الصغير

إلى سبات مفتعل

إلى صخب يلهث بين فراشات ميتة

..

أين ذهبت أيتها السنوات الصغيرة!؟

أين طفولتي؟

كل طفولتي سنة واحدة

تعلمت من خوفها شهرا منهزما

كانت الليالي تركض باتجاه النهارات

النهارات التي أوقفها الفزع

عند لحظة ميتة..»

يطالعنا وجه مختلف للضياع والإحباط وإحساس الهزيمة وعبث الزمن، بصباحه وسنواته، في قصيدة (العداء) للشاعر المصري إبراهيم داود:

«طريق واضح بشكل مريب

ونهايته واضحة

وقفزة واحدة تكفي..

ليتجاوز وخزاً

خرج منذ الصباح معه

..منذ سنوات وهو.. هكذا!

يتقدم قبل «شارة» البدء

فيفقد قوته وحماسه

عندما يضطر؟ بحكم اللعب؟ أن

يعود كما كان

كان باستطاعته أن ينتظر

ويأخذ نفساً عميقاً

أو يعد من واحد إلى عشرة

..ولكنه منذ سنوات.. هكذا!

لا يستطيع ولا تحتمل رئتاه نفسا عميقا

..

لم يهتم أبدا بمتابعة النجوم

لأنه يغلق الشباك دائما

ولا ينظر إلى السماء أبدا

لأن الله طوال الوقت معه

ولم يفهم كيف سيلتقي بحبيبته

غدا

ولكنه يعرف جيدا أنه

يجري

فقط.»

أما رفعت سلام، وهو شاعر مصري أيضاً، فقد تحرر من الوقت. فقال في قصيدته (لماذا):

«..

أنا مفترق الأوقات

لا وقت لي

صخرة في هزيع الفصول

تخزن الرياح والشهوات الغامضة،

..

فلماذا تضيق العبارة والوقت،

لماذا يضيق عني الجسد؟

حقل خصيب لاشتجار الشهوات النافرة»

مضى شاعر مصري آخر أكثر شباباً، هو حسن خضر، يوغل في مخالفة سائد التعامل مع الوقت، فقال في زفرة حنق إزاء واقع موغل في الظلم والبشاعة:

«حين صرتم كلبين تماما

تركنا النهار لكم،

لسعيكم،

لعوائكم الخائب.

نحن الكلاب الحقيقيين

لا نحمل سوءا لأحد،

لكن خوفكم يوقظ ذاكرة الطرائد

فينا

خوفكم يسعرنا

لتتركوا الليل لنا

لعوائنا الذي نادرا ما يعود

بعد أن فارقنا الرمل والزراعات

ولا تركضوا وراءنا في الشوارع

فالأحجار آلمت أجسادنا

وأقعدت كثيرين منا

ربما. إلى الأبد.

ومثله زهرة يسري، الشاعرة المصرية المولودة بعد عام من حرب ١٩٧٣ التي أصر السادات أنها آخر حروب مصر، وإن كان قد أمر جيشه بعد ذلك بخوض حرب ضد ليبيا، فقد عبرت عن هموم جيلها واهتماماته وضياعه، والإكثار من اللجوء إلى النوم حلاً:

«أشرب القهوة ثم أعود للنوم

أنهض لآكل شيئا

أفكر قليلا.. أشرد.. في لاشيء

أعود لأنام مرة أخرى

أنام كثيرا

وأنا نائمة تكون لدي رغبة قوية في النوم

..

أنظر إلى الصورة المعلقة فوق سريري،

يدان تتلامسان في لحظة الخلق مذيلة بأسماء

شهور العام

خمسة عشر عاما وأنت هنا. فوق سريري

علامة على تاريخ، بالتأكيد أنا التي وضعتها،

ربما كان موعداً أو يوم ميلاد صديق

أردد التاريخ بصوت مرتفع لكنني لا أتذكر شيئا

عن العلامة أو الصورة التي أصبحت جزءا من الحائط

يجب أن أنزعها عندما أستيقظ

أطفئ النور وأعود للنوم

أفتح عيني مع صوت احتكاك الجريدة والبائع

يلقيها أسفل عتبة الباب

منذ أسبوع والجرائد تتكوم خلفه

أفكر في عدد الأخبار والجرائم والجثث،

ليلا سألصق ورقة على الباب، لا أحد هنا».

وجمعت الشاعرة المغربية الشابة فاطمة الزهراء بنيس في قصيدتها (ترتيلة فجر) ما بين بداية حملات بشارة ميلاد وترتيلة فجر ونهاية تمثلها مسيرة نعش وكفن، وبينهما طواف ما بين سقام الممكن وجحيم المبتغى:

«هي ذي أنا..

وقد بزغت مكفنة بالوحي

معطرة بنفح الرياحين

تزفني

شموع قلب

خلا..

حتى هوى

أين أنا؟

لأناهز مسيرة نعشي

وأبشر العالمين بنبوة ميلادي

ترعشني

قدسية هذا الإيقاع

وكأنه رنة أذان

أو ترتيلة فجر

مهيب هذا الحلال

وأنا المتصوفة في خلده

تتعالى حولي شواظ

تشعرني

بالرجم

أهو الزهد

أم الرهب من سما الطائعين؟

أنا المحرمة

على نفسي

تؤنبني نفسي

إذا اعتراني قدر العاشقين

(طوافي حول الممكن

سقام

وطوافي حول المبتغى

جحيم)»

أما قصيدة (سكوت) للشاعر المصري عماد أبو صالح، فقد جاءت صارخة في تصويرها واقعاً مأزوماً في «دقيقة» صمت وتوقف عن العمل تعبيراً تقليدياً عن حزن و«تعاطف» مع.. الذات:

«لنتوقف دقيقة واحدة

دقيقة في الواحدة ظهر غد.

العمال والماكينات.

الكلاب والعصافير.

نحن لا نعول على القطط كثيرا

إنها كائنات رديئة

لا تصلح لأي شيء، على الإطلاق.

لا تحرجنا من فضلك أيها العازف،

البيانو ماكينة أيضا.

يا للخادمة التي يحترق الطعام أمامها ولا تحرك يدها لتنزله

يا للدمعة الرائعة

التي تتوقف بين العين والفم.

العربة التي ستتحرك
ستصطدم بأخرى تتحرك
في نفس اللحظة.
انظروا للص الطيب
الذي يرفض أن ينزع يده
من الخزينة!
..
شكرا للموتى
الذين يستغرقون
- أكثر-
في الموت
للنائمين بصدق
لا للتمويه
والتحرك في الأحلام
..نصف المولود في الخارج
وترفضين أن تنزلي نصفه الآخر؟!
..
ها هي معلقة عند الطابق السابع
هذه الفتاة المنتحرة
..نعم هكذا
سنتوقف
ونفكر سويا أيها الأخوة
ربما نفهم ما حدث».

في المقابل، لم تعدم كوليت الخوري التفاؤل والثقة بالمستقبل -خلافاً لما طغى في أكثر شعرنا المعاصر انشغالاً بالماضي والتاريخ والحاضر المثخن بالجراح، فراحت تقول في قصيدة حديثة لها عنوانها (من القلب):

«**رأيته.. يحمي وطننا في صدره**
ويرفعه
على عرش من القيم
فأسرعت أحضن المستقبل
أغنية جذلى جديدة
وهرعت إليه
إنسانة معافاة.. سعيدة!»

❀ ❀ ❀

بعدما تمعنا في بعض ما قاله شعراء في التاريخ والزمن، نتذكر قول الفخري الرازي منذ ألف سنة عندما سئل عن التاريخ : «لم نستفد من سعينا طوال عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا، فإن نحن وصلنا إلى هذا الدرب المسدود فهذا موت محقق لنا».

ونقف أيضاً لنتمعن فيما ذهب إليه د. محمد جابر الأنصاري إذ كتب قائلاً: «يحتاج العرب إلى تغيير نظرتهم للتاريخ، ومنه تاريخهم بطبيعة الحال، ليعرفوا كيف يجب أن يتعاملوا مع واقع العالم الذي هو حاضر التاريخ البشري، فالمسألة ليست مسألة تاريخ، وإنما مسألة حاضر. لقد تأسس الوعي العربي الحديث على نظرة رومانسية

للتاريخ لا تهتم إلا بالبطولات والأمجاد، وتجنح في أحيان كثيرة إلى الأسطورة والخرافة مما يشيع فيه وعياً مزيفاً ومضللاً بواقع التاريخ الذي تتحرك قوانينه كما تتحرك قوانين واقع العالم المعاصر، مع فارق المتغيرات والمستجدات التي تبقى محكومة -وان استجدت- بقوانين الحركة التاريخية في ماضي العالم وحاضره على السواء وهي قوانين من دروسها أن تاريخ الأمم صعود وتراجع ثم صعود في منحى آخر حسب الإرادة العامة ولا توجد أمة خرجت من التاريخ إلى الأبد، إلا إذا أصرت على إعادته بحرفيته المقتضبة» (محمد جابر الأنصاري، ابن خلدون مقيماً في أوضاعنا العربية، الخليج، الشارقة، ٢٠٠٦/٣/١٥).

يحتار التاريخ بنا، إذ نكاد نعبده يوماً وننكره آخر، ولا نلبث أن نكتشف لعبته متأخرين، سواء عبث بنا أو عبثنا به، في الشعر، كما في سائر تعاملاتنا! ويظل الزمن يسكننا على أي حال، بمبارحه وقادمه، هاجساً أو ملهماً أو مستودع ذكريات مريرة أو فسحة أمل أو وهم. لكن أكثر ما يؤلم هو أن يمد هذا الزمن لنا لسانه ساخراً، لأننا لم نوطد أنفسنا بعد على حقيقة أن أفضل طريقة للتعامل مع التاريخ ليست في قراءته ولا التحكم بكتابته وصياغته، بل أن نصنعه بأنفسنا وقائع وإنجازات، بدلاً من فيض حديث وتكرار تفجع ونثر ذكريات مشتهاة في أثلام الذاكرة المرهقة.



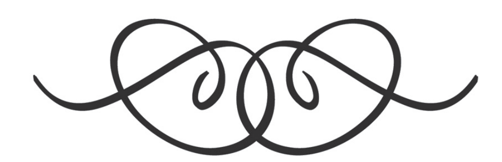


شـــعر :

- الشعر في يومه العالمي — سليمان العيسى
- معلقة غزة على أسوار القدس — خالد أبو خالد

قصة :

- حكاية سعدة من ضيعة حندرات — د. عبد الكريم الأشتر
- من الماضي — حسن إبراهيم الناصر





الشعر في يومه العالمي

سليمان العيسى ❁

بضربة ريشة على وتر
بقافية تطوي الزمن عصماءَ، ناضرة،
من شعرنا الجاهلي..
قرأتُها مرة محفورةً على صخرة
في أعماق اليمن
ما زالت ترِنُّ في سمع الدهرِ، وسمعي،

❁ شاعر العروبة والطفولة الكبير.
❁ العمل الفني: الفنان رشيد شمه.

منذ نَيفٍ وألفيّ سنة..
ببيت حماسة أو غزل،
سجَّله أبو تمام يوماً
في مفكرته الخالدة: «الحماسة»..
أو صديقنا الحميم
«بودلير» في زهرة من ديوان «أزهار الشر»
ينفضُ الشعرُ كلُّه جناحَيْه..
ويعود إلى الحياة
بعد أن كادت تطويه إلى الأبد
عجلاتُ أسرعِ قاطرةٍ
«أبدعَتْها» حضارة العجلات الحديثة..

يعودُ الشعرُ إذنْ بكل نبضهِ،
وطفولتهِ، وجمالهِ،
لتحتلَّ أبياتُه، ومقطوعاتُه الجميلة،
حديد الأبراج العالية،
وجُدرانَ محطات الأنفاق «المترو»
وواجهات المخازن الأنيقة
في عواصم الأناقة، والضوء، والحركة.

هذا ما أنبأتني به الإذاعات،
وما روته الصُّحف.. منذ زمن غير بعيد.
وتسمعون النبأ مثلي..
وترتاحون له كما أرتاح
ونتنفَّسُ معاً الصُّعَداء..

الشعر يعود إلى الحياة..
العصافير تعود إلى غنائها..
والفراشاتُ إلى أجنحتها..
والأزهار إلى عبيرها..
والسواقي إلى وشوشات مياهها..
ومنذُ أمَدٍ بعيد..
كانوا ما يفتأون يردِّدون
أن هذه الأشياءَ «القديمة»
قد ماتت وانقرضتْ
وأن الشعرَ أصبحَ من «ذكريات الماضي»
الذي لا يحن إليه أحد.

❁ ❁ ❁

الشعر.. هذا الكائن الغريب المجهول، الذي ما زال يشدنا إلى أسراره وكنوزه، وهي في الوقت نفسه أسرار النفس البشرية وكنوزُها، الشعر الذي ما زال يتحرك ويحرِّك بالرغم من جبروت الآلة، وطغيان الأسلاك الميتة، على الشرايين والأوردة، التي تنبض بالحياة، في عالمنا المظلم المضيء في آن. أما الشعر هذا الكائن الغريب المجهول فسوف نظل نحن العرب من عشاقه ورفاقه، وأصحابه وأحبابه، ويظل من عشاقنا ورفاقنا، نحاول أن نعطيه دماً جديداً، ويعطينا دماً جديداً



كل يوم. لقد كان ديوان العرب، وسيظل ديوان العرب النابض بالحركة والحياة إلى ما شاء الله. سأختم كلمتي الصغيرة هذه بأبيات كتبتها يوماً في أحد دواويني بعنوان (رحيل الشعر): أقول للشعر:

ويقال: إنك قد أفلتَ.. وصار وجهُ الأرض قفرا
لِمَ تسكبُ الشمسُ الشعاعَ إذاً؟ يضوعُ الوردُ عطرا؟
لِمَ في خيوط الفجر توقظني عصافير الصباح.. تقولُ شعرا؟
لِمَ نحملُ الزهرَ الجميلَ لمن نحبُّ.. ونتركُ اللحظاتِ سكرى؟
لِمَ تشتهي كلُّ الصبايا أن تزفَّ لهن شطرا؟
لِمَ نملأ الأوتارَ منك.. ونرشفُ الكلماتِ سحرا؟
ستموتُ أشياء الجمالِ إذا رحلتَ..
ونستحيلُ دُمىً وصخرا..





معلقة غزة على أسوار القدس

شعر

خالد أبو خالد*

إلى الصديق والسند أبو كريم

لنخيل غزة.. ما أراد.. ومايريدُ

وما أريدّ..

لنجومه الأصفى.. تكون قصديتي قمراً

وبيتا لانتصار البر.. في لغتي..وزيتوناً..

ودارٌ..

* أديب وشاعر وناقد فلسطيني

العمل الفني: الفنان مطيع علي.

بيني.. وبين البحر قتل دائمٌ
بيني.. وبين القدس نيران مركبةٌ
ونارٌ..
أنا حارس الحلم النبيل على شبابيك البيوتٌ..
سأعود في نارنجة حلمت طويلا بالجليلِ
أعود كي أجد الخليل.. لأصطفي قلبا لدالية
تموتُ..

ولا تموت غزالة.. قطعت على الصيادِ
نشوته.. ووزعت الشظايا.. فانتهى
الصياد في نعش القتيلٌ..
لنخيل غزة أن يرى.. ماسوف يحدثُ..
أو جرى.. لدم المدائن.. والقرى..
بين الرصاصة.. والقذيفة.. والوريدٌ..

لسماء قريتنا تغني نخلة في القدس - عاليةَ
الجبين - ولا تؤرقها القصيدة.. أرقتها
وردة المعنى.. تؤرقها الطفولة في الحريقٌ..
ويحيلها الموت المفاجىء جملةً

في دفتر الشعراء.. أو صحف الصباحٌ..
لربيع أطفالي الربيعُ..
لزرقة البحر المسافر في دم المرجانِ
والهندي أخضرٌ..
أروي الحكاية.. والحكاية بين مذبحتينٌ..
مذبحة الجميلة.. والجميلٌ..
وكسرة الخبز المغمس في الردى..

زيتا.. وزعترٌ..
أروي الحكاية للرعود.. وللبروقِ..
وللرياحٌ..
إني أخاصر بئرنا الأولى.. لأدبكَ
خارج النثر المرواغ في السياسيَّ البليغِ..
أو البليد..

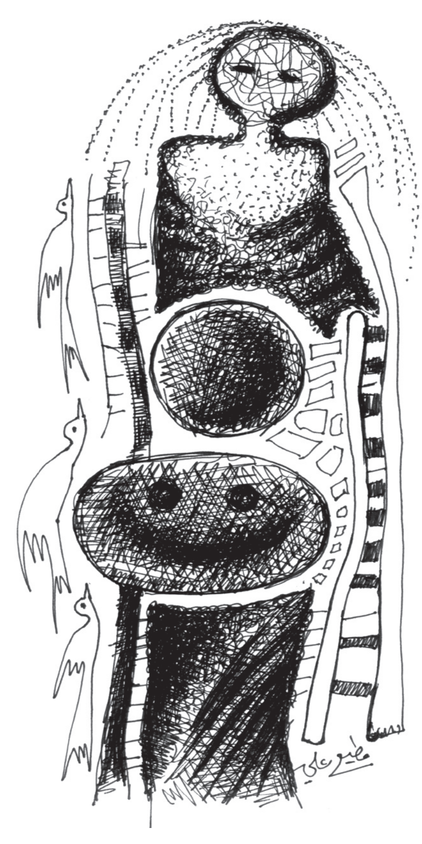
لنخيل غزة.. أن يحاكم في الرمادي الشقيقِ..
رماده.. ليظل أسودٌ..
أنا في الرماد نهضت مرات بأجنحتي..
وفي النيران.. أنهضٌ..
أنا لي من الأحلام.. أحلامي.. بما يكفي..
لأصمدٌ..
أنا لي من الألوان.. لون صواعقي.. والأفق أحمرٌ..
كان المقرر أن أموت.. فلم أمتٌ..
كان المقرر أن يغيِّبني الرحيل.. فلم أغبٌ..
كان المقرر أن أعيش مجرداً من ذكرياتي..
أن أكون كشاخص الإسفلت.. منسياً
وأنسى..
ومضى المقرر في الدخان.. وصار رمسا

لقلاع عكا.. أن ترى دمنا . . وتشهدٌ..
نمت البطولة.. في الطفولة حالةٌ..
كبرت لنصعدٌ..
أمّا الضفاف.. فللضفاف.. ولمن يموتُ

على الضفافْ..
ويظل حيا نهرنا المتدفق العاري.. المصفَّدْ..
الريح أجمل بالغناء.. الريح يحملها الغناءُ
إلى الغناءِ..
وأنتِ موسيقى.. وأجملْ..
أنتِ للِشقِّيق أعراس.. وللأعراسِ
أجراس.. وبيدرْ..

لنخيل غزة وحده جدلية الرؤيا.. ومعرفةُ
العدو من الصديقْ..
وهو الذي فضح الجريمة.. والجنونْ..
وله الدخول إلى الصدى.. وله المدى
وله جمال القادمين إلى العريش.. الذاهبينَ
إلى صلاة الفجر.. في القدس السعيدةِ
في البعيد المخمليّ..
وله نشيدي في النشيد المطلق الأبديِّ
في لغتي البديلةِ..

أنا لي شمالي في الجنوب.. ليَّ الجهاتُ
جميعها.. وليَّ الفصولْ..
لجنوب موالي.. مواويل الغيومْ..
لشمال موالي.. مواويل السهوبْ..
ولغرب موالي.. مواويل الجبالْ..
ولشرق موالي.. مواويلي تؤولْ..
لنخيل غزة - طاهرا كالزنبق البري - أذهبُ



في مواويل الطفولةِ..

لجمال سيدة تساهرها الدموع.. على الشموعْ..
لبرتقالتها الكريمة.. برتقال الشمسِ..
- في العسل الجليلْ..
سر إئتلاف السم في الدفلى
مع الورد الحنونْ -

لمساء قهوتها.. الحضورْ
ليَّ الأغاني تحت شرفتها.. جبال في البعيدِ..

تعيش ـِ السحب البعيدة.. والغموضِ
الأجمل الشتوي.. ـِ الزمن الطروبْ..
لجمالها نفرت قصائدها خيولاً ـِ الخيولْ..
ولأنني دمها.. اشتعلت محلقاً نحوي
لتشتعل النسورْ..

لنخيل غزة.. أن يساهرها.. على البلح الطهورْ..
وله المساحة..والنوافذ كلها..
حرية الإبداع ـِ الزمن الجسورْ..

لحريق أهلي.. صورة.. أو صورتانِ..
وصورتان.. وصورتان.. وصورتانِ
وصورتانْ..
أهلي الغلابا.. طيبونْ..
وبعض أهلي يغلقون عليَّ بابي
ـِ الزمان.. وـِ المكانْ..
وبعض أهلي.. بيدقٌ ـِ المهرجانْ..
وبعض أهلي ـِ قصور الملحِ
بعضٌ ـِ الحصار.. يحاصِرون عدونا..
فيُحاصَرونْ..
وبعض أهلي.. ضالعون مع العدوِ
وكالقطيعْ..
وبعضهم زرع الكراسي.. ـِ الكراسي..
واشترى بدم الطفولة صولجانْ..

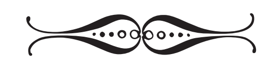
لنخيل غزة أن يحاكم بعضهم ـِ الضوءِ..
أو قبل اكتمال الليل.. ـِ ليل يخونْ..

لكتابة القلب المعلق -للصبي.. وللصبية-
بالقلوبْ..
لكتابة تجد انتشاري.. ـِ المناـِ.. والدروبْ..
وكتابةٍ.. كشفت.. مرارات الحروبْ..
لفجيعة الزمن المؤقتْ..
وجدت كتابة شاعر .. منذورةً
كيما تزول الفاجعاتْ..
وأنا الكتابة -لو تنافر معنيانِ-
دم الكتابة ـِ الكتابة.. لو تآلف معنيانْ..
شجر.. ومفتاح الكتابة.. نور أمي..
ثوبها والشمعدانْ..

لنخيل غزة أن يحمِّلني عليَّ..إلى المقدَّس
أن يعلمني القراءة.. والكتابةِ..
أن يقدمني إلى المعنى / نخيلا ـِ النخيل / لكي
أرى المبنى.. وأشتقّ الجميلْ..
لطيور غزة قوة الأشياء.. خاطَرَها
السحاب إذ استجبت.. أو استجابْ..
طير الحمام على القُبابْ..
برج القيامة ناطر.. يوم القيامةِ
ـِ النخيلْ..
يوم العبور إلى السواحل.. والبحارْ..
لنخيل غزة ميجانا.. ياميجانا الحزن الخضيلْ..

لنخيل غزة أن يلم صغاره.. في العيدِ
في الفرح البسيطِ
له على البرق المؤجل.. موعدانِ
فموعدٌ لصغاره الناجين.. من زبد الدمارْ..
وموعد يضع الحدود لم يؤنسن ذئبةً
باسم الذهاب إلى السلامْ..

لنخيل غزة أن يراسل صخرة في السِّنْدِ
أو نخل العراقْ..
لنخيل غزة بوصلات الدم.. في جسد البراقْ
لنخيل غزة أن يقاطع مايروِّجه العدوِ..
وماتروِّجه المزارعُ
أن يحاور كل من جاؤوا إليه من الشوارعِ
كل من وصلوا إلى الفعل المضارعْ..
أنا لايؤرخني الغزاةُ
ولايؤرخ طفلتي عبد الغزاةْ..
إني أؤرخ في البلاد.. لما تؤرخه الجيادْ..
وماتشكل بالحديدْ..
وبالرمادْ..





حكاية «سَعْدة»، من ضيعة «حَنْدَرات»

قصة

د. عبد الكريم الأشتر ❁

«حَنْدَرات» ضيعــة قريبة من حلب، تُعَدُّ اليوم من أريافها. يعيش سكانها في ودٍ متبادل. كانت لوالد الصبي، الذي يحكي حكايتها، صِلاتٌ قوية بأهلها، ألِفَهــا الصبي، فــكان يسأل أباه، في الصيــف، أن يرسله مع من يحضر من أهلها، فيُردفه وراءه على الدابَّة، ويسير به حتى يشرف على بيوتها الطينية.

وكانــت «بَسَّة»، وهو اسمها، واحدة من نســاء القرية، ولها مكانة خاصة في نفس الصبــي، إذ كان كثيراً ما يراها تزورهم في بيتهم في حلب، فتدعوه

❁ أديب وناقد واستاذ جامعي (سورية)

العمل الفني: الفنان شادي العيسمي.

إليهــا، لحظة دخولها البيــت، وتأخذ تقبّله وتلفّه وهي تضــع صُرّة الخبز التي حملتها، بين يديــه، وتردد، بلغتهــا المختلطة، كلاماً ما يــزال الصبي، إلى اليوم، يذكره، ويردده، بينه وبين نفســه: «آبوي..خبز التنور.. أنت تحبه»!

وكانــت لوالــد الصبــي، دكان في أول الســوق، في الحي الشعبي الــذي نشأ فيه، فــكان الصبي يــرى بعض رجــال الضيعة يأتون إليهــا في الشتاء، فيُقرضهم أبوه مالاً يتعهــدون بسداده مما يبيعــه لهم من نتاج أراضيهم في الضيعة، من أحمال البطيخ.

كبِر الصبي، وأصبح قادراً على أن يتولى إيصــال أحمال البطيخ إلى مَــن يشترونها، من أبيه، بالجملــة، ليبيعوها، في دكاكينهم المتفرقــة. وكان للصبــي أخ يكــبره ببضع سنــوات، اسمه «الحسن»، يَقــدِر أن يرفعه على ظهــر الدابة، بعد أن تُملأ «سَريجتها»، من طرفيها، بكومة البطيخ المشتراة، ليصل بها إلى أصحابهــا، ويعود مسرعاً إليه، وهو يتمايــل على ظهــر الدابة، يُرخــي رسَنها ويشــدّه، ويصيح بهــا إذا توقفت، ويجد في ذلك متعةً كبيرة. وقد رأته «بسَّة» مرة يتمايل علــى ظهر الدابَّــة فصاحت بــه: «لا تفعل هكذا.. أخاف أن تقع»!

عاد الصبي يوماً إلى البيت، بعد أن أنهى عمله، فوجد فيه فتاة شابة، رآها منزوية في أحد أركان البيت، وسمع أمه تناديها باسمها «سَعْدة». وسمعهــا تذكر معه اسم «قَنَّاص»، وهو شاب قــوي، طويل، كان الصبي يُعجب به من بين شبان الضيعة، إذ كان يضحك له حين يراه، ويسمعه يتحــدث، فيفهم كلامه كله، لا تعترضه فيه كلمة غريبة.

لا يــدري الصبــي ما الــذي جذبه إلى الفتاة: نظرتها الخائفة، أم بسمتها الكئيبة، أم انزواؤها في ركن البيت. ثم إنه دخل يوماً الغرفــة التي تنام فيهــا، فوجدها مجموعة على نفسهــا، ضمت ركبتيهــا إلى صدرها، وبــدأت أنفاسهــا تتلاحق. فوقــف يتأمل وجهها: خط عينيها الأسود الطويل، ونعومة أنفها، وسمــرة بشَرتها الخفيفة. وقد انزاح الثــوب عنها، فبدت ركبتاها اللطيفتان تشع سمرتهما كما لــو أن نوراً غامضاً، من جهة مجهولة، ينسكب عليهما!

تحركت حركــة خفيفة، وفتحت عينيها، فرأته ينظر إليها، فلم تزد على أن ابتسمت له ابتسامتهــا الكئيبة، ومدَّت رجليها وردَّت ثوبها، وسألته وهي تتهيأ للنهوض:

– قــل لمامــا: إني لســت نائمــة.. هل تريدني؟

ثــم بلــغ الصبــيَّ كلام كثير يــتردد في البيت، لم يفهمه أول الأمر. ثم أدرك أن اسم

«قنّاص» الذي تردده أمه بغضب، وهي تنظر في وجه «سَعْدة»، كان صاحبه اختلى بالفتاة في بيتٍ من بيوت الضيعة، خُلوة طويلة، وأهلها غائبون في حلب. فلما عادوا بلَغَهم الخبر، فقرروا أن يقتلوا ابنتهم محواً للعار. وتنادى الشباب في الأسرة، لتنفيذ الحكم، ولكن الجيران أسرعوا فاختطفوها، ويسَّرت أم الفتاة لهم الطريق، فجاؤوا بها إلى حلب، وسألوا والد الصبي أن يخفيها في بيته، إلى أن تُسوّى المسألة على نحوٍ مُرْضٍ، يدخل فيه والد الصبي، ليتم عَقدها على «قنّاص»!

لحظ الصبي، مع الأيام، أن أخاه «الحسن»، وقد شاع الخبر في البيت، يطيل النظر إليها. وسمعه يقول: إنها مظلومة تستاهل العطف! وأصبح، من بعد، يُحضر لها قِطَعاً من الحلوى، ويدفعها إليها في السرّ. ويبدو أن أم الصبي لحظت ما لحظه الصبي، فبدأت تراقب ابنها، وتسعى إلى إبعاده عن الفتاة «سَعْدة»، وبدأت تكلفها أعمالاً تَغيب في قضائها عن نظر ابنها. وأحس الصبي، على توالي الأيام، وعلى نحوٍ غامض، بوادر عاصفةٍ توشك أن تهب على البيت. وبدأت أم الصبي توصي والده، والصبي يسمعها حين يكون قريباً منهما: أن يسعى في إنهاء المسألة، وإعادة الفتاة «سَعدة» إلى ضيعتها!

ولكن أخا الصبي «الحسن» كان تجاوز، مع مرّ الأيام، هذه الحدود، فقد رآه يوماً يصعد إليها، وهي تكنس «المُرَبَّع»، في أعلى البيت. ولمحه، وكان على السطح، يمدّ يده فيمسح على وجهها، ويحاول أن يقرِّبها منه. ثم رآه مرة يَلحق بها، على عجل، وهي تدخل إحدى غرف البيت المعزولة، فتخفَّى يتتبَّع ما يجري بينهما، فرآها، بعد أن غادرتها، بادية الاضطراب، وقد اصطبغ وجهها بحمرة شديدة!

وجاءت «بسّة» بعدها، وقد وَكَلوا إليها القيام بالوساطة الخيِّرة، فأخبرت أم الصبي بأن المسألة أصبحت على وشْك أن تُحلّ، وأبدى «قنّاص» وأهله رضاهم عن زواج ابنهم من «سَعْدة»، وعودتها إلى بيتها، في الضيعة، لإجراء الاحتفال بزواجها فيه.

كان الموقف دقيقاً، زاده تأزّماً شعور «سَعدة» بالخوف من العودة، برغم تعهّد الأهل بالتزام ما وعدوا به. وقد رآها الصبي تبكي، في زاويتها، بحرقةٍ بالغة، ورأى أخاه «الحسن» يعدِّي عن الخروج من البيت، ويأخذ يسترق النظر إليها، وقد شحب وجهه، وأخذ يخرج من باب ويدخل في باب آخر من غرف البيت، ثم يعود إليها، فلا يحوِّل نظره عنها.

وبدأ الصبي يحاول، قدْر استطاعته، أن

يقرأ ما في نفس أخيه: هل أحبها وأحب أن تبقى إلى جانبهم في البيت، لا تفارقه؟ أم خاف عليها أن يصيبها شرّ في الضيعة؟

ثم كان يوم الرحيل مشهوداً: وقفت الأم، وقد أرضاها أن ترحل الفتاة عن بيتها، فأخذت تبارك لها في زواجها القريب من «قنَّاص»، وانتهاء الأزمة التي عصفت بحياتها وحياة الناس في الضيعة، وتحمد الله، أمامها، على انجلاء غمَّة الترقب والخوف. وقالت لها: إن بيتنا في حلب مفتوح لها حين تحسّ بالحاجة إليه، والفتاة تسمع، ولا تكف عن بكائها الصامت!



ثم رأى «سَعْدة» تتحول إلى الأم، وقد غطت الدموع وجهها، وتأخذ تقبّلها بحرقة، وتقول لها بلهجة من يطلب الحماية من خطر قريب:

– كذابون، إني أعرفهم، وأعرف ما ينوون. لن يدعوني أعيش.. سيقتلونني حتماً..!

ولكن الأمور سارت على غير ما توقعتْ «سَعْدة»، فقد مضت الأشهر الأولى بعدها، وأبو الصبي يستطلع أخبار الضيعة ممن يصل إليه من رجالها. وكانت «بسَّة»، من ناحية أخرى، تزورهم وتحمل إليهم، من أخبار «سعدة»، ما يطمئنهم عليها، حتى جاءت يوماً تزفُّ إليهم خبرها السارّ: ولادة الطفل الأول للعروسين..

سألتْها أم الصبي: وما سمَّوْه؟

أجابت «بسَّة»، وقد أشرق وجهها: سمَّته باسم ولدكم «الحسن»!

كان الصبي، إلى جانب أمه، يسمع أخبار «بسَّة». فلما نطقت باسم الطفل، سكتت

الأم، وظهرت الحَيرة على وجهها، فلم تنطق بشيء!

وتابعت «بسَّة» تقول: أقنعتْ «سعدة» زوجها وأهله أن يسموه باسم ولدكم، تريد، كما أخبرتني، أن تظل تذكر ما قدمتموه لها، قبل أن يتم زواجها من «قناص» وقد بارك لهم، إمام المسجد، من بعد، في تسميته، وقال «لقنَّاص»: «اسم حفيد رسول الله، أحسنتم الاختيار».

تشاغلت الأم عن «بسَّة»، وبدأت تتلفَّتُ من حولها، تريد أن تنهض. وأحسّ الصبي بحَيْرة أمه، فشغلتْه عن كلام «بسَّه»، ونهض وراءها.

ثم تتابعت الأيام، وأصبح الصبي في سني شبابه الأولى، وصار يعرف من معاني الأمور ما لم يكن يعرفه من قبل. وأقبل يوم سأل فيه نفسه:

- هل كان أخوه «الحسن» على صلةٍ «بسعدة»، أبعد مما كان يحسّ به تلك الأيام؟ وهل كانت أمه تعرف من أسرارها ما لم يكن يعرفه؟

ولكنه كان يبعد بنفسه عن الاستمرار في طرح هذه الأسئلة، ويكتفي بما كان يحسّ من إعجاب أخيه «بسَعدة»، وبوقوف الأم، عند هذا الحدّ أيضاً، في مراقبة ما يجري من حولها، في البيت، على حين كانت أخبار الضيعة تتوارد، يحملها مَن يقصد دكان أبيه، من رجالها، لاقتراض المال، أو لبيع ما تنتجه أرضه من أحمال البطيخ.

وتمنَّى الصبي - الشاب أن تتاح له زيارة الضيعة، بعد انقطاعه الطويل عنها، ليستطلع ما يجري فيها، فأسرع يأخذ رأي أبيه، فرأى أبوه أن تتم الزيارة في صحبة أخيه «الحسن»، فهو أعرَف منه برجالها وأحوالها.

أردفه أخوه وراءه على الدابة، وسار به في اتجاه الضيعة. فلما وصلاها زارا بعض بيوتها. وباتا ليلةً في بيت رجلٍ كانت لوالدهما صلة قوية به. ثم أقبل «قناص» يدعوهما لزيارة بيته. فوعده أخوه «الحسن» بالانتقال إلى بيته، في اليوم التالي.

أفاقا في الصباح الباكر، فأفطرا وشكرا صاحب البيت، واتجها إلى بيت «قنَّاص»، وكان في طريق الساحة التي يجتمع فيها شباب الضيعة وشاباتها، يمتحون الماء من الرَّكِيَّة، لينقلوه إلى بيوتهم. كان المشهد مثيراً، والساحة تعُجُّ بالأصوات. فأخذا يستطلعان الوجوه من حولهما، ويسمعان صرير حبل البئر يكرُّ على بكرتها المنصوبة على قوسها، مربوطاً بالدلو المدلاَّة في البئر، من ناحية، وبالدابّة التي تسحبه، من الناحية الأخرى. فإذا امتلأت بالماء، دُفعتْ الدابة، فسارتْ

شوطاً محدوداً، تصل به الدّلو إلى فم البئر، فتُفــرَّغ، لتعود إلى البئر مــرةً أخرى. ولكن صخَــب شبــاب الضيعة، مــن حولها، كان يجعل، من العملية، مشهــداً يبعث المرح في النفوس.

وكانــت شمس الصيف قــد بدأت تغمر أراضــي الضيعــة، وبــدت أشعتهــا تكسو حيطــان بيوتها الطينية، وتهبُّ، على امتداد أراضيهــا، نسمات الريــف النديَّة، فتحرك أعــواد الأعشــاب المتبقية فيهــا، من بعد الحصاد. التفــتَ الصبــي – الشاب، وهو مأخوذ برائحة الأرضــ، إلى أخيه، يريد أن ينقل إليه ما فعلتْ رائحة الأرض فيه، فرآه تائه العينــين، فسكت عنه، وأخذ يتلفتُ إلى بيــوت الضيعة، من الناحيــة الأخرى، وقد أخذت أشعة الشمس تغمرها في رفق.

ورأى «قنَّاصــ» أن تبــدأ الزيــارة، في أرضه المزروعة بالبطيخ الأخضر، في موسم نضجه الأول، لتكون البهجة فيها أكبر! فلما وصلوا إليها كانت أقراص البطيخ المتطاولة المخططة تظهــر كما لو كانــت تزحف من تحت عروقها الخضر، في صورة الأجنَّة التي تطالعه صورها، في ساعات ولادتها الأولى.

غــاب «قنَّاصــ»، ثــم عاد، بعــد قليل، يصحــب زوجه «سعدة» ووليــده «الحسن»، وقد أردفهما وراءه، على الدابة التي يركبها. ووجــد الصبي – الشــاب نفسه ينقل نظره عنهــم، ويتطلع في وجه أخيه، فرآه لا يحوِّل نظــره عن «سعدة» ووليدها. فلما نزلت عن الدابة طفر الولد من بين يديها، وجاء إلينا، يتردد في مِشيتــه، على حين أخذت «سعدة» ترحب بنا في حياءٍ بادٍ.

لم يتغير شــيء فيها: العينــان الحلوتان الواسعتان، والأنف الدقيق، والشعر الفاحم، والبشَــرة المُشْرَبــة بسُمــرة خفيفة. تلاقت عيناهــا، فجــأة، بعينــي «الحســن» أخيه، وارتدتــا بسرعة. لوى «الحســن» وجهه، ثم التفــت إلى الولد، فأخذه بــين يديه، وجعل يتأملــه، ثم اندفــع يقبِّله قبــلاتٍ متتابعة، وتمَّــم «قنَّاص» المشهد بقوله، وهو يضحك: «معلوم! اسمه «الحسن» أيضاً»! أما الصبي – الشاب، فقد أحســ بارتباك شديد، وهو يتأمل وجه الولــد، فالتفتَ عنه، وهو يقول لنفسه: ما أوسع هذا الوهم!

وانكفأت «سَعــدة» تسأل الأخوين، وهي تنظر في وجه الصبــي – الشاب، لا تتحوَّل عنه، عن أمهما وأبيهما، فرد عليها الصبي – الشــاب تحيتها، وهو يتطلع في وجه أخيه الصامــت. ثم جاء «قنَّاص»، وفي يده شرائح من أقراص البطيخ، وقد انشقتْ عن حُمرةٍ قانيــة، لا يــدري الصبي – الشــاب كيف ذكَّرتْــه، علــى الفور، بحمرة الــدم الطافح

من وجنتي «سعــدة»، في عودتها من الغرفة المعزولة في آخــر البيت، بعد أن تبعها إليها أخوه «الحسن»، كأن الوهم، لم يفارقه.

❁ ❁ ❁

في غبشـــة فجــر اليــوم التــالي، نهض الأخوَان، في صحبة «قنّاص»، وبعض رجال الضيعــة الآخرين، فاتخــذوا طريقهم إلى حلب. كانت نفس الصبي – الشاب، والرجال، من حولــه، يُغِذُّون السير، تغلي وهو يستعيد ساعة اللقاء «بسعدة»، وترتدّ لتستعيد صور الأيام التي جمعتهم بها، في بيتهم، في حلب، وما جرى فيه، وما جرى في «حَنْدَراتْ»، من بعــد، كما لو كان في حلم طويل لم يصحُ منه بعد، ولم يعرف كيف يستلُّ خيط الحقيقة من خيوط الوهم فيه!.





حسن إبراهيم الناصر*

حائر لا يدري بما يفسر حالته، ضائع، لقد تمكن القلق منه لدرجة أصبح يشعر أنه لا يقوى على فعل شيء له معنى، دائماً دماغه مشغول بخيالات عابرة ليس لها وجود، قال لنفسه وهو ينظر إلى البحر.. أبدو عاجزاً في غيابها، أشعل لفافة تبغ ويداه ترتعشان كريشة طائر.. أو كورقة في مهب الريح، يجلس وحيداً في الصباح الباكر أمام البحر، سخر من نفسه قائلاً: (كلما شعرت بالضيق ألجأ إلى البحر.. لكأن البحر صار صديقي

* قاص سوري.

العمل الفني: الفنان مطيع علي.

الوحيد في زمن أصبحت الصداقة فيه شيئاً من الماضــي، أشكو لزرقته الهادئة حيرتي.. ولموجه قلقــي.. وأحمــل للسفــن الراحلة همومــي، نظر إلى سفينــة تغطس أشرعتها خلف الألــوان وزرقة الماء كأنــه يريد لتلك اللحظــة أن تتوقــف.. آه لــو أني أحمل آلة تصويــر؟) توقف عن التخيل وســأل نفسه كيف يتخلص من تلك التراكمات التي تركها الزمــن، ولماذا يشعر بالحنــين إلى الماضي؟ (وهــل ما يواجهــه أســوأ.. أم هــي عادة نتوارثهــا لنعلــق عليها أخطاءنــا..؟) الموج يضرب بالجــرف الصخري ويقذف بكل ما يحملــه فوق الصخر والرمــل، حالة البحر تشبــه حالته.. حيث تتقاذفــه أفكاره كهذا المــوج، لا هو استطــاع العــودة إلى الحياة والطبيعة والعيشــ مع الآخرين.. ولا عرف كيــف يتخلص مــن الماضي الــذي يسكنه، تتناقلــه الأفــكار والخيــالات كأنــه ورقة تتقاذفهــا رياح الخريــف.. لا هي تستطيع التمســك بغصنها لتبقــى.. ولا هي قادرة على صراعها مع الريح.. هكذا هي روحه.. استسلمــت للريــح لتحملهــا إلى أي جهــة كانت.. قد تتعلق بــأي شيء ضمن الغابة.. أو تتعلق بسياج حديقة، ربما كانت تحلم أن تكون فيها يومــاً.. لكن هو بمــاذا يتعلق.. وإلى من يستند.. ألقــى جهازه النقال على الرمــل.. منــذ زمــن لم يسمع صــوت رنين الهاتف، مر الوقت دون أن يشعر أن الشمس أصبحت أكثر حدة.. شعر بدوار شديد، كان يحــدث نفسه وسيجارتــه لا تنطفئ، وكلما فــرغ فنجان القهوة سكــب فنجاناً آخر من المصب الصغير الــذي لا يفارقه.. لا يدري هل حياته تشبه تلك الورقة.. أو أنه استسلم لواقــع غير مفهــوم.. نهضــ متثاقلاً.. مد خطواتــه علــى الرمل، لم تكــن المسافة بين البيــت والشاطئ بعيدة، فتــح باب المنزل.. لاشيء إلا الصمت، أشعل نور المصباح، جلس خلف طاولتــه كما اعتاد كل يوم بعد عودته مــن زيارته للبحــر، تناول مــن درج المكتب أوراقاً مضــى عليها زمــن، ابتسم بمرارة، رسائــل من الماضي.. بــدأ يقرأ وهو يتخيل أنه يسمع صوتها.. والصوت يعلو كلما قلب بأصابعــه المرتعشة تلــك الأوراق.. لا أدري هــل مزقــت رسائلي.. أم مــا زلت تحتفظ بهــا.. وربمــا دفعــك جنونــك لتلقيها في مدفأتــك.. وصارت رسائلــي حطباً؟! تلك الرسائل التي تحتفظ حروفها بشوقنا لتلك الأيام، أعرف بمــاذا تفكر الآن.. تحاول أن تتخلص منها خوفاً من لهفة اللقاء المتجدد فينــا.. لا أدري يا صديقــي.. هل ما زلت تهتــم بماضينا.. وبأوراقنا.. كمــا أهتم أنا حــين أضمهــا إلى صــدري.. لتنــام على

وسادتـــي.. لقـــد حبرتهـــا بتفاصيل عمري الباقي الـــذي رهنته للذاكـــرة وإليك، ربما تسبب كلماتي الحـــزن والقلق.. وأنا التي لم أعرف كيـــف أحتفـــظ بك..؟ أنـــت تعيش بداخلي وترافقني أينمـــا كنت، لقد توغلت إلى أعماقـــي، حيث لا أحد قبلك اطلع على تفاصيلهـــا، لأجلك أنت رحـــت أسجل أدق التفاصيل منذ التقينا أول مرة، أتذكر.. كان يومـــاً جميلاً من أيـــام الصيـــف.. ولم أكن تجاوزت الخامســـة عشرة من العمر.. لكني أحببتـــك.. بل قـــل إني عشقتـــك.. وصرت أغنيتـــي المفضلـــة، حـــين ينطـــق أي أحد بحـــروف اسمك.. أشعر كأنـــه يضرب على أوتـــار قلبـــي.. أنـــا الحالمة برجـــل يكبرني بحوالي خمسة وعشرين عاماً..؟! فكنت أنت سيد الحلم والمـــكان والوجود، هل تخلصت من الصور والذكريات..؟ أنا ما زلت أذكرك كل صبـــاح.. وكل غـــروب للشمـــس.. أحلم بأنـــك قادم تحمـــل في يديك باقـــة حبق.. نمشي علـــى ضفة النهر بصمـــت.. نراقب أســـراب العصافـــير وهي تـــرف بفرح على أغصان أشجار الحـــور.. وأنا التي خرجت من الحـــزن إلى الحياة كأنهـــا زهرة بنفسج تفتحت على يديـــك، أسألك ألا يدفعك كل هـــذا الشوق لتروي حكايتـــي على شفتيك. غادرت العصافـــير أشجار الحـــور.. ذبلت أزهار البنفسج.. غفت الشمس على شبابيك بيتنـــا القـــديم.. وتساقطـــت أوراق داليـــة العنـــب.. وطيفكَ معـــي.. لا يفارقني أينما حللت وشوقـــي يزداد إليك يومـــاً بعد يوم، وعلى الرغم من بعد المسافة بيننا.. لا تزال أنـــت أرق وأطيـــب رجـــل عرفتـــه.. لا تهز برأسك احتجاجاً على كلماتي.. ولا تتهمني بالكـــذب.. ظروف الحيـــاة القاسية تفرض نفسهـــا علينـــا.. لا تكابـــر.. فقـــط أعذر الآخرين. غمغم بكلمات غير مفهومة، ورتب الأوراق جيـــداً فـــوق بعضها قبـــل أن يقرأ رسالة جديدة، قـــال.. أين أنت يا هدى من هذه الكلمات التـــي تشعرني كلما قرأتها أن لقاءاتنـــا كانت عبارة عـــن مسرحية فاشلة، مسرحية بلا مضمون، كنـــت الممثل البديل علـــى خشبـــة مســـرح خـــالٍ مـــن العاطفة والمشاعـــر.. «كومبارس» دفعت سنين عمري من أجـــل امرأة تبحث في ملامحي عن رجل آخر.. يشبهنـــي؟! الرسالـــة متداخلة، مرة تشـــده.. ومـــرة تجعله يشتعـــل غضباً، قال لنفسه: يبدو أنهـــا كانت تبكي وهي تكتبها، تابـــع قراءتها.. الوقت تأخـــر ربما انتصف الليل وأنا ما زلت أكتب على ضوء الشمعة.. أكتـــب ولا أدري هل تصل إليـــك رسائلي.. ربما تغير عنوانك القديم؟ إني أشعر بقيمتي الحقيقيـــة وأنا أكتب، كما أحس أني ما زلت

أنثى تتمتع بحريتها وقد تخلصت من قيودها بين ذراعيك.. دعني أغفو على صدرك ربما يمنحنا القدر عمراً آخر نعيشه معاً..؟ ها أنا أتناول آخر رشفة من كأسي، كأني أسمع خطواتك خلف الباب، أنهض مسرعة إليك.. لا شيء إلا الصمت، أغلق الرسالة وأرتدي ملابسي، أمد خطواتي باتجاه مركز البريد.. لقد تأكدت من عنوانك القديم، أخذته من صاحب كشك الصحف الذي كنا نشتري منه صحفنا اليومية، أتذكر.. كان رجلاً لطيفاً، قال وهو يكتب لي العنوان: لقد عاد إلى مدينته البحرية يا آنسة هدى.. ليكتب عن البحر.. وطيور النورس.. وصيادي السمك والذين ينتظرون غروب الشمس على الشاطئ، لقد رأيته آخر مرة.. نحيل الجسد حائر العينين. آه.. لو تعلم كم كانت فرحتي كبيرة، لدرجة أني قبلت صاحب الكشك.. لقد طبعت قبلتي على وجهه الستيني وهو مندهش لتصرفي المفاجئ، وحين سألته هل تصل إليك رسائلي؟ هز برأسه إيجاباً.. كدت أطير من الفرح. قلب الورقة.. تذكر كيف كانت



تمضي أيامها بين فناجين القهوة والأوراق.. وحين تضيق عليها الدنيا تشغل نفسها برعاية حوض الورود، ترش الماء على الحبق والياسمين، تداعب بأصابعها الناعمة زهرات البنفسج التي كانت تحملها كل صباح إليه.. عاد للقراءة.. ها أنا أدق باب قلبك المغلق بشغف، لعلي أذكره بأيامنا الماضية، أو يرق لحالتي من خلال الكلمات، أيها الغالي.. ها أنا أفتح مسار العودة إليك.. لقد أصبحت رهينة الحزن والمرض والشقاء من بعدكَ.. الوحدة تقهر ما بقي

لي من عمري، دعني أتحسس بجانبك دفء الأمــان والاستقرار، أنت الــذي لم تترك لي فرصة أعبر فيها عن مكنون داخلي، ورحلت فجأة دون وداع، أرهن لك عمري الباقي لو تعــود كما كنــت.. الآن أحســ أني مسلوبة الإرادة، حريتــي مقيدة بــك.. أشتاق إليك، ضمنــي إلى صــدرك خوفاً مــن السقوط المدوي بعيداً عنك، ها هـــي أيامي تتحطم علــى صخرة الوحدة والجفاء، دعني أخترق كل الحواجز التي بنتها الأيام بيننا، لأعزف لك لحنــاً شفافاً على أوتــار القلب، وأعيد ترجمــة الأغنية القديمة حــين رأيتك أول مرة (يا خوفي من عيون الناس) دعني أفرش صــدري ملعباً لأحلامــك الباقية، ولأيامك القادمة، أريد أن أملأ عينيَّ منك، وأن أشبع غرائزي وأنوثتــي الملتهفة، ضمد لي بيديك جــراح أيامــي، منــذ عرفتــك عودتني أن تكفكــف دموعي براحتيــك.. وتبلسم بريق شفتيك جرحي، تداويها بحنانك وعطفك.. وكبرت وأنــا أحمل لك بــين ضلوعي شوقاً لاوصــف لــه، واحتراماً لا أعــرف حدوده، سأحكي لك أشياء لم أكن أبح بها لأحد.. إلا أنت، تخيل.. في ليلة مــن ليالي الشتاء كان البرد شديداً والريح تصفر.. تضرب النافذة الصغــيرة، والمطر غزير يغســل المدينة، لا أدري لمــاذا داهمنــي شعور بأنــك ستأتي، أسرعت لأعد لك فرحي.. وألاقيك بشوقي، ارتديــت أجمــل ملابس نومــي.. وغسلت جسدي بماء الــورد.. أحضرت زجاجة من الشــراب اللذيــذ، لا أدري لمــاذا تخيلــت حضــورك؟ كنت وحيدة بانتظارك.. أشعلت شموعــاً بعدد السنين التــي فرقتنا.. كتبت للشرفة والانتظــار المشتعل باللهفة، كتبت.. للمواعيــد المحتملــة أو المستحيل حدوثها، أحــلام.. ترحل أنت وتبقى الأحلام، ولكنك لم تأت، وعلى الرغم من أنني أمضيت ليلتي وأنــا أحضن طيفك وأشعــر بالدفء كأنك تنــام إلى جانبــي.. وصوتك يدنــدن لحناً أحببته كثيراً مــن شفتيك.. «وحياة حبك يا ناسيني.. ياريت يا حبيــب أنساك.. أنا كل طريق بعيوني علمته بذكــرى معاك..» وأنا أتأرجح بين الحلم والخوف عليك.. وعندما بلغ اليأس مني وأخــذ الزمن ينهش صبري بمــروره.. ويمــزق داخلــي ألم لا يحتمل.. شربــت كأسينا.. ورحت أشــرب كثيراً، حتى أسكرني فراقك وليس الشراب! ولم أستيقظ إلا في اليــوم التــالي وأنا ممــدة على أرض الغرفــة بلا غطــاء.. ولا وســادة، جسدي المرمي بانتظــار وصولك بارداً.. شبه ميت، في غيابك تغادرني الأشياء الجميلة، تهجرني الطرقات التي مشيناها معاً، تتكسر الأحلام بعيداً عــن الواقع.. أكتب مــن نبض قلبي

ومـــن شوقي للقـــاء، بعيداً عـــن وجودك.. تلفظنـــي الأمكنـــة والطرقـــات ومقاعـــد الحدائق، أعيش تائهة وسط ازدحام الناس، غريبـــة إلا من أحلامـــي.. وأنت، وفي غفلة مـــن الزمـــن.. وصمـــت الشفـــاه تأتي من الماضـــي.. تنقلنـــي إلى عالمـــك.. تحيطني بأســـوار عجيبـــة تمنعنـــي من النظـــر إلى غـــيرك.. حتـــى في رحيلـــك إلى مدينتـــك البحرية، كأنك الحلـــم المستحيل «أنت حقاً الحلم المستحيل.. كمـــا كنت تقول.. السهل الممتنـــع، حـــين عرفتك.. تفتحـــت زهرات عمري على يديك، أذكر.. وكيف أنسى تلك اللحظات الحميمة، قناديل حضورك تضيء ليلي، هـــا أنا ما بين الحلم والواقع.. أتخيل حضـــورك.. وكل ماضينا، أشعل لك شموعاً بعدد سنين الغياب، طيفك يتسلل إليّ ليدخل الفرح إلى صدري، أقف أمام مرآتي.. أسرح شعـــري، يداخلنـــي شعـــور جميـــل.. كأنك تحتويني بين ذراعيك.. وكأن الماضي يحضر مـــن جديد، أنظر في عينيـــك.. أبتسم، وأنا ألملـــم بقايا شعر أبيض يتساقط بغزارة أمام المرآة..




آفاق المعرفة



أسئلة الحداثة وشرعنة منطق القوة

د. أحمد طه ❀

هل أصبحت «الحداثة» ثياباً قديمة ينبغي التخلص منها؟ ذلك هو السؤال الإشكالي الذي ما انفك يتردد بين ظهرانينا، ليقسم مواقف المثقفين العرب من جديد ما بين مؤيد ومعارض، شأنهم في ذلك شأن المثقفين الذين ما فتئوا يناقشون قضية الأصالة والمعاصرة حتى اليوم، دون أن يتمكنوا من حسم المسألة الخلافية.

❀ ناقد سوري.

العمل الفني: الفنان مطيع علي.

في الحقيقة إن جملة الأسئلة التي تثيرها جماعات «ما بعد الحداثة» قد تكون لها مبرراتها المجتمعية، بعد أن دخلت المجتمعات الصناعية الكلاسيكية مرحلة جيدة سماها البعض مرحلة الإمبريالية المعولمة. وسماها آخرون بثورة المعلوماتية والاتصال، ككيان جديد يقف على النقيض تماماً من مفهوم الفردية الذي أسست له مرحلة الرأسمالية الليبرالية، بمعنى أن التطور خلق مجتمعاً قائماً على الوفاق، وهو في طريقه إلى إلغاء التناقضات التي خلقتها الرأسمالية.

ولكن السؤال الذي يفرض نفسه في هذا المقام هو، هل توقفت الرأسمالية الليبرالية عن أداء دورها تماماً لصالح قوى اجتماعية جديدة؟ وهل هذا بدوره سيفضي إلى إزاحة منظومة القيم التي أطلقتها البورجوازية الصناعية بما في ذلك قيم الحداثة نفسها؟ يذهب البعض إلى ذلك النوع من النزعة الفردية والهوية الشخصية بات شيئاً من الماضي وأن الفرد القديم أو الموضوع الفردي صار ميتاً، وذلك لأسباب عديدة يقف في مقدمتها نشوء وضع اقتصادي جديد أسست له الشركات المتعددة الجنسية والعابرة للقومية، وبذلك فإن طبيعة الدولة في مجتمعات الغرب الرأسمالي اختلفت عما كانت عليه في مرحلة الليبرالية الاقتصادية، وإذا كانت الفردية باتت موضوعة قديمة، فإن الزمن الجديد هو إذن زمن الدولة المؤسساتية الساعية إلى تنظيم المجتمع بما ينسجم وتطلعاتها الاستراتيجية، ومن هنا فإن النمط الفردي القديم بات عائقاً حقيقياً في وجه التقدم، وبالتالي فإن عليه أن يهيئ نفسه للأوضاع الجديدة وينسى فردوساً صنعه بيديه، أو على حد تعبير ميشيل فوكو: بأن الذات البورجوازية لم تعد شيئاً من الماضي فقط، وإنما هي أسطورة لم تكن موجودة أساساً، ليس البنيان البورجوازي إلا خرافة فلسفية وثقافية. وقد يلتقي مثل هذا الطرح مع أطروحة فريدريك جيمسون الرابطة بين «موت النزعة الفردية» وبين سمة «النصية» أو الكتابة، ويحلل جيمسون هذه السمة في ضوء نظريات انفصام الشخصية (الشيزوفرينيا) كاضطراب لغوي تميل إليه سمة الكتابة أو النصية. فيتصف هذا الاضطراب بانهيار العلاقة ما بين الدال والمدلول، حيث إن

المصاب بـ «الشيزوفرينيا» لا يعرف الهوية الشخصية بالمعنى الذي نعرفه نحن، فيقول: «إنها تجربة دالات مادية معزولة، منفصلة، غير مستمرة، تخفق في أن تتصل ببعضها لتشكل تسلسلاً متصلاً، أي أن الشيزوفريني عاجز عن أن يفعل شيئاً، لأن امتلاك أي مشروع، يعني القدرة على الالتزام بقدر معين من الاستمرارية على مر الزمن، ولذا فإن الشيزوفريني يبقى أسير رؤية غير مميزة للعالم.

مشروع الحداثة غير المكتمل

ويتعزز هذا الضرب من الخطاب مع جملة من المفكرين الغربيين الذين مالوا إلى اعتبار الحداثة مرحلة لها بداية ونهاية، مثلها في ذلك مثل الحضارات التي سادت سابقاً، حيث إنّ الحداثة في أوج نهوضها قامت على أحداث قطيعة جذرية بينها وبين أفكار هذه الحضارات المقدسة منها وغير المقدسة، وبالتالي فإنها سعت إلى عقلنة العالم ودمقرطته لكي تتوسع أفقياً عبر الاستعمار، أو عبر الهيمنة على الأسواق، وخلق مجتمعات تابعة لأنماط السلوك الغربية، بمعنى أن كل الأنماط السيميولوجية أو الرمزية من مثل الأزياء والعمارة وتخطيط المدن. والتنظيمات المدنية المؤسساتية كالأحزاب والنقابات والجمعيات هي نموذج أصيل للحداثة، وبالتالي فإن ما تم من قطيعة بين هذه الحداثة وماض قروسطي، فإنه حادث أو صائر للحداثة ذاتها، وذلك لأن هذه الحداثة فقدت مبررات وجودها الزمنية، ولابد من العبور إلى زمن جديد.

غير أن «هابرماس» وهو ابن مدرسة «فرانكفورت» رفض مثل هذه التوجهات معتبراً أن الحداثة بالأساس هي مشروع لم يكتمل، وكان وصف ميشيل فوكو بالشاب المحافظ الفوضوي، وهو إلى ذلك صنف جماعات ما بعد الحداثة في نسقين اثنين هما: الاتجاه المحافظ الجديد، والاتجاه الفوضوي، ويرى أنه مهما كان الاختلاف بين هاتين الصبغتين لنظرية ما بعد الحداثة، فإنهما انفصلتا عن أفق مقولات الحداثة الأوروبية بوصفه أفقاً متقادماً، أو أفق مرحلة مضى زمانها. أما المفكر المصري سمير أمين فإنه يؤكد توجهات هابرماس، ويرى أن موضوعة ما بعد الحداثة التي بات عدد كبير من المفكرين يطرحها كمرحلة

جديدة جاءت على أعتاب مرحلة أخرى قديمة، إنما هي نوع من التسويق لأفكار استعمارية تسعى إلى السيطرة على العالم، وذلك في إطار أطروحة «المركزية الأوروبية» فالحداثة برأيه أنها قطعت الأواصر كلية مع ماض ميتافيزيكي، وهي بالتالي عبرت عن وعي بالتقدم، أي أنها نتاج تحول كيفي تم على أرضية الواقع الاجتماعي، ومن هنا فإنه يرى بأن الحداثة ليست منغلقة في نمط نهائي، بل هي على العكس من ذلك في تطور متواصل ينفتح على المجهول الذي تدفع حدوده إلى الأبعد دون إمكان بلوغها أبداً، الحداثة لا نهاية لها، ولكنها ترتدي أشكالاً متتالية طبقاً لإجابتها عن التحديات التي يواجهها المجتمع في لحظة تاريخية معينة. ووفق هذا المنطق فإن الحداثة، قدمت أعظم الإنجازات الإنسانية سواء على صعيد المعرفة أو على صعيد الاقتصاد، كما أن زمن الثورة الجديدة إنما هو خلاصة طبيعية لهذه الجهود البشرية، غير أن الخطاب الإيديولوجي السائد



حول المعلوماتية والاتصال يسعى إلى وأد النضالات الاجتماعية والوطنية والعالمية، التي سعت إلى وضع ثورة الاتصالات قيد خدمة التقدم، وتحل معها فرضية ساذجة مفادها أن التطور خلق مجتمعا قائماً على الوفاق وإلى ذلك يقول: أزعم أن لهذه السذاجة وظيفة هي تجريد الشعوب من السلاح حتى يقبل استراتيجيات على أنها دون بديل، وطنياً كان أم على صعيد عالمي وهو ذات الأمر الذي طرحه الباحث محمد جمال باروت حول فيلقة الفرد وتنميطه في طرز ذوقية واستهلاكية وغذائية ورمزية

وعملية متشابهة.. وبمعنى آخر تكييف الفرد وفق بعد واحد. ويعزز رأيه في هذا الصدد بما قاله أنطون مقدسي من أن: ما يحدد الوضع ما بعد الحداثي هو أساسا سيطرة «المغفل» ويتضمن المغفل إغفال صورة الموجود وبالتالي حذف الذات، أو وضع الذات في محور مجهول، فيغدو النص هنا - والنص هو كل موجود وليس المكتوب فقط- مجهول الهوية. وإذا كان هذا هو الموقف من الحداثة وما بعدها فإن سمير أمين الذي سعى إلى تفكيك عناصرها الاقتصادية والسياسية والثقافية، رأى لزاماً عليه كمفكر أن يدعو إلى مواجهة هذه التحديات عبر جبهة عالمية جديدة تعي خصائص المرحلة الجديدة المفضية إلى خراب، حيث إن عالم اليوم يتجه إلى مأزق حقيقي، فإما أن ينتهي إلى الاشتراكية، أو أنه سيدمر ذاته.

المال.. القوة.. الحب

ولكن من جهة أخرى أي من جهة الغرب الذي يعاني من هذه الإشكالية فإن فرانسوا بوركييه عضو المجلس الوطني للبحوث العلمية في فرنسا، يطرح في كتابه «المال، القوة، والحب» أنه من الصعوبة بمكان التحدث عن القيم من دون الحديث عن أسس الحداثة الغربية ودينامية الاقتصاد العالمي، وبذلك فإنه لا صحة لمقولة إن العلاقات السلعية الجديدة تقصي منظومة القيم، وإنما المنطق السائد هو «منطق القوة» القوة القومية أو الإمبراطورية، وعندما ندين العلاقات السلعية فإننا نغامر بإمكانية تضييع الهدف، لأن منطق القوة هو الذي ما فتئ يتحكم بالإنسان من خلال منطق تراكم الثروة الذي يتضمن تناقضاً مزدوجاً: الإنسان يتناقض مع نفسه، حيث يؤدي خلق الثروة إلى خلق الفقر، وبهذا المعنى فإن النمو يساوي القوة، ومن جانب ثان، فإن الإنسان في تناقض مع الأرض، حيث يدخل النمو في أزمة مع مصادرة ذاتها، هدر وتعقيم مصادر الطبيعة، إفساد البيئة، هذا على الرغم من أنه وبفضل التقنيات الحديثة تستطيع البشرية أن تنتج اليوم مئة ضعف مما كانت تنتجه المجتمعات في بداية الرأسمالية، وإذا كانت القدرة الإنتاجية موجهة لخدمة الناس وحاجاتهم، فكيف نفسر الفقر المدقع في الجنوب، أو حالة المهشمين والمحرومين في الشمال؟ والسؤال

الذي يفرض نفسه في هــذا المقام هو: هل هناك براعــم خضراء لنظام جديد يتخطى الحداثة وقيمها الفردية ويتخطى قيم القوة التــي أنتجتها المرحلة الجديــدة، نحو قيم جماعيــة جديدة؟ وأعتقد أنه السؤال الأهم الذي ينبغي الإجابة عنــه، سيما وأن جملة المعضلات التي أنتجتها العولمة وضعت العالم في متاهة بورخيسية يصعب الخروج منها.

والشاعر المسرحــي التشيكي فاتسلاف هافــل لا يرى أي إمكانية للخلاص من هذه المتاهة إلا بثورة مقدسة جديدة عبر البحث عمــا يوحد الأديــان المختلفــة، أي البحث الهادف عن المبادئ المشتركــة، بينما يقترح فرانســوا بوركيه تشكيل هيئــة عالمية تركز مجهودها على الإنسان والأرض باعتبارهما من أثمن الثروات، هذا بالإضافة إلى تفعيل دور منظمة الأمم المتحــدة والمنظمات غير الحكومية مــن أجل حمايــة الكوكب، وإذا اقتضــى الأمــر استحداث نظــام قضائي دولي يضــع في مقدمــة اعتباراتــه قانون الأرض الذي سيكون قانوناً عاماً ونوعاً من حــق الطبيعة، أي قريباً من حقوق الإنسان، وبذلك يغدو الفرد مواطنــاً عالمياً في إطار مجتمع مــدني وديمقراطــي عالميين، سمته أنه متعدد القوميات والثقافات، أعضاؤه لا يدافعون عن مصالح دولتهم القومية، لأنهم يشعرون أنهــم أعضاء في جماعة عالمية في المقام الأول. وبعد استعراضنا لجملة الآراء الداعيــة إلى لملمة الصفــوف إزاء تحديات العولمــة الساعية إلى الخراب وتشكيل جبهة أو هيئة عالمية، أو بالعودة إلى الله والتسامح الديني، لابد من التساؤل، وماذا عن موقف الآخر؟ لاشــك أن مثل هذا التساؤل سيضع مفكراً كصموئيل هنتنغتون في مقدمة قائمة مفكــري زمن العولمة الجديد، سيما وأنه في مقالته «صراع الثقافات» أو «حوارها» سعى إلى تكريســ منطــق القوة وتأكيــد مركزية الغرب، وذلك بأن مــا يحدد معالم المستقبل ليســ المجابهة بــين الأنظمــة الاجتماعية والسياسية، وإنما الصراع فيما بين حضارات ذات أصــول دينية وثقافيــة مختلفة، وهي أطروحة في الحقيقــة تعود إلى زمن ماض، وتفيد بأن الخطر علــى أوروبة لن يأتي إلا مــن جانب المغول، أو الأتــراك ، أو الروس، وإلى ذلك فإن هــذا المثقف الأكاديمي يرى بأن الغرب سيجد نفسه في مواجهة مع بقية

دول العالم بقيادة «الطغـاة والثيوقراطيين» والذين ربمـا يكونون مدعومين من مرتزقة كونفوشيوسين مدججين بالسلاح؟!

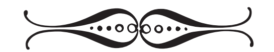
منح العولمة

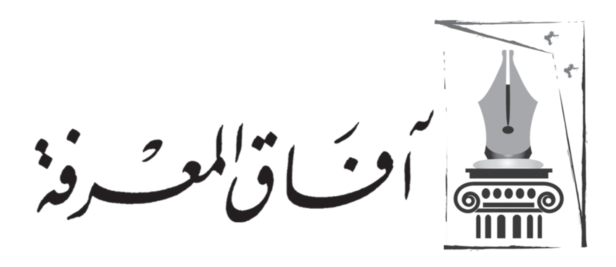
ونحن في الحقيقة لن نضيف جديداً إذا أبدينا رأينـا في الكم المليء بالعنصرية، لأن مفكرين كثيرين تناولوا مقولته هذه بالدرس والتحليـل، وسنختار منهـم المفكر المصري سمير أمين، الذي قال على سبيل السخرية: إن مثل هذا الاكتشاف! لا يفتح سوى أبواب كانت مفتوحة على مصراعيها سابقاً،

حيـث إن هنتنغتـون يجعـل المعضلـة الثقافيـة تـرادف العقيدة الدينيـة، على اعتبـار أن العقائـد الدينيـة قائمـة على مفهوم نهاية التاريخ، وفي المحصلة سيصبح لزاماً على الشعوب غـير الغربية أن تسارع للتماهـي مع القيـم الغربيـة، أو تنغلق في خصوصياتهـا الثقافية الموروثة من تاريخها السابـق، ممـا يجعلهـا غـير قـادرة على مواجهـة تحديـات العصـر. وفي الحقيقة إن أطروحـات ما بعـد الحداثة هذه تسعى جهدها إلى إلغـاء الحداثة التي قامت على مبدأ الحرية والإخاء والمساواة، وتقديم قيم بديلـة ذات طابع، استفـزازي، الأمر الذي يدفع بالمثقفين العـرب وغيرهم من مثقفي العالم الثالـث، لربط الحداثـة بالاستعمار والرأسمالية وإلى ذلك يقول سمير أمين: إن سبب عدوانية بعضنـا للحداثة أنه يربطها دائماً بالرأسماليـة والاستعمار، وهو خيار يفيد تمامـاً أهداف استراتيجية الاستعمار، لأن الحداثة لم تصل بعد إلى نهاية مسيرتها، ولن تكون هناك نهاية لهذه المسيرة. الحداثة هي انقـلاب جوهري حـدث عندما اعتبر المجتمـع نفسه مسؤولاً عن مصيره . عندما أعلن الإنسان أنه هو صانع تاريخه.. من هنا فـإن نبذ الحداثة معنـاه التنازل عن العمل المسـؤول في سبيـل صنع التاريـخ، كما أن الدعـوة إلى الأصالة لا تعنـي في مثل هذه الظروف سوى السعي لإيقاف عجلة التاريخ عند مرحلة ما قبل الحداثة.

ولكن الطريف في أمر العولمة وزمنها هو أن الأمم الأوروبيـة ذاتهـا باتت تخشى من هيمنة الثقافـة الأمريكية المعولمة، واعتبرت أن فـخ العولمة «يصطـاد» الجميع، ولذلك سعت عشرون دولة أوروبية إلى إقامة مؤتمر عالمي في كندا بمعزل عن أمريكا ناقشت فيه

إمكانيـــة تشكيل فيلق عالمي وشراكة خاصة، تكـــون قوية بما فيـــه الكفاية لكـــي تضمن بأن الثقافـــة ستعامل بوصفهـــا سمة مهمة مـــن سمات الهويـــة القوميـــة، وليس مجرد سلعة تجاريـــة أخرى خاضعـــة للمعاهدات الدولية الجديدة التي تبرم تحت شعار حرية التجـــارة. ويرى الأستاذ والمحلـــل السياسي سعد محيو بأن مثل هذا الكلام جميل، ولكنه في الوقت نفسه سيدخل معركة ليست سهلة مع التيـــارات النيوليبراليـــة التي تقف وراء تسليع الثقافة، لأن هذه التيارات تعيش الآن ذروة انتصارهـــا، ولكن الأمر طالما هو سائر باندفاعـــة لا مثيل لها نحـــو الخراب العام، فلا بد إذن مـــن أن نسعى جاهدين إلى حل جماعي ينقذنا من هذه الكارثة، وأعتقد أن تطوير قيم الحداثة عالمياً هو من خير السبل لمواجهة مجتمع العولمة وكل سلطاته الرمزية، ولن يكون ذلك إلا بالنقد والحوار.





دور الشبكة العنكبوتية في تطوير منظومة المعرفة الشمولية

د. نزار عوني*

شهدت نهايات القرن العشرين المنصرم نشوء وتطور شبكة المعلومات العالمية (الإنترنت)، ولقد أحدث ظهور هذه الشبكة وتنامي استخدام خدماتها وتطبيقاتها المختلفة تأثيرات لا يمكن الحكم على مداها الآن. ولكن الأمر الثابت والمتفق عليه بين جميع الباحثين أن استخدام شبكة الإنترنت يتنامى يوما بعد يوم في مجالات شديدة التشعب (يكفي أن نعرف أن مستخدمي جهاز التلفزيون وصلوا إلى ٥٠٠ مليون مشترك بعد مرور ٣٠ عاماً من ظهور هذا الجهاز. أما شبكة الإنترنت فقد وصل عدد مستخدميها إلى ٥٠٠ مليون من

* أديب وناقد سوري

العمل الفني: الفنان مطيع علي.

المستخدمين -أي الرقم نفسه- في غضون ٤سنوات فقط). وإزاء هذه الشعبية الكاسحة لشبكة الإنترنت والاستعانة بتطبيقاتها المختلفة في العديد من المجالات بدءا من الإعلام مروراً بالتعليم والتجارة والتسويق، وصولاً إلى الترفيه بدأ كم كبير من الباحثين من تخصصات متباينة في الالتفات إلى ضرورة وضع هذا الكيان الضخم المتشعب الغامض تحت مجهر البحث العلمي سعيا منهم للتعرف على الكيان السيبرنتي العملاق وإمكاناته وحدوده وطبيعة الوظائف التي يؤديها وسمات مستخدميه وتأثيراته المحتملة على مختلف الأصعدة.

وفيما يلي نحاول أن نرصد الاتجاهات العلمية المختلفة لإخضاع شبكة الإنترنت لدراسة العملية. لقد سارت جهود دراسة الإنترنت في عدة اتجاهات على النحو التالي:

في البدء يطالعنا ذلك الاتجاه الذي ذهب أصحابه إلى التعريف بشبكة الإنترنت، وبيان مفهومها وكيف أنها تشكل كيانا مختلفا عن أي أشكال اتصالية أو معلوماتية سابقة. وعمد دارسو هذا الجانب إلى إيضاح المفهوم والعتاد التقني المكون للشبكة وكذلك البرمجيات التي تستعين بها والطرق المختلفة لإجراء الاتصال بها والاستفادة من خدماتها. ورغم ما تتسم به الشبكة من حداثة نسبية، كان للاتجاه التاريخي في تناولها نصيباً وافراً. إذ اتجه الكثير من الباحثين إلى تناول التطور التاريخي لشبكة الإنترنت حتى وصلت إلى ما وصلت إليه الآن. وهم يرجعون نشأة شبكة الإنترنت إلى الستينات من القرن العشرين المنصرم، حيث يعتبرون شبكة وكالة الأبحاث المتقدمة أربا نت ARPA Net التابعة لوزارة الدفاع الأمريكية والتي أنشئت عام ١٩٦٩ هي نواة شبكة الإنترنت، ولكنها ولدت بشكلها الرسمي المتعارف عليه في عام ١٩٨٣ عندما تم تقسيم أربا نت إلى شبكتين إحداهما مدنية والأخرى عسكرية وكانت الشبكة المدنية هي الأساس الذي أدى إلى ظهور الإنترنت. ومن الباحثين من اتجه إلى عرض السمات الفريدة والمتعددة التي تميز الشبكة، ولعل أبرز هذه السمات التي حرصت هذه البحوث على التأكيد عليها سمات:

١ - النص الفائق.

٢ - الوسائط المتعددة.

٣ - التفاعلية.

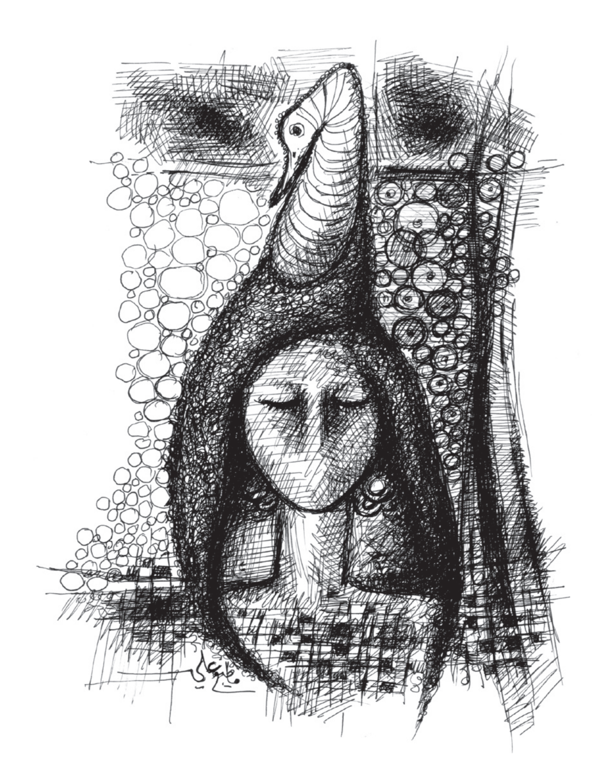
فالنص الفائق هو نص مفتوح، نص غير تتابعي، يتصل بنصوص أخرى غيره من خلال وصلات Links تحيل مستخدم النص إلى نص آخر مرتبط به بما يعطي

الفرصة للمتلقي أن «يقفز» عبر النصوص، بمـا يجعلـه يكتسـب نظـرة أكـثر شمولاً للموضوع الذي يتعرض لـه، وهو شكل من أشكال النصوص لم يعتده المتلقي على مدار تاريخ تناقـل المعرفة البشرية. أما الوسائط المتعـددة فهـي سمة تعني توظيـف وسائل النقل المعرفي والرمـزي المختلفة في عملية نقـل وتداول المعلومات علـى الشبكة، فهي توظـف النص المكتوب والصـوت والرسوم والصـور الفوتوغرافية ولقطـات الفيديو الحيـة في تشكيلـة يفترض فيهـا التناسق لتحقيق أعلى درجة من درجات ثراء التعرض للمحتـوى المنشور على الشبكـة. أما سمة التفاعلية فهـي تشير إلى قدرة الشبكة على السمـاح للمستخدم بالسيطرة على المحتوى وتبـادل الأدوار بين المرسل والمستقبل، وهي سمة تعبر عن الدرجة التي بات يسيطر فيها مستخدم الشبكة على عملية الاتصال.

ولقد تناولت الكثير مـن الدراسات ولا سيما في المجـال الإعلامي هـذه السمات الثـلاث بالبحـث مستكشفـة حدودهـا والفروق بينها وبين السمات التقليدية التي كانت تتيحها الوسائـل الأخرى التي سبقت الإنترنت في الظهور. كمـا بحثت تأثير تلك السمات على المتلقي وعلى الشكل والمحتوى المقدم على الشبكة، واستعانت هذه البحوث بالتراث المنهجـي الذي تزخر به علوم اللغة الحديثـة مثل: تحليـل المضمـون وتحليل الخطـاب ومناهـج الألسنيـات وأساليب التحليل السيميولوجـي (أو علم العلامات) والتحليـل البنيوي، وذلك سعيـاً لمزيد من الاستكشاف لهـذا النمـط المستحدث من أنمـاط عرضـ المحتـوى. فالإنترنت تقدم محتوى يقوم على الكتابة غير الخطية Non Linear Writing وكذلك على قراءة هذا المحتوى بشكل غير خطي. ويمكن القول إن الاستراتيجيـات البحثية التي بدأت تتأسس لدراسة هذا النوع من النصوص حاولت أن تبحث في النص مـن داخله ووفقا للسمات الجوهريـة التـي تميزه، بحيـث تم تطوير أساليـب بحثيـة تتلائـم وخصوصية هذا النصـ، فلم يكن من الملائـم على الإطلاق دراسة هذا النص باستخدام أساليب بحثية أعـدت أصلا لدراسة نصـ آخر له سمات مغايرة لتلك التي يتسم به النص الفائق.

ولعل أبـرز مثال على ذلـك هو أسلوب التحليل النقـدي لنص الويـب Critical Analysis الذي طرحتـاه كل من: «أناندا ميـترا» و «إليزيـا كوهـين». وهـو أسلوب بحثـي يأخذ في الاعتبار ثلاثة جوانب تميز نص الويب بصفـة أساسية. الجانب الأول: الطرق التـي يتم من خلالهـا وصل النص

بنص آخر من خلال الوصلات الفائقة الموجودة في النص، فهذا النص يشكل جزءاً من خطاب أكبر وأشمل يعتبر هذا النص جزءاً منه، كما أن معنى هذا النص لا يتولد إلا من خلال اتصال النص الرئيسي بنصوص أخرى. الجانب الثاني: ضرورة الأخذ في الاعتبار السمات الشكلية لنص الويب، والتي تسبغ هي الأخرى دلالات على النص، الجانب الثالث: الدور الذي يمارسه قراء النص، والذين يضفون على النص - خلال قراءتهم له - معنى. ففي غياب عملية القراءة لن يكون لهذا النص معنى. وعلى هذا الأساس فالتحليل النقدي لا يكتفي بمجرد تحليل المحتوى لمجمل النص. بل يتخطى ذلك إلى محاولة كشف دلالة النص سواء بالنسبة لمنتجيه أو لمستهلكيه وكذلك محاولة الفهم لتأثيراته.



وفي إطار استكشاف النص الإنترنتي أيضاً قامت بعض البحوث بدراسة أساليب السرد اللغوي المستخدمة على الإنترنت محاولة توصيف الأسلوب الذي يشيع استخدامه على الشبكة كما حاولت التعرف على أنسب الأساليب السردية اللغوية التي يمكن اتباعها في كتابة نصوص الشبكة والتي تحقق في الوقت نفسه أعلى درجة من درجات تجاوب القارئ مع هذا النص. وهو ما قد يقود في النهاية إلى نجاح هذه البحوث في وضع الأسس والقواعد الأسلوبية التي سوف تحكم عمليات الكتابة لنص الإنترنت، وبما يتلائم مع كل استخدام من استخدامات اللغة سواء الاستخدام الأدبي (الشعر، القصة، النقد) أو الاستخدام الإعلامي (الأخبار والتقارير والأحاديث والتحقيقات والمقالات الصحفية). أو الاستخدام العلمي

والبحثي.. وغيرهـــا من مستويات استخدام اللغة.

وعنيت بعض الدراســـات أيضا بدراسة السلـــوك القرائي لمستخـــدم الشبكة (حيث إن فعـــل القراءة هـــو الفعـــل المكمل لفعل الكتابة، فـــإذا كانت الكتابة تخلق العلامات والرمـــوز وكل ما يمكن أن يعـــبر عن أفكار أو مشاعـــر أو أصوات، فـــإن القراءة يمكن ترجمتها إلى معـــان أو أفكار أو حتى مجرد أصوات مرة أخرى). فبحثت هذه الدراسات في جوانب شديـــدة الأهمية بدءاً من دراسة حركـــة العين أثنـــاء القـــراءة ومعدل سرعة القـــراءة من الشاشـــة مقارنة بسرعة عملية القراءة من الورق المطبوع، ومروراً بالمجهود الذي يبذله القـــارئ في أثناء عملية القراءة وكيف يستجيب القارئ للمادة التي يطالعها، ومـــدى فهـــم وإدراك القـــارئ لهـــذا النوع من النصوصـــ، وكذلك مـــدى قدرته على استرجاع ما حواه من أفكار ومقدار التفاعل الـــذي يتم أثناء عملية القـــراءة بين الكاتب وبين القارئ بل وبين القراء وبعضهم البعض وأخيراً مدى تأثير مطالعة القارئ لهذا النص علـــى علاقاته وتفاعلاته مع الآخرين وعلى أنماط سلوكه وعلى الأدوار التي يمارسها.

وثمـــة اتجـــاه علمـــي في دراســـة شبكة الإنترنـــت يعمـــد إلى ســـبر غـــور الوظائف المختلفـــة التـــي تؤديها الشبكة مـــن إعلام وترفيه وتسليـــة وتعليم ومشاركـــة سياسية وتثقيف وتوعية وتسويق وتتيح لمستخدميها نطاقـــاً عريضاً من الوظائف لم تكن تنجزها أية وسيلة سابقة منفردة. أما الإنترنت فإنها تؤدي هذه الوظائف وغيرها مجتمعة بسرعة وكفـــاءة غـــير مسبوقـــة، وقد أخـــذت هذه البحوث تدرس عن كثب مدى نجاح الشبكة في تحقيق كل وظيفة من هذه الوظائف. وفي أحيان كثيرة كان أصحاب هذا التوجه البحثي يربطون ما بين هذه الوظائف وبين النظريات السيكولوجيـــة والسوسيولوجية والاتصالية التي تستطيع تفسير هذه الوظائف وحدودها والإشباعـــات التي تحققها للمتلقي. وهناك طائفة مهمة من البحـــوث اقتحمت معتركا شديـــد الصعوبة، أقصد بها تلك الدراسات التـــي أخذت علـــى عاتقها الأفـــراد الذين يستخدمون الويب. بدأ هذا الاتجاه بدراسة أعـــداد مستخدمي الويب ورصد التوسع في هذه الأعداد وأسباب هذا التوسع، ثم وسعت هذه البحـــوث من دائرتهـــا قليلا، فعمدت إلى محاولـــة دراسة السمـــات والخصائص الديمغرافية لهـــؤلاء المستخدمين من حيث العمر والنوع والمستوى المعيشي والاقتصادي والانتماء الطبقي والاتجاه السياسي والحالة الاجتماعيـــة. ثـــم توسعت هـــذه الدراسات

أكثر وأكثر فانتقلت إلى فحص قيم وآراء وسلوكيات هؤلاء المستخدمين وتأثير التعرض لمحتوى الإنترنت على كل هذه الجوانب أو بعضها. وفي هذا الصدد نشطت مؤسسات استطلاع الرأي العام (مثل مؤسستي: جالوب ونيلسون) في إجراء البحوث المنصبة على هذا الجانب بما لها من باع طويل في دراسة العينات البشرية.

وقد واجه هذا النوع من الدراسات تحدياً كبيراً تمثل في التزايد الكبير وغير المنضبط لأعداد مستخدمي الشبكة وتشتتهم على مختلف أصقاع المعمورة. وهو الأمر الذي جعل نتائج مثل تلك الأبحاث تعاني دوماً نوعاً من التشكيك في مصداقيتها. ولكن لابد من الإشارة أيضاً إلى أن جانباً كبيراً من الاضطراب والتضارب الذي يشوب نتائج مثل تلك الدراسات يعود إلى استخدام باحثيها لأساليب بحثية غير ملائمة وغير صالحة لعد وإحصاء وقياس مستخدمي الشبكة وفي الحصول على بيانات حول سماتهم وآرائهم وسلوكياتهم وما قد اعتراهم من تأثيرات. ولعل هذا ما كان يدفع عدد من الباحثين في هذا الجانب إلى المسارعة بالقول بأن النتائج التي توصلوا إليها ترتبط بتاريخ محدد ولا يمكن تعميمها. أما عن بحوث الأثر، أي تلك البحوث التي حاولت كشف تأثير استخدام الإنترنت على المتلقي فقد عمدت إلى قياس هذا الأثر على عدة مستويات منها أثر الإنترنت على الجانب النفسي للمتلقي من انتباه وإدراك واتجاهات وآراء ودوافع وتعلم، ومنها من تناول الأثر الاجتماعي لاستخدام شبكة الإنترنت فبحث تأثيرها على تفاعل الفرد مع الآخرين وعلى مدى توافقه الاجتماعي مع الجماعة المحيطة ومدى التحولات والتبدلات التي تعتري الواقع الاجتماعي للفرد (أو لمجموعة الأفراد) الذي يستخدم الإنترنت، وما أحدثته الإنترنت من إعادة هيكلة لشخصية الفرد وإدخاله في علاقات جديدة مع أشخاص يتواصل معهم على المستوى التخيلي الرمزي فحسب، ومنها أيضاً من عمد إلى دراسة أثر الشبكة على النشاط السياسي للفرد من حيث مدى دفعه إلى المشاركة السياسية. ووجد رجال الفكر في الإنترنت أيضا جانبا مهما جديراً بالتناول البحثي الجدلي بينهم، أقصد به جانب التأثير الثقافي للشبكة، ويعد هذا الجانب من أكثر الجوانب البحثية إثارة للجدل حول ما توصل إليه من نتائج، فلئن كان الجميع – رجال الفكر وغيرهم – يتفقون على وجود تأثير ثقافي لا ينكر للشبكة العالمية، إلا أنهم يختلفون في مدى إيجابية أو سلبية

هذا التأثير، ففي حين يرى البعض منهم، خاصة في عالمنا العربي والعالم الثالث، أن الشبكة تمثل أداة أساسية من أدوات اختراق ثقافات الشعوب ومسخ شخصيتها وهويتها القومية وقولبتها وتنمطيها لصالح عملية تسويق «السلع» الثقافية لدول أخرى أفقر ثقافيا وأكبر اقتصاديا، وإن الإنترنت سوف تشيع مجموعة من القيم الثقافية المادية المهترئة التي تتعارض مع القيم الروحية الرفيعة التي لم تعد تمتلك بعض الشعوب سواها، كما ستحيل المثقف في الدول ذات التراث الثقافي إلى مجرد «مورد للمواد الثقافية الخام أو نصف المصنعة بعد أن أصبحت مسؤولية التصنيع النهائي لمواد الثقافة مسؤولية القابضين على زمام القوى الرمزية داخل المجتمع (العالمي) على حد تعبير د. نبيل علي.

ويشيع في مصطلحات هذه الفئة مصطلحات من قبيل «الغزو الثقافي» و«تسليع الثقافة» و«خلل التدفق الإعلامي» و«طمس الهوية» و«التبعية».. وغيرها من المصطلحات التي تبرز الجانب غير السوي والوجه القبيح لتأثير الإنترنت على الثقافة، وغالبا ما يربط أنصار هذا الاتجاه بين التأثيرات الثقافية السلبية للإنترنت وبين التأثيرات السلبية لظاهرة العولمة، إذ يعتبرون الإنترنت أحد آليات تحقيق هذه العولمة. أما أصحاب وجهة النظر الأخرى - وجهة النظر الإيجابية - فإنهم يرون في شبكة الإنترنت نبعا خصبا لإنماء الثقافية الوطنية على أساس أنها تتيح لهذه الثقافة الوطنية فرصة التلاقح مع غيرها من الثقافات المغايرة فالإنترنت تقدم فرصة غير مسبوقة من فرص التواصل بين الثقافات على اختلافها. وهذا التهجين يؤدي بدوره إلى المزيد من التدعيم للبنى الثقافية الوطنية التراثية الأصيلة، وإلا فإن تلك الثقافة الوطنية سوف تصاب بحالة من الجمود والتكلس لتقضي نحبها في نهاية الأمر، لذلك فإن الإنترنت - في رأي هذه الفرقة - سوف تقضي على العزلة الذهنية التي باتت تضرب حول عالمنا والتي يرى البعض أنها سبب جوهري من أسباب حالة التخلف التي يعاني منها العالم الثالث عموما، كما أن شبكة الإنترنت ستعلي من قيمة المعرفة والثقافة وتجعلها كياناً ذا قيمة محورية في مقبل الأيام. وهي تقدم للشعوب ذات التراث الثقافي الزاخر فرصة كبيرة، أولاً للحفاظ على هذا التراث، وثانيا لاستثماره الأمثل شريطة الوعي من جانب هذه الدول بقيمة تراثها وتوافر الرغبة والإرادة الصادقة لديها لاستثماره.

ونظرا لأهمية السياسة وآلياتها ورجالها

في تشكيل الواقع الوطني والدولي احتلت البحوث التي تناولت علاقات التأثير والتأثر بين الإنترنت وبين الظواهر السياسية أهمية كبرى هي الأخرى، فبحثت هذه الطائفة من البحوث كثيراً من الجوانب في هذا الصدد نذكر منها استخدام الفاعلين السياسيين أو الساسة لشبكة الإنترنت من حيث معدلات الاستخدام وأنماطه ومجالاته وتأثير هذا الاستخدام على قرارهم السياسي، ودور الإنترنت في إعادة تشكيل ملامح العلاقة بين الحاكم وبين المحكوم. كيف قدمت الشبكة كل منهما للآخر؟ وكيف سهلت سبل التواصل الذي تختلف درجته من نظام سياسي لآخر بينهما؟ ولعل أبرز هذه البحوث تلك التي تناولت علاقة الإنترنت بالديمقراطية مفهوما وممارسة، ومدى ما أتاحته الشبكة من أساليب لممارسة العمل الديمقراطي لجماعات كانت محرومة من تنفس ريح الديمقراطية، إذ تشكل الشبكة العالمية ساحة كبرى للحوار حطمت المجالس النيابية والأحزاب وأخرجت المواطن إلى رحابة ديمقراطية لم يتفق حتى الآن إن كانت ديمقراطية حقيقية أم رمزية تخيلية. هناك كذلك دور الإنترنت في دعم أنشطة المنظمات غير الحكومية ومؤسسات المجتمع المدني بكل أشكالها، ومدى القوة أو الضعف الذين اعتورا الحكومات نحو شعوبها التي بدأت تستشعر قوة أكبر تجاه هذه الحكومات، كما تم التعرض إلى دور الشبكة في السياسة العالمية، ودورها في إعادة ترتيب العلاقات الدولية بين الدول وبعضها وبينها وبين المنظمات الدولية التي تنامى دورها بشكل كبير في الوقت الراهن. وتبرز بشكل قوي أيضاً تلك البحوث التي حاولت الكشف عن التأثيرات الاقتصادية لشبكة الإنترنت، وهذا أمر طبيعي حيث إن الإنترنت تعد الداعم الأول لعنصر «المعلومات» ذلك العنصر الذي أصبح أهم سلعة اقتصادية في وقتنا الراهن، علاوة على كون المعلومات ذاتها تعد موردا مساندا لجميع الأنشطة الاقتصادية الأخرى. وعلى هذا الصعيد حاولت البحوث رصد إمكانية التوظيف الاقتصادي للسلع المعلوماتية الموجودة على الشبكة كما بحثت في مدى إقبال الأنشطة الاقتصادية المختلفة – من أعمال إدارية وأنشطة مالية ونقدية مصرفية وإنتاجية وخدمية – على استخدام الإنترنت وتأثير الإنترنت على كل جانب من هذه الجوانب الاقتصادية، فقد تغيرت فلسفة إدارة كل جانب من هذه الجوانب، تحولت المعاملات البنكية النقدية إلى إشارات رقمية تتناقلها البنوك، وأصبح بإمكان المستهلك أن يحصل

على سلعته من المنتج مباشرة دون المرور على تاجر الجملة ثم تاجر التجزئة وتغيرت سبل إنجاز المهام والأعمال، وبدأت هذه الفئة من البحوث في الكشف عن مدى تأثير الإنترنت على فرص العمل، هل ستؤدي إلى خلق فرص جديدة للعمل؟ أم ستزيد من معدلات البطالة؟ هل ستؤدي إلى رواج السلع أم إلى الكساد الاقتصادي؟ وهل للإنترنت دور في الاندماجات الاقتصادية الضخمة التي يشهدها السوق الاقتصادي العالمي، أم لا؟ وما دورها في حماية أو اختراق حقوق الملكية الفكرية؟ هل ستدعم الإنترنت مجتمع الوفرة وتنشر نموذجه على مستوى العالم؟ أم ستزيد الفجوة بين أقلية تعاني التخمة الاقتصادية وأكثرية يمزقها الجوع؟

أما عن علاقة الإنترنت بالجوانب الاجتماعية فقد احتلت هي الأخرى جانبا مهما من بحوث الإنترنت فبحثت في دور الإنترنت في إعادة تشكيل البنى الطبقية والفئات الاجتماعية داخل المجتمع، فإذا كانت الإنترنت سوف تشكل عصب الحياة في قادم الأيام فإن الحراك الاجتماعي سوف يعتمد على استغلال إمكانيات الشبكة، فأكثر المستفيدين قدرة على استغلالها سوف يستطيع الولوج إلى طبقة أعلى والعكس صحيح. والإنترنت أيضاً تشكل أداة فعالة في كسر حالة العزلة الاجتماعية التي كان يفرضها بعض الأفراد على أنفسهم، فالفرد الانطوائي وجد في الإنترنت ضالته للتفاعل على المستوى الرمزي مع «آخر» في حدود يقبلها الطرفان، لدرجة أن بعض البحوث كشفت عن أن هناك علاقة بين ميل الفرد للانطوائية والانعزال وبين تعامله مع الشبكة، فكلما كان أكثر ميلاً للانعزال عن الآخرين كلما زادت الساعات التي يقضيها أمام شاشة الإنترنت يتفاعل معها عوضاً عن ساعات التفاعل المفقودة مع واقعه.

وكان لدور الإنترنت في التعليم والمعرفة نصيب كبير أيضا من البحث في الشبكة، فقد تم تناول مدى ما حققته الشبكة من إتاحة الحق في التعليم للأفراد، وفي أي فرع علمي يرغبونه، وفي مدى استخدام الإنترنت كوسيلة تعليمية في الأساس يمكن عن طريقها حدوث عملية التعلم بكافة أركانها ومكوناتها مع بعض التعديل أو التغيير في أساليب الممارسة التقليدية للعمليات التعليمية التعلمية. وطرح أيضا على بساط البحث تأثير الإنترنت على منظومة الإعلام والاتصال الجماهيري، وهنا برز اهتمام البحث العلمي الإعلامي بالشبكة نظرا لتأثيرها القوي على صناعة الإعلام، هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن الإنترنت

ذاتها اعتبرت من قبل باحثي الإعلام وسيلة إعلامية مستحدثة، ومن هذين المنطلقين تطرقت البحوث الإعلامية إلى مجالات عديدة، منها: النموذج الاتصالي الذي تقدمه الشبكة والذي يختلف عن نموذج الاتصال التقليدي المتعارف عليه في وسائل الاتصال التقليدية، وسمات الإنترنت كوسيلة إعلامية والفرق بينها وبين غيرها من الوسائل التي سبقتها، والإمكانات التي أتاحتها الشبكة للوسائل الإعلامية التقليدية بدءاً من تسهيل عمليات الحصول على المعلومات وإنجاز مهام التغطية الإخبارية والتفسيرية ومروراً بالإمكانات الاتصالية التي أتاحتها للتواصل بين الصحفي ومصادره وتمكينه من الوصول إلى مصادر جديدة، وصولا إلى ما أحدثته الشبكة من تأثير على محتوى الصحف ومحطات الإذاعة والتلفزيون، فضلاً عما أتاحته الشبكة من فرص النشر والبث للصحف ومحطات الإذاعة والتلفزيون، فمعظم الصحف أصبح لها موقع على شبكة الإنترنت، هذا الموقع إما أنه ينشر نفس نسخة الصحيفة المطبوعة أو نسخة معدلة منها أو نسخة مغايرة تماماً، وهو نفس ما حدث تقريباً مع أغلب محطات الإذاعة والتلفزيون، وأصبحت هذه المواقع الإعلامية بنية إعلامية مستحدثة تحمل سمات مغايرة للنموذج التقليدي للنشر أو البث الإعلامي. كما بحثت هذه البحوث في سمات المحتوى والشكل لإعلام الإنترنت، والتأثيرات التي يحدثها هذا المحتوى أو هذا الشكل على عملية التلقي الإعلامي، وأخيراً وليس آخراً تم بحث المؤهلات والمهارات التي يجب أن يتحلى بها رجال الإعلام لمواكبة شبكة الإنترنت.

وطرح أيضاً دور الإنترنت في العملية الإبداعية بكل أشكالها الفنية والأدبية فتم تناول علاقة الشبكة بكل عنصر من عناصر الإبداع، وهي عناصر: المبدع، العملية الإبداعية، العمل الإبداعي، متلقي الإبداع، فبحثت الجوانب والإمكانات التي أضافتها الإنترنت للمبدع، ومدى احتمال الاستغناء عن المبدع لتحل محله كيانات أخرى بديلة، ومدى سلطته وسطوته على النص أو على العمل الفني والعناصر الجديدة والمبهرة التي أضفتها الإنترنت على العمل الإبداعي (القصص والروايات والأشعار المكتوبة باستخدام تقنية النص الفائق والمنشورة على الشبكة).. والإمكانات التي أتاحتها لممارسة العملية الإبداعية (الرواية التي يتعدد مؤلفوها على الشبكة) وأخيراً الإمكانات التي قدمتها الإنترنت لعملية تلقي الفن فالإنترنت تتيح تجاوبية وتفاعلية أكبر بين

المتلقي وبين العمــل الفني. كذلك تم تناول دور الإنترنت في الحفاظ على التراث الفني ونشره ودورها في خلق نماذج فنية جديدة أو في المــزج بين الفنون القائمة لخلق بنى فنية مغايرة لما هو قائم.

ولم يكن الدين بما له من مكانة أن ينسى من قبــل باحثــي الإنترنت، فلقــد عمدت مجموعــة مــن البحــوث في شتــى الأديان السماويــة - بل والوضعيــة - إلى محاولة الكشــف عن صورة كل دين من هذه الأديان على الشبكــة والخروج بتوصيات حول سبل تحسين صورة هذا الدين على الشبكة وكذلك سبل الرد على إدعاءات وافتراءات أصحاب الديانات الأخرى أو غير ذوي الديانات على هذا الدين والتصدي لها، أيضاً بحثت هذه البحوث في أنجع السبل التي يمكن توظيف الإنترنت في نشر الديانات، فالإنترنت تشكل بالفعل أداة سهلة وبسيطة وسريعة، ويصعب مقاومتها في نشر الأديان.

بقــي أن نذكر أن شبكة الإنترنت أتاحت فرصــة كــبرى للتكامــل المعــرفي في مجال البحث العلمي فدراسة شبكة الإنترنت تكون أكــثر دقة يتعــاون فيها باحثــون من علوم متعددة يتعاونون معاً في بناء الأطر المنهجية المتشابكة والمتكاملة لسبر غور الشبكة، فتلك هي أنجــح السبل لاستكشــاف هذا الكيان الشبكي المتداخل المعقد.





تعريب التصنيف الدولي لبراءات الاختراع

د. أحمد غنام ❁

تمثل المصطلحات العلمية والتقنية والصناعية اليوم محور اهتمام المشتغلين في الترجمة والتعريب بسبب سيل المفاهيم العلمية والتقنية والصناعية الجديدة المتدفق باستمرار والمتزايد باضطراد، فالنهضة العلمية والتقنية والتصنيعية في العصر الحديث قد بلغت مستوى عظيما لم تبلغه في أي وقت مضى، والمعرفة البشرية في مجال التقنية تنمو يوما بعد يوم، ويتزايد معدل نموها بفضل تسابق الدول الصناعية لاحتلال مواقع رائدة في

❁ باحث سوري.

العمل الفني: الفنان جورج عشي.

استخدام التقنيات الحديثة. وبطبيعة الحال فإن هذا التزايد المضطرد في العلوم والتقنية والتصنيع يتبعه تزايد مماثل في المصطلحات الجديدة. ولا بد للأمة العربية من مواكبة المنجزات العلمية والتقنية للأمم الأخرى للاستفادة منها. وتبع ذلك الحاجة المستمرة لنقل المصطلحات التقنية والصناعية من لغتها الأصلية إلى اللغة العربية ليسهل فهمها من قبل السواد الأعظم من أبناء الأمة العربية.

لقد شهدت الأمة العربية حركة دائبة للتعريب، غير أن مشكلة خطيرة واجهت ومازالت تواجه القائمين على حركة التعريب وتتلخص في تعدد المضمون الواحد في الحقل الواحد، واختلافها من قطر إلى قطر. وأمام هذا الاضطراب وعدم المنهجية في تثبيت المصطلحات العربية أمام مرادفاتها الأجنبية ظهرت الحاجة إلى توحيد المصطلحات وتوفير قاعدة واسعة منها ليُهتدى بها في الترجمة. ونظرا لأنه لا يتوافر إلى الآن أي معجم عربي يشمل جميع المجالات التقنية، بما في ذلك أحدث هذه المجالات وأكثرها تقدماً، ومن أجل تلافي استعمال عدد متزايد من المصطلحات التي تصف المنتجات ذاتها بصورة مختلفة في الأقطار العربية، فإن من الأهمية بمكان العمل على توحيد المصطلحات العلمية والتقنية. وانطلاقا من أهداف اتحاد مجالس البحث العلمي العربية الرامية إلى التعاون مع الجهات الأخرى لدفع حركة التعريب وتوحيد المصطلحات العلمية والتقنية في الوطن العربي، فقد قامت الأمانة العامّة بتعريب المجلد التاسع من التصنيف الدولي لبراءات الاختراع الذي يصف مجالات الأنشطة الصناعية كافة وييسر الحصول على المعلومات التقنية الحديثة المتضمنة في اختراعات المبدعين.

إن تعريب التصنيف الدولي لبراءات الاختراع هو الأول من نوعه في مجال الملكية الصناعية ويعتبر واحدا من أهم الإنجازات على طريق تحقيق تعريب المصطلحات التقنية الحديثة والمستعملة ليس فقط في مجالات المعرفة العلمية بل وأيضا في حقول الصناعة والتجارة والزراعة، الأمر الذي ييسر تبادل المعلومات والخبرات بين الأقطار العربية ويوحد اللغة العلمية العربية المستعملة في هذه الأقطار.

التصنيف الدولي لبراءات الاختراع

إن نظام التصنيف الدولي لبراءات الاختراع هو ثمرة الجهود التي بذلتها مكاتب الملكية الصناعية في العديد من البلدان في إطار التعاون الدولي. فمما

لاشك فيه أنــه نتيجة للتقدم التقني المطرد يلجــأ المخترعــون للحصول علــى براءات اختراع من مكاتب الملكية الصناعية لحماية اختراعاتهــم. ويقــدر عدد وثائــق براءات الاختراع التي تنشر سنويا في العالم بأكثر من مليــون وثيقة، وتشمل كل ما يمثل تقدما في المعرفة البشريــة في مجال التقنية. ويتوجب على مكاتــب الملكية الصناعيــة تحديد ما إذا كان الاخــتراع المطلــوب حمايته جديداً أم لا وإذا كان ينطــوي على خطوة ابتكارية، والبت في نهاية الأمر فيما إذا كان الاختراع مستوفيــا لمعايير أهليته للبراءة.. أي يتوجب علــى مكاتب الملكيــة الصناعية البحث عن وثائق بــراءات الاختراع المنشورة في مختلف أنحاء العالم، والتي يحتمل أن تكون ذات صلة بالموضوع، والحصول عليها.

إن تنظيم إدارة براءات الاختراع بكيفية تمكنها مــن أداء وظيفتها الحديثة، يقتضي تنظيــم مكتبة وثائق بــراءات الاختراع مما يتطلب تجميع أوصاف الاختراعات المنشورة في العالم. ولن تستطيع مكتبة وثائق البراءات في بلد ما تجميع الوثائق وإعدادها للاطلاع ما لم تستخدم جميع إدارات براءات الاختراع نفســ التصنيــف. ومن هــذا المنطلق فقد قامــت المنظمــة العالمية للملكيــة الفردية بإصدار التصنيف الدولي لبراءات الاختراع الذي يشمــل ما يزيد علــى ستة وخمسين ألف مجموعة يتصــل كل منها بمجال تقني محــدد. ويقع في تسعة مجلــدات يزيد عدد صفحاتهــا على ألف صفحــة، ويتضمن كل مجلد من المجلــدات الثمانيــة الأولى منها قسمــا شاملا مــن أقسام المعرفــة العلمية والتقنية والصناعيــة المتعلقة بمجال تقني واحد، وهذه الأقسام الثمانية هي:

- **القسم الأول**: ضروريات الإنسان.
- **القسم الثاني**: مختلف الوسائل التقنية الصناعية، وسائل النقل.
- **القسم الثالث**: الكيمياء والاستفلاز.
- **القسم الرابع**: المنسوجات والورق
- **القسم الخامس**: الإنشاءات الثابتة.
- **القســم السادس**: الهندسة الميكانيكية والإنارة والتدفئة والأسلحة والتفجير.
- **القسم السابع**: الفيزياء.
- **القسم الثامن**: الكهرباء.

وتنقســم هــذه الأقســام الثمانيــة إلى عشرين قسمــا فرعيا ومئــة وثمانية عشر صنفا وستمئة وسبعة عشر صنفا فرعيا .

أما المجلــد التاسع والذي قامت الأمانة العامة لاتحاد مجالس البحث العلمي العربية بتعريبــه فيشمل ملخصــا للفئات الرئيسية ويشرح هيــكل التفصيــلات السابق ذكرها وما تمثله وكذلك مبــادئ التصنيف الدولي

لبراءات الاختراع وتفسيراته.

كما يرشد الدليل إلى طريقة ترتيب وثائق براءات الاختراع تبعا للتصنيف الدولي لبراءات الاختراع في تبادل المعرفة العلمية والتقنية بين دول العالم. ونشير هنا إلى أن معظم البلدان الصناعية المتقدمة قد أعادت تصنيف وثائق براءاتها وفقا للتصنيف الدولي، وأصبح هذا التصنيف معتمدا في مختلف بلدان العالم. ويمكن تقدير حجم هذا العمل من خلال تجربة مكتب البراءات الياباني الذي يحتوي على أكثر من ثلاثة ملايين ونصف المليون من وثائق البراءات والتي ينمو تعدادها بمعدل ١٨٥٠٠٠ وثيقة سنويا، حيث أعاد تصنيف جميع وثائقه وفقا لهذا التصنيف الأمر الذي استغرق منه زهاء الخمس سنوات.

وتيسيرا لاستخدام التصنيف الدولي لبراءات الاختراع فقد تمت ترجمته إلى عدة لغات منها الصينية والتشيكية واليابانية والكورية والألمانية والبرتغالية والإسبانية والروسية والتايلندية والبولندية والصربية والمجرية. . هذا إضافة إلى اللغة الإنكليزية والفرنسية.



أهمية تعريب التصنيف الدولي لبراءات الاختراع

تعد وثائق براءات الاختراع مصدرا خصبا من مصادر المعلومات التقنية التي يصعب الحصول عليها من مصادر أخرى غير هذه الوثائق. ومشكلة الدول العربية الآن هي ضرورة قطع مسافة التخلف التقني والصناعي وذلك بنقل واستيعاب أحدث ما وصلت إليه التقنية لدى الدول المتقدمة وخلق المناخ الملائم للاختراع في الأقطار العربية نفسها. لذلك فإن فهم وتطبيق التصنيف الدولي لبراءات الاختراع هو أول خطوة إيجابية نحو تنظيم مكتبة وثائق

براءات الاختـراع العربية التي مـن شأنها تيسـير الحصول علـى المعلومـات التقنية للعلماء العرب وتطوير بحوثهم العلمية. ولما كان فهم العلوم واستيعابها لا يتحقق بصورة جيدة إلا عن طريق استخدام اللغة الوطنية لـذا فإن تعريب التصنيـف الدولي لبراءات الاختراع يعد ضرورة دعت إليها الحاجة ليس لترتيب المحتويات التقنيـة لوثائق البراءات فحسـب بل وكذلـك لإثراء اللغـة العربية بكل ما جـاءت به الحضـارة المعاصرة من مصطلحات تقنية فيتيسر بذلك فهم العلوم والتقنيـات الحديثة. ويمكـن إيجاز أهمية تعريب التصنيف الـدولي لبراءات الاختراع فيما يلي:

١. دعم اللغة العربية كلغة حية تستخدم في نقـل وفهـم الحقائـق العلميـة التقنية الحديثـة وصياغـة تعريـب المصطلحات العلميـة في ضوء الجهـود القيّمة للمجامع اللغويـة والمؤسسـات العربيـة المتخصصة والمهتمة بشؤون التعريب.

٢. توسيـع إحدى ركائز اللغـة العربية وقدراتهـا لزيادة سهولة استخدامها في نقل العلوم والتقنيـات الحديثة والتعبير بها عن أدق التفصيـلات العلمية والتقنية وتكييفها وتطويعهـا لمقتضيـات التطـورات العلمية والتقنية في مجالات النشاط البشري كافة.

المبـادئ الأساسيـة في اختيـار المصطلحات

إن اختيار المصطلحات العربية المناسبة للمدلـولات العلمية والتقنيـة ليس بالأمر اليسـير فهـو يتطلـب إلماما تامـا بالعلوم والتقنيـات مـن جهة، وتمكـن لا غنى عنه باللغة العربية ومفرداتهـا من جهة أخرى. وعلـى الرغم من أنه يصعـب إثبات قاعدة ثابتة في طريق اختيار المصطلحات التقنية. غير أنه ثمة مبادئ أساسية اعتمدت في وضع المصطلحات واختيارها. وهذه المبادئ هي كما يلي:

١- عدم جواز وضـع أكثر من مصطلح واحـد، ودون مـرادف، للمفهـوم العلمـي والتقني الواحد في المجال الواحد .

٢- الحفـاظ على مـا استعمـل أو ما استقـر مـن مصطلحـات علميـة وتقنية صالحـة للاستعمال الحديث مترجمة كانت أو معربة.

٣- الالتـزام بمـا أقرته مجامـع اللغة العربية من مصطلحات.

٤- تفضيـل الكلمـة الوحيـدة علـى العبارة.

٥- تفضيـل الكلمة الشائعة على الكلمة النادرة أو الغريبة.

٦- تفضيل الكلمات السهلة النطق والتي يقبلها الذوق علــى الكلمات الصعبة النطق أو النابية عن الذوق.

إن هذه المبادئ، والتي هي أساسية بوجه عام لاختيار المصطلحات في المجالات كافة، ما كانــت لتجدي نفعا لولا جهود المترجمين الذيــن استعانــت الأمانة العامــة للاتحاد بخبراتهــم لتحقيق هدفها وذلك لما يمتازون به مــن تمكن علمــي وإلمام لغــوي وإيمان بحتمية تعريب العلــوم والتقنيات الحديثة. فمــا كان منهم إلا أن حولوا هذه المبادئ إلى واقع عملي باذلين في ذلــك كل ما بوسعهم للتوصــل إلى المصطلح العلمــي الصحيح. كما بذل العاملــون بوحدة التوثيق والإعلام لبراءات الاختراع في الاتحاد جهودا مضنية في المراجعة والتدقيــق والتأكد من تطبيقه هذه المبادئ.

المصطلحــات العربيــة العلميــة المكافئة

إن الأمانة العامة لاتحاد مجالس البحث العلمي العربية، من خلال ترجمتها للمجلد التاســع مــن التصنيــف الدولي لــبراءات الاختراع، تضع اليوم بين أيدي المجامع اللغوية المقابــلات العربيــة لأحــدث المصطلحات العصريــة التقنيــة بجميع أنواعهــا، والتي يمكن اعتبارها قاعدة للمصطلحات التقنية يستطيع المختصون العــرب الانطلاق منها لرفد العلم بالجديــد والأصيل من المعارف بلغتهم العربية. ويتميز هذا التصنيف على غــيره من كتب ومراجع بمــا يطرأ عليه من تحديــث مستمر يتماشى مــع حالة التطور التقني المطرد الذي يشهدها العالم فهو إذن مرجع يمكن مــن خلاله الوقــوف على ما يستجد مــن مصطلحات علمية وتقنية مما يتيح وضع المصطلحات العربية المكافئة لها فيجعل اللغــة العربية لغة عصرها ويساهم بشــكل أساســي في توحيد وترويــج وشيوع المصطلحــات العلمية والتقنية، فمما لاشك فيه أنه لو صاحب دخول المخترع الأجنبي إلى الأقطار العربيــة وضع لفظ عربي له وشاع استخدامــه وروج بوساطــة وسائل الإعلام لقضى تماما على تعددية المصطلح العربي التي تعاني منها جميــع الأقطار العربية في الوقت الراهن.

وثمــة ميزة أخــرى للتصنيــف الدولي لبراءات الاختراع، لا يمكن إغفالها تتمثل في جمعه للدلالات العلميــة الأجنبية المختلفة اللفــظ والمتقاربة في المعنــى ضمن المجال الواحد، ممــا يتيح لواضعــي المصطلحات إمكانية اختيار الألفاظ العربية المكافئة دون الخلط بينها في المعنى فيتحقق بذلك اختيار المصطلــح الواحد للمفهــوم التقني الواحد

ضمن المجال الواحد. فعلى سبيل المثال وردت في الصنف «B 07 B» الكلمات التالية: «Screening»، «Sieving»، «Sifting». إن وجود هذه الكلمات المختلفة المتقاربة في المعنى في ذات الصياغ أتاح للمترجم إمكانية المقارنة بين مدلولاتها فاختار لها المصطلحات التالية على التوالي «نخل» و «تصفية» و«غربلة».

وكمثال آخر جاءت في الصنف «G 01 J» الكلمات التالية: «Spectrometry»، «photometry»، «Spectrophotometry». ماكان للمترجم أن يفرق بينها لولا أن جاءت متتالية ضمن نفس الصياغ فاختار لها الألفاظ العربية المكافئة وهي «قياس شدة الضوء» و«قياس الطيف» و«قياس الإضاءة الطيفية» على التوالي. كذلك جاء في الصنف «F 27 B» المصطلحات: «Ovens»، «Retorts»، «Ranges»، «Stoves»، «Kilns»، «Furnaces». وهي متداخلة المعنى وغير واضحة الحدود فأتاحت للمعرب إمكانية المقارنة بينها، واختار لها المصطلحات التالية على التوالي: «مطابيخ»، «مواقد»، «أتونات»، «أفران»، «معوجّات»، «أفران صهر».

وكثيراً ما يستخدم مصطلح أجنبي واحد ليحمل معاني متعددة مختلفة باختلاف مجالات استخدامه، وهنا يساعد التصنيف الدولي على منع ما يمكن أن يحدث من التباس وذلك من خلال جمعه لكافة المصطلحات التي يتضمنها كل مجال تقني. فمثلا في مجال الزراعة ورد في الصنف «A 10 D» المصطلح «Pitch Fork» فاختار لها المعرب مصطلح «المذاري» وترد الكلمة «Pitch» في الصنف «C 10 C» مجال الهندسة الكيمياوية ليختار لها المعرب مصطلح «القير»، ويرد المصطلح ذاته «Pitch» مرة ثالثة في الصنف «B 63 H» في مجال الدفع أو التوجيه البحري ليعني «خطوة». وكمثال آخر تصنف كلمة «Locks» في «الأقفال» أما في الصنف «E 02 C». وفي مجال نبائط رفع السفن فقد جاء المصطلح «Locks» ليختار له المعرب مصطلح «الأحواز» حيث استخدم ليصف جدارا صلبا ذا فتحة في أسفله تمر من خلالها السفن.

التصنيف الدولي لبراءات الاختراع ودور المجامع اللغوية

إن تعريب التصنيف الدولي لبراءات الاختراع إنجاز على طريق تثبيت وتوحيد المصطلحات التقنية وذلك بفضل ما يتميز به هذا التصنيف من شمولية ووضوح، فهو متسع يشمل النشاطات التقنية كافة التي

عرفتهـا البشرية في المجـالات كافة ابتداء من لعب الأطفـال إلى سفن الفضاء، لذلك فإنـه يصلـح ليكون قاعدة لإعـداد معجم عام للمصطلحات التقنيـة .ودليلاً مرشداً للمهتمين بالمصطلحات التقنية وتعريبها.

وانطلاقا من مبدأ مراجعة المصطلحات يتوجب على المجامع اللغوية فحص وتدقيق المصطلحـات العربيـة المستخدمة في هذا التصنيف ونقدهـا أو تعديلها بغير تساهل ولا سطحيـة آخـذة بعين الاعتبـار أهمية تنسيـق وتوحيـد المصطلـح بـين الأقطار العربية وضـرورة تضافر الجهـود العربية لإنجـاح عملية التعريـب في الوطن العربي توخيـا لمواكبة التقدم الحضـاري، فتعريب هذا المجلد الذي يحتوي على كافة المفردات المتخصصـة في شتـى مجـالات التقنيـة الصناعية، لا يمكن أن يكلل بالنجاح إلا إذا روعي فيه دقة اختيار المصطلحات العربية ولا يتحقـق ذلـك إلا عن طريـق المراجعة الدقيقـة والنقـد البناء من قبـل المجامع اللغويـة وسائـر المهتمين بتنسيـق وتوحيد وترابط المصطلحات التقنية.

ومن جهـة أخرى فقد أقر مجلس اتحاد مجالس البحـث العلمي العربيـة في دورته العادية التاسعة عشرة مشروع تعريب الأجزاء المتبقيـة مـن التصنيـف الـدولي لبراءات الاختراع ومن المؤمل أن تقوم المنظمة العالمية للملكية الفكريـة بتنفيذ المشروع بالاشتراك مع اتحـاد مجالس البحـث العلمي العربية وبدعم مادي مـن الأقطار العربية وبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي حيث تبلغ كلفة هذا المشروع حوالي ٢,٥ مليون دولار أمريكي.

إن تنفيذ مشروعا للتعريب بهذه الضخامة يعتبر واحد من أهـم الإنجازات التطبيقية المتوقعـة على طريق توحيـد المصطلحات. ونظـرا للارتباط التام بـين هذه المجلدات الثمانيـة والمجلد التاسع الـذي تم تعريبه من قبل الاتحـاد الدولي فـإن هذا الأخير يصبح بمثابـة حجر الزاوية الـذي يعتمد عليه تعريب الأجزاء الثمانية من التصنيف الدولي لـبراءات الاختراع، وهنـا تبرز مرة أخرى أهمية المراجعة الدقيقة والنقد البناء للمصطلحات التي اعتمدت في تعريب المجلد التاسـع من قبل المجامـع اللغوية والمهتمين بتنسيق وتوحيد المصطلحـات. فما أخطر أن تعتمد مصطلحـات خاطئة في التعريب فيتحول هذا الجهـد إلى زيادة في الفوضى اللغويـة بدلا من توحيـد في المصطلحات. إن وطننـا العربي في أشد الحاجة إلى وضع المصطلحات التقنية الموحـدة وإلى تضافر الجهود نحو هذا الهدف.



جوته شاعر العرب والإسلام

د. خليل ثابت مدّاد ❁

في منتصف الخمسينيات حين كانت المطالعة هاجسنا الأوحد قرأت قصة «آلام فرتر» للكاتب والروائي والشاعر الألماني «يوهان فولفانج جوته» ترجمة نخلة ورّد في حين كانت هناك ترجمة أخرى لنفس الرواية رائجة في المكتبات لأحمد حسن الزيات حيث كانت هذه الرواية تحكي قصة حب رائعة بطلها الكاتب والشاعر نفسه الذي وقع في حب شارلوت والتي كانت مخطوبة لغيره وكاد أن ينتحر يأساً ورحل عن مدينته وتغلب على يأسه بكتابة هذه الرواية التي كانت شعراً قبل أن تكون نثراً، وتتالت اهتماماتي بهذا الشاعر

❁ كاتب سوري.

العمل الفني: الفنان رشيد شمه.

الكبير إلى أن أصدرت دار المعرفة عام ١٩٩٥ ترجمة كتاب /جوتــه والعالم العربي/ حيث يقــدم جوته مادة جديــدة كشفت عن عمق الإجــلال العظيم الــذي كان يكنه للإسلام ونبيه الكريم وللعرب وآدابهم.

والمطلّع على حيــاة هذا الشاعر الأديب يجد أنها مليئة بالمفاجآت والتناقضات وأنه حــاول أن يكتسب لغات غــير لغته الألمانية الأصلية ويطّلع على آداب الآخرين وحياتهم كما أن تقلبه بالمناصب زاده معرفة وقوة فهو شاعــر ومسرحي وروائي. ولــد عام ١٧٤٩ ومات عــام ١٨٣٠. درس القانون في لايبزغ وستراسبورغ. تحمَّس لأعمال شكسبير وروسو وسبينــوزا. عمــل محامياً بمحكمــة العدل الإمبراطوريــة، كتب عــدة مسرحيات. نشر الجزء الأول من مسرحيته /فاوست/ وتعتبر من أعظم المؤلفات الشعرية والفلسفية.(١)

شغل الوزارة لعشر سنوات في عهد شارل دوق فيمار. اهتــم بكتاباته العلمية والأدبية وظل يؤلف الشعر والأدب. نشر ديوانه الشرق والغرب عام ١٨١٩ نتيجة تعرفه على الشعر الفارسي. كان يجيد الشعر والموسيقى ويلم بالإنجليزية والفرنسية والإيطالية واللاتينية، واليونانية والعبرية. اهتــم باللاهوت وعلم الآثار. حرَّر عدة مجلات فنية وأدبية وعلمية ويُعد إلى جانب هوميروس ودانتي وشكسبير رابع عظماء الأدب الغربي.(٢)

ومن المؤسف حقــاً أن الموسوعة العربية الميسرة عــام ١٩٦٥ لم تُشــر إلى تعلق جوته بالعرب والمسلمين وبالرسول العظيم إلى أن جــاءت السيدة كاتارينا موفــرن التي تعتبر عميــدة الأدب الألماني في جامعات الولايات المتحــدة الأمريكية قاطبــة في بتقديم هذه المادة وقــام الدكتــور عدنــان عباس علي وراجعها وصــاغ وترجــم أشعارها الدكتور عبد الغفــار مكاوي ونشــرت ضمن سلسلة الكتــب الثقافيــة الشعرية التــي يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب في الكويت.

في عام ١٧٠٥ تهيأت أول فرصة للتحول الإيجابي في موقــف المستشرقين من النبي صلــى الله عليه وسلم ففــي هذا العام نشر المستشرق الهولندي البروتستانتي (هادريان ريلانــد) كتابه عن الديانــة المحمدية حيث سعى جاهــداً في مؤلفــه إلى تقديم عرض منصف للإســلام وسرعان مــا ترجم هذا الكتاب إلى الإنجليزية والألمانية والفرنسية. ولم يلبــث جوتــه أن انكب كذلــك على هذا العرض الإيجابي وكان السبب الآخر العظيم الشأن في تقييم أوروبة للإسلام هو الترجمة الإنجليزيــة للقرآن الكريم علــى يد جورج سيل ذلك المحامي الــذي عاش مدّة طويلة بين العرب والمسلمين وحظيت ترجمته التي

نقلــت إلى الألمانية والهولنديــة والفرنسية بتقدير كبير من أهل الخبرة بسبب التزامها الشديد بالأصــل العربي وأبرز التطابق بين الإسلام والمسيحية.

كما صــدر كتاب الكونت بــولان فيلييه وتضمَّــن الإشادة العظيمــة بمحمد (ص) باعتباره أحد المشرعــين الثلاثة العظام في تاريخ العالم حسب رأيــه وهما كونفوشيوس وزرادشت.

وإذا اتجهنا بأنظارنا صوب ألمانيا فلابد من ذكر لايبنس ولسنغ وهيردر فهؤلاء قاموا بوحي تفكيرهم بإنصاف الإسلام حيث أخذ لسنغ يدافع بمسرحيته كارافوس على لسان أحــد المسلمين عن الإســلام مشيراً بوصفه ديانة تتصف بالحكمة والعقلانية.

وتتنــاول المؤلفــة في الجــزء الأول من الكتــاب «جوته والعــالم العربي» الشعر عند العــرب حيث الطبيعــة الصحراوية وتبدؤه بالمعلقات السبع الذي كان وليم جونز معاصر جوتــه أول من عرَّف الغرب بهم حيث كانت هذه المعلقات التي وضعت على أبواب الكعبة تدعو للدهشة والاستغراب كما أنها تشتمل على مقاطع بعضها محبب إلى النفس.(٢)

كانــت القصيــدة الأولى التــي هام بها جوته والتي تعتبر مــن النسيب هي قصيدة امرئ القيس:

قفا نبكِ من ذكرى حبيب ومنزلِ
بسقط اللوى بين الدخول فحوملِ
وليلٍ كموجِ البحْر أرخى سدوله
علـيَّ بـأنـواع الـهـموم ليبتلي

أما الأمر الآخر فهو أن جوته قد استعار مــن مكتبة فايمار ثلاث طبعــات للمعلقات وأنه روى شعراً منها يوم ٢٨ فبراير في القصر الأميري على أسماع جمــع من النسوة عند الدوقة لويزة وشرح لهنَّ أن المعلقات قصائد سبــع لسبعة شعراء كبار كتبت بماء الذهب. أما الشعراء فهم زهير وطرفة وامرؤ القيس وعمرو بن كلثوم والحارث وعنترة ولبيد.

وصاغ جوته شعــراً تعليقاً على المعلقات حيث يقول:

وعند العرب الذين يسكنون بقعة أقرب إلى الشرق نجــد كنوزاً رائعــة في المعلقات تعطي فكرة عن شعب محارب يمتهن الرعي تمزّقــه المنازعات وتعبر عــن القلق الراسخ بالرجال الذين هم من نفس العنصر. وقيمة هــذه القصائد تزداد عندمــا يقول جونز: معلقــة امــرئ القيس بهيجة لماعــة. أنيقة متنوعة. سارة. أما معلقة طرفة فجريئة حية وثابــة. وقصيدة لبيد خفيفة هيمانة أنيقة. رقيقة تذكرنا بالرعوية الثانية لفرجيل لأنه يشكومن كبرياء الحبيبة.

وقصيــدة عنــترة تبدو متكــبرة مهددة

حافلة بالتعبير رائعة. لكنها لاتخلو من جمال في أوصافها. وعمرو بن كلثوم عنيف، سام، ماجد. والحارث بن حلزة على العكس مليء بالحكمة والفطنة والكرامة.

جاء ذلك في كتابه: الديوان الشرقي للمؤلف الغربي.



إن هذه القصائد التي جاءت في المعلقات انعكاس صاف لروح العرب قبل محمد(ص) ولطبيعتهم وعاداتهم وتقاليدهم. إنها ذات شأن خطير حتى بالنسبة لزمننا الراهن فهي نصيب رائع يعبر عن طرائق /التفكير/ لهذا الشعب البدوي وإخلاصه واستقامته الخشنة المتشددة. إنها تصف سجية أناسٍ عاشوا في هذه الحقبة التي أفاق فيها الفكر من سباته. ولعل هذا الشغف هو الذي دفع جوته لأن يهتم بهؤلاء بعد النبوة ونشر الدين الإسلامي.

غير أن ما يهمنا في هذه الدراسة صلة جوته بالإسلام وبالنبي (ص) وهي المرحلة الثانية التي اهتم بها بدراسته للعرب والمسلمين رغم أنه يفرد مئات الصفحات للشعر البدوي وأثره على عقلية سكان البادية وانعكاسه على حياتهم الاجتماعية.

أما صلة جوته بالإسلام فتعود إلى المرحلة التي أتمَّ فيها دراسة القانون عام ١٧٧١ في مدينة ستراسبورغ بعد أن التقى بهرّدِر الذي حثه على قراءة القرآن الكريم ودراسته، وطوال الأيام نجده يقتبس عدداً كبيراً من آياته واستمر مع أصدقائه المتدينين لمعرفة التصور الصحيح للسيد المسيح عليه السلام حيث يتبين له أن العقيدة الواحدة تتخذ صوراً مختلفة باختلاف طباع الأفراد وطرائق تفكيرهم حيث يقول: ليس الإيمان

سوى وعاء مقدس يضع فيه كل واحد حسب طاقته ما يستطيع فعلى المرء أن ينظر إلى دراسة جوته للقرآن الكريم من منظور هذا التطور الكلي الذي لم يستبعد الحلول التلفيقية بل كان يرحب بها. بيد أن انجذاب جوته نحو القرآن الكريم كان يتجلّى في ميوله الدينية بشكل خاص كفكرة التوحيد والاعتقاد بأن الله يتجلى في الطبيعة وأنه يخاطب البشر عن طريق الرسل ورفض الخوارق والاعتقاد بأن التدين الحق لابد أن يثبتَ وجوده عن طريق البر والإحسان.

هذا التوافق الباطني الذي وجده جوته بالإسلام بلغ من العمق مما ساعده على تأليف الديوان الشرقي، كما أن تأثر جوته بالقرآن الكريم جاء من خلال تدوينه لعدد من الآيات القرآنية التي تكشف جوانب العقيدة الإسلامية لأنها بدت على صلة وثيقة بتفكيره. فمن سورة البقرة اقتبسَ الآية الكريمة:/بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ/ (البقرة١١٢)، والآية الأخرى /لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ/ (البقرة١٧٧)

وليس مصادفة أن يقوم جوته بترجمة هاتين الآيتين الكريمتين اللتين تؤكدان أن التقوى لا تظهر من خلال الاعتقاد بل لابد أن يثبتَ وجوده عن طريق الأعمال أيضاً ومع أنه كان بروتستانتياً من حيث المولد إلا أنه لم يكن على اتفاق مع فكرة الإصلاح الديني القائلة بأن ليس على المرء سوى التعرف على فضائل السيد المسيح والسعي لنيل نعمته. بل كان يميل إلى فكرة الكاثوليكية الأصلية الخاصة بالمال والبر والإحسان.

وتكشف الرسائل التي كان يبعثها إلى زملائه عن مدى إعجابه وتعلقه بالإسلام وخضوعه لمشيئة الله وإرادته. ففي عام ١٨٢٠ عندما كانت زوجة ابنه تعاني من مرض خطير كتب جوته بنبرة مشبعة بنفس الإيمان بالقضاء والقدر إلى أحد أصدقائه قائلاً:

لا يسعني أن أقول أكثر إني أحاول هنا أيضاً أن ألوذ بالإسلام.

وعلى نحو مشابه كتب عام ١٨٣١ إلى صديقةٍ تطلب منه النصيحة بشأن وباء الكوليرا الذي انتشر في طول البلاد وعرضها فقال:

ليس بوسع امرئ أن يقدم النصحَ لآخر في هذا الشأن فليتخذ كل إنسان القرار الذي يناسبه.

إننـــا جميعـــاً نحيـــا في الإســـلام مهما اختلفت الصورة التي نقوي بها عزائمنا. وفي ديسمبر ١٨٢٠ كتب جوته إلى صديقه فيلمر شاكـــراً إياه على إهدائه نسخة من مجموعة حكمه المنشـــورة في فرانكفورت عام ١٨٢١ تحت عنوان «آراء في الحياة». كتاب للشباب مؤكداً علـــى كل الآراء الدينية الرشيدة وأن الإســـلام هو الرأي الذي نأخذ به جميعاً إن آجلاً أم عاجلاً.

إن الاطمئنـــان والتسليم همـــا القاعدة الحقة لكل ديانة رشيدة

فلابد من الرضوخ لإرادة عملية مكتوبة علينا بحكمة لم

نستطـــع إدراكهـــا لأنهـــا تفـــوق فهمنا وعقولنا

وفي هـــذا تشابـــه المسيحيـــة بثوبهـــا الإعلامـــي تشابهاً كبـــيراً بالإسلام ويواصل أقواله: والفكرة المسيحية التي تقول: ما من عصفور يهوي من السطح دون مشيئة الرب لأن مشيئـــة الرب مستقاة مـــن نفس المنبع وتدل على قدرة عالية تدير أصغر الأمور.

إن هـــذا المنهـــج الفلسفـــي الإسلامـــي يستطيـــع أن يطبقه علـــى نفسه وعلى غيره لكي يعرف مستوى العقلية التي يبلغها.

إلا أن العاطفـــة لعبـــت دوراً كبـــيراً في شعـــر جوتـــه وتأملاتـــه فمـــزج بينها وبين العشق الإلهي، فقد أحس وهو في السادسة والعشرين من عمره أن الله يتجلى في سحر عيني امـــرأة هامَ بها حينـــذاك وهي بطلة قصة آلام فرتر /شارلوت فون شتاين حيث كتب لها رسالة يقول فيها: لم ألحظ في هذه المـــرة سوى عينيك طيلة الاحتفال. وفي باب آخر يتحـــول جوته إلى مـــزج الحب الإلهي بعشـــق الحبيبة علـــى طريقـــة المتصوفة. فالتعـــرف علـــى الحبيبـــة في أروع مظاهر الطبيعـــة ووصفها هو الشعـــور بأن الحبيبة جذبته إلى الأرض ورفعته إلى السماء.

كما جاء في قصيدة «حنين مبارك» التي استوحاها من قصيدة غزلية فارسية ربطت الغزل بالتصوف وهي موضوع الفراشة التي تسعـــى إلى النار وتحرق نفسها كما ترجمها الدكتـــور عبد الغفـــار مـــكاوي ومنها هذه الأبيات:

لا تقل هذا لغير الحكماء
ربما يسخر منك الجهلاء
إنني آتي على الحي الذي
حنّ للموت بأحضان اللهيب
في ليالي الحب والشوق الرطيب
يصبح الوالد والمولود أنت
يحتوي قلبك إحساس غريب
ومن الشمعة إطراق وصمت
وستأتي مثلما رفّت فراشة

تعشق النور فتهوي في الحريق

وإذا لم تصْغِ للصوت القديم

داعياً إياك: مُت كيما تكون

فستبقى دائمًا ضيفًا يهيم

في ظلال الأرض كالطيف الحزين

وإذا ابتعدنا عن العاطفة التي لعبت دوراً كبيراً في حياته فإن عودتنا إلى علاقة جوته بالإسلام وبنبيه محمد(ص) ظاهرة مدعاة للدهشة فعبارته المشهورة (نموت ونحيا مسلمين) تدل على أنه كان في أعماق وجدانه شديد الاهتمام بالقرآن الكريم بعد الكتاب المقدس ولم يقتصر اهتمامه بالإسلام وتعاطفه على معرفة بحياته بل كان ظاهرة تميزت بها كل مراحل عمره الطويل، فقد نظم وهو في الثالثة والعشرين قصيدة رائعة أشاد فيها بالنبي وحين بلغ السبعين من عمره أعلن على الملأ أنه يعتزم أن يحتفل في خشوع بتلك الليلة المقدسة التي أنزل فيها القرآن الكريم على النبي، وبعد هاتين المرحلتين امتدت حياة طويلة أعرب الشاعر خلالها بشتى الطرق عن احترامه وإجلاله للإسلام وهذا ما نجده قبل كل شيء في ذلك الكتاب الذي يعد إلى جانب فاوست من أهم وصاياه الأدبية وقال عن نفسه أنه لا يكره أن يقال عنه أنه مسلم؛

أما الحادث الغريب الآخر فقد وقع لجوته عام ١٨١٤ وكان قد تحدث لصديقة بشأنه إذ كتب يقول: ولما كنت أتحدث عن بعض النبوءات فيتعين عليّ أن أذكر أن ثمة أموراً تحدث في أيامنا هذه (ولم يكن من الممكن أن يسمح أحد للمتنبئين بها، ومن ذا الذي بوسعه قبل سنوات قليلة أن يتنبأ أنه ستقام في مدرستنا الثانوية البروتستانتية صلاة إسلامية وبأنها ستشهد تلاوة من سور القرآن. إن هذا هو الذي حدث فعلاً فلقد عايشنا جماعة من البشر وهم يؤدون الصلاة ورحبنا بأميرهم.

وبعد أيام قليلة أخبر غوتة ابنه عن الصدى الذي تركه هذا الحدث المحلي على بعض أبناء فايمار إذ كتب إليه يقول: لقد استعار العديد من سيداتنا المتدينات في المكتبة ترجمات القرآن ثم أردف: إنني سعيد باقتناء المخطوطات الشرقية وإن كنت أجهل تماماً حروفها العجيبة، وربما لا نجد لغة أخرى يتحد فيها الفكر والكلمة والحروف اتحاداً أولياً أصلياً كما هو الحال في اللغة العربية.

وكان من جملة ما اقتبسه من سورة آل عمران (١٧٩): «**وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ**».

ومــن الســورة الثانيــة ســورة البقــرة (١١٢): «**بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ**».

أضــف إلى ذلــك اقتباس جوتــه للآية الكريمة: «**وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ**» (سورة العنكبــوت ٤٨). وبهــذا يكشف لنا عن اهتمــام الشاعر الشديــد بالمهمة التي نهضــ بها والمكانة التــي احتلها عند أمته، وقد بقي لمدة أربعة عقود مؤمناً بما جاء في الآية الأخيرة.

وفي رسالــة بعثها إلى الأديب الإنجليزي توماس كارليل عام ١٨٢٧ كررّ جوته مضمون الآيــة القرآنية إذ كتب يقول: لقد أرسلَ اللّه لكل أمة نبياً بلسانها.

كمــا ضمت رسالتــه بيتين مــن الشعر ملحقين بالديوان الشرقي إذ قال عن لسان الرسول:

لست قادراً على تحقيق المعجزات

وإن أعظم معجزة هي أنني موجود

وقد كان محقاً في اعتقاده فالنبي محمد استنكر الأساطير ونهــى عن كل أنواع تألية البشر والمعجزة الوحيدة التي قال إنه قام بها هي تبليــغ أمته كلمات القرآن. ولذلك تعود غالبية قصص المعجزات المنسوبة للنبي إلى مراحل متأخرة من التراث الإسلامي.

يتّضــح من هذا إيمان جوته بالله بشكل منسجم مع التصورات الإسلامية لكن المهم أن الشاعر قد جعل بطــل مسرحيته يرتفع ببصــره فوق المظاهــر الطبيعية التي يشعر بأنها إلهية ثم يجاوزهــا ويدرك أنَّ خالقها وخالــق الكون هو اللّه الــذي لا مثيل له في وحدانيتــه.. ويقول جوته في هــذا الصدد على لسان النبي محمد: إن اللّه يتجلى عند كل عين جارية وتحت كل شجرة مزهرة ومع هذا يحارب النبي اعتقاد قومه بتعدد الآلهة وتقديسهــم لهم ويجيــب محمد(ص) على السؤال. أليس لربك أنداد. بقوله: لو كان له أنداد أكانَ يمكن أن يكونَ هو اللّه الأحد!.

يفسر جوته بصورة أكثر إيماناً في مسرحية «محمد(صــ)» بفكرة تجلي اللّه في الطبيعة والإيمــان بوحدانيته، اليقــين بوجود أكثر من رسول مكلف بتبليــغ البشرية الرسالات السماوية واستلهم مــن سورة الأنعام (٩٧): «**وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**». حيث يصفها بشعره كما ترجمها الدكتور عبد الغفار مكاوي:

هــو الــذي جعــل لكــم الـنـجــوم

لـتـهـتـدوا بـهـا في الـبـر والـبـحـر

ولكي تنعموا بزينتها

وتنظروا دائماً إلى السماء

وفي مجال خضوع كل شيء للإرادة العلية يقول:

إلا أن كل شيء شاء الله رائع

لأنه سبحانَه وتعالى هو الخير الأعظم

وهكذا تنام كل الطيور في أوكارها

الصغيرة والكبيرة

هذا ما علمتني إياه. أو شيء مثل هذا

وما سمعتُ منك لن يفلت من حبيبي

وفي إطار التسليم بمشيئة الله يعتمد في ذلك في رباعيته بكتاب «الحكم» حيث يقول:

من حماقة الإنسان

أن يتعصب كل منا لما يراه

وإذا كان الإسلام معناه التسليم

فعلى الإسلام نحيا ونموت نحن أجمعين

ووجد أيضاً في ترجمة فان هومر الآيتين التاليتين:

«**اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقيمَ×صِرَاطَ الَّذينَ أنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ**» حولها جوته إلى قصيدة شعرية على شكل دعاء:

يريد الضلالُ أن يربكني

لكنك تعرف كيف تهديني

فإن أقدمتُ على عملٍ أو أنشدت شعراً

فأنِرْ لي أنت جادة الطريق

حيث أدركَ أن المسلم قادر على تحديد السلوك الضال أي المنافي للصراط المستقيم بسهولة، أما بالنسبة لجوته فإن الضلال موضوع أكثر تعقيداً لأن الشعر الغربي لا يتوافر على معايير وقواعد سلوكية بالصورة السابقة.

وقد أسفرت الدراسات القرآنية التي قام بها جوته في العامين ١٧٧١ و١٧٧٢ عن نتيجة مهمة إذ ألهمته التخطيط لكتابة عمل تراجيدي عظيم تضمنت هذه الشذرات ثناءً ومديحاً عظيمين لم يسبق لأي شاعر ألماني في أي عصر من العصور أن قدمها لنبي الإسلام إذ تكشف حقيقة ما كان يشير إليه جوته ويجذبه إلى الإسلام.

وبالعودة إلى قصيدة المديح الشهيرة المسماة نشيد محمد(ص) والتي صورها جوته بشعره حيث تصفه هادياً للبشرية في صورة نهر يبدأ بالتدفق رقيقاً هادئاً ثم لا يلبث أن يجيش بشكل مطرد ويتحول عنفوانه إلى سيل عارم، وتصور اتساع هذا النهر وتعاظم قوته الروحية في زحفها الظافر الرائع لتصبَّ أخيراً في البحر المحيط رمزاً لألوهيته. وفي مجال التوحيد وخلق الطبيعة يقف محمد تحت قبة السماء المرصعة بالنجوم فيقول:

ليس في مقدوري أن أفضي إليكم بهذا الإحساس

ليس في مقدوري أن أشعركم بهذا الشعور

مَنْ يُصْغِ السمع لضراعتي

من ينظر للعيون المبتهلة

انظروا ها هو يسطع في السماء المشتري النجم الصديق

لكن أنت يا سيدي كن الهي. إنه يلوح في حنان

انتظر انتظر

مبارك أنت أيها القمر.. يا هاديَ النجوم

كن أنت سيدي. كن إلهي. أنت تضيء الطريق

لا تتركني. لا تتركني في الظلام

ضالاً مع القوم الضالين

ارتفع أيها القلب العامر بالحب إلى خالقك

كن أنت مولاي. كن إلهي. أنت يا من تحب الخلق أجمعين

يا من خلقتني وخلقت الشمس والقمر والنجوم والأرض

ويعود بعد كل هذا إلى الإشادة بالقرآن الكريم وأن ترتيل القرآن وسيلة مهمة لارتقاء الروح إلى حالة صوفية تشعر فيها بالطمأنينة والطهر والصفاء. وعندما يرتل هذا الكتاب العزيز بصوتٍ عذب منغم يسمو إيقاعه بنفوس المؤمنين إلى أجواء علوية، ويفسح أمامهم آفاقاً جديدة لإدراك معانيه. وعندما أذاع فان هومر شيئاً عن ترجماته للقرآن الكريم أكد أن:

القرآن ليس دستور الإسلام فحسب إنما هو ذروة البيان العربي فسحر اللغة العظيم يشهد على أن القرآن الكريم هو وحيٌ من الله. وأن محمداً لم ينشر سلطانه بالسيف على قومه، بل نشره في المقام الأول بإعجاز الخطاب، وهنا يذكرنا جوته بسورة البقرة التي كان جوته يقدرها تقديراً عظيماً قد نوهت بأن المؤمنين سيرزقون في الجنة رزقاً متشابهاً أي رزقاً يشبه ما كانوا يرزقونه في الحياة رزقاً متشابهاً كما جاء في الآية (٢٥): **«وَبَشِّرِ الَّذِين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقاً قَالُواْ هَـذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ»**.

وإذا كنا تحدثنا عن تأثر الكتّاب والأدباء في أوروبة الغربية بالعرب والمسلمين والنبي الكريم فلا بد لنا أن نعرج قليلاً على أدباء وكتّاب أوروبة الشرقية وروسيا.

ففي العام ١٨٣٤ كتب بوشكين يقول: إن العرب ألهموا ملاحم العصور الوسطى النشوة الروحية والرقة والحب ومناصرة الخير والبلاغة وتجلى استلهام بوشكين وهيامه بالمشرق العربي والثقافة العربية والإسلامية في قصائد كثيرة (إلى ناتاليا) (إلى أختي) وأيتها الفتاة الوردة المكبلة/ مكبل بالأصفاد وكذلك قصيدته: البدر يشع. البحر هادئاً ينام.

كما يقدم جوكوفسكي قصيدة أخرى في كتابه، بوشكين والرومانتيكية الروسية لشاعر قديم، يستشهد فيه على استلهام

الشعـــراء الروســ موضوعاتهم مـــن الشعر العربي الإسلامي:

أقسم بمكة المقدسة (المكرمة)
أقسم بالغرس والزيتونةَ
أقسم بالشفرة المصقولة
أقسم بالسيف المجرد
أقسم بحوريات الجنة
والنبي محمد
إما أن تكوني لي
وإما لن تكوني لأحد

أمـــا تولستوي فيقــول في تعريف النبي (صلى الله عليه وسلم) إن محمداً هو مؤسس ورســول الديانة الإسلامية التــي يدين بها في جميع جهــات الكرة الأرضية مئتا مليون مسلم. ثــم يوجز الســيرة النبوية ويتحدث عــن قواعد الإسلام ويقــول (فإن المسلمين اشتهروا في صدر الإسلام بالزهد في الدنيا الباطلــة وطهارة الســيرة والاستقامة حتى أدهشوا المحيطين بهم بما هم عليه من كرم الأخلاق ومن فضائــل الدين الإسلامي أنه أوصى خيراً بالمسيحيين واليهود.. ويسترسل بقوله: كان النبــي محمداً من عظام لرجال المصلحين الذين خدموا الهيئة الاجتماعية خدمة جليلــة ويكفيه فخراً أنــه هدى أمة برمتها إلى نور الحق وجعلها تجنح للسكينة والسلام..

ويستشهد بالآية الكريمــة: «**وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**» (الحجرات١٣).

هذا غيض من فيضــ ما جاء في كتاب (كاثارينا مومزن عــن الشاعر جوته وتعلقه بالعرب والمسلمين) وهذا يؤكد مدى اهتمام الغــرب والشرق بالأفــكار والقيم التي جاء بها الإسلام ورسوله الكريم وما أعطته هذه الأفكار للبشريــة جمعاء من تسامح وتحابٍّ وإخاء.[٣]

المراجع

١- الموسوعة العربية الميسرة. إشراف محمد شفيق غربال- القاهرة ١٩٦٥.

٢- جوتــه والعالم العربي- تأليــف كاثارينا مومزن- ترجمــة: د.عدنان عباس علي- مراجعة: د.عبــد الغفار مكاوي- منشورات دار المعرفة بالكويت.

٣- المعرفة: مجلة تصدرها وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية- العدد ٥٢٠ كانون الثاني ٢٠٠٧م من مقال (تأثير الثقافة العربية الإسلامية في الأدب الروسي- مالك صقور).







صالون ولاّدة بنت المستكفي

حسين حمدان العسّاف ❀

يعتقد المهتمون بالصالونات النسائية أنّ صالون (كاترين ده رامبويه) من أقدم الصالونات الفرنسية التي ظهرت بباريس في القرن السابع عشر، ويرون أنّ هـذا الصالون كان مؤثراً في رواده، وكانت صاحبته شغلت الفرنسيين في زمانهـا، وفتنت أعلام عصرها، كانت مثقفة، جذابة، عذبة الحديث، متقدة الذكاء، مرهفة الإحساس، وكانت تستقبل في صالونها الأشراف وكبار القادة والمفكرين وكبار الشعراء، ثم يتحدثون أيضاً عن صالون (مدام ده سيفينيه) في

❀ باحث سوري.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

باريس الذي عاصر صالون نظيرتها (كاترين ده رامبوييه) ويتحدثون عن الصالونات النسائية التي ظهرت بفرنسا فيما بعد في القرن الثامن عشر، وهي كثيرة أشهرها صالون المركيزة (ده لمبرت) وصالون (مدام جوفرن) وصالون (مدام نكو) ثم ظهر بعده صالون (مدام ده ستايل) وصالون (مدام ريكامييه)، وكانت تثار في تلك الصالونات كما يذكر الباحثون موضوعات مختلفة: أدبية، اجتماعية، فكرية، سياسية، وكانت صاحبات تلك الصالونات جميلات فاتنات وأديبات مثقفات، وكن يدرن الجلسات في صالوناتهن بمهارة ولباقة وظرف، وكن يقدمن الضيافة للرواد، ويتبادلن معهم ومع أعلام عصرهن الرسائل، ثم أخذت الصالونات النسائية تخرج بعد ذلك من فرنسا إلى البلدان المجاورة، ثم تنتشر إلى بقية أنحاء العالم، ويرى الباحثون أن الصالونات النسائية دخلت بلادنا العربية أواخر القرن التاسع عشر، وقد تأثرت بالصالونات الغربية خاصة الفرنسية، وأخذت تحاكيها، وكان صالون الأميرة نازلي أول صالون نسائي، ظهر في القاهرة، كانت الأميرة تستقبل في دارها بعابدين كبار المصريين والأوروبيين، وكان يحضره سعد زغلول وقاسم أمين والشيخ محمد عبده والشيخ جمال الدين الأفغاني، وكانت تناقش فيه أحوال البلاد السياسية والاجتماعية والثقافية، لكن أهم صالون نسائي عربي ظهر في بداية القرن العشرين، وأكثر الصالونات النسائية تأثيراً في حياتنا الفكرية والثقافية والأدبية كان صالون مي زيادة في القاهرة، استمر هذا الصالون حوالي عشرين سنة، وكان ينعقد يوم الثلاثاء من كل أسبوع، ويحضره كبار رجال الأدب والعلم والفكر والفن، وكان الصالون يتناول بالدرس والبحث مختلف المسائل المثارة أو المعروضة عليه، وكانت صاحبة الصالون الفاتنة مثقفة، وأديبة وكاتبة، تتقن إلى جانب العربية اللغة الفرنسية، وتلم ببعض اللغات الأجنبية الأخرى، وتدير جلسات صالونها بمهارة نالت إعجاب الحاضرين، وكانت تقدم الضيافة لرواد صالونها، ويرى المهتمون أن الصالونات النسائية العربية تأثرت بالصالونات النسائية في فرنسا التي يعدونها رائدة في هذا المجال، فما مدى صحة هذا الرأي؟ هل كانت فرنسا حقاً أول بلد أوروبي تظهر فيه الصالونات النسائية؟ ألم تعرف أوروبة صالونات نسائية قبل صالون (كاترين ده رامبويه) بفرنسا؟ لنتوغل في عباب الزمن إلى الوراء قبل ظهور الصالونات النسائية الفرنسية بخمسة قرون، ولنحط رحالنا إلى بلد أوروبي آخر مجاور لفرنسا اسمه الأندلس، ولنمض سراعاً إلى مجلس، والعرب تلفظ المجلس

والصالون كلمة أجنبية، ترعاه أميرة أموية، اسمها (ولادة بنت المستكفي) فماذا تحدّث عنها القدماء؟ وماذا قالوا في مجلسها؟ وقبل ذلك نريد أن نتعرف إلى طبيعة الأندلس ثم إلى دور المرأة في المجتمع الأندلسي.

طبيعة الأندلس:

أكثر القدماء في كتبهم من وصف طبيعة الأندلس ومناخها، ومن هذا الوصف قول لسان الدين بن الخطيب[1]: (خص الله تعالى بلاد الأندلس من الريع وغدق السقيا ولذاذة الأقوات، وفراهة الحيوان، ودرور الفواكه، وكثرة المياه، وتبحر العمران، وجودة اللباس، وشرف الآنية، وكثرة السلاح، وصحة الهواء، وابيضاض ألوان الإنسان، ونبل الأذهان، وفنون الصنائع، بما حُرمه الكثير من الأقطار مما سواها). وقال أبو عامر السُّلمي في كتابه (درر القلائد وغرر الفوائد): (الأندلس من الإقليم الشامي، وهو خير الأقاليم، وأعدلها هواءً وتراباً، وأعذبها ماءً، وأطيبها هواءً وحيواناً ونباتاً). وقال المسعودي: (بلاد الأندلس تكون مسيرة عمائرها ومدنها نحو شهرين، ولهم من المدن الموصوفة نحوٌ من أربعين مدينة)[2]. وقال ابن سعيد: (وميزان وصف الأندلس أنها جزيرة قد أحدقت بها البحار، فأكثرت فيها الخصب والعمارة من كل جهة، فمتى سافرت من مدينة إلى مدينة، لا تكاد تنقطع من العمارة ما بين قرى ومياه ومزارع، والصحارى فيها معدومة، ومما اختصت به أن قراها في نهاية الجمال)[3]. أمّا الرازي فقال: (بلد الأندلس، طيب التربة، خصب الجناب، منبجس الأنهار الغزار، معتدل الهواء والجو والنسيم، وخريفه مشتاه ومصيفه على قدر من الاعتدال)[4] وقال أبو عبيد الله البكري: (الأندلس شامية في طيبها وهوائها، يمانية في اعتدالها واستوائها، هندية في عطرها وذكائها، أهوازية في عظم جبايتها، صينية في جواهر معادنها، عدنية في منافع سواحلها، فيها آثار عظيمة لليونانيين)[5]. وقال أحد المؤرخين: (ومن بركتها أن المسافر لا يسافر فيها فرسخين دون ماء أصلاً، وحيثما سار من الأقطار يجد الحوانيت في الفلوات والصحارى والأودية ورؤوس الجبال ليبيع الخبز والفواكه والجبن واللحم والحوت وغير ذلك من ضروب الأطعمة، وطول الأندلس ثلاثون يوماً وعرضها تسعة أيام، ويشقها أربعون نهراً كباراً، وبها من العيون والحمامات والمعادن مالا يحصى، وبها ثمانون مدينة من القواعد الكبار، وأزْيَد من ثلاثمئة من المتوسطة، وفيها من الحصون والقرى والبروج مالا يحصى كثرة حتى قيل: إنَّ القرى التي على نهر إشبيلية اثنا عشر ألف قرية، وليس في معمور الأرض صقع يجد المسافر فيه ثلاث مدن وأربعاً من يومه



إلاَّ بالأندلس)[٦] وأمَّا مدينة (ولاّدة) فهي (قرطبة) وفيها ولدت، وكانت (قرطبة) كما وصفها الرازي، أم المدائن، ونهرها أعظم أنهار الأندلس، وبها القنطرة التي هي إحدى غرائب الأرض في الصنعة والإحكام والجامع الذي ليس في بلاد الأندلس أكبر منه. وأعجب بها القدماء، فأكثروا من وصفها، فقال أحدهم: (هي أعظم مدينة في الأندلس، وليس بجميع المغرب لها عندي شبيه في كثرة أهل، وسعة محل، وفسحة أسواق، ونظافة محال، وعمارة مساجد، وكثرة حمامات وفنادق)[٧] وقال بعض العلماء: (أمّا قرطبة فهي قاعدة الأندلس، وقطبها، وقطرها الأعظم، وأمّ مدائنها ومساكنها، ومستقر الخلفاء، ودار المملكة في النصرانية والإسلام، ومدينة العلم، ومستقر السنة والجماعة. نزلها جملة من التابعين، وتابعي التابعين، ويقال: نزلها بعض من الصحابة، وفيه كلام، وهي مدينة عظيمة أزليّة من بنيان الأوائل، طيبة الماء والهواء، أحدقت بها البساتين والزيتون والقرى والحصون والمياه والعيون من كل جانب)[٨] وقال ابن سعد: (واتصلت العمارة بقرطبة أيام بني أمية ثمانية فراسخ طولاً، وفرسخين عرضاً، وذلك من الأميال أربعة وعشرون من الطول، وفي العرض ستة، وكل ذلك ديار وقصور ومساجد وبساتين بطول ضفة الوادي المسمّى بالوادي الكبير، وليس في الأندلس واد يسمّى باسم عربي غيره)[٩] والقنطرة التي على هذا النهر الكبير، من أعظم آثار الأندلس وأعجبها، أقواسها سبع عشرة قوساً، وفيها متنزهات كثيرة، وفيها غرائب الغروس، وأكارم الشجر من كل ناحية، ونمت أشجار أثمرت غرائب الفواكه التي انتشرت في سائر الأندلس، وكان من متنزهات قرطبة (السَّد) يرتاح الناس فيه أيام فراغهم، وأحصيت دور قرطبة، فكانت

مئتي ألف دار وثلاثة عشر ألف دار وسبعين داراً، وهـــذه دور الرّعية، وأمـــا دور الأكابر والـــوزراء والكتاب والأجناد فستون ألف دار وثلاثمئـــة دار سوى الحمّامـــات والخانات، وعـــدد الحوانيـــت ثمانـــون ألـــف حانوت وأربعمئة وخمسة وخمســـون حانوتاً، ومبلغ المساجـــد بها ثلاثـــة آلاف وثمانمئة وسبعة وثلاثون مسجداً، وعـــدد الحمامات المبرزة للناس سبعمئـــة حمّام، وفيها قصور فخمة، تحيطها البساتـــين الغنّـــاء.[10] وبعد الفتح العربي الإسلامـــي للأندلس اختلط العرب والمسلمون واليهـــود بالإسبان القوط سكان بلاد الأندلســـ الأصليين، وكان من الإسبان من أسلـــم، فأطلق عليهم اسم (المستعربين)، وكان منهـــم مـــن ظـــل علـــى نصرانيّته، ثم تعصبّـــت بعد ذلك طائفة منهم لنصرانيتها، وأثـــرَّ العرب علـــى حياة الإسبـــان في شبه الجزيرة الأيبيرية طوال وجودهم فيها الذي استمر ثمانية قرون، فحملوا إلى أهل الأندلس ومن حولها رسالة الديـــن الجديد، وبشرّوا بتعاليمه وقيمه ومثله، ونقلوا إليهم عاداتهم وتقاليدهم وثقافتهـــم، وما أبدعوه من فكر وأدب وفن وعلم، كما تأثر العرب بحياة شعوب أهل الأندلـــس وبثقافتهم وتراثهم وعاداتهم وتقاليدهـــم وزيّهـــم ومسكنهـــم وملبسهم، واختلط العرب بالإسبان وبغيرهم، فتزوجوا منهم، ونتج عن هذا الاختلاط والتزاوج أن تكوَّنت لعرب الأندلس حياة جديدة اختلفت قليلاً أو كثيراً عن حياة عرب المشرق.

المرأة الأندلسية:

وأثـــرت هذه الحيـــاة الجديدة للمجتمع الأندلسي على علاقة الرجل بالمرأة، فنالت المـــرأة فيها قدراً من الحرية، ساعدها على السفور والاختـــلاط بمجتمع الرجال وعلى الإسهام معهم في النهوض بالمجتمع الجديد في مختلف مدن الأندلس، وظهرت شاعرات كثيرات، ضاعت فيما أرجح أسماء أكثرهن، ولم يذكر لنا القدماء إلاَّ أسماء قليلة، فذكروا بعض أعلام النســـاء من أمثال حفصة بنت حمدون وعائشة القرطبية وحمدة بنت زياد ومريم بنت أبي يعقوب الأنصاري، ونزهون الغرناطيـــة وحسانـــة التميميـــة واعتمـــاد الرميكيـــة ومهجـــة القرطبيـــة، وحفصـــة الركونيـــة، وكان بعضـــ من ذكـــر القدماء منهن شاعرات وأدبيات مشهورات بالجمال والحســـب والمال، أنشـــد المغنون قصائدهن في المجالس، وتولع بهنّ أكابر القوم، وجرت بينهن وبين الخلفاء والملوك والأمراء والوزراء والعلمـــاء والأدبـــاء والشعـــراء مراســـلات شعريـــة، كن يلتزمن أحياناً فيما بينهن وبين المرسل إليهم بحراً واحداً ورويّاً واحداً، وكن يتجـــاوزن في قصائدهن مـــا كان مألوفاً في المشرق العربي، فكن يجاهرن بحبهن للرجل، ويبحن في قصائدهن بأشواقهن إليه، ويزحن

النقاب عن حقيقـة مشاعرهن إلى الرجال حباً أو كرهاً إعجاباً أو تهكماً حتى يخدشن أحيانــاً الحياء الذي نعهــده في المرأة، وكن مثقفــات محيطات بثقافــة عصرهن، ومن الطبيعي أن يكون لميسورة الحال منهن مجلس أدبــي يغشاه أهــل الثقافة والفكــر والعلم والأدب والشعر والغناء، يختلط فيه الرجال والنساء حتى شاعت هذه المجالس النسائية شيوع النساء الشاعرات والغناء، فشكلت في الأندلس ظاهرة حضارية عّمت البلاد رغم أنَّ القدماء، لم يشيروا إلى هذه المجالس عدا مجلس ولادة بنت المستكفي.

١- لمحة عن حياتها: ٣٩٩- ٤٨٤هـ/ ١٠٠٩- ١٠٨٧م

لم يحدثنا المؤرخــون القدماء عن أفراد أســرة ولادة، وإنمــا حدثونــا بإيجاز شديد عن أبيها وعنها وعــن مجلسها بما لا يكفي لإعطاء صورة دقيقة عن نشأتها وعن حياتها و مجلسهــا، وسأجتهــد في رســم الخطوط العريضة لهذه الصــورة، لعلها تكون قريبة مــن واقعها، ففــي مدينة قرطبــة عاصمة الخلافة الأموية في الأندلس ومقر الخلفاء والأمــراء والوزراء حيــث كان أهلها خليطاً من العرب والبربر والموالي واليهود والإسبان وغيرهــم. أبصرت (ولادة) النور حوالي ألف وتسع سنين للميلاد، ثلاثمئة وتسع وتسعين للهجــرة، وهي ابنة الخليفــة الأموي محمد الثالث الملقب بالمستكفــي بن عبد الرحمن بن عبيــد الله بن الناصر لدين الله بن عبد الله بن محمد الأول بن عبد الرحمن الثاني بن الحكــم الأول بن هشــام الأول بن عبد الرحمــن الداخل الملقب بــ (صقر قريش) حفيــد هشام بــن عبد الملــك عاشر خليفة أموي في دمشق، أمها مولاة إسبانية، نشأت (ولادة) في بــلاط الخلافة، حلــوة، بيضاء اللون، حمــراء الشعر، زرقاء العينين، أحبها أبواها، ودللاها، فمنحاها ما تحتاج إليه من عطف ورعاية، ومن المؤكد أنها لم تكن وحيدة أبيها، فلابد أن تكون لخليفة كثير الزيجات أســرة ضخمة العــدد من البنــين والبنات، ولكنهــا علــى كل حــال رأت نفسها، وهي طفلة، فتاة في قصــر خلافة حافل بالخدم والجــواري والمغنيات، ومحاط ببستان غناء، تتعرج على أرضه سواقي ماء رقراق، وأمامه بركة مــاء، فوجدت في هــذا القصر ما لذ وطاب بما تطرب له الأذن، وتشتهيه النفس، فنشأت فيه نشأة عزّ ودلال، لكنّ أيام زهوها وفرحها لم تطل، فولاّدة التي عاشت في بداية انهيار الخلافــة الأموية في الأندلس، بدأت تتوالى عليهــا المصائب والهموم، بويع أبوها المستكفي بالخلافة سنة أربع عشرة وأربعمئة للهجرة، ولكنه كان، كما يصفه مؤرخ الأندلس ابــن حيّان، أســير الشهوة، عاهــر الخلوة، مجبولاً على الجهالــة، مدمناً على الخمرة،

وكان ضعيف الشخصيــة، متخلفاً، فاخراً، مستهتراً، سيّئ الحكم، ففي سنة ست عشرة وأربعمئــة للهجرة، ألف وخمســ وعشرين للميلاد خلع أهل قرطبة أباها، ففر إلى أحد الثغور لابساً ثياب النســاء، ومات مسموماً بيد بعض رجاله، ولم يزد حكمه على سنتين، وكانــت (ولادة) يومها تقارب السادسة عشر ربيعاً، ولاشــك أنّ هذه المصيبة وغيرها من المصائب والخطوب التي ألمّت بهذه الشابة، تركت في نفسها أســوأ الأثر. وأخذت تنشأ على أنقاضــ الدولة الأمويــة المنهارة دول صغــيرة، تتنازع فيما بينها باستمرار، فشهد النصــف الأول مــن القرن الحــادي عشر الميلادي قيام حــوالي عشرين دولة، ظهرت في نحــو عشريــن مدينــة أو مقاطعــة في الأندلس، حكمهــا زعماء وأمراء من العرب والبربــر والموالي وغيرهم، عرفوا في التاريخ العربي، بـ (ملوك الطوائف) وفي هذا الوقت تصاعدت داخــل الأندلس حركة المتمردين الإسبان المتعصبــين على العرب والمسلمين، وازداد نشاطهم الانفصالي، تدعمهم الدول المحيطــة بالأندلس التي تتربصــ الدوائر بالعرب وبالمسلمــين للإجهاز على حكمهم، ولإبعادهم نهائياً عن إسبانيا الأوروبية.

٢- مجلس ولادة.

أحضر الخليفــة المستكفي لابنته المدللة أمهــر المؤدبــين، ولاشك أنهــا أتقنت اللغة العربية وعلومها مــن نحو وصرف وبلاغة، وألمــت بعروض الشعــر، وحفظت شيئاً من الشعــر الجاهلــي والإسلامــي والعباسي والأندلســي، وقــرأت القــرآن، وحفظــت منه مــا استطاعــت، واطلعت علــى علوم عصرهــا، ولاشك أيضاً أنهــا أتقنت لهجة أمها الإسبانية، أو ما تسمى بلغة الرومانس المأخــوذة من اللاتينية العامــة، وإذاً فولادة أحاطــت بثقافــة عصرهــا، وربمــا ورثت أسرتها عن الخليفة القتيل حصة من ثروته من العقــارات و الدور والقصــور والأموال ساعدتهــا علــى أن تعيش برفــاه وترف أو في أقل تقدير بكرامــة وإباء، كما ساعدتها على أن تنفق على مجلسهــا ما يحتاج إليه، وفي بلاط هذا القصــر الجميل في قرطبة كان مجلس (ولادة) الذي يحتشد فيه الناس أجناساً شتى من عرب وبربر وموال وإسبان وغيرهم، وكان يسيطر على مجلسها الرجال الذي لم يخل من النساء، وكانت بعض النساء أو أغلبهــن سافــرات، يــتردد إلى مجلسها الأمراء والوزراء والقــادة والعلماء والأدباء والشعــراء والمغنون والظرفــاء والمضحكون متزينين بأجمل حللهــم ولباسهم متعطرين بأفخر أنواح العطور، وكانت الأسرة الأموية فقــدت السلطات في الأندلســ بعد ما دبَّ النــزاع في أوصاله، وكان قد تناحر أبناؤها، وتدابــروا فيما بينهــم، فذهبــوا، وذهبت

ريحهم معهم، ثم آل السلطان من بعدهم إلى ملوك الطوائف وأمرائهم، فتمزقت وحدة البلاد، وأصبحت كل مدينة أو مقاطعة دولة، وتناحر هؤلاء فيما بينهم أيضاً، وكان يستعين بعضهم بالأجنبي على مواجهة بعضهم الآخر، فسادت الفوضى البلاد، واستعرت الفتن الداخلية، وعمت الاضطرابات السياسية، فلم تنعكس مجمل هذه التقلبّات العاصفة على نفسية (ولادة) فحسب، وإنما انعكست على مجلسها أيضاً، وربما حاولت فلول الأسرة الأموية في أتون هذه الأحوال أن تستجمع قواها، وتلملم شتاتها، وتحشد أنصارها من حولها في منتدياتها ومجالسها أملاً في استعادة سلطان ضائع، ومجد متداع، وربما كان الناس في مجلسها يتبادلون الرأي والمشورة لبيان ما يحدث في البلاد، ويخططون لما يمكن القيام به لإعادة توحيد البلاد، أو في أقل تقدير استعادة الأسرة الأموية حكم قرطبة مرة أخرى، وكانت تعقد في مجلسها مناظرات وندوات ثقافية وشعرية وأدبية وفكرية، تتناول قضايا اجتماعية بما فيها شؤون المرأة، وموضوعات و أبحاثاً، تتصل بمختلف ألوان الثقافة والعلم وفنون الأدب، تثير في المجلس حواراً وجدلاً، كما تقام حفلات الرقص الجميل والغناء، يشترك فيها الجاريات والمغنون الذين ينتمون إلى أمم شتى، يحملون معهم فنون وثقافات أممهم المختلفة، وكان يستمتع من في المجلس بالرقص الجميل وبالأصوات العذبة مصحوبة بآلات الموسيقى والطرب، فيشعر المجلس تارة، ويتجادل تارة أخرى، ويغني آناً، ويرقص آناً آخر، وربما يظل المجلس منتشياً بالرقص، مأخوذاً بالغناء من حلول الظلام على ضوء الشموع والمصابيح المسرجة بالزيت حتى مطلع الفجر، فيخرج الناس بعدئذٍ إلى منازلهم مهتدين بمصابيح معلقة في بعض شوارع قرطبة وأزقتها، أو بنور الفجر، وكان الخدم يؤدون واجب الضيافة في الوقت المناسب، وربما يحين موعد الغداء أو العشاء، فيقدّمون لمن في المجلس الطعام والشراب، وأشار القدماء إلى مجلسها بإيجاز، فقال ابن بشكوال في (الصلة): (وكان مجلسها بقرطبة منتدى لأحرار المصر، وفناؤها ملعباً لجياد النظم والنثر، يعشو أهل الأدب إلى ضوء غرتها، ويتهالك أفراد الشعراء والكتّاب على حلاوة عشرتها، وعلى سهولة حجابها، وكثرة منتابها).[١١] وأظن أن انعقاد مجلسها ليس له وقت معلوم، وإنما ينعقد متى توافد إليه الناس، ضحى أو ظهراً أو أصيلاً أو عشاء، كما أظن أن ليست له موضوعات محددة مُعَدَّة قبل انعقاده، وقد يكون موضوع البحث أو الحوار وليد الساعة، تفرضه طبيعة المناضلة العفوية بين الجلساء على المجلس ،

أو تثيره (ولادة) أو أحد الجلساء، ويتحدث ابن سعيد في (المُغرب)[١٢] عن مجلس (ولادة)، فيقول: (وكان لها مجلس يغشاه أدباء قرطبة وظرفاؤهـا) ينشدون فيه الشعر، ويلقون النثر، ويشيع فيه الظرفاء البهجة والمسّرة بنوادرهم وفكاهاتهم وخفة أرواحهم، ثم يقول: (إنَّ ولادة بالغرب كعُليّة بالشرق، إلاَّ أنّ هذه (ولادة) تزيد بمزيد الحسن الفائق، وأما الأدب والشعر والنادر، وخفة الروح، فلم تكن تقصرّ عنها) ويضيف ابن سعيد أنه (كان لها صنعة في الغناء)، وهذا يعني أنّ (ولادة) التي وصفها بخفة الروح، تحب الغناء وتحيط بأصوله، وتدعو المغنين إلى مجلسها، ومن يدري! فربما كانت تغني أيضاً. كان مجلس (ولادة)، إذن محجاً للأدباء والشعراء والكتّاب وسواهم، وكانت (ولادة) مثقفة ثقافة واسعة، أنضجت شخصيتها، وضاعفت من ثقتها بنفسها، فكانت، كما أشار إليها القدماء، تناضل في مجلسها كبار المثقفين والكتاب والأدباء والشعراء، فتتغلب عليهم، قال ابن بشكوال في كتابه (الصلة) وأورده (المقري) في كتابه (من نفح الطيب) (وكانت تناضل الشعراء، وتساجل الأدباء، وتفوق البرعاء)[١٣]. وكانت فاتنة الأندلس الشقراء ذات العينين الزرقاوين تستقبل من يؤم مجلسها بوجه طلق، وثغر باسم، وكانت كما وصفها ابن بشكوال في (الصلة)، (غاية في الأدب والظرف)، وكانت حلوة المعشر، عذبة المنطق، فصيحة الكلام، و(كانت أديبة.. شاعرة.. وكانت جزلة القول.. حسنة الشعر.)[١٤]، لكن هذا الشعر الحسن لم يصلنا منه إلا أقله، فلم نعثر لها على ديوان ولا على قصائد كثيرة، وكل ما وصلنا منه قطع من الشعر مبثوثة هنا وهناك في بعض الكتب القديمة، لا تعكس صورة شعرها أو تدل على مستواه، وأحسب أنَّ أكثره ضاع، وكان يتسابق إلى مجلسها الناس، ويتبارى فيه الشعراء والأدباء، والكتّاب والمغنون وغيرهم، فيتجادل فيه المتجادلون، وتتعارض فيه الآراء أو تتفق، وتتصارع فيه الأفكار أو تنسجم، ويبدو أنَّ شدة جاذبية هذه الأميرة خلبت عقول الناس، وأسرت قلوبهم، فكثر المعجبون بهذه المتأنقة بمظهرها، وتنافس في حبها العاشقون، وكان أشدهم تنافساً عليها وزيرين اثنين، يترددان إلى مجلسها: ابن زيدون وابن عبدوس.

علاقة ولادة بابن زيدون:

الوزير الأول الأديب الشاعر الشهير أبو الوليد أحمد بن عبد اللّه بن زيدون، وعن علاقته بها يتحدث (الفتح) في (القلائد)، فيقول: (إنّ ابن زيدون كان يكلف بولادة، ويهيم، ويستضيء بنور محيّاها في الليل البهيم، وكانت من الأدب والظرف، وتتميم السمع والطرف، بحيث تختلس القلوب

والألباب، وتعيد الشيب إلى أخلاق الشباب)، وكان ابن زيدون أسهم في الفتنة التي عصفت بالدولة الأموية، وأيد بني جَهْور الذين أطاحوا العرش الأموي، وأقاموا دولتهم في قرطبة على أنقاضه (١٠٣٠-١٠٦٨م) وتقرب إلى مؤسسها أبي الحزم بن جهور، فوزّره، ومنحه لقب الوزارتين، ولاقى شخصه قبولاً عند (ولادة) فأعجبت به، وأحبته، ونشأت بينهما علاقة عاطفية، أججت نار الغيرة في قلوب بعض عشّاقها، فأوغر أحدهم عليه صدر أبي الحزم بن جهور، فنقم على ابن زيدون، وسجنه، وأخذ ابن زيدون يستعطفه في قصائده، ولم يظفر بعفوه، ففر من السجن، ثم تنقل في بلاد الأندلس حتى اتصل بالمعتضد حاكم إشبيلية، فأوزره، ثم قرّبه إليه من بعده ابنه المعتمد بن المعتضد، وبتدبير من ابن زيدون توصل المعتمد إلى الاستيلاء على قرطبة، فانتقل معه إليها، وجعلها قاعدة ملكه، وقال ابن زيدون، يتشوّق إلى (ولادة)، وهو بعيد عنها، ويؤكد على ثبات حبه لها:

أضْحَى التّنائي بَديلاً مِنْ تَدانينَا
وَنَابَ عَنْ طيبِ لُقْيانَا تجافينَا
بِنْتُم وَبِنّا، فَما ابتَلّتْ جَوَانحُنَا
شَوْقاً إليكُمْ، وَلا جَفّتْ مآقِينَا
يَكادُ، حِينَ تُنَاجِيكُمْ ضَمائرُنا
يَقضي علَينا الأسَى لَوْلا تأسّينَا
حَالَتْ لبعدِكُمُ أيّامُنا، فغَدَتْ
سُوداً، وكانتْ بكُمْ بِيضاً لَيَالِينَا
ليُسقَ عَهدُكُمُ عَهدُ السّرُورِ فَما
كُنْتُمْ لأرواحِنَا إلاّ رَياحينَا
مَنْ مبلغُ الملبسينا، بانتزاحِهمُ
حُزْناً معَ الدهرِ لا يبلى، ويُبْلينَا
أنَّ الزمانَ الّذي مازالَ يُضحكُنا
أُنساً بقُربِكمُ قَد عادَ يُبكينا
غِيظَ العِدا مِنْ تَساقينا الهوَى فدعَوْا
بِأنْ نَغَصَّ، فَقالَ الدهر: آمينَا
فَانحَلّ ما كانَ مَعقُوداً بأنْفُسنَا
وَانْبَتّ ما كانَ مَوْصُولاً بأيْدِينَا
وَقَدْ نَكُونُ، وَمَا يُخشَى تَفَرّقُنا
فاليومَ نحنُ ومَا يُرْجى تَلاقينَا
لا تَحْسَبُوا نَأيَكُمْ عَنّا يغيّرُنا
أنْ طالَما غَيّرَ النّأيُ المُحِبّينَا
وَاللهِ مَا طَلَبَتْ أهْواؤنَا بَدَلاً
مِنْكُمْ، وَلا انصرَفتْ عنكمْ أمانينَا
يا ساريَ البَرْقِ غادِ القصرَ، وَاسقِ به
مَن كانَ صِرْفَ الهَوى وَالوُدَّ يَسقينَا
وَيَا نسيمَ الصَّبَا بلّغْ تحيّتَنَا
مَنْ لَوْ على البُعْدِ حَيّاً كان يحيينا
يا رَوْضَةً طالَما أجْنَتْ لَوَاحظَنَا
وَرْداً، جَلاهُ الصِّبا غضّاً، وَنَسْرِينَا
ويَا حياةً تملّيْنَا بزهرَتِهَا
مُنىً ضروباً ولذّاتٍ أفانينَا

لَسنا نُسَمّيك إجْلالاً وَتَكْرِمَةً
فَقَدْرُكِ المُعْتَلي عَنْ ذاك يُغْنِينَا
كأنّنَا لم نبِتْ، والوصلُ ثالثُنَا
وَالسّعدُ قَدْ غَضَّ من أجفانِ وَاشينَا
سِرّانِ في خاطرِ الظّلماءِ يَكتُمُنا
حتى يكادَ لسانُ الصّبحِ يفشينَا
يا جنّةَ الخلدِ أُبدِلنا بسلسلها
والكوثرِ العذبِ زقّوماً وغسلينَا
إنّا قرَأنا الأَسَى يوْمَ النّوى سُوَراً
مَكتوبَةً وَأخَذْنَا الصّبرَ تلقينا

ويستبد تأثير حب (ولادة) به، وهو بعيد عنها، فيعاني من لوعة الفراق، ويتماثل له طيفها إذا أصبح، وإذا أمسى ومن مدينة (الزهراء) الجميلة التي فرَّ إليها، ليتوارى في نواحيها، وتقع شمال قرطبة، قريبة منها، أرسل إليها قصيدة أخرى، يعبّر فيها عن شدة حنينه إليها، وتأجج شوقه لها، وفرط قلقه عليها حتى أنّ جمال طبيعة (الزهراء) ورياضها الغناء عجزا أن يشغلاه عنها:

إني ذكرتك بالزهراء مشتاقا
والأفق طلق ووجه الأرض قد راقا
وللنسيم اعتلال في أصائله
كأنما رق لي، فاعتل إشفاقا
والروض عن مائه الفضي مبتسم
كما حللت عن اللبّاب أطواقا
يوم كأيام لذاتٍ لنا انصرمت
بتنا لها حين نام الدّهر سرّاقا
نلهو بما يستميل العين من زهر
جال الندى فيه حتى مال أعناقا
كأن أعينه إذ عاينت أرقي
بكت لما بي، فجال الدمع رقراقا
وردٌ تألق في ضاحي منابته
فازداد منه الضّحى في العين إشراقا
سرٌ ينافحه نَيْلوفَرٌ عَبِقٌ
وسْنانُ نبّه منه الصّبح أحداقا
كلّ يهيّج لنا ذكرى تشوّقنا
إليك، لم يعد عنها الصدر أن ضاقا
لو كان وفىّ المنى في جمعنا بكمُ
لكان من أكرم الأيام أخلاقا
لاسكَّنَ الله قلباً عنَّ ذكركمُ
فلم يطر بجناح الشّوق خفاقا
لوشاء حملي نسيم الريح حين هفا
وافاكمُ بفتى أضناه مالاقى
ياعلقي الأخطر الأسنى الحبيب إلى
نفسي إذا ما اقتنى الأحباب أعلاقا
كان التجاري بمحض الود مذ زمن
ميدان أنس جرينا فيه أطلاقا
فالآن أحمد ماكنا لعهدكمُ
سلوتمُ، وبقينا نحن عشّاقا

وعلى نحو غير مألوف عند المرأة العربية، جاهرت (ولادة) بحبها لابن زيدون،

ولم يكــن ذلك غريباً عليهــا، فابن بسام ذكر في كتابه (الذخيرة)[١٥]. أن ولادة كانت امرأة لا مبالية، وأنهــا تجاهر بلذتها، وأنها كتبت بالذهب على طراز ثوبها الأيمن:

أنــا والله أصـلـح للـمـعـالي

وأمـشـي مـشـيـتـي، وأتـيـه تيها

وكتبت على الطراز الأيسر:

أمَكّنُ عاشقي من صحن خدي

وأعـطـي قبلـتي مـن يشتهيها

وهـــذه الروايـــة، إن صحـــت، تـــدل أنّ مجاهرة (ولادة) بحريتها بلغت حد الإباحية والاستهتار بالقيم والآداب العامة، وهذا ما لم تــدع إليه امرأة عربيــة، ولمّا تبين لها أنها تمكنت منه، وأنه ازداد تعلقاً بها، كتبت إليه بعد طول تمنّع، تكشف عن حبها له،وتحدد لـــه موعداً مناسباً للقائها، وترى أن الروض أجمل مكان، والليل أفضل زمان لهذا اللقاء، فتقول:

تـرقـب إذا جـن الـظـلام زيـارتـي

فـإني رأيـت الـلـيـل أكـتـم للسّر

وبي منك ما لو كان بالشمس لم تلحْ

وبالبدر لم يطلع، وبالنجم لم يَسْر

ويظهر في هذين البيتين أنّ (ولادة) كانت تتكتّم على لقائها بابن زيدون، وتحرص على أن لا يعلــم به أحد، مخافة أن تلوك الألسنة سمعتها، وهذا الحرص يناقض ما نسب إلى دعوتها إلى الإباحية، في قولها

أمَكّنُ عاشقي من صحن خدي

وأعـطـي قبلـتي مـن يشتهيها

وهي التي وصفها القدماء بأنها (مشهورة بالصيانة والعفــاف)[١٦]. ووفّت (ولادة) ابن زيدون بمــا وعدتــه، فالتقيا، ولمــا أرادت الانصراف، ودّعته بهذه الأبيات[١٧]:

ودّعَ الـصـبـر محـبّ ودّعـك

ذائــع مـن سـرّه مـا استودعك

يـقـرع الـسِّـن عـلى أن لم يكن

زاد في تـلـك الخـطـا إذ شيّعك

يـا أخـا الـبـدر سـنـاءً وسنى

حـفـظ الله زمـانـاً أطـلـعـك

إنْ يـطـل بـعـدك لـيـلـي، فلكم

بـتُّ أشـكـو قـصـر الـلـيـل معك

وتتتابع هذه اللقاءات في حدائق قرطبة الفيحــاء ذات الأشجار والأزهـــار العطرة، وقضيــا هناك، كمــا تقول الروايــة أوقات طويلــة هي أسعد أوقاتهمــا، كان كل منهما مولعاً بصاحبه، تغمره نشوة العشق. وأرغمت الظــروف ابن زيدون بالابتعــاد عنها، وقال الفتح في (القلائد)[١٨]:

(إنَّ ابــن زيدون لم يزل يروم دنو (ولادة)، فيتعــذر، ويباح دمه دونها ويهدر، لسوء أثره في ملك قرطبة وواليها، وقبائح كان ينسبها

إليــه، ويواليها، احنقت جَهْــوَر عليه، وسدّد أسهمه إليه، فلما يئس من لقياها، وحجبت عنه محياهــا، كتب إليها يستــديم عهدها، ويؤكد ودّهــا، ويعتذر من فراقها بالخطب الــذي غشيــه، والامتحــان الــذي خشيه، ويعلمهــا أنه ما سلا عنها بخمر، ولا خبأ ما في ضلوعــه من ملتهب الجمر.) فكتبت إليه (ولادة) تقول:

ألا هل لنا بعد هذا التفرّق

سبيل فيشكو كل صبٍّ بما لقي

وقد كنتُ أوقات التزاور في الشتا

أبيت على جَمْرٍ من الشّوق مُحرِق

فكيف وقد أمسيت في حال قطعةٍ

لقد عجّل المقدور ما كنت أتقي

تمر الليالي لا أرى البين ينقضي

ولا الصبر من رقِّ التشوّق معتقي

سقى الله أرضاً قد غدت لك منزلاً

بكل سكوبٍ هاطل الوبل مُغدِق

وأجابها ابن زيدون بقوله:

لحى الله يوماً لست فيه بملتق

محيّاكِ من أجل النوى والتفرّق

وكيف يطيب العيش دون مَسَرَّةٍ

وأي سرور للكئيب المؤرَّق

لكن قصــة الحب بينهمــا التي شاعت في حياتهمــا، وكتب عنها القدماء، لم تستمر طويــلاً، وانطفــأت ربما لأكثر مــن سبب، فربمــا ظهر لولادة أن عاشقها متقلب تقلب أحداث عصره، مضطرب اضطراب أوضاع بلده، لا يؤمن جانبه، ولا يمكن الثقة بما يعد به، أو يعلن عنه، وهو الذي ساند بني جَهْور أعداء أسرتها على إطاحتها والسيطرة على عاصمتهــا قرطبة، وربما إنّهــا لم تلمس في حبــه الإخلاص والوفاء والصدق، وقد تبين لها أنــه أخذ يميل إلى سواهــا، ورأته سأل جاريتهــا السوداء أن تعيد لــه صوتاً غنّته، فظهــر لها أنه مال إليهــا، فدبّت الغيرة في قلبها، وغضبت منه، فكتبت إليه تقول:

لو كنت تنصف في الهوى ما بيننا

لم تهوَ جاريتي، ولم تتخيّرِ

وتركت غصناً مثمراً بجماله

وجنحت للغصن الذي لم يثمر

ولقد علمت بأنني بدر السما

لكن وَلِعْتَ لشقوتي بالمشتري

وفي البيــت الأخير، كمــا في بيت سابق إشــارة إلى اهتمامهــا بالفلــك، ومعرفتها بالكواكــب الشمسيــة، وربمــا رأت (ولادة) في طبــاع ابن زيدون وخصالــه، وسلوكه ما ينفّرهــا مــن شخصه، وربمــا كانت هناك أسباب أخرى، لم يذكرهــا القدماء وبالتالي لا نعرفهــا، دفعت بأحدهمــا أو بكليهما أن يصد عن الآخر، ومهما كان السبب، فعلاقة الحب بينهما انتهــت إلى المنافرة إذا لم نقل إلى الكراهية، وأخذ أحدهما يعرّض بالآخر،

ويغتابه في المجالس، ويهجوه، أو يتهكم به في مساجلات شعرية، جرت بينهما، وانحدر أسلوب هذه المساجلات إلى إسفاف يخدش الحياء، لا سبيل إلى ذكره، وربما كان أقلها إسفافاً ما قالته (ولادة) في ابن زيدون، وكان له غلام، اسمه علي[١٩]:

إن ابن زيدون على فضله
يغتابني جهلاً، ولا ذنب لي
يلحظني شزراً إذا جئته
كأنني جئت لأخصي علي

٤- علاقتها بالوزير ابن عبدوس:

والوزير الثاني الذي نافس ابن زيدون في حب (ولادة) أبو عامر ابن عبدوس، وكان أراد التخلص من منافسه ابن زيدون الذي كان عقبة في طريق حبّه لولادة، فأوغر عليه صدر أبي الحزم بن جهور، فنقم عليه، وسجنه، وربما استطاع أن يظفر برضى (ولادة) عنه، ويفوز بميلها إليه حيناً، كما يذكر ذلك بعض القدماء، ولكنّها ما لبثت أن أعرضت عنه، وسخرت منه، وهذا ما تشير إليه الرواية التالية التي تذكر أنَّ (ولادة) مرت ذات يوم (بالوزير أبي عامر ابن عبدوس، وأمام داره بركة، تتولد عن كثرة الأمطار، وربما استمدت بشيء مما هنالك من الأقذار، وقد نشر أبو عامر كُمّيه، ونظر في عِطفَيْه، وحشر أعوانه، فتمثلت له ببيت لأبي نواس، يمدح فيه الخصيب أمير مصر:

أنتَ الخصيب، وهذه مصر
فتدفقا، فكلاكما بحر

فتركته لا يحير حرفاً، ولا يرد طرفاً)[٢٠].

أخفقت (ولادة) في تجربتها العاطفية مع ابن زيدون، كما أخفقت في تجربتها مع ابن عبدوس، ولا أدري ما إذا كانت لها تجربة عاطفية ثالثة، أو تجارب عاطفية أخرى خاضتها في الظل مع آخرين بعيداً عن أعين الرقباء وأقلام القدماء، ويبدو أن هذه التجارب العاطفية المتعثرة التي مَرَّتْ بها، لم تستطع أن تملأ حياتها، وربما ظلت تعاني من فراغ عاطفي لم تجد من يملؤه لها بعد أن خاب أملها بابن زيدون وبغيره، وربما كان فارس أحلامها الذي يداعب خيالها، وتأمل فيه حياة مستقرة هادئة لم تجده في الواقع. وأظن أنّ اعتدادها المسرف بنفسها، واعتزازها بعلو مكانتها جعلاها تعتقد منذ البداية أنها فتاة متميزة من الأخريات، وامرأة تختلف عن سائر نساء عصرها، وأنها أحق بالصدارة دون نساء بلاد الأندلس، فهي مخلوقة للمجد والمعالي، كما أشارت هي عن نفسها فيما نسب إليها من الشعر، وأن دوراً مناطاً بها في المستقبل ينتظر أن تؤديه خير أداء، لذا ينبغي أن تظل درة زمانها، وفريدة

عصرهـــا، وحديث النـاســ في مجالسهم، لم لا، وفاتنة عصرهـــا هي أميرة وابنة خليفة، وهـــي مثقفة ثقافة واسعة، تناضل الشعراء، وتساجل الأدباء، ربما أغراها ذلك كله بالتيه والغرور، وبالتعالي علـــى الآخرين، وجعلها تشعر أن المتقدمين إلى خطبتها طلباً للزواج منهـــا، وربما هم كثيرون دونها منزلة، وأنهم ليسوا جديرين بهـــا، وهذا ما زاد في قلقها وراكم عليها المتاعب النفسية، فأضربت عن الزواج مدى حياتها المديدة.

٥- نظرة مجتمعها إليها:

ومـــن الطبيعي أن لا يرتـــاح الرجال إلى شخصيـــة هذه المرأة التـــي تدعو إلى وضع حـــد لسيطرة الرجل على المـــرأة، وتحرّض المرأة على مقاومة قيـــوده المفروضة عليها، وتدعوهـــا مـــن خـــلال آرائهـــا وأفكارهـــا التي تطرحهـــا في مجلسهـــا إلى الاختلاط بمجتمـــع الرجال وإلى أداء دورها في الحياة الاجتماعية، ومن الطبيعي أن يكثر خصومها وحسّادها من حولها، ويسعوا، مااستطاعوا، إلى تضييـــق الخناق عليهـــا، وإلى الحد من دورها في الحيـــاة العامة، فتقوّلوا عليها ما تقولوّا، وتعمّـــدوا تشويه سمعتها بين الناس فيما رووا أو أذاعوا، وما من شك أنها تأذت كثيراً من مجتمع الرجـــال الذي تصدت له، فاقتحمته، وخالطتـــه، وجادلت أعلامه في مجلسها وفي غير مجلسهـــا، وتغلبت عليهم، ولا يمكـــن، والحالة هـــذه، أن تحسن الظن بالرجال، وقـــد نالها من مكرهـــم وتلوّنهم وخداعهـــم وغدرهـــم ما أرهـــق أعصابها، ولبّـــد أجواءها، وكدّر عليهـــا صفو حياتها، لكنها لم تضعـــف، ولم تستسلم، وظلت تقاوم المحـــاولات الراميـــة إلى عزلتها، وتقاوم كل أساليب مجتمعها في الضغط عليها والإساءة إليهـــا بكل ثقة وعنـــاد، ويعنى هذا أنه لابد لهـــا أن تواصل دورها الثقـــافي الريادي في مجتمعها، وأن تستمـــر في مواجهة الرجال، وربما وجدت (ولادة) في مجلسها خير متنفس لها من إحباطاتها ومن الضغوطات المتراكمة على حياتها المضطربـــة القلقة، فعنت على تنشيطه، وأخـــذت تدفع من خلاله الحركة الثقافية لمجتمعهـــا الأندلســـي إلى الأمام، وأحسب أنّ (ولادة) سمعت بمجالس النساء اللائـــي سبقنها بقرون في المشـــرق العربي كمجلس (عُليَّة) بنت الخليفة المهدي العباسي في بغـــداد في القرن الثـــاني للهجرة، وكانت أديبة وشاعـــرة، وقبلـــه كان مجلس عائشة بنت طلحـــة، ومجلس سكينـــة بنت الحسين في القـــرن الأول للهجـــرة في مكـــة والمدينة والبصرة، وكانتا أديبتين مثقفتين وناقدتين، وأحسب أنها سمعت بمجالس النساء اللائي سبقنها في بـــلاد الأندلس، فأرادت لمجلسها أن يتميز مـــن المجالـــس النسائية الأخرى، فكان له ما أرادت، خطف مجلسها الأضواء،

وألقى سائر مجالس نساء الأندلس في الظل، وما من شك عندي أن أمنية المرأة الأندلسية الجذابة المثقفة الغنية وغيرها أن يكون لها مجلس كمجلس ولادة.

٦- مدى تأثير مجلسها الأدبي:

ولا أستبعد أن تتعدى شهرة مجلسها حدود الأندلس إلى داخل البلدان الأوروبية كفرنسا وإيطالية، وربما سمع النساء الأرستقراطيات في فرنسا وإيطالية بمجلس (ولادة) من خلال تأثير الحضارة الأندلسية الوافدة إلى هذه البلدان، أو من خلال الإسبان أنفسهم المتأثرين بالحضارة العربية الإسلامية، ومن المعروف أنَّ النساء الأوروبيات الأرستقراطيات، لاسيما الفرنسيات ظهر لهن مجالس بعد مجلس (ولادة) عرفت بالصالونات النسائية، ثم شاعت ظاهرة الصالونات النسائية في فرنسا خاصة في القرن السابع عشر والثامن عشر، ثم انتشرت هذه الظاهرة في البلدان الأوروبية الأخرى، ولست أدري ما إذا كان مجلس (ولادة) عمّر طويلاً أو استمر لفترة قصيرة، لكنني أزعم أنه ظل مشعاً طوال وجوده، ولم ينطفئ إلا بعد أن سلبت السنون بريق صاحبته التي لم تتزوج قط، فرحلت عن الدنيا لليلتين خلتا من صفر سنة ثمانين، وقيل أربع وثمانين وأربعمئة للهجرة،[٢١] سنة ألف وسبع وثمانين للميلاد عن عمر ناهز ثمانين أو بضعة وثمانين عاماً.

المراجع والمصادر

١- الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين بن الخطيب، تحقيق محمد عبد الله عنان -أربعة مجلدات- من نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المقرّي، المتوفي سنة ١٠٤١ هجري -١٦٣١م، منشورات وزارة الثقافة السورية، دمشق ١٩٩٠، تقديم الدكتورة نجاح العطار، أعده للنشر. عدنان درويش، محمد المصري، ص(٥١).

٢- مروج الذهب ومعادن الجوهر —المسعودي، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، أربعة مجلدات (من نفح الطيب) المقري، ص(٥٠).

٣- المغرب في حلى المغرب - ابن سعيد، تحقيق د. شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، (من نفح الطيب) المقري، ص(٥٢).

٤- من نفح الطيب — المقري، ص (٥١).

٥- من نفح الطيب ــ المقري، ص (٥١).

٦- المرجع نفسه ص(٥٤).

٧- المرجع نفسه — ص(١٦٠).

٨- المرجع نفسه – ص(١٥٩).

٩- المرجع نفسه – ص(١٦١).

١٠- المرجع نفسه – ص(١٦٨- ١٦٩).

١١- (الصّلة) في تاريخ رجال الأندلس، خلف بن عبد الله بن مسعود بن بشكوال، من نفح الطيب- المقري، ص (٥٢٣)- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسّام الجزء الأول – ص(٣٧٦).

١٢- المغرب في حلى المغرب – ابن سعيد، تحقيق د. شوقي ضيف دار المعارف بمصر، من نفح الطيب- ص٥٢٣.

١٣- (الصّلة) في تاريخ رجال الأندلس، ابن بشكوال، من نفح الطيب، المقري، ص (٥٢٢).

١٤- (الصّلة) لابن بشكوال – من نفح الطيب – المقرّي، ص (٥٢٢).

١٥- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة – ابن بسام (أبو الحسن علي الشنتريني) ت ٥٤٣هـ/١١٤٧م- تحقيق الدكتور إحسان عباس، بيروت، من نفح الطيب – المقري- ص(٥١٩٠).

١٦- من نفح الطيب –المقري- ص(٥١٩٠).

١٧- المرجع نفسه – (٥٢٠).

١٨- قلائد العقيان – الفتح بن خاقان- من نفح الطيب، المقري – ص(٥٢٤).

١٩- الوافي بالوفيات – صلاح الدين الصفدي – تحقيق عدد من المحققين. وفي كتاب (نزهة الجلساء في أخبار النساء) السيوطي- تقديم ومراجعة د.عبد الإله نبهان، مطبعة اليمامة- حمص، الطبعة الأولى ١٩٩٥، ص(٩٥) ورد (على جهله):

إنَّ ابن زيدون على جهله ... يغتابني جهلاً ولا ذنب لي

يلحظني شزراً إذا جئته ... كأنني جئت لأخصي علي

٢٠- (الصلة) في تاريخ رجال الأندلس – ابن بشكوال، من نفح الطيب، المقري، ص (٥٢٣).

٢١- (الصلة) في تاريخ رجال الأندلس – ابن بشكوال، من نفح الطيب، المقري، ص (٥٢٢).





تفنيد حكاية خرافية*
كيف تم اختراع الشعب اليهودي؟

ترجمة: توفيق حمد الفقيه*

هـل يشكل اليهـود شعباً بحق وحقيـق؟ هذا سؤال ما فتـئ يُطرح منذ القـدم، وعليه يجيـب المؤلف وهو مؤرخ إسرائيلي قائـلاً: إنه بعكس الفكرة المتداولـة والموحى بها، فإن الدياسبورا «الشتات» لم تنجم عن طرد العبريين من فلسطين، إنما هي نتاج عمليات اغتصاب واختلاس متتالية شملت شمال أفريقيا، وجنـوب أوروبة والشرق الأدنى.تلكم هـي حجة تقوض واحدا من المقومات الأساسية للفكر الصهيوني الذي يصر على أن اليهود هم من سلالة

- عرض نشرته «لوموند ديبلوماتيك» لكتاب بهذا العنوان.
- من تأليف: شلومو ساند، المدرس في جامعة تل أبيب

* أديب سوري

العمل الفني: الفنان زهير حسيب.

داود، متحـــدرون من مملكتـــه، و «معاذ اللّه أن يكونوا ورثة المحاربين البرابرة أو الخيالة الخزر».

هــذا شاهــد مــن أهلــه. إنه المــؤرخ الإسرائيلي «شلومو ساند، المدرس في جامعة تــل أبيب يقدم، بهذا التمهيد، لكتاب وضعه حديثاً تحت عنوان «كيف تم اختراع الشعب اليهودي». كمــا ذكرت «لو موند ديبلوتيك»، التي نشـرت العرض في عددهــا لشهر آب الماضــي، ذاكرة أن صــدور الكتاب سيتم في أواسط أيلول من هذا العام.ويقول التمهيد:

«مــا من شك بــأن كل إسرائيلي يعرف أن الشعــب اليهــودي وُجــد منــذ أن تلقى التوراة في أرض سينــاء وأنه السليل المباشر والوحيد لذلك الشعب، وكل فرد مقتنع بأن هذا الشعب الذي خرج من مصر قد استقر في «أرضــ الميعاد» حيث سادت مملكة داود وسليمان «المجيدة» التي ما لبثت أن قسمت إلى مملكتي يهــودا والسامــرة «إسرائيل». كذلك ما مــن إسرائيلي يجهــل أنه تعرض للشتــات في مناسبتــين:الأولى بعــد انهيار المعبــد الأول في القرن السادس قبل الميلاد، أما المناسبة الثانية فهــي التي عقبت دمار المعبد الثاني سنة سبعين ميلادية، حيث قيل أن اليهود طردوا من فلسطين.

بعد ذلك جاءت حقبة التيه التي امتدت حــوالي ألفي سنة، خلالهــا قادتهم «المحن» إلى اليمن والمغرب وإسبانيا وألمانيا وبولونيا كما وصلوا إلى أقاصي روسيا. وفي كل هذا، ظلت مسألة الحفاظ على صلة الدم موضع اهتمــام ومراعــاة دائمين، رغــم المسافات الفاصلة بين هاتيــك المجاميع». وتستطرد الجريــدة الفرنسيــة في عرضهــا للكتاب قائلة:

ولمــا شارف القــرن التاســع عشر على نهايتــه، رأوا أن الشروط أصبحت متوافرة أمــام العــودة إلى «الوطن القــديم»، ولولا الإبــادة على أيــدي النازية لــكان الملايين من اليهود قد عــادوا للاستقرار في «أرض إسرائيــل» هذه العودة التي حلموا بها طيلة عشرين قرنــا وقالوا: «إن فلسطين أرض ما زالت بكرا وهي ملك لهم وليس لهذه الأقلية العربيــة التــي لا ماضي لهــا ولا تاريخ، إذ وصلــت إليها عن طريق الصــدف. هكذا، فهــي- في رأيهــم- عادلة تلــك الحروب التي شنها «الشعب المشرد من أجل استرداد أرضــه». أمــا المقاومة العنيفــة من جانب الأهــالي المحليين (العــرب)، فهي جريمة لاتغتفر».

ما هذا التفسير للتاريخ اليهودي؟

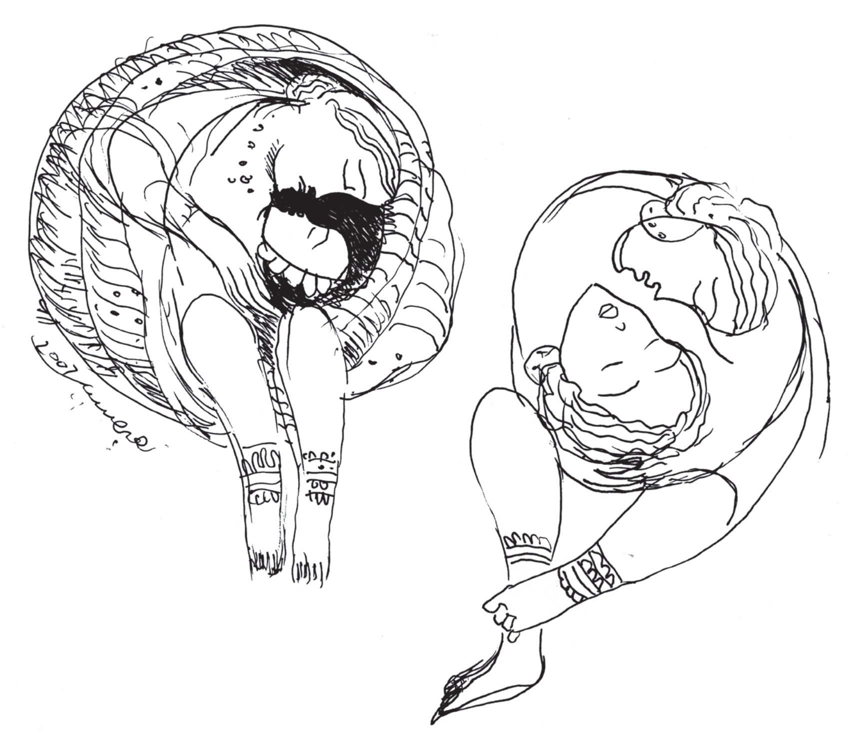
من أين أتى هذا التفسير للتاريخ اليهودي؟ الجواب: «إنــه المحصلة لعمل حثيث دؤوب،

شهده النصف الثاني من القرن التاسع عشر، حيث عمد «العباقرة» الذين أعادوا تركيبة الماضـي اليهـودي إلى الاستعانـة بقدرات خيالهم الخصب. إذن تفتقت قرائحهم عن ابتكار ركيزة لذلك التاريخ.. شملةٌ من نتف، مـن الذاكرة الدينيـة اليهودية والمسيحية، بموجبهـا وعلى أساسهـا، رسموا الخطوط لسلسلة نسب متواصلة، لا أول لها ولا آخر، وفيها حشروا كل يهود العالم في عداد الشعب اليهودي».

ويمضي المؤلف جازماً: «لئن كان صحيحاً أن تاريـخ اليهوديـة يقـرّ بوجـود تعددية تقاربيـة، إلا أن الإشكال باد هنا جليا. وهو يتمثل بـأن المداولات حول ذلـك التاريخ لم تتطرق قط لمفاهيـم جوهرية، تم إعدادها -وبشـكل خاص- في أواخـر القرن التاسع عشر وبدايات العشرين، لتظل دون أن تلقى أيما اعتراض. وها هـي التنقيبات تسفر عن اكتشافات من شأنها أن تنقض الصورة المعطاة حول ذلك الماضي السحيق فيبدون وكأنهم لم يستخلصـوا عبرة من أي من هذه الأصداء. ذلك أن «الإملاءات القومية» هي أشبه بفك محكم الإطباق جاهز لصد كل ما يعتبرونه مفارقة أو انحرافاً بالنسبة للصيغ والنصوص السائدة المعهودة».

«لو مونـد ديبلوماتيك»، تنـوه استناداً للكتـاب الذي نحن بصدده، «بـأن الهيئات النوعية التخصصية والمعنية بإنتاج المعلومات والمعارف حول الماضي اليهودي، لها مهامها المحددة، لا تستطيع عنها حياداً، إذ تقتصر وظيفتهـا علـى البحث في «تاريـخ الشعب اليهـودي»، حصرا. وهذه هيئـات ودوائر منفصلة تمامـا عن تلك المولجـة بالبحث حول مـا يدعـى في إسرائيل بـ: «التاريخ العام». وهذا الواقع ساهم – ولحد بعيد – في حـدوث ما تعانيه تلك الهيئات من شلل عجيب، إذ بلغ الأمر حداً، لدرجة أن أولئك «المؤرخـين» لم يكلفوا أنفسهم عناء البحث، ولو بصورة سريعـة ومبسطة، حول مسألة قانونية قضائيـة، ما طفقت مطروحة دون أن تجـد لها شرحا ولا تفسـيرا، وبها نعني الإجابة علـى سؤال: «من هـو اليهودي؟»، لينوه المؤلف بأن المتزمتين، غلاة الصهيونية، يقولون بيهودية كل متحدر من صلب الشعب الذي عانى الشتات على امتداد ألفي سنة.

ولقد بلغ الأمر بهـؤلاء المخولين رسمياً بدراسة الماضـي اليهودي حد العزوف عن حضور جلسات المؤرخـين الجدد المحدثين والسماع لمداولاتهم التـي تعود بداياتها إلى العام (١٩٨٠) علما بـأن المشاركين في هذا المنتـدى هم نخبـة عديدها قليـل ومعظم أفرادها من خارج الوسـط الجامعي إنهم



علمـــاء اجتمـــاع، ومستشرقـــون، ولغويون، وجغرافيون، وأخصائيون من دارسي العلوم السياسية، وأدباء باحثون، ومهندسو عمارة، يساهمـــون بصياغة تأمـــلات جديدة حول الماضي اليهـــودي والصهيوني. هذا في حين أن «دوائـــر التاريـــخ اليهـــودي» لا تستقبل سوى أصداء تلك الآراء الوَجِلة الجبانة التي تصدر عن محافظين، مقمّطين بلبوس علماء بلاغـــة وبيان، ممن يمتهنـــون حرفة وحيدة ألا وهـــي إصدار التبريرات، والتغني بمقولة الشعب المختار، وكيل المديح والإطراء. ذلك أن الزاد الوحيد الذي تمتلكه هذه الجماعة هو ما يوحـــى إليهم،ويملى عليهم، ويلقنونه من فكر ورأي.

اليهودية ديانة تبشير، الإغراء وسيلتها:

يمكن القول بإيجاز أن «التاريخ القومي اليهـــودي» لم ينضـــج كثيرا عـــبر السنوات الستـــين الفائتة والحقيقـــة أنه لاوجود لأي بارقـــة أمل في تحقيق تطـــور ما،على المدى المنظـــور. هذا ما تؤكده المقالـــة معربةً بأن الأحداث الحالية تطـــرح على المؤرخ النزيه مسائل تبدو-للوهلـــة الأولى - مذهلة لحد بعيـــد،إلا أنها تتعلق بأمـــور جوهرية. وهنا يتساءل المؤلف مستهجناً:

هل يمكن للتوراة أن تُعتبر بمثابة سفر من أسفار التاريخ؟ ليجيب على نفسه بنفسه: إن هــذا الرأي لم يأخذ بــه المؤرخون المحدثون اليهــود الأول، مثل إسحاق ماركوس جوست وليوبولد زونز اللذيــن خالفا الفكرة خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر. ففي نظــر هؤلاء، يشكل «العهــد القديم» كتاب لاهوت مؤسس المجموعات الدينية اليهودية، وذلك للحقبة التالية لدمار المعبد الأول، علماً بأنه لم يظهر مؤرخــون يعتنقون إيديولوجيا «قومية التوراة» إلا بحلول النصف الثاني من ذلك القرن (الــ١٩). وهؤلاء، وفي طليعتهم «هينريــخ غرايتز»، جعلوا من رحلة إبراهيم في أرض كنعان، والخروج من مصر، وكذلك مملكــة داود وسليمــان الموحــدة، نصوصاً تتحدث عن ماض ذي «طابع قومي أصيل».

وبعد ذلك، لم ينقطع المؤرخون الصهاينة عــن ترديد هذه المزاعم علــى أنها «حقائق توراتيــة» تحولت إلى غــذاء يومي للتربية الوطنية في إسرائيل. لكن، فلننعم النظر في أحــداث عقد الثمانينيــات. الأرض زلزلت والمقومات المرتكزة إلى الخرافة اهتزت من أركانها. فها هي المكتشفــات الآركيولوجية الجديدة تنفي احتمال حدوث هجرة يهودية على نطــاق واسع إبان القــرن الثالث عشر قبل الميــلاد. كذلك لم يكــن بمقدور موسى أن يُخــرج العبرانيين من مصر باتجاه أرض الميعــاد. وذلــك لسبب وجيه وهــو أن تلك الأرضــ كانت – آنئذ – في أيدي المصريين، وفي الآن نفسه، لم يُستطــع بعد العثور على أي دليــل يثبــت أن ثورة العبيــد وقعت في مملكــة الفراعنة، ولا وجود لما يدل على أن أرضــ كنعان كانت قد تعرضت لغزو عنصر غريب.

وفي الآن نفســه، لا بدّ من القول بأنه لا وجــود إطلاقاً لإشارةٍ أو مَعْلَم يُنبئ عن تلك «المملكــة العتيدة»، مملكــة داود وسليمان. فاكتشافــات العقد الأخير تشير إلى أن ذلك العصــر شهد وجــود مملكتــين صغيرتين: السامرة (إسرائيل)، وكانت أقواهما، ويهودا التي لم يتعرض سكانهــا للهجرة إبان القرن السادســ قبــل الميلاد. وفي ذلــك الحين لم يستقرّ منهم في بابل سوى النخب السياسية والثقافيــة. ونتيجــة لذلــك التلاقــي مع المعتقــدات الفارسية ولدت عقيدة التوحيد اليهودية.

وبالنسبة لهجــرة عام السبعين للميلاد، يتســاءل المؤلــف: «هل وقعت هــذه فعلاً؟ ليجيب: «إنه لمن المفارقات أن ذلك «الحدث» الذي يشكل ركيزة أساسية من ركائز التاريخ اليهــودي، لم تصمد صحته أمام أي بحث أو دراســة. علماً بأن عمليــة الشتات المنسوبة

إليه لم توجد أصلاً، وذلك لسبب بسيط وهو أن الرومــان لم يرغموا أيــاً من شعوب شرق المتوســط على الجلاء عن ديارهم، باستثناء أسرى استحالوا عبيداً أرقاء. وهذا في حين أن أهــالي يهودا ظلوا يعيشــون في أرضهم، حتى وبعد دمار المعبد الثاني، فدان البعض منهــم بالمسيحية إبان القــرن الرابع، فيما اعتنقــت غالبيتهم الإسلام خــلال سنوات الفتح، من القرن السابع الميلادي.

ويؤكد مؤلف الكتــاب، بأن هذه حقائق معروفــة تماما مــن قِبَل معظــم المفكرين الصهاينــة الكبــار، مثل اسحــاق ابن زفي، الــذي أصبح رئيساً لدولة إسرائيل، ودافيد بــن غوريون، مؤسس تلك الدولة والذي ظل يبرز ذلك في كتاباته لغاية سنة (١٩٢٩)، أي العام الذي شهد انــدلاع الثورة الفلسطينية العارمة. ففي أكثر من مناسبة ومكان، أبرز الاثنــان واقع أن فلاحــي فلسطين هم من سلالة سكان يهودا القديمة. ويتابع متسائلاً: نظراً لعدم حدوث نــزوح من فلسطين إبان العهد الروماني، فمن أين أتت هذه الأعداد الكبيرة من اليهود التــي استوطنت المحيط القــديم للبحر الأبيضــ المتوسط؟! ليقول: إن حقبــة تاريخية عجيبة ومحيرة تقبع وراء ستار «التاريخ الوطني لليهود»!!. فمنذ ثورة «الماكابيــين» في القرن الثــاني قبل الميلاد وحتى ثورة «باركوخيــا» إبان القرن الثاني للميــلاد، تفــردت اليهودية بكونهــا ديانة التبشير الوحيــدة. وكان «الآسمونيون» قد أجــبروا الكثيرين مــن «الإيدوميين» سكان جنوب يهودا على الدخــول في دينهم، فيما تم إلحــاق «إيتوريــي» الجليل بــ: «شعب إسرائيــل». والكاتب يُنــوه بالخصوص،بأن اليهوديــة انتشــرت في سائر أنحــاء الشرق الأدنى وفي محيــط البحر الأبيض المتوسط عندما كانت مملكــة يهودا خاضعة للسلطة الهيلينية. ففي القرن الأول الميلادي، ظهرت في مــا يعرف اليوم باســم كردستان، مملكة «آديابين» اليهودية التــي لم تكن آخر إقليم يجري تهويده بل وأعقب ذلك ظهور العديد من الممالك المماثلة.

وبهذا الصدد، يقول صاحب العمل: «إن كتابات «فلافيوس جوزيــف» وهو الشاهد الوحيد علــى المبالغة في الدعــوة لاعتناق اليهودية، لم تأت من عدم، فمن «أوراس» إلى «مسينيــك»، ومن «هوفينال» إلى «تاسيف»، هناك عدد كبير جدّاً من الكتّاب اللاتينيين أظهــر مخــاوف جمّة حيال هــذا الأمر، لا سيما وأن الميشنا والتلمود(*) يجيزان إكراه الناس على اعتناق اليهودية.

وذلــك رغــم مــا أبدتــه المسيحية من مقاومة متنامية لهــذه الظاهرة التي قابلها

حكماء بنــي إسرائيل بالتحفظ عليها. وأنه، في الوقت نفسه، لم يكن النصر الذي حققته المسيحية في بدايات القرن الرابع ليحدّ من توســع اليهودية التي دفعت بالدعوة باتجاه أطــراف العالم الثقافي المسيحي. فما إن حل القرن الخامــس للميلاد حتــى ظهرت في المــكان المعروف اليوم باســم اليمن، مملكة يهودية على جانب من القوة، بحيث حافظت الســلالات المتحدرة منها على عقيدتها بعد انتشــار الإسلام، وظلت كذلــك حتى زمننا المعاصر.

بعد الإشارة إلى اندماج اليهود مع قبائل من البربــر في شمال أفريقيــا ومنه انتقلوا بأعــداد كبيرة إلى شبه الجزيــرة الإيبيرية، بمناســبة الفتح العربي إبــان القرن السابع للميلاد حيــث شهدت الأندلــس حقبة من التعايشــ بــين اليهود والمسلمــين لم يعرف التاريخ لها مثيلاً وشكلت سمة مميزة لإسبانيا العربية، يرى المؤلــف أن التحول الجماعي إلى اليهوديــة الأكثر أهمية هو الذي لا يزال منتشراً بــين البحر الأســود وبحر قزوين، حيث تشكلت مملكة الخزر إبان أوج التوسع اليهودي في القــرن الثامن للميلاد. وهكذا فإن انتشار اليهودية من القوقاز وحتى الأرض التي تشكل أوكرانيا الحالية ولّد مجموعات عديــدة دفعهــا الغزو المغــولي باتجاه شرق أوروبــة، أثنــاء القرن الثالــث عشر وهناك مع اليهود القادمين مــن المناطق السلافية الجنوبية ومن أراضي ألمانيا الحالية وضعت هذه المجموعات الأســس الثقافية «اليبدية الكبرى»(❊❊).

ومضت مقالة الصحيفة الباريسية حول كتــاب: «كيف تم اخــتراع الشعب اليهودي» معربــة: «إن هذه النصوصــ، وهي مراجع جماعيــة بالنسبة لليهوديــة، ظلت ترد في أسفار التاريخ الصهيوني، بكثير أو قليل من التكرار، حتى اقــتراب العام (١٩٦٠)، وبعد ذلــك، راحــوا يهمشونها بصــورة تدريجية إلى أن انقطع ظهورهــا واختفت نهائياً من الذاكرة الإسرائيلية، لذا اعتُبر الغزاة الذين استولــوا، عام(١٩٦٧)، علــى «مدينة داود» من سلالته. وذلك لغرض واضح، وهو إثبات وحــدة المنشأ لــ: «الشعــب المختار».هكذا جعلوهــم متحدرين من مملكته الأسطورية وورثتهــا، وحاشا أن يكونوا سليلي المحاربين البرابرة أو الخيالــة الخزر. وبهذه الطريقة أُظهر اليهــود بصورة العــرق المتميز الذي عاد،في نهاية الأمر، إلى القدس- عاصمته - بعد شتات وتيه داما ألفي سنة.

في سعي لا طائلة منه، لايكتفي أصحاب هــذه المقولــة المتمسكون بهــا، باعتماد ما يسمونــه «تعاليــم التاريخ»، بــل - وإضافة

إلى ذلك – فهـم يلجـؤون إلى البيولوجيا، يستعينـون بها في محاولـة محمومة لإثبات وجـود صلة قربـى بين يهود العـالم أجمع. ذلـك أنه منذ عقـد السبعينيـات، ولدعم هـذا الرأي، تُجـرى في إسرائيل سلسلة من الأبحاث تدور حول مناشئ السكان اليهود. وقد بات هذا العمل حقلا متكاملا،أُسبغت عليـه صفة شرعية وشعبيـة، على اعتباره واحداً من حقول «بيولوجيا الجزيئيات»، وفي إطـاره تحتل الصبغيـات الجينية الذكورية (الكروموسومات) مكانة الصدارة،إلى جانب أُنثى يهودية هي – في هذا المجال – عروسة الشعـر. وذلـك في عملية جامحـة مطلقة العنـان، هدفهـا المنشود هـو إثبات وحدة المنشأ لـ: «الشعب المختار».

هـذا المفهوم التاريخي يشـكل القاعدة الأساس لسياسـة دولة إسرائيل ذات الصلة بالهوية وهنا – على وجه التحديد – تتكوّن «القروح التي ينتجها حكُّ البردعة» !!. وهذه السياسة هي– في الواقع – التي تفسح المجال لتعريف العـرق على أنه غايـة الغايات في المفهوم اليهودي. وذلك استناداً إلى العقيدة القائلة بأن اليهود هم العرق الأسمى. وهي أي سياسة الهويـة، التي تغذي نهج الفصل العنصري بين اليهود وغير اليهود، مثل العرب والمهاجرين الروس وكذلك العمالة الوافدة.

واليوم، بعد ستين عاما من تأسيسها، مازالت إسرائيل ترفض الاعتراف بأن وجود الدول مرتبط بوجود مواطنيها.وهنالك ما يقارب ربع السـكان لا يعترف بهم كمواطنين يهود، أي أن هذه ليست دولتهم، بمقتضى القوانين المعمول بها في الدولة العبرية، التي مافتئت، بالمقابل، تعتبر نفسها دولة ليهود العالم كافة، حتى لو أن ظروف اليوم غير ظروف الأمس، إذ لم يعد الأمر ليتعلق بلاجئين مطاردين، بل بمواطنين يتمتعون بكامل الحقوق ويعاملون على قدم المساواة مع غيرهم من السكان في الأقطـار التي يقيمون فيها. وبعبارة أخرى، يؤكد مؤلف الكتاب، بأن للأمر صلة بتعصب عرقـي لاحدود له، ويُرون كيف يبررون هذا التمييز الصـارم الممارس في دولة إسرائيل، بعد أن أوجـد لليهود موطـن استناداً إلى أسطورة «أرض الجـدود» (الوطن الأبدي) فيـه يتمُّ لمُّ شمـل يهود المعمـورة.وإن كتابة تاريـخ جديد لليهود، خـارج نطاق المنظور الصهيـوني، ليس بالأمر المرغوب فيه، ذلك أن في إعـادة هـذه الكتابة تفنيـداً لمفهوم اعتبار العرق غايـة الغايات، يعني النظرية المعتمـدة رسميـاً في العقيـدة الصهيونية. وهـذا لأن تشكيلات اليهـود اتصفت دوماً بكونهـا عبارة عن مجموعـات دينية مؤلفة في الغالـب من أفراد تحولوا إلى هذا الدين

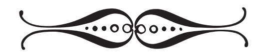
وهم منتشــرون في مختلف مناطــق العالم. إذن، فهذه الجماعات أو المجموعات لا تمثل – بأي حال – عرقــاً يحمل صفات وسمات المنشأ الواحد الذي تمتدُّ خيوط عبريته على مدى عشرين قرناً ونيف، كما يدّعى.

• وأخيراً تنقــل «لومونــد ديبلوماتيك» عن المؤلف قولــه: «إن تطور عملية التأريخ، أسوة بعملية التحديث لابد لها، بشكل عام، من أن تمر بزمــن مكرَّس لـ «اختراع الأمة/ القوميــة». وفي هذا المجال جدَّ الملايين من البشر وعملــوا حثيثاً خلال القــرن التاسع عشر وجزء مــن القرن العشرين. والآن نرى كيف شهدت نهاية القرن الأخير بداية تلاشي هاتيــك الأحلام، حيــث إن هنالك باحثين يــزداد عددهــم باضطراد، منكبــون على تحليــل النصوص «القوميــة»، وتمحيصها، وتفنيدها أيضاً.

الهوامش

(❖) الميشنا: قوانين غير مكتوبة وجمعت حوالي عام (٢٠٠) م وتشكل أساس التلمود. (المترجم)

(❖❖) اليبدية: هي لهجة من أصــول ألمانية أدخل عليها الكثير من المفردات العبرية والســلافية. وبها ينطق يهود وسط أوروبة والاتحاد السوفياتي. (المترجم).





التجربة المرّة للمواطنين الأمريكيين ذوي الاهتمامات السياسية المخالفة

تأليف: د.جوديث سيزار

ترجمة: رافع شاهين ❀

[نحن نتائج وورثة تلك القوة التدميرية الذي أنجزنا من خلالها. بغطرسة وفخار. إلغاء حرية الفرد وتصفية نزعة الرأي الآخر والاستقلال الشخصي].

دونالد هيز

كثيراً ما توجه الأسئلة هنا عن حقيقة الأوضاع في الولايات المتحدة، وهناك أيضاً من يبادرني بالعرض لما يرونه هم أنه واقع الأمور هناك،

❀ كاتب ومترجم سوري.

العمل الفني: الفنان جورج عشي.

وكأني وأنــا التي أقمـت في موطني ما يربو على الثلاثين عاماً، قد أغفلت التعرف على تلك النقائص التي مافتئ البعض يرددونها، ولهـؤلاء المستفسرين والناقدين أرشح رواية دونالد هيز: «أطفال الجلاّد» وسيلة للتعريف والتعـرّف، على الرغم مـن أن هذا الكتاب لا يخبرنا بالتحديد عن واقع الأمور هناك، فليس بالإمكان أن يعالج كتاب واحد مثل هذا الموضوع، فإنه ومن خلال منظور صادق متعاطف يجسد تجربة المواطنين الأمريكيين الإقليميين ذوي الاهتمامات السياسية إبان عام ١٩٦٨، وهذا الجانب الهام من التجربة الأمريكية الذي قد لا يلم بأبعاده سوى القلة من غير الأمريكيين مـا زال يعرض بصورة غير صحيحة ومشوشة في الكتابات المحلية.

في تلـك الحقبـة اتخـذت الصراعات السياسيـة في الولايات المتحـدة مظهرين، أحدهمـا هـو الاضطرابات التـي قادها المواطنـون السود للحصـول على الحقوق المدنية كاملة وردود الفعل المختلفة والعنيفة أحياناً من قبل بعضـ الأمريكيين البيض، ومن جهة أخرى كانت هناك حملة التصدي لحـرب فيتنام وخاصة مـن جانب الشباب المثقف الأمـر الذي اعتـبره كثير ممن هم أكـبر سناً عصياناً وخيانـة، وفي نهاية ذلك العـام شهد مسـرح الأحداث ثـلاث مآس تاريخية هـزت الرأي العام الأمريكي، وهي اغتيـال زعيم حركة الحقوق المدنية «مارتن لوتركينـغ»، والمرشـح للرئاسـة الأمريكية المعـادي للحـرب «روبرت كينـدي»، وقيام الشرطـة بضرب وإصابـة المتظاهرين ضد الحرب الفيتنامية أمام مقر المؤتمر القومي للحـزب الديمقراطي. وبرغم تبني «دونالد هيـز» لـرؤى سياسية محـدودة، فهو معاد للحرب ومؤيد للمواطنين السود، لكنه حريص في كتابته علـى عدم الإفـراط في تبسيط القضايـا المطروحـة أو شخصيات روايته، فبغضـ النظـر عـن اختـلاف المعتقدات السياسية لتلك الشخصيات فإنّ ما يميزها في المقـام الأول هـي آدميتها بكل ما تحمل هذه الصفة من معنى.

ويمثل كل من الـرواة الثلاثة في القصة جانبـاً من جوانب حركـة التصدي للحرب فالشخصية الرئيسيـة «صامويل ميلدون»، ممثل متجول مسرحـي ورجل استعراضات يجـوب الأقاليم في أيام الأعيـاد والأسواق عارضاً مسرحية من فصل واحد (استعراض الجـلاد)، وهـذا العرض الـذي تستوحي الروايـة اسمها منه، هـو أيضاً رمز رئيسي في القصة وتحليـل ثاقب لإحدى المفارقات الرئيسيـة في شخصية المجتمـع الأمريكي التـي تكمـن في اعتنـاق الأمريكيين فكرة

السلطة المجـردة وحرصهم في نفس الوقت على مبدأ الحريـة الفردية، فالجلاد الذي يقوم بتنفيذ أحكام الإعدام في ذلك العرض والذي يدعى «ميلدون»، بـدوره يرى أنه لا يقوم فقط بتنفيذ أحكام العدالة لكن أيضاً يوفر جـواً آمنـاً ويخلق مجتمعـاً نظامياً، وعليـه فهو فخور بعملـه ومهارته في تنفيذ أحـكام الإعدام دون إيلام ضحاياه، على أن مواطنيه يرونه وأسرته مصدراً للرعب، ولذا فـإن ابنته التي هجرها ابن القاضي- وكان هـو الشخص الوحيد الذي مـن الممكن أن يتزوجهـا- تثور ضد أبيهـا وتهرب مع أحد الخارجـين على القانون الذي يلقي القبض عليـه فيما بعد ويتـولى الأب الجلاد تنفيذ حكم إعدامه.

لكننا نـرى أن هذا الخارج على القانون رغم عنفه الواضح يتمتع بالشجاعة والحيوية التي يفتقدها الجلاد والقاضي معاً.. يمكننا الآن أن نتساءل عن فحو وأهمية ذلك العرض ففي نهايته تعلق ابنـة الجلاد قائلة: «نحن جميعاً أطفال الجـلاد». و(نحن) هنا تعني بالتحديـد جميـع الأمريكيـين إضافة إلى تعميماتهـا الأوسـع، فنحن نـرى أنه باسم النظام نقـوم (نحن) بتدمـير حيوية الفرد الفطريـة ومحـو الاختلافـات والاستقلال الفرديـين، تلك الفضائل التـي يجب على أي مدينـة حقيقية الحفـاظ عليها.. لكننا نحن نتاج وورثـة تلك القوة التدميرية ذاتها وهنا يعبر «هيز» عـن إحدى المتضادات في الشخصيـة الأمريكيـة التـي شغلت الفكر والأدب هنـاك منذ رواية الكاتب «بيلي باد» (Mellville).

غـير أن «صامويل ميـل» دون الذي قد يكون أو لا يكون هو أحد أحفاد ذلك الجلاد التاريخي الذي يصوره في روايته قد توصل إلى حل لتلك المفارقة على المستوى الشخصي إذ نراه إنساناً ماهراً ذا نزعة للشك متدفق المشاعـر يحافـظ على القوانـين رغم أنه متواجـد خارج تلـك الدائـرة الاجتماعية التقليديـة التي تتميز بالخشونة والعنصرية السياسية، لكـن ما يربطه بتلك الدائرة هو تفهمه للأشخاص الذين ينتمون إليها، وتمثل علاقة «مليدون» بابنه «جيسي» ذي العشرين عاماً تلـك التضـادات في الشخصية، فهو على حبه له في صراع دائم معه.

والابـن «جيسـي» هـو الـراوي الثاني في القصـة كان قد تم تجنيـده للخدمة في فيتنـام لكنه يرى أنـه لا يمكنه المشاركة في تلك الحـرب اللاأخلاقية وهنا حاول والده أن يساعـده بتدبـير هروبـه إلى كندا، لكن «جيسي» كشخص مثـالي متأثر بقراءاته لـ (Thoreau) -تـاروو-، وغانـدي ، يعتقد

أن القرار الأخلاقي الذي يناسب مثالياته هو أن يسجن من أجل معتقداته، هذا برغم أنه شخص هادئ منغلق على ذاته وأنه لم يخض قط أياً من تجارب الظلم والمعاناة التي يعارضها، لذا فإن موقفه السياسي هذا يمكن تفسيره على أنه مرحلة من نموه الذاتي أكثر من كونه رغبة في تحقيق أهداف سياسية معينة تهدف إلى تحسين أوضاع الآخرين، فـ «جيسي» يريد لنفسه القيادة وهو في الوقت ذاته معجب بدعاة السلام الذين قام أحدهم بقتل نفسه على أعتاب البنتاغون إظهاراً لمعارضة الحرب، أما والده فلا يستطيع أن يتفهم كيف لتصرف كهذا أن يرفع المعاناة عن الفلاحين الفيتناميين الذين مزقتهم الحرب، وهو في النهاية يريد لوالده أن يعيش ويتمتع بمباهج الحياة وآلامها معاً، فمن الواضح إذاً أن فلسفة الأب والابن وطبيعتهما ومعتقداتهما السياسية متنافرة، على أن من الطريف أن موقفيهما هنا يتعاكسان، إذ إننا نرى الأب بنظرته هذه أكثر تقدمية من الابن وذلك لواقعية منظورة إلى الحياة. ويحث أسلوب معالجة «هيز» لكل من الشخصيتين القارئ



على التفكير المستمر، فالقارئ يرى أن «جيسي» شخصية أخلاقية لكنه ساذج أيضاً غير أننا نرى العلاقة بين هاتين الصفتين بوضوح، بينما يجد القارئ في «صامويل ميلدون»، الأب المتعاطف المستبد الذي يريد لابنه أن يكون مثيلاً له بدلاً من أن ينمي شخصيته المتفردة.

وتقوم «غلوريا» صديقة «جيسي»، في مبدأ الرواية بدور الراوي الثالث ولأول وهلة تبدو «غلوريا» شخصية نمطية من شخصيات الستينيات، فهي مطلقة شابة

لهـا ابنة في الرابعة، وهي أم حسنة الطويلة مشوشة التفكير، كمـا أنها ابنة لأحد رجال الأعمال، وهي أيضـاً مثل «جيسي»، فرغم أنهـا لم تعان مـن الظلم الاجتماعـي فإنها لا تفتأ تردد شعـارات المعارضة دون تفهّم، ولهذا فـإن تمردها علـى سياسة الحكومة الخارجيـة ما هـو إلا رفضـ لسلطة أبيها وقيمـه. ومع تتابع أحـداث القصة تنفصل «غلوريـا» عن الذي يحول انفلاته على ذاته دون حبه لها، غير أن نضجها يبدأ من خلال علاقتها بمحارب سابق ساخط على الحرب الفيتنامية الذي يجد بدوره بؤرة لحياته من خلال حبه لها ولابنتها.

تلـك هـي الشخصيـات الأساسية في الروايـة، وأهـم مـا يميزهم، هـم وبقية الشخصيـات، أنـه لا يوجد بينهـم أوغاد حقيقيـون فكلهم أشخاص مشوشو التفكير، خائفـون، يشعرون بالحـب ويعانون الآلام، فـنرى أن والـد «غلوريـا» مثـلاً يخطط لاختطاف ابنتها كـي يرعاها هو، مدفوعاً إلى ذلك جزئياً بحبـه لـ «غلوريا» التي يرى أنها انتزعت منه ابنته الصغيرة كما عرفها، وحتى المؤيـدون للمرشح اليميني العنصري «جـورج والاسـ» فـإن الكاتـب يعرضهم كشخصيـات مشوشـة الذهن مـن أعضاء الطبقة العاملة الذيـن يصعب عليهم تقبل فكرة خطأ معتقدات آبائهم العنصرية، وإلى جانب هـذا فهو يرى أن هـؤلاء المعارضين للحرب ما هـم إلا مراهقون أثرياء مدللون منحهم آباؤهم جميع المزايا ورغم هذا فهم لم يبقوا على ولائهم للمجتمع الذي أتاح لهم تلك الأفضليات.

وحتى المرشح اليميني العنصري «جورج والاس» فهو شخص ماهر قوي الحجة وهو في الواقـع كبير الشبه بالخارج على القانون في استعراض الجلاد، وعلى هذا فنحن نرى أن الصراعـات السياسية هـي، في النهاية صراعات أسريـة، وأن تلك الصراعات هي نتاج للحب والإحباط الناجمين عن نقائص من نحب، فالابن يقول لأبيه، والوالد لابنته، والناقد لبلـده: «لأننا نحبكـم فإننا نود لو كنتم أفضل.. رائعين كما كنا نعتقد».

وتبلـغ أحـداث الرواية ذروتهـا حينما تتجمع الشخصيات مـع اختلاف دوافعهم في مدينـة شيكاغو لينضمـوا إلى صفوف المتظاهرين ضد الحرب خارج مبنى مؤتمر الحـزب الديمقراطـي القومـي، وفي تلك الأثناء كان قد تم إعطاء «هيوبرت همفري»، الذي كان يتمتع بتأييد قادة الحزب، أصوات مؤيـدي «روبرت كينـدي» عقـب اغتياله بدلاً مـن إعطائها للمرشح الثالث المناهض للحـرب «ماكارثـي»، حينئذ شعـر مؤيدو

«روبرت كيندي» أنهم قد غرر بهم وقاموا بتنظيم مسيرة إلى الحديقة العامة في قلب شيكاغو حيث أجروا عروضاً ساخرة من المؤتمر والمرشحين وهنا أمر عمدة شيكاغو قوات الشرطة والحرس القومي بالهجوم على المتظاهرين وتفريقهم. ويضيف هيز هذا المشهد قائلاً: «أن يدفع بأربعة وعشرين ألف جندي مسلح.. لمعركة مع عشرة آلاف مناهض للحرب غير مسلحين.. في حين كان بالإمكان تفريقهم وهزيمتهم إذا تركوا ليفعلوا ما أرادوا وهو أن يقضوا بضع ليال في الحديقة يقومون فيها بعروضهم».

غير أن الموقف ترتب عليه ما أصبح يعرف بـ (أحداث شغب الشرطة) حيث شاهد المواطنون الأمريكيون على شاشة التلفاز وسط شعور الاستنكار والحيرة آلاف المتظاهرين يُضربون ويصابون وكان من بينهم دعاة السلام والعاملون عليه مثل المرشح الديموقراطي «ماكارثي».

وتتحرك الشخصيات الرئيسية الثلاث إلى قلب هذا الحدث التاريخي ويصاب منهم اثنان: «جيسي» الذي كان يجلس في الطريق حاملاً لافتة كتبت عليها عبارة (الحب) ووالده الذي كان يحاول صد الإصابات عن ابنه، لكن خوض التجربة يغير الشخصيات جميعها وخاصة «جيسي» و«ميلدون» اللذين يتوصلان إلى تفهم كل منهم الآخر واستقلال كل منهما عن الآخر في نفس الوقت، أما «غلوريا» فتقرر أن تكرس نفسها لعلاقتها مع المحارب السابق الذي كان قد شارك في التظاهر ضد الحرب وحاول حمايتها وابنتها من الشرطة.

رغم هذا فطابع الكتاب العام هو التفاؤل والحيوية والمرح، وقد يرجع هذا إلى أن أحداً من الشخصيات لا يصاب إصابة خطيرة، لكنني أعتقد أن قوة الكتاب ترجع إلى أنه يجسد، ببراعة، الحيوية وروح التشكك والمثالية، تلك الصفات التي كانت تميز إلى حد كبير المجتمع الأمريكي إبان الستينيات والتي -وإن كانت قد خبت جذوتها- فما زالت ذات تواجد قوي، فما زال هناك من الأمريكيين من يتصدى في الإفصاح عن رأيه إذا أخطأ الساسة في بلده حتى لو لم يمسهم هم الضرر، وهذا في الواقع تقليد أمريكي عريق أقوى من أي سياسة تنتهجها الحكومة الأمريكية.

ولنا في هذا الصدد أن نذكر على سبيل المثال لا الحصر الكاتب الأمريكي والعالم اللغوي «تشومسكي» الذي كان من أشد المعارضين للحرب في فيتنام وهو من أكثر الكتاب صراحة وجرأة في هجومه على الحكومة الأمريكية لدعمها وتأييدها

لإسرائيل. ولهـذا فأنا أرشح هـذا الكتاب لهؤلاء الذين يسعون إلى رؤية أعمق للحضارة الأمريكيـة، فهـذا كتـاب يوضـح طبيعة الأمريكيين وأيضاً طبيعة المشاكل التي يجب عليهم أن يسعوا في سبيل حلها. والكاتب إذ يفعل ذلك فإن إنجازه يتميز بسرعة البديهة، والذكاء، والغضب، والصدق، والحب معاً.

❁ ❁ ❁

دونالد هيز في سطور:

ولد دونالد هيـز Donald Hays في ١٤ شبـاط عام ١٩٤٧ في مدينة «جاكسون» بولاية فلوريدا الأمريكيـة، وفي سن الثالثة انتقل مع أسرتـه إلى «بنما» حيث كان يعمل والـده بالبحرية الأمريكية. في السادسة من عمره وحتى العاشرة عاش في إيطاليا. حتى استقر به المقـام -فيما بعـد العاشرة- في مزرعـة والده بولاية «اركنسـاه» الأمريكية درس الفنـون والآداب بجامعـة «اركنساه» وحصل علـى درجة الماجستـير في الفنون والآداب (M.F.A) مـن نفـس الجامعـة ومن أشهر أعمالـه رواية «أطفال الجلاد»، «رابطـة دكسـي» وهي أيضـاً رواية أخرى تعالـج العديد من المشـاكل الأمريكية على المستويين الاجتماعي، والنفسي الأخلاقي، ولدونالـد هيـز أعمال متعـددة في الشعر والقصة القصيرة.





تجربتي.. في القصة القصيرة

نصر الدين البحرة ❁

كان ذلك في الثلاثينات المتأخرة قبل دخولي المدرسة. ومنزلنا آنذاك فوق الجـادة السادسة في حي المهاجرين، وهو الذي يحتضنه سفح قاسيون المطل على دمشق كلها، ويعد من أحدث أحياء المدينة - تاريخ بناء - فقد بدأ بناء المنازل فيه في مطالع القرن العشرين.

في تلك الأيام، كانت دمشق القديمة الواقعة بين الأسوار تدعى: المدينة، وطالما سمعت أمي وهي تتحدث عن نزولها إلى المدينة.

❁ كاتب وناقد وقاص سوري.

العمل الفني: الفنان قحطان الطلاع.

وفي المقابل، فإن القادم إلينا من «المدينة» يشبه من يذهب إلى بلد آخر، على الرغم من أن الحافلة الكهربائية «الترامواي» كانت تربط مابين أطراف المدينة جميعاً.. وهكذا فقلما كان زوارنا من الأهل، يرجعون إلى «المدينة» في اليوم نفسه. في الأغلب، كان أبي يلح عليهم كي يمضوا الليل عندنا، وثمة مكان لمبيتهم. وربما فعلت أمي ذلك.

بين هؤلاء «أبو أحمد فلفل» الذي يسعدنا بقدومه بين شهر وآخر. ولئن كانت كنيته أبا أحمد، فليس «الفلفل» من أصل اسمه، ذاك أن أبي (رحمه الله) هو الذي أطلق عليه هذا الاسم، نظراً لحرارته ونزقه ونشاطه ورغبته في فعل الأشياء في إبانها.

كانت أمي تترقب مجيء أبي أحمد بفارغ الصبر، فما إن يطل حتى يجد مجموعة من الأعطال في الدار، تنتظره كي يصلحها..

على أن أمراً آخر كان يفعله أبو أحمد، ذاك أن يجمعنا أنا وإخوتي من حوله، ويأخذ في قص الحكايات علينا. وقد دعوناه «سيف الأحدب» لأن هذا كان عنوان حكاية له نحن وضعناها، أعجبتنا وراقت لنا، وكان يبدع في روايتها.

وأبو أحمد نموذج للشخصية الدمشقية في الثلث الأول من هذا القرن. إنسان ربعة، يرتدي قنبازاً - القنباز الردّ - يُحكمه على جسده بشال حريري يلفه حول خصره. وكان يحلق شعر ذقنه ورأسه بيده بالموس، ويضع على رأسه طربوشاً طويلاً لفت عليه لفة هي المعروفة باسم «لام ألف».

أبو أحمد هذا، أول من لفت انتباهي إلى شيء طلي مسل اسمه الحكاية والقص، وحين افتقدته بعد وفاة والدي، صرت أبحث عنه في حكايات النساء المسنات من القريبات.

ولم تكن الحكاية يومذاك وقفاً على الصغار أو الفتيان، فإن الكبار كانوا يطلبونها ويصغون إليها قبل الصغار.

ولأن قريبتنا «أم عادل» أتقنت هذا الفن، فإنها كانت سيدة سهرات الشتاء، وكانوا يتلقفونها كضيف عزيز غال.. وفي الأغلب كانت تقضي بعض أيام الأسبوع خارج دارها، ضيفة في منازل الأهل. ولا عجب، فإن الحظ لم يسعدها بولد.

وفي هذه الأثناء، كنت مع أخي الأصغر صلاح الدين (رحمه الله)، أتردد على المقاهي التي تنصب فيها خيمة خيال الظل «قره كوز وعيواظ» ولاسيما مقهى حي «العمارة» لصق باب الفراديس التاريخي، أيام شهر رمضان خاصة..

ثم إن لاعب خيال الظل هذا «أبو عزات الكركوزاتي» انتقل للعمل في حارتنا

التي انتقلنا إليها بعد غياب والدي: مئذنة الشحم، في مقهى يملكه أحد أقربائي.. فأمسيت من زبائنه اليوميين، ما دمت لن أدفع قرشاً واحداً.

وكي يسمح لي أخي الأكبر - وقد غدا ولي أمري - بمغادرة الدار ليلاً، فقد تواطأت مع أحد زملاء المدرسة، كي يدق الباب، فأذهب معه للمطالعة والدراسة.. في منزله.

... لقد أخذني قص الكركوزاتي الليلي كل يوم، حتى كدت أرسب في صفي تلك السنة. وكان ذلك عام ١٩٤٧- ١٩٤٨، وأنا في الصف السابع الإعدادي.

... بعد رحيل والدي وانتقالنا للإقامة في منزل جدي لأمي في «مئذنة الشحم» أذكر أن مكتبته استغرقت عدة مشاوير من عربة يجرها بغل، والله وحده يعلم، كم ضاع من الكتب، وكم مُزّق.. في هذه الأثناء، ولم يكن أحد في أسرتنا يستطيع أن يُقدر جيداً حجم هذه الثروة التي تركها والدي، وكان واحداً من خمسة أوفدتهم سورية المستقلة حديثاً عام ١٩١٩ للدراسة العليا في جامعة السوربون بباريس.

والدتي كانت أمّية، وإن تكن ملمة بالقراءة التي صارت تسليتها الوحيدة في سنوات عمرها الأخيرة.

وأخي الأكبر كان في السابعة عشرة من عمره، في ريعان الشباب وفورته، فلم يول المكتبة ما تستحق من رعاية واهتمام.

أمست المكتبة إذن، في المنزل الجديد، هماً حقيقياً، لكن أمي، كانت تدرك على سبيل الحدس الصافي أن لها أهمية خاصة.. إضافة إلى أنها من رائحة المرحوم، وهكذا فإنها جاءت بخزانة كبيرة، وضعت فيها ما بقي من الكتب، كيفياً، دون ترتيب، الفرنسي بين العربي والتركي والإنكليزي ولم يكن للخزانة رفوف، فتراكمت الكتب، بعضُها فوق بعضها الآخر.

لعلي كنت في الصف الرابع الابتدائي، حين انتبهت إلى المكتبة، وبدأت أنقب فيها عن كتب أقدر أن أقرأها، في تلك السن. عثرت على بعض كتب كامل الكيلاني، أول كاتب للأطفال في الأدب العربي الحديث (١٨٩٧-١٩٥٩) وأذكر منها مجموعة قصص فكاهية: «علي كوجيا» و«السندباد البحري».

... ولم ألبث أن عثرت على أعداد من مجلة «الهلال» يرجع بعضها إلى عام ١٩٢٩ وفيها اكتشفت كاتب القصة القصيرة العربي الكبير، وهو في الآن ذاته، أحد مؤسسيها الرواد: محمود تيمور. وما أزال أذكر عناوين بعض قصصه: الوباء. حورية البحر.



... خلال ذلك كان أخي مصطفى قد بدأ يجلب معه إلى البيت مجلة «الكاتب المصري» التي أنشأها ورأس تحريرها الدكتور طه حسين. ومازلت أحتفظ حتى الآن بأعداد منها يعود بعضها إلى عام ١٩٤٦.

ههنا بدأت أتعرف على الأسماء الكبيرة: برناردشو. أندريه جيد. جان بول سارتر. دوستويفسكي. اوسكار وايلد. طاغور. ديكنز.

وقرأت في هذه المجلة أولى قصص «المعذبون في الأرض» لطه حسين..

... ولست أذكر جيداً، كيف اكتشفت اسمي «انطون تشيخوف» و«غي دو موباسان» وقد حدث لي معهما ما يشبه الحب من أول نظرة.. ولم تكن في ذلك الزمن قد ظهرت لهما كتب مترجمة، غير أني كنت أقرؤهما مترجمين في بعض المجلات والصحف العربية.

... عام ١٩٤٧ ظهرت في دمشق مجلة أطفال لعلها الأولى وقد سميت «العندليب» كان أخي مصطفى في هيئة تحريرها، وكان الفنان السوري الكبير الراحل محمود جلال يرسم قصصها وصفحاتها جميعاً. وقد قدر لي أن أنشر أولى كتاباتي في هذه

المجلة، وكانت أقصوصة، بل حكاية، عن قاض اشتهر بذكائه واسمه «إياس»، وقد شكت إليه امرأة يوماً لصاً يسطو على ثمار شجرة التين عندها، فطلب إليها أن تضع عيداناً صغيرة في بعض الثمار على نحو خفي، ثم أرسل في اليوم التالي من يجيئه بعينات من ثمار التين، ومع كل منها اسم بائعها.. وهكذا اكتشف إياس أمر ذلك اللص.

أما قصتي القصيرة الأولى فقد نشرت في مجلة «الرقيب» الأسبوعية الدمشقية، بعنوان «حكمة الشيطان»، مع عنوان آخر جاء فيه «ريبورتاج اجتماعي».. فكأن صاحب المجلة عثمان الشحرور (رحمه الله)، لم يكن يعرف شيئاً اسمه القصة القصيرة. الأطرف أن اسمي لم يظهر مع.. القصة..

حدث هذا عام ١٩٥٠، وقد نشرت في المجلة ذاتها في السنتين التاليتين بعض قصص قصيرة أخرى، كانت أكثر نضجاً، شكلاً ومضموناً، وقد بدأت حينذاك أقترب قليلاً من وضع يدي على بعض أسرار فن كتابة القصة.. وأمسيت أكثر تمكناً من تقنيتها..

وفي الحق فإني كنت أكتب وأجرب وأمزق، وليس في ذهني شيء واضح محدد، سوى أنني أريد أن أكتب، وأن أغدو قاصاً..

وكانت المشكلة حينذاك تتجلى على النحو التالي: فلم يكن هناك تناسب على الإطلاق، بين أن تكتب القصة القصيرة.. وبين أن تقرأ قصصاً قصيرة تساعدك على ولوج هذا العالم السهل الممتنع، المعقد اليسير، فما كان أقل القصص القصيرة العربية، والقصص القصيرة المترجمة.

كان الأمر يشبه ضرب سكة المحراث في أرض لم يضع فلاح فيها بذاره من قبل، وكانت هذه صعوبة حقيقية، عشناها أكثر مما وعيناها.

حتى مجموعات القصص القصيرة السورية التي صدرت في الثلاثينات ومطلع الأربعينات، لم تقع بين أيدينا، على الرغم من تفاوت مستويات القصص فيها مثل: «في قصور دمشق» لمحمد النجار و«طيف الماضي» لنسيب الاختيار و«الحب الأول» لخليل هنداوي.. و«تاريخ جرح» لفؤاد الشايب. وقد قرأت هذه المجموعة في وقت متأخر جداً.. ويخيل إلي أنها أنضجها جميعاً.

تخرجت في دار المعلمين الابتدائية بدمشق في أواسط عام ١٩٥٣، وندبت للتعليم الثانوي في مدرسة خاصة بالزبداني، في أيلول من العام نفسه..

ههنا عرفت الاستقرار النفسي والمالي للمرة الأولى في حياتي. وكانت في منزلي

كتبية بدأت أحمل إليها الكتب والمجلات من دمشق.

اتخــذت القراءة عنــدي سبيلاً جديداً، فقد أمست حاجة يوميــة أساسية، ومكنني وضعــي المــالي الجديــد من شــراء الكتب الجديدة.

والواقــع أن سوريــة ولبنــان شهدتا مع الخمسينــات الأول حركة نشر أدبية واسعة، سواء على صعيد التأليف أو الترجمة. وكانت القصة القصيرة سيدة الموقف.

.. في تلك الأيــام أسست رابطة الكتاب السوريين، ونشرت كتابهــا الأول: «درب إلى القمة» وقــد ضم قصصاً قصــيرة للرعيل المخضــرم والأكبر عمــراً: مــراد السباعي ومواهب الكيــالي وحسيب الكيالي، وشوقي بغدادي وسعيد حورانيــة.. وصلاح دهني وسواهم

.. ثــم توالــت المجموعــات القصصية عــن «دار القلم» اللبنانية: «المناديل البيض» لمواهب الكيالي. «مع الناس» لحسيب كيالي. «وفي الناس المســرة» لسعيد حورانية «حينا يبصق دماً» لشوقي بغدادي..

كنــت أنزل مــن الزبــداني إلى دمشق مرتين أسبوعياً، فألتقي أصدقائي في مقهى الهافانا، الذي كان يعبق بدخان السيكارات والنراجيل في الشتاء، والأبواب محكمةُ الغلق، وتلعلع في جوّه أصــوات زهر النرد وحجارةُ اللاعبــين.. ولغــطُ النــاس وضجيجهم،.. وأتيحــت لي الفرصة في هذا المقهى أن أقرأ عدداً من مجلــة «النقاد» التي كان يصدرها الأستاذ فوزي أمين، ويتولى شؤون تحريرها الأستاذ سعيد الجزائري.

كانت العادة في «النقاد» أن تذكر أسماء كتاب العــدد في الصفحة الأولى تحت هذا العنــوان باللــون الأحمر: «يكتــب في هذا العدد». سألت نفسي مرة، ترى، هل سيذكر اسمي يوماً بــين هؤلاء الكتاب: كامل عياد. جودة الركابي. شاكر مصطفى. جلال فاروق الشريف. حسيب كيالي. فارس زرزور. غسان رفاعي. سعيد حورانية. نزار قباني..

.. في دار المعلمــين، أتيحــت لي فرص متعــددة للاطلاع على التيــارات السياسية التي كانــت تجيش، في صــدور الشبان في سورية، وكانت الأحــزاب العقائدية جميعاً تحت الأرض، في تلك الفترة من أيام العقيد أديب الشيشكلي، وقــد شاركت في أكثر من مظاهرة خرجت من معهد دار المعلمين، ضد نظام هذا الرجل، وكنت أقّدر أن أتملص من اعتقــال رجال الأمن لي، على نحو ما.. في حــين اعتقل عدد من زملائــي في الصف، ونقل بعضهم إلى حلــب، أو طرد نهائياً من

المعهد، مثلما نقل آخرون، للأسباب نفسها من دار المعلمين بحلب إلى دمشق.

لم يستطع أخي الأكبر الذي كان عضواً في الحزب الشيوعي السوري، أن يترك أي أثر سياسي حقيقي في نفسي، وإنما القراءات وحدها هي التي رسمت قناعاتي الفكرية والخطّ السياسي الذي التزمت به طوال حياتي: عشر سنوات كاملة داخل تنظيم الحزب الشيوعي، وقد انتهت عام ١٩٦٣.. وسنوات تلتها، ظللت فيها محتفظاً بقناعتي الفكرية، مع الحفاظ على استقلالي التام ،عن هذا الحزب أو ذاك، فقد علمتني التجربة ،أن يكون الأديب منتمياً إلى فكر، ولا منتمياً إلى حزب.

... أذكر هنا أنني قرأت مبادئ الفكر الماركسي، في كتاب مدرسي، عرضها على نحو مناقض معادٍ. وكان بين الكتب الهامة التي أثرت في تفكيري، كتاب المفكر اللبناني الدكتور جورج حنا «قصة الإنسان» وكتابه الآخر «ضجة في صف الفلسفة». ولعبت الأدبيات السوفيتية دوراً كبيراً، في تحريض الوعي السياسي والأدبي لدي.

وأتذكر الآن على نحو خاص بين هذه الكتب «الأم» لمكسيم غوركي و«الفولاذ سقيناه» لنيكولاي أوستروفسكي.. والأعمال الأخرى التي عكست أحداث الحرب العالمية الثانية وبطولاتها في الاتحاد السوفييتي.. وهي كثيرة جداً.

.. بلى، كانت التنمية الروحية لدي تسير في خطين متوازيين: خط للفكر وخط للأدب. وإذا كان المتوازيان لايلتقيان إلا في اللانهاية، فإنهما كانا ملتقيين عندي.. . في البداية.

وربما كان هذا هو السبب الذي جعل قصصي الأولى المستوية، ملتزمة تماماً بما كان يعرف يومذاك باسم: مذهب الواقعية الاشتراكية، وهو الذي صاغ مبادئه ووضع أسسه الكاتب السوفييتي العظيم: مكسيم غوركي عام ١٩٣٤ في المؤتمر الأول للكتاب السوفييت.

كانت مجلة «النقاد» تشبه أكاديمية أدبية، وأذكر أن الأدباء الناشئين من مثلي، كان منتهى حلمهم أن تنشر هذه المجلة شيئاً من نتاجهم، وحين نشرت «النقاد» أول قصة لي هي «الشتاء المبكر» عام ١٩٥٣ وقرأت اسمي بين المساهمين في ذلك العدد منها، على صفحتها الأولى، فرحت على نحو لا أذكر أني فرحت مثله على الصعيد الأدبي، في حياتي كلها، حتى يوم نلت جائزة القصة القصيرة الثانية في مهرجان فارصوفيا عام ١٩٥٥.

في ذلك الصيف من عام ١٩٥٤ أعلنت

رابطة الكتاب السوريين أنها ستخلع عنها ثوب الإقليمية لتأخذ بعدها القومي العربي. وهكذا بدأت الاستعدادات للمؤتمر التأسيسي الذي افتتح في نادي «الآبولون» بالقصاع في دمشق، وشارك فيه عدد من الأدباء من مختلف أنحاء الوطن العربي. وقد جُمعت تكاليف هذا المؤتمر من التبرعات التي ساهم بها الأدباء والمثقفون في سورية. وأذكر أنني جمعت في الزبداني على شرف المؤتمر الأول لرابطة الكتاب العربي زهاء خمسمئة ليرة سورية.

.. وعلى الرغم من حماستنا البالغة للرابطة، فإنها لم تعجبنا، نحن الكتاب الشبان يومئذ، ذاك أننا كنا نذهب أبعد مما ذهبوا، فالتقينا وقررنا تشكيل رابطة خاصة بنا دعوناها رابطة الكتاب الشباب، وتمترسنا في مجلة «النقاد» ذاتها.. ووجدنا في سعة صدر أمين تحريرها الأستاذ الجزائري خير معين لنا، وصرنا ننشر نتاجنا من قصة وشعر ودراسة متوجاً بعبارة «من رابطة الكتاب الشباب».

ومنحنا الأستاذ الجزائري فرصة أكبر لنشر أفكارنا ومبادئنا الأدبية، من خلال زاوية أسبوعية، تُنقد فيها المواد المنشورة في العدد السابق من مجلة «النقاد» وكان يحمل هذه المسؤولية باسم مستعار: «عابر سبيل» القاص الناقد أحمد الغفري الذي هجر الأدب والأدباء، وأمسى دكتوراً في الهندسة المدنية..

وكنا نساهم معه في تحرير زاوية «قرأت العدد الماضي».. ولاسيما هشام نحاس، وكاتب هذه السطور. أما أعضاء الرابطة – وقد أصدرت بياناً أدبياً نشرته الصحافة المحلية والعربية في حينه – فهم: ناديا خوست. ناريمان زكريا. سعيد مراد. أحمد الغفري. هشام نحاس. عبد الله عويشق. محمد المصري. وعادل قرشولي. ونصر الدين البحرة.

كان الصحفي الكاتب المعروف عدنان ملوحي يصدر في ذلك الحين مجلة أسبوعية اسمها «الطليعة» وهي التي غدت صحيفة يومية في ما بعد.. وكنت أنشر فيها بعض القصص والمقالات، وبينها قصة قصيرة عنوانها «أبو دياب يكره الحرب» وقد كتبتها من وحي الحملة العالمية من أجل السلام وتحريم القنابل الذرية وتجاربها. وكانت هذه بين المسائل المطروحة بين القوى التقدمية والوطنية في مختلف أنحاء الكرة الأرضية في تلك السنة ١٩٥٥.

ولم تمض أيام كثيرة، حتى قرأت في بعض الصحف إعلاناً عن مسابقة أدبية دولية للقصة القصيرة ستقام في نطاق مهرجان

الشباب العالمي الذي سيقام في فارصوفيا صيف ذلك العام ١٩٥٥. وذُكر أن الشاعر التركي الكبير ناظم حكمت سيكون رئيس لجنة المحكمين. وينبغي أن تكون قصة المسابقة مترجمة لإحدى اللغات العالمية.

نصحني صديق قرأ القصة المذكورة أن أرسلها إلى المسابقة بعد ترجمتها. وهكذا كان. ومع اختتام المهرجان وإعلان النتائج، فوجئت بأني فزت بالجائزة الثانية، فنشرت قصتي في عدد من الصحف وأقيم احتفال في هذه المناسبة، في منزل الدكتور غسان رفاعي في حارة «عين الكرش» بدمشق، أعطاني خلاله الأستاذ واصل فيصل – وكان مسؤول الوفد السوري في مهرجان الشباب الخامس ذاك – المدالية الفضية مع براءتها وعليها توقيع ناظم حكمت. إضافة إلى هدية رمزية..

لقد أشرت إلى هذه الواقعة، لا.. لأتيه عجباً بأنني أول سوري ينال جائزة عالمية، في ذلك الزمن المبكر – وكنت لا أتجاوز الحادية والعشرين من عمري – بل.. لأن ما تلاها ترك أثراً مريراً في نفسي.. فقد كثرت الأقاويل حول نيلي هذه الجائزة، بين الزملاء الأدباء أنفسهم، فمن قائل: إن الجائزة لم تعط لي.. بل لسورية، وآخر يقول: القصة في الأصل ضعيفة.. ولكن ترجمتها إلى اللغة الفرنسية، شدت حيلها وأعطتها نكهة خاصة.. وأذكر أن كثيرين من كتاب القصة في سورية شاركوا في هذه المسابقة وبينهم القاص الرائد ليان ديراني.

وأسجل بمزيد من العرفان والشكر، أن الشاعر الصديق، مدحة عكاش قد تأذى من هذه الأقاويل أكثر مني، فإذا هو يسألني ذات ليلة، وكنا في منزله في «زقاق الصخر» بدمشق وهو الذي أضحى في ما بعد مقر مجلة «الثقافة» ومعنا المرحوم سعيد مراد:

– كم قصة عندك.

قلت:

– لماذا ؟

قال:

– نريد أن ننشرها في كتاب، هل لديك من القصص ما يكفي؟..

وطبع الإنسان الكبير كتابي الأول «هل تدمع العيون» على نفقته.. . في مطبعة الجمهورية، وكان كادحاً مثلنا، إلا أن دخله كان أفضل.. ولم يكن لديه من عمل سوى تدريس العربية.

كان هذا في الأيام الأخيرة من عام ١٩٥٦. وطرح الكتاب في المكتبات.. في مطلع عام ١٩٥٧، وقد رسم غلافه الفنان غازي الخالدي ووضع رسومه الداخلية الفنان ممتاز البحرة، وأعتز على نحو خاص

بأن الخطاط العظيم «بدوي» كتب بريشته عناوين القصص المنشورة لست أذكر كتاباً لقي من الحفاوة والاهتمام ما لقيته مجموعتي القصصية الأولى هذه. لم يكن ثمة أكثر من الصحف والمجلات في دمشق. وأستطيع القول إن معظمها أولاها رعاية كانت تلفت النظر. بعضها اكتفى بنشر إعلان عن صدور الكتاب، وبعضها الآخر، وهو كثير نشر دراسات ومقالات نقدية حول القصص التي تضمنتها المجموعة.

... ولم تكن قد مضت أيام كثيرة عندما دعت رابطة الكتاب العرب إلى اجتماع عقد في منزل الشاعر الكبير شوقي بغدادي في زقاق الصخر، حضره أعضاء الرابطة الموجودون في دمشق وقرأ فيه دراسة نقدية عن المجموعة الروائي الكبير حنا مينة.. ودار نقاش بيني وبين الزملاء حول القصص المنشورة، تناول طريقة كتابتي وأسلوبي، والتقنية التي اتبعتها في تقديم قصتي.

.. وفي عددين تاليين من مجلة «النقاد» نشرت دراسة الأستاذ حنا، فلم ألبث أن أتبعتها برد على هذه الدراسة نشر في عددين أيضاً.. وقد نشرت هذه الدراسات جميعاً في الكتاب الذي أصدره اتحاد الكتاب العرب بدمشق بعنوان «نصر الدين البحرة: إبداع نصف قرن.»

كانت «النقاد» تنشر أحياناً أكثر من دراسة عن «هل تدمع العيون» في العدد الواحد. وبدا بعض الأعداد، كما لو كان خاصاً بهذه المجموعة. وكان طبيعياً أن ينبري الزملاء في «رابطة الكتاب الشباب» للكتابة عن القصص.. والدفاع عنها..

وأستطيع القول اليوم، بمزيد من الهدوء والموضوعية إن المعركة الأدبية التي دارت حينذاك من حول هذا الكتاب، كانت تخفي وراء التعصب لهذا المذهب الفنّي أو ذاك فكراً سياسياً معيناً. وبكل بساطة يمكن الاستنتاج على النحو التالي: فقد كنت مؤمناً إلى درجة التعصب بمذهب الواقعية الاشتراكية. وكان الطرف الآخر يرفض هذا المذهب، بما ينطوي عليه من فكر، وما يترتب عليه من عناصر وأشكال فنية. وكنت أفهم الواقعية الاشتراكية باختصار شديد، أنها ذلك المذهب الأدبي الذي يهتم فيه المبدعون بقضايا الطبقة العاملة والفقراء والمهمشين اجتماعياً، فيصور مشكلاتهم، بما في ذلك قضايا القلب، رابطاً إياها بالمسألة العامة للمجتمع، على نحو بعيد عن الفجاجة والمباشرة.

بعبارة أخرى، فإنها الواقعية مضافاً إليها الالتزام بفكر الاشتراكية العلمية أما الشكل الفني للنتاج الأدبي، وإن يكن ذا

صلة وثيقة بالمضمون، فالمبدع حر يصوغه على النحو الذي يراه وأقدر أن أوجز فهمي للواقعية الاشتراكية:

١- إنها تناقض المذهب الطبيعي في الأدب، وهو الذي يجعل الكاتب مجرد مسجل لصور الواقع، كما لو أنه مرآة.

٢- وهي ترفض الشكلية في الأدب، أي الاهتمام بالشكل دون المحتوى، وايلاء الجانب الجمالي اهتماماً أكبر، دون المضمون

٣- عندما ترفض الواقعية الاشتراكية مذهب «الشكلية» فلا يعني ذلك إهمالها العناية بالشكل الفني وتجويده.

٤- تؤمن هذه الواقعية أن للأدب رسالة اجتماعية، أي ترى أن له دوراً خطيراً في المجتمع يؤثر في تطوره الإنساني، أي إن الأدباء مسؤولون، وهذا هو المعنى الاجتماعي والوطني والقومي للالتزام.

كنت أردد باستمرار عبارة ماركس المشهور: إن ما فعله الفلاسفة حتى الآن أنهم اكتفوا بتفسير العالم.. أما الآن فالمهم هو تغييره.

وقد عبر لينين عن فكرة مشابهة إذ قال: «إن الفكر لا يعكس العالم فحسب، بل يغيره أيضاً..»[١]

وأوضح ماركس ما يعنيه، على صعيد الفن والأدب بقوله إن الفن كان دائماً هو الأسلوب الفني العملي لفهم العالم.

وصاغ ستالين الفكرة بكلمته التي ذاعت: الكتاب هم مهندسو النفوس البشرية.. إذن، ففي مثل هذا التمذهب، لامجال أمام الأديب أن يكون محايداً، أو أن يكتب وهو قابع في برجه العاجي. وهذا ما عناه «جدانوف» إذ قال في كتابه «إن الأدب كان مسؤولاً»:

«يستحيل في عصر الصراع الطبقي أن يكون أدب فوق الطبقات لا يتحيز في جانب من جانبي الصراع».

وقد أزاح لينين الغشاوة عن العيون، بقوله:

«إن تأكيدات الرجعيين من كل صنف ولون، بشأن استقلال الفن عن الحياة، تغطي دفاعهم عن مصالح طبقاتهم المستثمرة.»[٢]

إذاً فالأدب لا يمكن أن يكون محايداً، «فإن مجرد كون الأدب بعيداً عن ساحة الصراع، هو في الواقع تحيز إلى معسكر الرجعية»[٣]

ومادام الحياد مرفوضاً في الأدب، فلا بد أن يكون الأديب ابن مجتمعه وطبقته والمرحلة التاريخية التي يعيشها. ومن ثم فهو جزء من مجتمعه وتاريخه ينفعل به ويفعل. وقد يعبر الأديب عن طبقته المتعبة الطالعة، مثلما يمكن أن يعبر عن طبقة

اجتماعية أخرى تنهــار.. أو عن تناقضات اجتماعيــة.. خلال الصراع، تبزغ منها قيم وحقائق جديدة.

وهكذا، فمن قبل أن تتبلور القيم والأفكار الاجتماعيــة والسياسيــة والاقتصاديــة والثقافية في النصف الثاني من القرن التاسع عشــر، في مذاهب سياسيــة كالاشتراكيات المختلفة وبينها الاشتراكية العلمية، ومذاهب فنية، كالطبيعيــة والواقعيــة والانطباعية والفــن للفن.. إلخ.. ظهر أدبــاء كتبوا أدباً واقعيــاً عبر عن قــوى اجتماعيــة جديدة طالعــة، في بعض المفاصل التاريخية الهامة مثل: موليير وسرفانتس وفولتير، وفي القرن التاســع عشر ظهر هوغو وزولا وتولستوي.. في الطريق نفسه.

... لم يكتم «انغلز» إعجابه بعمل بالزاك الكبــير «الكوميديــا البشريــة» لأن الكاتب الفرنسي

«اضطر للسير في عكس عواطفه الطبقية الخاصة» و«رأى حتمية نهاية أريستوقراطييه الأعزاء ووصفهم بأنهم لا يستحقون مصيراً أفضــل» وعدّ «انغلز» هــذا العمل «من أكبر انتصارات الواقعية، ومن أبرز مزايا بالزاك الشيخ»[٤]

وأشاد ماركس نفسه بشكسبير قائلاً: إنه وصف طبيعة المال وصفاً ممتازاً، وإنه كشف خاصتين للمــال، أولاهما بقولــه: إن المال هو الألوهــة المنظورة وإنه يبــدل الفضائل إلى أضدادهــا، وإنــه أداة لاختلاط الأمور وتزييفها بوجه شامــل. وثانيتهما بقوله: إن المال هو الوسيط العــام بين الناس يؤثر في علاقاتهم الاجتماعية.[٥]

ولــو أننا طبقنا هــذه النظرية المعيارية علــى أدبنا العربي لرأينا فيه، على اختلاف عصوره، آثاراً ذات طابع تقدمي حقيقي، من حيث النظر إلى القوى الاجتماعية الطالعة، والتناقضــات التــي تحكم حركــة المجتمع التاريخيــة، والطبقات المنهــارة، والشرائح الجديدة. و نستطيع أن نقدم أمثلة كثيرة من مقامــات بديع الزمان الهمذاني والحريري، ولاسيمــا «المقامة المضيريــة» التي تشبه في بعض جوانبها، من حيث الكشف عن النعمة المحدثة مسرحية موليير «البورجوازي المتمدن G entilhomme Le bourgeois»

ونحن نرى أدباً واقعياً تقدمياً في «كليلة ودمنــة» و«الأدب الكبــير و«الأدب الصغير» لابــن المقفع، وفي «البخــلاء» للجاحظ وفي «الأغــاني» لأبي الفــرج الأصفهــاني، وفي زهديات أبــي العتاهية، وسخرية أبي نواس وسخط أبي العلاء وحقد المتنبي.. [٦] إلخ.

..في الأيــام الأخــيرة من عــام ١٩٥٤ بــين الخامس عشر والخامس والعشرين من

أيلول، عقد في موسكو المؤتمر الثاني للأدباء السوفيت، وقد حضره الناقد اللبناني الراحل الدكتور حسين مروة فكتب، عنه تقريراً نشر في مجلة «الثقافة الوطنية» الشهرية التي كانت تصدر في بيروت. ثم نشر هذا التقرير في كتاب بعنوان «قضايا أدبية» صدر عن دار الفكر بالقاهرة عام ١٩٥٦.

وقد أعانني ما ذكر في الكتاب على هامش مسألة الواقعية الاشتراكية التي نوقشت بحدة حيناً وعمق وتوسع أحياناً على جلاء جوانب هذا الموضوع جميعاً. من ذلك مثلاً مسألة ايجابية البطل في العمل الأدبي أو سلبيته. وقد بحث قسطنطين سيمونوف هذه القضية في تقريره، فعاد إلى «قضية تصوير الأبطال الممتازين دون نقائص وصراع في حياتهم» فقال: «إن الكتاب الذين يصورون أبطالهم هكذا، يضرون بالحياة والأدب معاً، فإن واجب الأدب أن يناضل الفساد في المجتمع، فإذا صور المجتمع من غير فساد، فقد كذب وخدع الشعب عن حقيقة أوضاعه، مع أن كل مابلغه الشعب السوفييتي من نجاح حتى الآن في بناء الاشتراكية، لم يبلغه من غير صراع. بل.. لا يزال في حياة هذا الشعب ناس فاسدون مخربون». (٧)

وانتقد سيمونوف دعوة الشاعر الداغستاني رسول حمزاتوف إلى جعل الأدب أدب فرح فحسب، قائلاً: إن هذا يؤدي كذلك إلى خداع الشعب عن بواعث الحزن في حياته. وذكر سيمونوف في تقريره الهام «أن كتباً كثيرة صدرت عندنا وهي تصور الشعب بأسره قد اشترك في الثورة – ثورة أكتوبر الاشتراكية – عن علم ووعي، مع أن كثيرين منهم لم يكونوا.. على شيء من الوعي.»(٨)

وانتقد سيمونوف التلفيق والبهتان في الأدب أيضاً فهناك روايات «تصور البطل أول الأمر غارقاً في المشكلات، في المصنع مثلاً، ثم ما يلبث يومين أو بضعة أيام في سياق الرواية حتى يتغلب على هذه المشكلات جميعاً، ويحلها حلاً سهلاً يسيراً. (٩)

... وركز الكاتب السوفييتي ألكسندر فادييف الذي اشتهرت رواياته المترجمة، في تقريره أمام المؤتمر على أمرين: أولهما أنه يرى أن واجب الأدب في تلك المرحلة أن يناضل الإيديولوجية الرأسمالية. وثانيهما أنه رفض بقوة وصراحة نظرية «الفن للفن» معتبراً إياها نظرية لا وطنية: كوزموبوليتية(١٠) cosmopolitan.

... ومن الذين تحدثوا في هذا المؤتمر الهام قسطنطين فيدين، وقد ندد بالكتاب الذين اتجهوا في السنوات الأخيرة إلى إهمال

الشـــكل الفني، وأهاب بالكتـــاب والنقاد أن يهتموا اهتماماً بالغـــاً بالشكل الفني. وأكد أن الاهتمـــام بالشـــكل في الأدب ليس يعني الرجوع إلى الشكلية، لأن الشكلية بمفهومها القديم ترجع بنا إلى نظرية: الفن للفن.[11]

.. وتوقـــف فيديـــن عنـــد مسألـــة كثر الجـــدل والحديث حولهـــا في الخمسينات، عند مناقشـــة الواقعية الاشتراكية، تلك هي مسائل القلب والعواطف، أو ما يسمى أحياناً «الرومانسيـــة» وهي شيء مختلف تماماً عن «الرومانسية» كمذهب أدبي ظهر بعيد الثورة الفرنسية.

قال فيديـــن: «صدرت كتـــب رومانسية في الاتحـــاد السوفييتـــي، ولم يقـــل أحد إن هـــذه الكتب خارجـــة عن نطـــاق الواقعية الاشتراكية.»[12]

.. كانت هـــذه رؤيتي لمذهـــب الواقعية الاشتراكيـــة الـــذي انطلقـــت في قصصـــ مجموعتـــي الأولى «هل تدمـــع العيون» من إيماني به.

وخلال المناقشة في منزل الشاعر شوقي بغدادي، أثير كثير من المسائل التي عرضتها قبل قليل وكم تمنيت لـــو سُجلت الأحاديث والمداخـــلات التي دارت بـــين الكتاب، لدى عرض الكتاب.. ولكن هيهات..

على أن تلك المجموعة في سنة صدورها تلك، تميزت بأهمية خاصة، ذاك أنها صدرت وقـــد سبقها أقل من عشر مجموعات، يمكن سلكها في عداد القصة القصيرة الحديثة.

... وعلى الرغم من الدراسات والمقالات الكثـــيرة التي كتبت عن هذه المجموعة، فقد رأيـــت أن أتوقـــف قليلاً لألتقـــط أنفاسي، وأعيد النظر في طريقي الأدبي.

بلى لقد نشرت بضع قصص قصيرة في تلك الفترة، لكنها لم تعجبني حين قرأتها بعد زمن من نشرها بـــين عامي ١٩٥٧- ١٩٥٨، فأسقطتها من حساب المجموعة القصصية التاليـــة التي صدرت بعد زمن طويل نسبياً: عـــام ١٩٧٢، عـــن وزارة الثقافـــة بدمشق، بعنوان «أنشودة المروض الهرم».

.. لقـــد أردت أنـــا توقفـــاً، يكون بمثابة محطـــة أو استراحـــة بـــين مرحلتـــين، لكن الظروف شـــاءت أمـــراً آخر، فطـــال زمن التوقف وطـــال.. وتتالت الأحداث الزاخمة الحافلـــة، وبعضها كان صعبـــاً للغاية فمن الـــزواج المبكر، إلى الالتحـــاق بكلية ضباط الاحتيـــاط لأداء خدمة العلـــم ،إلى السجن، ومـــن سجن إلى سجن.. ومـــن سجن أخيراً إلى التشرد زهاء ثلاث سنوات في لبنان.

بلـــى، كانت كلها تجـــارب عارمة كبيرة، ما تزال على الرغم مـــن عظمتها محتفظة بـــكل بكارتها في الذاكرة، مع أني قاربتها في

بعض قصصي القصيرة اللاحقة، وكانت لي مشروعات روائية كتبت في بعضها زهاء مئتي صفحة.. لكنها لم تكتمل وأرجو أن يكون في العمر متسع للعودة إليها وأرجو أيضاً أن تتاح لي كتابة الجزء الثاني من «تجربتي في القصة القصيرة».

الهوامش

١- علاقة الفن بالواقع — تأليف: ج. نيدوشيفين. ترجمة: فؤاد أيوب.
٢- المصدر السابق.
٣- قضايا أدبية — حسين مروة.
٤- في الأدب والفن — ماركس انغلز.
٥- قضايا أدبية — حسين مروة.
٦- المصدر السابق.
٧- المصدر السابق.
٨- المصدر نفسه.
٩- المصدر السابق.
١٠- المصدر السابق.
١١- المصدر نفسه.
١٢- المصدر نفسه.





العنف عند الأطفال والمراهقين

سهام شباط ❀

إن المشكلات التي تواجه الإنسان في مراحل حياته المختلفة تجعله ينتقي مجبراً السلوك الذي يراه مناسباً برأيه. فهو يواجه العنف من البيت- والمدرسة والعمل والجامعة. والحروب والفساد والاضطرابات والشغب وكذلك في اغتراب الكثير من شرائحنا السكانية بعضها عن بعض، وتزايد السكان والتلوث.. إلخ كل ذلك يخلق عنده العنف والعدوان ويتزايدان بشكل مطرد، وهذا يشكل حاجزاً كبيراً ضد تكيفه مع الواقع الذي يعيشه.

❀ باحثة في التربية وعلم النفس

العمل الفني: الفنان مطيع علي.

كيف نحمي أنفسنا وغيرنا؟ أطفالاً كنّا أم أهل.

إن العنــف الــذي نراه كل يــوم وفي كل أنحاء العالم في الشوارع والمدارس والأسواق.. يستهــدف أناساً لم يرتكبــوا أي إثم. ذنبهم الوحيد أنهم يعيشون في مجتمع، العنف فيه جاهز لمحاكمة هــذا المجتمع وتغييبه. إنهم أناس عيبهم كله أنهم مختلفون بسبب العرق أو البيئة الاجتماعية أو الوظيفة.

الإنسان بطبعه خيِّر بالفطرة يحب العيش مع الآخريــن: الأهل- الأقارب- الأصدقاء. يتكيف ويتأقلم وينسجم معهم رغم الاختلاف والفروق الفردية في ما يحبون وما يكرهون «فهو كائن اجتماعي».

ومــن خلال هذا التفاعل نتعلم المواجهة أو التوافــق مما يجعل الحياة ممكنة سعيدة وجميلة لكن نجد في حياتنا أن أطفال اليوم متمردون. لا يحترمون إرادة الآخر ورغباته حتى لــو كان الآخر هو الأب أو الأم.ولذلك عدم تلبية رغباته تــؤدي إلى العنف لتجاوز المعوقــات التي تقف في طريــق تحقيق ما يريد. فلذلك علينا بالحوار إذا أردنا للعنف أن يقف.

لقد ظهرت نظريات كثيرة شرحت وفسرت العنف والعدوان على المجتمع والذات، وكلٌّ يغني علــى ليلاه. فمنهم من قال إن البحث التجريبي على الأفراد الذي يتم التحكم به بدقــة شديدة هو الذي يوفر المفتاح الوحيد لفهــم السلوك العــدواني، حتى لــو كانت أبحاث كهذه تقصر نفسها حكماً على أنماط العنف الأخف التــي يمكن بحثها ومتابعتها في المختــبر أمــا البعض الآخــر فيشعر أن المراقبة الطبيعية للتعاملات العدوانية التي تحدث بصورة طبيعيــة كمعارك أو حروب العصابات مثــلاً أو الخلافات في الأُسر، أو المدارســ أو العمل.. هي الطريقة الفضلى. في حين يؤكد آخرون أن أية نظرية للعدوان والعنف مستمدة فقط من بحوث تجرى على البشــر لا بد أن تكون ناقصة، إنهم يفضلون أن يدرســوا السلوك العــدواني عبر الطيف الكامل لتاريخ نشوء العرق.

إذن نخلص من هذه النظريات بما يشبه وضع ثلاثة عميــان يحاولون وصف فيل في الوقت الــذي لا يستطيع فيــه كل منهم إلا ملامسة جزء منه.

لكن رغم هــذه الخلافات فهناك نقاط مشتركــة تشــكل الأساســ لمعظــم المناهج النظرية التي تتناول مشكلة العدوان والعنف، فهما بالنتيجة شكلان مــن أشكال السلوك الإنساني البشري، ولجميع الأنشطة البشرية

عوامــل عامة لابد من أخذها بعين الاعتبار إذا توخينا تفسير هذه الأنشطة:

– فالعامل الأول سندعوه باسم التحريض ونعني به تلك القوى الكامنة داخل الإنسان والتــي تحركــه أو تدفعه أو تسـيره باتجاه القيــام بالعنف. إمّا للدفاع عن الآخرين، أو عن ذواتهم أو إرضــاء لعصاباتهم أو لزيادة نفوذهم.

– العامل الثاني هــي الكوابح، والكوابح هي العوامــل الموجــودة في شخصية الفرد والتي تعارض التعبير الصريح عن العدوان.

– وهكذا يغدو الاحتمال كبيراً في غياب الكوابــح الداخلية أن يتصــرف المرء بفعل تحريضه العــدواني، ويقــول «فرويد» بأن الكوابح تتطور من خلال عملية التفاعل مع البيئــة فعنصر الكبــح الأساسي لدى الفرد هــي الأنا العليا التي تتطــور في أثناء البدء بعلاقــات الطفــل الأولى مع أفــراد أسرته ذاتهــا. ويقــول «دولارد» إن العقاب وتوقع العقاب يشكلان أسس الكوابح عند الفرد.

لهــذا نقــول إن العنف والعــدوان هما دليــلان لعدم الاتــزان الانفعالي عند الفرد وهــذا الاجتياح السافــر لحياتنا في جميع الأماكن في عصــر الاستهلاك حيث الأقوى هــو الأكثر غنىً. وباتــت الفرقة والبعد بين الأهل والأولاد، وتطــور وسائل التكنولوجيا وخاصة التلفزيونــات والإنترنت باعتقادي أنها طَوَّرت العنــف ونمّته وغذته في نفوس أولادنــا وأخذت الجزء الكبير من عواطفهم وأحاسيسهم وجففتها وجعلتها قاسية هشة بعيدة عن الترابط والحب والحنان.

ما أدّى إلى المزيد من السلوكيات السلبية تجــاه مجتمعنــا الإنساني المعاصــر. لاشك أن العنــف كامن فينا منــذ ولادتنا ولكن في حدوده المعقولة التي تحفظ لنا البقاء «غريزة البقــاء» ولكن عندما يتعدى لإيذاء الآخرين وأنفسنا وذواتنا، فهنا الطامة الكبرى. فنحن كأطفال العنــف فينا فطري ولكنه غير مؤذٍ لنا وللآخرين. فيجب علــى الأهل تنظيمه وتهذيبه بدلاً من تجنبه أو نسيانه.

لأننا نعرف جميعاً أن أي سلوك عدواني لا بــد له من أسباب إمَّــا نفسية أو جسدية وإشباع هذه الرغبات عند الطفل مثلاً تغلق الباب في وجه «الهــو» العنيف عنده. ولكن يتبــادر إلى ذهننا كأهل «هــل نحن عنيفون و عدوانيــون» حتى يصبح طفلنا أو المراهق في بيتنا عدوانياً أو عنيفاً تجاه نفسه وتجاه الآخرين؟!

– كثير مــن الأهــل إذا رؤوا في طفلهم سلوكاً إيجابياً يردونه إلى أنه يشبههم عندما كانوا صغاراً، وأنهم كانوا مطيعين كأطفالهم، وأنهم كانــوا متفوقين مثــل أطفالهم الآن.

ولكـن! عندما يستنكرون سلـوكاً سلبياً من أطفالهم يتساءلون من يشبه هذا الطفل في سلوكه إنه بعيـد عنَّا لا يشبهنا من أين جاء بهذه الألفاظ أو السلوكيات أو هذا العنف أو هذا العدوان! فيحتار الأهل ولكن نقول نحن نحـب لأطفالنا النجاح والتفـوق والسلوك الجيد ولم ولن نرغـب بأن يكونوا عدوانيين وعنيفـين مع أنفسهم ومـع الآخرين. ولكن علينا كأهـل أن نعرف بأن طفلنا بين أيدينا أمانة «لا إفراط ولا تفريط» في تجميل العالم الـذي نعيشه ويعيشه، فعليـه منذ الطفولة أن يتحمل مسؤولية سلوكـه ويثق بإمكاناته مدفوعاً بالتشجيع حسب طاقاته ومؤهلاته محمـلاً بالتعليمـات الصحيحـة «الحياة فيها الحب والكـره، الجيد والسيئ، العنف والعدوان، المحبة والسلام».

فالعنف يأتي مـن الداخل استجابة وردّ فعل على عنف قادم من الخارج.

ويجـوز للطفل بـأن تكـون نتائج عنفه سلوكاً ليس مباشراً على العنف الموجه نحوه مـن الخارج فقد يسقطه علـى آخرين لأنه واجه عنفـاً في الأسرة مـن الأب، أو واجه عنفاً ما من الأقران..

وكذلك قد نواجه طفلاً يعاني من ولادة «رُهاب» يظهر لديـه نتيجة الحماية المبالغ فيهـا من قبل الأهل فنجـده يخاف من كل



شيء حوله. من الحيوانات، من الغرباء، من الأشياء.. وهذا ما يعوده على أن يكون جباناً عندمـا يكبر. فاقـداً للشهيـة، مدمناً على المخدرات. وحتى الانتحار أحياناً.

– إذن المبدأ العام للعنف هو لجوء الناس إليـه بغية حل النزاعات بينهم حول مصالح معينة وهـذا ينطبق على مملكـة الحيوان كلهـا. تلك التي لا يستطيـع الإنسان فصل نفسه عنها، لكن مما لا شك فيه أنه بالنسبة للإنسان تحدث أيضاً صراعات في الرأي قد تصل إلى أعلـى درجات الاختلاف تقتضي

منـــه أسلوباً آخر لحلهـــا فيلجأ إلى العدوان والعنف «السيادة لمن يملك القوة» هذه القوة مطلوبـــة أثناء الحروب فيجب أن تنمَّى عند الشباب لضمان وجودنا. لأنه برأيي هذا حق والحق الجديد أو العدالة الجديدة لا بد لها من تحقيق شـــرط سيكولوجي. هذا الشرط هو أن تكون وحدة الأكثرية ثابتة ودائمة. إذ لـــو أن الوحدة تحققت فقـــط بغية مواجهة فرد مسيطر واحد ثـــم ألغيت بعد هزيمته، فسيكـــون الأمر وكأن شيئـــاً لم يكن، ذلك أن أول من يجد في نفسه القوة الكافية سيسعى مرة أخرى لفرض هيمنته عن طريق العنف وستتكرر اللعبة ذاتها إلى ما لانهاية. من هنا كان لا بد للجماعـــة من أن تُدعم باستمرار وأن تنظـــم وأن تضع الأنظمـــة التي تتوقع مسبقاً خطر التمرد، ولكي يتم التغلب على العنف يجـــب أن ينتقل إلى وحـــدة أكبر من الفرد وهـــذه الوحدة يتحقق تماسكها بقيام روابط عاطفية بين أفرادها.

إذ من المؤكد أن الطفل والمراهق العنيف تحـــدّرا من أسرة تغشّـــى في سلوك أفرادها العنـــف سواء أكان العنـــف فيزيائياً «بسبب إدمـــان الكحـــول» - الذي يـــؤدي إلى عنف لاحق. كالضرب مثلاً أو حتى التسبب بالإيذاء والجـــروح - أو عنفاً أخلاقيـــاً كالنزاعات الأسرية «الطلاق مثـــلاً» والتي تشوش بيئة الطفل وتسم سلوكه بالعنف، فهذا ما يجعل سلوك الطفل في حالة من التحفز الداخلي الجاهـــز يستخدمـــه عند الضـــرورة. فإذا واجهنـــا مشكلة إمَّا أن نسلك العنف ونواجه المشكلة أو أن نكبتـــه في أعماقنا ولكن هذا لا يعني أن العنف مات في داخلنا إنما أُجِلَ. ومتى أصبح الجو ملائماً له خرج على شكل ردات فعل عنيفة ومفاجئة.

- والتـــي نقول عنهـــا في بعض الأحيان أنها تراكمـــات انفعالية مكبوتة ونائمة حتى يظهر الوســـط الملائم لها فإنها ستخرج إما مقبولة أو غـــير مقبولة أي أحياناً قد تظهر انفعـــالات لا تتلاءم مـــع الموقف الذي نحن بصدده «فنقـــول الشعرة التي قصمت ظهر البعير».

«العنـــف لـــدى الكبير والصغـــير يتبدّى في حركـــة جسميـــة كرد فعـــل دفاعي ضد الآخر».

فالولد الذي حرم من أمه صغيراً سيكون رد فعله حرمانها منه وسيُسعد عندما يراها تبكي حزينة لبعده عنها فيتلذذ هو بذلك في حالة دفاع عن النفس.

فالمراهقون غالباً ما يقسون على أهلهم وذواتهم هرباً من أشياء كانت مكبوتة لديهم منذ صغرهم لم يستطيعوا أن يعبروا عنها أو يخرجوا بها مـــن دائرة اللاوعي واللاشعور

نتيجة فقدان العاطفة، الإحباط، الفشل، السخرية، عدم الثقة..

وهكذا يصبح أحياناً أطفالنا المحبوبون ظاهرياً ضمن العائلة مطبعين «ممثلين» لهذا السلوك، مراهقين كريهين في الخارج، يتفجر عنفهم المكبوت المتأخر. تجاه أناس غير أهلهم. وأحياناً تجاه ذواتهم، فيغدون محبطين، انتحاريين. وتشير الإحصاءات إلى أن نسبة الانتحار بين المراهقين تتجاوز كل حالات الانتحار في المراحل العمرية المختلفة.

إن أخطاءنا في تربية أطفالنا تجعلهم ضعفاء في تحديد هويتهم إذ تقتصر عندهم الأنا الضعيفة على «أنا= إحساس بالذات والمكانة بين الآخرين» ولكنهم بالمقابل يملكون هذا «الليبيدو من العنف الغريزي» بسبب هذا الاهتمام المبالغ به بالتغذية، والشراب، والمنافع المباشرة، لنجد أمامنا بالنتيجة، مراهقين يتحولون إلى العنف والتعدي. إذ يقوم أحدهم بالقتل من أجل قميص، أو سيارة، أو فتاة يحبها. أو الخنق من أجل محفظة..إلخ.

- إن هذا العنف الحالي، هو عنف هؤلاء الذين لم يتمكنوا من التعبير عن أنفسهم بشكل مثقف، وما زالوا سجناء غريزة التملك المشحون بها وجدانهم، فقد حلَّ الاستهلاك المباشر محل الانفتاح على العالم وعلى الآخر وعلى الخيال وعلى الثقافة، وعلى التصعيد الذي يعوض النقص، واجتاحت الحملات الدعائية منازلنا و«أنانا» و«الأنا الأعلى» وتشوهت نفوسنا بحب ذاتنا لدرجة الخطورة «أنا وبعدي الطوفان» وشكلت من الأفراد خطراً كبيراً بعيداً عن كل القيم والأصول والأنظمة. وهذا ما يعده العالم بالحضارة التي تمتاز بخاصتين هما الأكثر أهمية: تقوية الفكر الذي بدأ يحكم الغرائز نفسها وحيويتها وتذويت «أي إضفاء الصبغة الذاتية على الدوافع» بكل ما لذلك من حسنات وأخطار لاحقة، الحرب الآن هي في حالة تعارض تام مع الموقف النفساني الذي فرضته علينا العملية الثقافية ولهذا السبب نحن مضطرون لأن نعترض عليها، إذ لا يمكننا قط أن نتحملها وهذا ليس رفضاً فكرياً وعاطفياً وحسب فنحن المناصرين للسلام، لدينا نفور بنيوي أساسي من الحرب أو إذا جاز القول فرط حساسية متضخم إلى أكبر درجة والحقيقة يبدو وكأن انخفاض المقاييس الجمالية في الحرب يلعب دوراً في اعتراضنا عليها أصغر بكثير من الدور الذي تلعبه فظاعات الحرب وأهوالها.

لكن كم ينبغي علينا أن ننتظر إلى أن تصبح بقية الجنس البشري محبة للسلام

أيضاً؟! لا جواب على هذا السؤال. بيد أنها قد لاتكون طوباوية منا أن نأمل في أن يؤدي هذان العاملان أي الموقف الثقافي والخوف المبرر من عواقب الحرب في المستقبل إلى وضع نهاية لعمليات شن الحروب ضمن فترة زمنية قصيرة، وإذا كنا عاجزين عن تخمين المسالك الرئيسية أو الفرعية التي قد يتحقق بها هذا، إلا أن الأمر الوحيد الذي نستطيع قوله: إن كل ما يعزز نمو الثقافة والحضارة يعمل في الوقت نفسه ضد العنف والعدوان.

لماذا أكون عنيفاً؟

إذا تحدر الأطفال من أسر متساهلة في التربية لسبب أو لآخر، هل تعلمون أنكم بتصرفكم هذا سوف تؤهلون أطفالاً، يتهيبون المواجهة ويتهربون منها، أطفالاً انهزاميين يضعفون أمام الأخطار ويهربون من مواجهتها، وربما لجؤوا إلى المخدرات وبدون ضجة تُجمد فيهم الحياة، وقد تودي بحياتهم.

أمّا إذا تحدر الأطفال من أسر قاست الكبت والحرمان فباتوا يعطون أطفالهم بلا حدود وهذا حال معظم العائلات اليوم فإنكم تعدون للحياة أطفالاً منطويين يعجزون عن الدفاع عن أنفسهم. إذ إن أهلهم كانوا يلبون لهم كل طلباتهم بسهولة ويسر دون أي مواجهة أو ممانعة.

هذان النمطان يؤديان إلى النرجسية عند الطفل منذ ولادته «كل سلوكاته يستجيب لها الكبار لإرضاء ذاته».

- الشقاق بين الأهل.

- الغيرة وخاصة عند قدوم طفل آخر في وقت لم يحل فيه الطفل بعد مشكلته بشأن مكانته في الأسرة «فيغدو ملكاً مخلوعاً عن العرش»، فلذلك نجد عنده العنف ضد أخيه أو أخته. بضربه أو سحبه لتركه يسقط، فهو بنظره «الكائن العدوّ له». فقد أخذ مكانه في الرعاية والحب والاهتمام، فأحياناً يضع الوسادة على وجهه. يلعب معه بقسوة. يعنفه باللفظ، يصرخ بوجهه. وأحياناً قد يكون لعبه معه مؤذياً. فالمكانة الاجتماعية لدى الطفل والبالغ تلعب دوراً هاماً في نظرته لذاته.

- الإحباط: إن وجود الإحباط يؤدي إلى شكل من أشكال العدوان وانطلاقاً من المشاهدات اليومية فإن الفشل الدائم والرسوب والتخلف الدراسي والنظرة الدونية لأعمال الفرد والسخرية الدائمة كلها تشعر الفرد بأنه لا قيمة له. ولذلك يشعر بالإحباط وهذا ما يؤدي إلى أن يعنف نفسه والآخرين:

- أريـد أن أصبح أنا، ما أنا عليه وليس ما رسمه لي أبي وأمي.

من منّا كأهل لا يطمـح بأن يصبح ابنه راشـداً ناضجاً كبيراً يعتمد على نفسه يبني حياتـه؟ من منّا لا يحب لابنه أفضل الحياة والأيـام السعيدة البعيدة عمَّا عاناه وواجهه مـن مشكلات أياً كان نوعهـا؟ ولكن هناك كثـيراً من المراهقـين الذين تربـوا وهم لا يريـدون أي تواصـل أو حـوار أو قرب من أهلهم وذلك إما لأسباب نفسية أو اجتماعية أو اقتصادية، يريدون الاستقلال فهم دائمو التنكـر والبعـد والجفاء عن جـو الأسرة، متخبطون حياتهم، تسود الفوضى أفكارهم وسلوكهـم وغرفهم، وهذا ليس لسبب وجيه إنما ليثبتـوا لأهلهم عكس مـا يحبون بأن حياتهم ملكهم وحدهم ولا يريدون لأحد أن يتدخل فيها لا بالترغيب ولا بالترهيب فهم أصبحوا شباباً ناضجين يعرفون ما يريدون وما لا يريـدون لهم فلسفتهـم الخاصة في الحياة عليهم احترامها وتقبلها كما هي.

ولكنهـم مع ذلك نجدهـم تارة مطيعين لأهلهم وتارة ضدهـم. فهم في حال متقلبة بين الأوامر والنواهي. وتارة يريدون الحياة وهم سعداء وأحياناً أخـرى تعساء يريدون المـوت. تـارة يفهمون الناس وتـارة لا أحد يفهمهم.

أيهـا الأهل لا تخافـوا من صد المراهق لكم. ولا من كلماته الجارحة، ولا من رفضه الانصيـاع لأوامركم. حافظوا على هدوئكم عنـد مفاجأته لكم بالغضب أو بترك المائدة دون سبب أو بتصرفات غير اعتيادية.

ستراقبـون تصرفه عندما يمـزق كتبه أو دفاتـره محاولاً التحرر مـن القيود، لأنه يمر بمرحلة مخاض أليـم يتكوّن فيها «أناه الأعلـى» ولكن مـاذا يفعل وسيـف الكبار مسلط عليه مملوء بالمحظورات والممنوعات. طبعـاً سيحـاول المراهق كسر هـذا الطوق ليتحـرر مـن سلطتكم. وفي الوقـت نفسه سيجـد نفسـه عارياً هشـاً، سريع العطب، وبالتـالي عنيفاً في النهايـة، ولذلك سيجد خلاصـه في هذه المرحلـة العصبية، باحثاً عـن الأمان بالانضمـام إلى القطيع، قطيع أقرانـه مـن المراهقين الذيـن يعانون مثل الذي يعانيه. إذ إن هنـاك دلالات واضحة علـى أن تهجمـات الوالدين علـى المراهق تـؤدي إلى المزيد من السلوك العدواني وهي إن الوالدين اللذين غالباً ما يهدّدان الطفل ويلوحان له بأسوأ العواقب إن هو عصاهما يكون الاحتمال معهمـا أكبر في تنشئة أولاد عدوانيين أكثر مما لـو كانا من النوع الذي نادراً مـا يهدد. والوالـدان اللذان يكرهان ويرفضان أولادهما الاحتمال معهما أكبر في

تنشئة أولاد عدوانيين. ولذلك ينشأ المراهق وفي شخصيته حقد وكره على الجميع والعالم يعني له بيئة خطرة ومعادية، ومنه ينشأ عنده اعتقاد بأن العدوان والعنف هما طريقه إلى العالم.

نخلص من القول بأن الأهل لهم الباع الأكبر في تقبل المراهق لذاته وللآخرين ولكن نؤكد لكم بأنكم لستم مسؤولين بالكامل عن هذا العنف، فهو ليس مسؤوليتكم وحدكم، هو نتاج مركب، معقد، طويل العهد، فكم من خبراء نفسيين، وقضاة، ومربين، اتسم سلوك أولادهم بما يكرهون، فأنتم لن تتمكنوا من شفاء الندوب المزمنة، لكنكم لن تعدموا الوسيلة فعن طريق الوعي والمحبة والصبر نصل للمبتغى.

وأخيراً نقول بأن هناك أسر تبالغ في طلباتها من المراهق ويتراوح ذلك بين اختلافات مدهشة بين الأسر في هذه الطلبات. ففي بعضها يفرض الوالدان طلبات قاسية على ابنهما من أجل امتثاله وخضوعه، (ينظف غرفته- يقوم بالمهام الروتينية بالمنزل- يدرس- يطيع الأوامر- أن يكون مؤدباً- لا يغضب- يمتثل لكل الأوامر والنواهي وبسرور من قبله)- أما في أسر أخرى فلا يطلب الوالدان هذه الدرجة العالية من السلوك المؤدب. إنهم في بعض الحالات يتجاهلون المراهق وفي حالات أخرى يطلبون مستويات عالية من الأداء في ميدان من الميادين (مثلاً ارتداء ملابس نظيفة)- لكنهم يعطونه حرية تامة في الميادين الأخرى (سلوكه في الصف).

نخلص من هذا إلى القول بأن هناك أسراً تراقب كل صغيرة وكبيرة عند المراهق بينما أسر أخرى لا تقوم إلاّ بالقليل من الإشراف على الطفل. أو لاتشرف البتة. والنتيجة أن الاحتمال بأن ينشأ أطفال غير عدوانيين ممن يخضعون لإشراف دقيق أكبر بكثير.

إذاً في النهاية نقول: إن الحوار والنقاش والصبر وغرس بذور للديمقراطية تشوبها خيوط، خيوط من الديكتاتورية عندما يتطلب الأمر. مدعومة بالمحبة والأمان والثقة والدعم المعنوي وتعويد ابننا المراهق على الاستقلالية دون أن نفرض آراءنا جاهزة بعد الاقتناع برغبة من قبله بهذه الآراء، وإعطائه الوقت الكافي لتوزيع وقته بين الدراسة والنشاطات التي يمارسها «لكل وظيفة وقتها» حسب طاقاته وإمكاناته وأن لا نحمله فوق طاقته.

وأقول للوالدين «اصبروا فإن الله مع الصابرين». وسوف يأتي الوقت الذي يشعر فيه المراهق بأن والديه هما الكنز الذي أخذ منه ثمرة حياتهما ليصبح بدوره رجل المستقبل.

المراجع

- سيكولوجيا العدوان: «فرويد لورنز ولترز سيرز ميلر». ترجمة: عبد الكريم ناصيف.

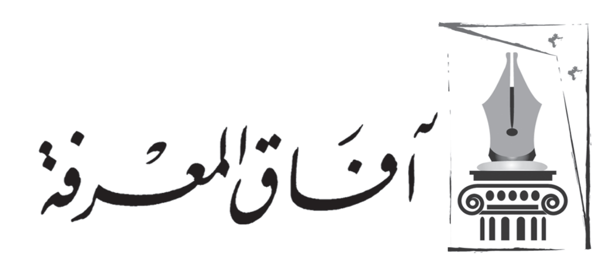
- علم الشذوذ النفسي، د.علي سعد، كلية التربية، ١٩٩٣م- ١٩٩٤م.

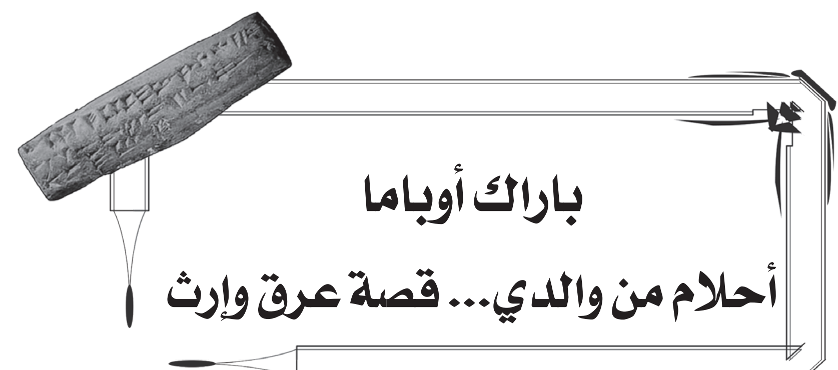
- علم النفس العيادي، محمود ياسين عطوف، دار العلم للملايين، ١٩٨٦م.

- الأمومة نحو العلاقة بين الطفل والأم، سلسلة عالم المعرفة (١٩٦٦م)، المجلس الوطني للفنون والآداب، الكويت ١٩٩٢م.

- مستقبل العلاج النفسي، معالم علاج نفسي عام، كلاوس غراوه/ روث دوناتي، ترجمة: د.سامر جميل رضوان، ١٩٩٩م.







باراك أوباما

أحلام من والدي... قصة عرق وإرث

ترجمة: هبة الله الغلاييني*

يعدّ هذا الكتاب سيرة ذاتية للرئيس الأمريكي «باراك أوباما» وهو مرجع حقيقي في فهم طبيعة علاقات زنوج أمريكا فيما بينهم، وعلاقتهم بالمجتمع الأمريكي ككل. وهو خلاصة تجربة لرجل أسود أمريكي وبسيط، استطاع أن يتحدى الصعاب ويخترق

الحواجز، ويثبت للناس أجمع أنه بالإرادة والتصميم، يمكن للإنسان أن يحقق حلمه، ويثبت ذاته، بغض النظر عن أصله وفصله وعِرقه ودينه، كما أن هذا الكتاب يكشف عن براعة هذا الرئيس المتواضع بالكتابة والرواية

* باحثة ومترجمة سورية.

وسرد الأحداث ببساطة ووضوح، ومهارة وحذق وهي مهارة أخرى تُضاف إلى مهاراته السابقة.

ونلمس في هذا الكتاب الروح الحلوة الشفافة للرئيس «باراك أوباما»، وشدة ثقته بنفسه وإخلاصه لذاته، وصدقه لبني قومه، من الزنوج، وكفاحه من أجل تخليصهم من ذل العنصرية والطبقية. فهو الرئيس الأسطورة الذي استطاع أن يرفع من شأن الأفارقة السود، ويعيد لهم ثقتهم بإمكاناتهم وإبداعاتهم، وإنسانيتهم، ويجعل العالم كله يعيد النظر مليّاً في مسألة التمييز العنصري وأنه لا فرق بين أسود وأبيض إلا بالعمل والعمل الجاد الصادق من أجل بناء مستقبل واعد وآمن للبشرية جمعاء.

يروي (باراك) قصة وضعه لهذا الكتاب فيقول إن فكرة إصداره ظهرت لدي لأول مرة عندما كنت في مدرسة الحقوق بعد انتخابي كأول رئيس لـ «هارفرد لوريفيو» وهي أول نشرة دورية غير معروفة خارج نطاق المهنة. وتلت ذلك الانتخاب عدة مقالات صحفية. واتصل بي عدد من الناشرين. ولما كنت أعتقد أن لدي ما أقوله حول العلاقات العرقية فقد وافقت على أن أخصص فترة سنة بعد التخرج كي أسجل أفكاري على الورق.

في السنة الأخيرة من مدرسة القانون (الحقوق) بدأت أنظم في ذهني بثقة كيف سأضع هذا الكتاب. ستكون هناك مقالة عن حدود الحقوق المدنية، والمساواة العرقية. وقد ضمنت بعض النوادر الأدبية، وتحليل مصادر بعض العواطف. وبصورة عامة كان الكتاب رحلة ذهنية تخيلتها عن نفسي.. تناوبتني أفكار كثيرة. تذكرت القصص التي كانت ترويها أمي وأبواها عندما كنت طفلاً.

قصص أسرة تحاول أن تشرح نفسها.. تذكرت سنتي الأولى في شيكاغو وخطواتي المتعثرة نحو الرجولة.

أصريت على أن أقدم ماضيّ في كتاب، ماض تركني أشعر بأنني منكشف وخجول بعض الشيء لا لأنه كان ماضياً مؤلماً بل لأنه يتحدث عن تلك الجوانب من حياتي التي تناقض العالم الذي أشغله.

أعمل محامياً فاعلاً في الحياة الاجتماعية والسياسية في شيكاغو، المدينة التي تعودت على جراحها العرقية وتفخر بأنها تفتقر إلى العاطفة. كنت قادراً على محاربة المزاج الكلبي، ومع هذا، أحب أن أفكر في نفسي كحكيم في هذا العالم، وحريص على ألا أتوقع الكثير.

مع هذا فإن ما يُؤثر فيّ كثيراً عندما أفكر

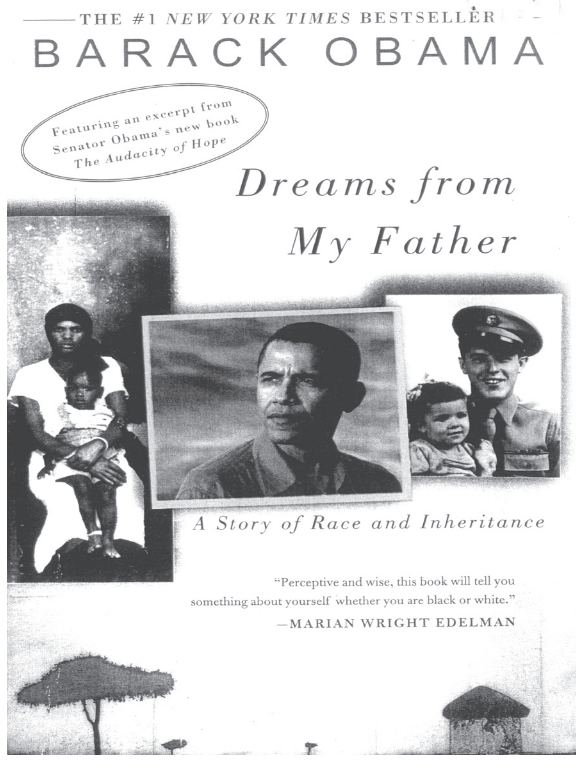
في قصة عائلتي ضرب من البراءة تبدو غير قابلة للتخيل حتى بمقاييس الطفولة. ولكن ابن عم زوجتي قد فقد هذه البراءة، فقبل عدة أسابيع قال لوالديه إن بعض زملائه في الصف قد رفضوا أن يلعبوا معه لأنه أسود.. ومن الواضح أن والديه - اللذين ولدا في شيكاغو وغراي وكبرا فيهما فقدا براءتهما منذ زمن طويل، فإنهما لم يكونا متعصبين – كلاهما كان قوياً وفخوراً وواسع الحيلة كأي والدين عرفتهما. كان أحدهم يسمع الألم في صوتهما عندما يتحدثان عن انتقالهما من المدينة التي يغلب عليها السكان البيض، وهي نقلة قاما بها لحماية ابنهما من احتمال أن يصيبه إطلاق نار من قبل عصابة ما، أو لا يجد مدرسة يمكن دفع تكاليفها.

كانا يعرفان الكثير، نحن جميعاً رأينا الكثير جداً، رجل أسود وامرأة بيضاء، أفريقي وأمريكية وبالنتيجة كان بعض الناس يجدون صعوبة في تقبلي. وعندما كان يكتشف بعض الناس من بيض أو سود خلفيتي (وهذا اكتشاف حقاً لأنني كنت أمتنع عن إعلان عرق أمي في سن الثانية عشرة أو الثالثة عشرة عندما بدأت أشك أنني بهذا كنت أتملق البيض) كنت ألاحظ أنهم ينظرون في عيني من أجل علامة فارقة.

إنهم لا يعرفون من أنا بعد. وعلى نحو منفرد كانوا يخمنون من خلال قلبي المضطرب، والدم المختلط والروح الممزقة والصورة الشبحية لمُوَلَّد (خلاسي) بين عالمين. والأسوأ من ذلك أنني أبدو كمن يحاول أن يختفي من نفسه.تعلمت منذ زمن طويل ألا أثق بطفولتي والقصص التي صاغتها. ولم أستطع أن أُقيم هذه القصص إلا بعد سنوات عديدة. وعندئذ فهمت أنني أمضيت الكثير من حياتي أحاول أن أعيد كتابة هذه القصص، وأعدل التفاصيل غير المرغوبة من أجل أن أضع أرضية صلبة يستطيع أن يقف عليها أولادي الذين لم يولدوا.

أستطيع أن أعتبر تجربتي معبّرة إلى حدٍّ ما عن الرجل الأسود الأمريكي وتجربته. أستطيع أن أعبّر عن تجربته ولكنني لا أدّعي أنني أجسّدها. ولا أدعي أنني تجنبت كل الأخطاء بنجاح. الحوار بين الشخصيات الواردة في هذا الكتاب هو بالضرورة مقارب لما قيل فعلاً أو نقل إليّ. إنها حوارات أناس عرفتهم عن قرب. ولابد أن أشير إلى أن أسماء الشخصيات المعروفة التي ورد ذكرها في الكتاب قد غُيِّر معظم أسمائها من أجل المحافظة على خصوصيتهم.

مــا حاولت أن أقوم به هو كتابة نصــ أمين عــن حياتــي. وبالتالي فأنــا أشكــر كل مــن ساعدني في تحرير الكتــاب، ويجدر أن أذكر أن الشخصيــات التي يــرد ذكرها في هذا الكتاب هــي شخصيات أناس عرفتهم. أمــا ترتيب الأحداث فقد جاء وفق ترتيب تاريخي دقيق.



يتحدث الرئيس (باراك أوباما) في بدايــة الكتــاب عــن نشأته في نيويــورك في حــي هــارلم، في شقة صغــيرة متواضعــة. كان صغيراً في تلك الأيام. وهو يروي هنا علاقاته مع جيرانــه، ومعظمهم من الزنوج، وإن كانت علاقته مــع ذوي البشرة البيضاء جيدة. كان يتحدث عن كل جيرانه بالتفصيل، وكيف تآلف مع كثيرين منهم. كان يتحدث عن عاداتهــم وصلاتهم، وتعاطفهم فيما بينهم. وقد يكون في هذا بعض الإطالة، ولكنه يريد أن يعكس ويصور بدقة حياة هذه الطبقة الفقيرة في بيوتهم وفي تعاملهم فيما بينهم. كمــا يتحدث بالتفصيــل أيضاً عن أسرته وطبائع وعادات أفرادها، والعلاقات الحميمــة بينهم. ويحكي كيف أن والده كان أول زنجــي في الحي يلتحق بجامعة هاواي. ولم يفت المؤلف بالطبع أن يتحدث بالتفصيل عن طبيعة العلاقــات التي كانت قائمة بين الزنوج الذين يشكلون أكثرية في ذلك الحي. ونكتشــف أن له أقرباء من أصول عربية من الزنوج الذين استوطنوا في الولايات المتحدة منذ عشرات السنين.

يتعمــق الكاتب في ســرد تفاصيل حياة الزنوج فيمــا بينهم وطبيعة حياتهم في هذا الفصل وفي بعض الفصول التالية مما يجعل هذا الكتــاب مرجعاً حقيقياً في فهم طبيعة علاقات زنوج أمريكا فيما بينهم، وعلاقتهم بالمجتمــع الأمريكــي ككل. ولم يفته بالطبع

أن يتناول بعض حالات التمييز العنصري (ضد الزنوج)، ويحاول أن يبيّن أسبابها. ولا يفوته بالطبع أن يتحدث عن علاقات إيجابية وطيبة بين كثيرين من الأمريكيين البيض والزنوج.

كما لم يفت المؤلف أيضاً أن يتحدث طويلاً بالطبع عن تعرّفه على أمريكية بيضاء والتي أصبحت زوجته فيما بعد.

ثم ينتقل المؤلف ليصف إدارة ريغان الفاسدة، ويطالب بتغيير مزاج البلاد.

ويرى أن التغيير لا يأتي من علٍ، بل يأتي من القاعدة الفاعلة: وهذا ما سأفعله، سوف أعمل على تنظيم الفئات الزنجية. ولسوف ينضم إلي أصدقائي من سود وبيض بحماسة في أفكاري. حب المبادرة من جانبي في هذا النشاط. كان القيام بعمل تنظيمي جزءاً من نشاط بدأه والدي ووالده من قبل، وأمي ووالديها، ومن ذكرياتي في أندويسيا بشحاذيها ومزارعيها. سأبتعد عن الشعارات من أجل أن يحل محلها تصورات جدية. هذه التصورات أصبحت كالصلاة بالنسبة إليّ وغيّرت عواطفي بطريقة يعجز الكلام عنها.

لقد رأيت أن المجتمع الأفريقي-الأمريكي يصبح أكثر من مجرد مكان تُولد فيه، وتنمو فيه.

ومن خلال التنظيم، والتضحية المشتركة تكتسب العضوية. هذا المجتمع الذي حلمت به كان ما يزال قيد التكوّن، قائماً على الوعد بأن المجتمع الأمريكي الأكبر ما يزال قيد البناء، مبنياً على الوعد بمجتمع أمريكي أوسع يضم البيض والزنوج والملونين، ويستطيع أن يحدّد نفسه.

تلك كانت فكرتي عن التنظيم. كانت وعداً بالإصلاح والتجديد. وكتبتُ إلى كل منظمة للحقوق المدنيّة خطرت في بالي، وإلى كل زنجي منتخب في البلاد لديه أجندة تقدمية، وإلى جمعيات حقوق الإنسان.

ولم يكن يصبني الإحباط إذا لم يجب أحدهم.

أما عن العمل فإن كثيرين، كما يقول المؤلف، كانوا يشتغلون في الوظائف والأعمال المتواضعة نسبياً التي كانوا يجدون آباءهم يشغلونها. كثير منهم كانوا سعاة بريد، أو سائقي باصات، أو معلمين.

مستفيدين من القوانين المحاربة للتمييز العنصري في القطاع العام. ومما لا شك فيه أن أوضاع الزنوج باتت أحسن. وهم يشعرون كم تغيرت الأحوال خلال خمسة عشر عاماً. إنهم يحافظون على بيوتهم، ويحافظون على أولادهم.

ويتحدث (أوباما) عن زوجته، كيف

تعرف إليها وكيف أحبها. تحدث في البداية عن هجرة أسرتها من كينيا وكيف أقامت في الولايات المتحدة، وكيف كانت علاقاتها مع الأصدقاء والجوار. كما يتحدث عن ولديهما وكيف ملأا عليهما حياتهما. لم تكن تلك الفترة من حياتهما يسيرة بل كانت مليئة بالمصاعب.

تمثّل ميشيل أوباما، المولودة في أسرة متواضعة كانت تعيش في إحدى ضواحي شيكاغو الفقيرة إرث أمريكا السوداء في عائلة أوباما التي تشكّل «عمودها الفقري» بحسب تعبير زوجها باراك.

عاشت ميشيل أوباما طفولة صعبة، خلافاً لباراك أوباما الذي نشأ في هاواي في كنف أسرة والدته البرجوازية البيضاء.

وميشيل روبنسون، المولودة في ١٧ يناير/ كانون الثاني ١٩٦٤، ابنة موظف في البلدية مصاب بمرض التصلب العصبي المتعدد، نشأت في حي ساوث سايد الأكثر فقراً في شيكاغو في منزل من غرفتين وكان أحد أسلافها عبداً، على عكس أوباما المولود من أب كيني، أتى إلى الولايات المتحدة لإتمام تحصيله الدراسي.

وأراد «أوباما» بزواجه من أمريكية من أصل أفريقي أن يرسّخ جذوره في المجتمع الأسود عن قصد أو عن غير قصد. إنها «ميشيل روبنسون»

وتفوقت «ميشيل» في المدرسة، ويروي أحد أساتذتها السابقين أنها كانت ترفض ممارسة الرياضة، لأنها.. سوداء وطويلة القامة» حيث يبلغ طولها (١٨٢) سنتيمتراً.

ونجحت «ميشيل» في الالتحاق بجامعة «برينستون» العريقة، ثم دخلت كلية الحقوق في جامعة «هارفرد». وخلال هذه الفترة مرّت «ميشيل» بأزمة هوية.

تقول ميشيل: «كنت أشعر أحياناً بأنني زائرة في الجامعة ولا أنتمي إلى هذه الأوساط. ومهما كانت علاقاتي بالبيض، فغالباً ما يكون انطباعي بأنني في نظرهم سوداء أولاً وطالبة ثانياً. ولدى عودتها إلى شيكاغو، أصبحت «ميشيل» محامية في مكتب إدارة أعمال، حيث تعرّفت في عام ١٩٨٨، إلى من سيصبح زوجها.

وقد روى «باراك أوباما» لقاءهما الأول، مشيراً إلى أن «ميشيل» قاومت في البداية، قبل أن توافق على مرافقة باراك في الموعد الأول.

وقال باراك: «اشتريت مثلجات، وسألتها ما إذا كان يمكنني أن أقبّلها ففعلت. وكانت القبلة بطعم الشوكولاته».

وتزوّج «باراك» بميشيل في أكتوبر / تشرين الأول عام ١٩٩٢، وتركت ميشيل القطاع الخاص لتعمل في بلدية شيكاغو،

حيث وضعت برنامجاً لتوظيف الشباب، ثم في المستشفى الجامعي في ٢٠٠٢، والذي تولت فيه منصب نائب الرئيس وهي مكلّفة بالعلاقات الخارجية.

وخلال هذه السنوات لم تكن ميشيل تهتم كثيراً بنشاطات زوجها السياسية، التي غالباً ما كانت تبقيه بعيداً عنها وعن ابنتيهما «ماليا» التي ولدت في ١٩٩٨، وساشا المولودة في عام ٢٠٠١.

يتألف الكتاب من تسعة عشر فصلاً وخاتمة. ويقع في أربعمئة وسبع وخمسين صفحة.

آراء حول هذا الكتاب:

«في هذه السيرة الذاتية المعبرة يبحث ابن والد أفريقي وأم أمريكية بيضاء عن معنى عملي لحياته كأمريكي أسود. بدأت هذه السيرة في نيويورك حيث يعلم باراك أوباما أن والده – إنسان يعرفه كأسطورة أكثر من أن يكون رجلاً – قد قُتل في حادث سيارة. هذه الميتة المفاجئة توحي بملحمة عاطفية.

• يصف بطريقة مثيرة ظاهرة الانتماء إلى عالمين مختلفين، وبذا فإنه لا ينتمي إلى واحد منهما.

مراجعة الكتب – نيويورك تايمز.

• يقودنا أوباما بسلاسة وهدوء وتبصّر مباشرة إلى مسائل جدّية للغاية حول الهويّة، والطبقة والعِرق».

عالم الكتاب – واشنطن بوست.

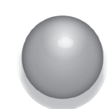
• واحد من أهم الكتب عن اكتشاف الذات.. مكتوب بمهارة وحذق.. ويبدو كرواية.

«شارلين هانتر- جولت، مؤلفة: «في مكاني».





حوار العدد



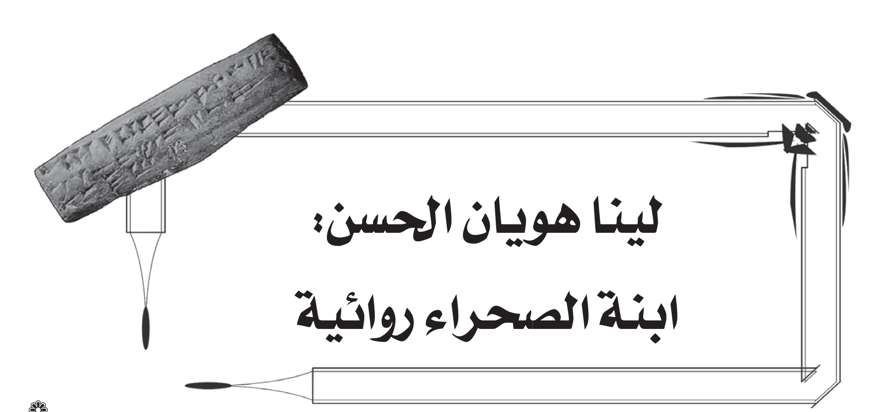
مع لينا هويان الحسن:

ابنة الصحراء روائية

حـــوار: عادل أبو شنب



حوار العدد



لينا هويان الحسن: ابنة الصحراء روائية

إعداد: عادل أبو شنب *

مــع أنها أمضت سنواتها الأولى بين الصحراء والبحر، فقد تمثلت قيم الصحـــراء وتراثها وعنفوانها، وككل فتــاة بدوية، كانت الخيمة بيتها والبادية حياتها، لكنها انصرفت إلى تحصيل العلم، حتى حصلت على ليسانســ في الفلسفة من جامعة دمشق، وراحت تنقل الصحراء كما عاشتها وتعيشها إلى روايات صدرت وستصدر، وهكذا صارت ابنة الصحراء لينا هويان الحسن روائيــة، لرواياتها طعم ونكهة مختلفان عن مألوف الروايات العربية، فهي نسيج وحدها في ذلك.

* أديب وقاص سوري

هذا الحوار الذي دار مع ابنة صحراء تمتد في محافظة حماة السورية، هو أول حوار أجريه مع روائية، جعلت حياتها الصحراوية مادة أدبها الروائي، وهذه الفرادة في النشأة والأدب حملتني على أن أستضيفها في حوار «المعرفة» هذا الشهر:

المولد والنشأة والدراسة:

• يمكن القول بأني ولأجل مصادفة قدرية حظيت بنشأة مخاتلة: عشت ازدواجية البحر والصحراء، طفولتي المبكرة كانت في اللاذقية بحكم عمل والدي وبذات الوقت كنت على اتصال مكثف بالبادية كنت أقضي إجازات طويلة في ضيعتي الغريبة وأعني ما أقول: «ضيعة غريبة» كان لي ضيعة نادرة إنها خليط من بضعة بيوت من الشعر ومجموعة من القباب الطينية المخروطية إضافة إلى عدد كبير من المغائر الرومانية والآثار الدارسة. هناك كانت عوالمي الجميلة التي انخرطت فيها بمتعة خلال الإجازات الطويلة التي كنت أقضيها هناك. مثلاً ألعب مع أولاد عمي لعبة «الطميمة» أو الاستغماية على طريقة البدو. حيث تكون المخابئ في هذه اللعبة: مغارة رومانية عتيقة تعشش فيها طيور الخطاف أو في عتمة قبة طينية عتيقة فتجلس القرفصاء لائذاً بمخبئ معتم فيه لن يعثر عليك أحد وبعد أن تتكشف الرؤية قليلاً ستلمح قريباً منك حية تقرنص على بعد أقل من خطوة أو قد تباغتك هرة غاضبة ولدت حديثاً تظنك تريد بصغارها شراً.

عندما أعود إلى اللاذقية أرافق أبي إلى النادي للسباحة في البحر بشكل يومي تقريباً وتعلمت مبكراً السباحة في وجه الموج. البحر علمني أشياء كثيرة ووقف كأستاذ حاسم إلى جوار أستاذتي السيدة «صحراء»، الصحراء أنثى عاتية شرسة، غامضة.

عشت تلك الازدواجية بمتعة خالصة وبفضلها قدِّر لي أن أعيش طفولة فردوسية متنوعة، ولاحقاً انتقلت مع أهلي إلى الشام وفيها أخذت شهادتي

الإعداديــة والثانوية ودرســت الفلسفة في جامعتهــا واستقرّيت في هذه المدينة العريقة ذات الأبــواب السبعة ومازالت علــى تواصلي المكثف ذاتــه مع ضيعتي التي تقــع في منطقة تعــج بالتاريخ في بادية حمــاة تحديداً قريبــاً من مدينة الأندرين الأثرية الشهيرة هي ذاتها التي ذكرها الشاعر الجاهلي عمرو بن كلثوم في مطلع معلقته الشهيرة:

ألا هبي بصحنك فاصبحينا

ولا تبقي خمور الأندرينا).

ترى أني جئــت من مكان ضار أرض ابتلعــت الكثير من الماضي وفي أحشائها أكــثر من تاريــخ. أينمــا تجولت هناك سيحدثنــي أحدهم عــن معركة دامية حدثت بين قبيلتنا وقبيلة أخرى مثلاً أو أن يقولون لي في هذا المكان قتلنا ضبعاً وفي تلــك الناحية تربصنا بكمين لساقة غزلان..

- ألا تشعريــن بزهــو التفــرد بكونــك ابنــة الصحــراء ومع ذلك درســت الفلسفــة وصــرت روائيــة سورية؟

• ذات مرة عندما كنت مازال طفلة في الروضــة. وزعت علينــا المعلمة لكل طالب كرتونة بيضاء وقالت: فليرسم كل واحــد ضيعته. كنت أنــا أول من انتهى مــن رسم لوحته وحين نظــرت المدرّسة ملياً بلوحتي التي كانت عبارة عن بضعة خطوط عموديــة مرفــوع فوقها شيء أفقي لم تفهمه وقبل أن يتأكد لها ميولي السورياليــة التي شكــت إلى بوجودها عنــدي نسفت لهــا كل توقعاتها عندما قلت لها: هذا بيت شعر وهذه ضيعتي.

الصحراء أو الباديــة رغم منظرها الأول المقفــر إلا أنها بالغة الثراء، أرض مرصعة بالذاكرة والماضي هناك حضوره قوي حاسم حديدي ينزلق نحوك ويورط خطوك ولا يمكــن أن تكون حيادياً قط مع التاريخ للصحراء شفافيتها الخاصة وسراباتها الأزلية فكلمة سراب بالنسبة للحضــر لا تعدو كونها مفردة رومانسية يتداولونها بأشعارهم وبكلامهم دون أن يكون عملياً أحد منهم رآه وراقبه طويلاً كما حدث معــي. فأكثر ما أثار فضولي

في باديتي هو السراب. حين يلمع كحكاية خيالية ويشكل لك طلاسم مثيرة لا تدرك باللمس لكنها تخبئ رؤية ما ويمكنك أن تستشرف مكنونات مستقبل يراوغك كثعلب.

والفلسفة عززت فضولي السالف وساهمت في مضاعفة أسئلتي الكثيرة وفتحت عيني على عوالم رائعة ما كنت لأحظى بها لولا أني درست الفلسفة وبالمناسبة نسبة كبيرة من أهم أدباء العالم درسوا الفلسفة.

- لاحظت في روايتك الأخيرة «بنات نعش» اعتزازك بقبائليتك وبكونك ابنة الصحراء السورية ولاحظت إتقاناً لافتاً بلغتك العربية فإلى أي منطلق تنسبين هذا الاعتزاز وهذا الإتقان؟

• إنه التاريخ أنا كائنة ذاكراتية كبرت بين أقاربي البدو وأنا أسمع لهجتهم البدوية المنسابة البليغة والهادئة والقريبة من اللغة العربية الفصحى- وهنا يجدر بي أن أذكر بأن اللهجة البدوية هي بعيدة



عن تلك اللهجة الساذجة والمشوهة التي نسمعها في المسلسلات البدوية الدرامية السطحية والمليئة بغباوات وسخافات المخرجين والكتاب والممثلين الذين لم يعرف أي منهم البدو على حقيقتهم تخيل مثلاً البدوية وهي تحمل جرة!! البدو لم يستعملوا قط الجرار أو الفخار لأنها ثقيلة وتتهشم بسرعة كانوا يحملون ماءهم ومؤونتهم بجلود الحيوانات المدبوغة- وأعود إلى الحديث بشأن اللغة

وأقول بأنني تعلمت اللهجة البدوية على أصولها حتى لا يهزأ أقاربي البدو من لهجتي الحضرية وهذا ما اعتادوه وهم يمازحونني ويقلدون كلماتي الحضرية وكلما تعرفت عليهم أكثر كلما زاد تعلقي بالروح البدائية النبيلة والنادرة التي يمتلكها عرب الصحارى طبعاً هذا الكلام لا ينطبق عليهم حالياً بعد أن تحضروا -للأسف- وتشوهوا بأكاذيب المدنية وتعلموا حب المظاهر. البدو الذين أحكي عنهم هم الذين عرفتهم في طفولتي وذلك أواخر الثمانينيات حيث سجلت التسعينيات مرحلة حاسمة حين عاد أبناء البدو من الاغتراب وجيوبهم ملآنة بالمال وبنوا قصورهم الفاخرة وحلت سيارات المرسيدس والجيمس نهائياً بدل خيولهم الغابرة.

وروايتي «بنات نعش» هي بنتٌ لذاكرتي الصحراوية حيث حكايا الحب والدم والثأر وشخصيات قدرية شجاعة كان لا بد أن أكتب عنهم يوماً.

- في الوقت الذي تتسابق فيه روائيات إلى مناخ روائي شاذ تبرزين أنت كروائية تصون الموروث والأصالة والشموخ هل هذا صحيح.. لماذا؟

• الأديب هو إنسان أولاً وآخراً وتنطبق عليه مقولة (الإناء ينضح بما فيه) فإذا كان غيري قد عبر عن أبعاده الشخصية ودواخله خلال أعمال روائية تحفل بالشذوذ وإلى ما هنالك من قباحات منتقاة عن عمد على ما أظن لأسباب شخصية مبهمة إضافة إلى افتعال ما يسمى اختراق التابو؟! وأنا أيضاً أكتب عن المواضيع التي تعبر عني بشكل أو بآخر.

بكل الأحوال لغيري حرية التعبير عن دواخله وعن نفسه أما أنا لا يمكنني أن أحيد عن منطقي الصحراوي فلا أكتب كلمة دون أن يتدفق عسل ذاكرتي عسل تحاذيه الأساطير وحكايات كثيرة كيف أمحي من ذاكرتي كل تلك القصص التي سمعتها تدور من حولي خيول تثير

الغبار أينمـــا تحركت. رغم أنني عرفت العشائر في مراحلها الأخيرة من البداوة فلم أحظَ برؤية فرس جدي لكن حظيت بمرافقة البدو الذين ينطبق عليهم قول الشاعر العربي «شم الأنوف من الطراز الأول» وهم يركبون خيولهم المعدنية مثل سيـــارات الشفروليه والجيـــب بأنواعها وهم يلاحقون الأرانب والإوز ويرصدون عبور طير حـــر لعله يمـــر مصادفة في سمائهم. حيث عايشت تحولهم من بدو نصف رحل إلى بـــدو مستقرين نهائياً. لدي مخزون هائل مـــن التراث الشفهي والحكائي.

- عـــددي لي الروايـــات التـــي كتبتهـــا، نشـــرت أم لم تنشـــر، مـــع موجزات عنها.

• روايتـــي الأولى كانـــت «معشوقـــة الشمســـ» كتبتها وكنت مـــا أزال طالبة على مقاعد الجامعـــة. وفي عام ٢٠٠٠ طبعـــت طبعتها الثانيـــة في دار طلاس وتحكي سيرة أمير بدوي شهير. وبعدها صدر لي كتاب توثيقي عن البادية بعنوان «مرآة الصحراء» الكتاب مصور وصدر عن دار الشمعة ولاحقـــاً جاءت روايتي التروس القرمزية رواية تاريخية متخيلة تجري أحداثها بين المملكتين السوريتين القديمتين «إيبلا وماري».

وبعدهـــا في ٢٠٠٤ كانـــت روايتـــي «التفاحة السوداء» تدور حول رسالة حب طويلة يرسلها عاشـــق إلى محبوبته بعد سنين طويلة من الغياب. وبعدها أصدرت كتاباً لا يتجاوز الثمانيين صفحة عنوانه «أنا كارنينا- تفاحة الحلم». وهو كتابٌ فلسفيٌ إن صح التعبير فيه دراسة حول الألم والانتحـــار. وبعدهـــا روايتي «بنات نعش» التي طبعت ثلاث مرات في ظرف أقل من ثلاث سنـــوات. في هذه الرواية استلهمـــت التاريخ العشائـــري لباديتي الشام والعراق في مطلع القرن العشرين وتبـــدأ الرواية بحادثة قتـــل الكولونيل لجمـــن في خان النقطـــة في العراق. في الروايـــة تناولـــت قصص حـــب وبذات الوقت وثقت لمرحلة تاريخية في ماضي العشائر يوم انصب عليهم اهتمام الرحالة

والمستشرقين والجواسيس ليعرفوا نقاط ضعف الإنسان العربي وليعرفوا من أين تؤكل الكتف فالعشائر كانوا الممر الذي يقصده الضباط لتفجير المنطقة ولتأليبهم على بعضهم البعض لإشغالهم عن النصر الذي حققه العرب بعد قدوم الملك فيصل إلى دمشق وتحرير المنطقة من الأتراك. روايتي بنات نعش رواية معها عرفت نكهة النجاح ومعنى أن يحبك الناس لأنك كتبت أدباً جميلاً لهذا مازلت أتأنى قبل إصدار عملي القادم لأنني أريده استثنائياً لخاطر الناس الذين أعجبتهم بنات نعش وكما تعرف إن بنات نعش هو اسم لمجموعة نجوم في السماء يسميها البدو كذلك لأنها مكونة من سبع نجمات في السماء يقول البدو أنهن يحملن نعش أبيهن ويحمن حول نجم الجدي – نجم القطب – ويطلبن الثأر لأبيهم وبذات الوقت يظهر نجم سهيل مضرجاً بالحمرة لهذا يقول البدو مثل شهير «الذابح سهيل والمتهوم الجدي» مثل يقال عنك عندما تبحث عن الحقيقة في المكان الخطأ.

– عشت في الصحراء وعشت في المدينة فهل يتصالح هذا التضاد عندك وكيف؟

• ليست المسألة مسألة تصالح إنما مسألة «احتيال» احتلت على منشأي المزدوج وجذري الصحراوي البحت. تعلمت من الصحراء أكثر مما تعلمته من المدينة كل ما جئت به معي من الصحراء استثمرته في اختراق المدينة. أظنني أول من قدم النص الصحراوي اخترقت مدينة الرواية السورية وقدمت نصي الصحراوي بكامل كثبانه وبواديه وقفاره وعجاجه ونخيله وشوكه وخيوله وطيوره الحرة.

عبرت المدنية والحضرية من بوابة الكبرياء الصحراوي الأزلي حملت كامل تراثي خطواتي موصولة مع جذوري المتشعبة تخيل كم هو صعب هذا الأمر أن تمشي وأنت تسحب معك جزء من بطن الصحراء؟ صعب ولكنه ممتع فعلت ذلك بمتعة وعشق. ولجت دمشق كنخلة وعلى الجميع أن ينظر إلى فوق ليرونني.

– تعملين في الصحافة وقد رأيت شيئاً من عملك فيها فلماذا اتجهت إلى الصحافة ولم تتجهي إلى تدريس الفلسفة. هل ذلك لتبقي قريبة من المناخ الثقافي أم لماذا؟

• الصحافة هي التمرين اليومي لقلمي، الصحافة هوايتي ورياضتي المفضلة. أحب الورق: الجرائد، كتب، مجلات، جئت الصحافة بمحض الصدفة لم تكن شيئاً مارسته عن سابق تخطيط أبداً إنها قدري الجميل الذي وضع في طريقي لتكتمل لعبة الكتابة فالصحافة تتطلب متابعة يومية لما يحدث في العالم سياسياً وثقافياً واجتماعياً واقتصادياً تضعني على تماس يومي مع القلم .

– ما هو رأيك بالحركة الأدبية النسوية، وعلى تعتبرينها مستقلة عن الحركة الأدبية بعامة؟

• لا بدّ أن أقول بأنني متحررة لكنني لست من دعاة النسوية؛ لأنها موضة قديمة ومستوردة وحملت لافتات مغرقة بالاستفزاز لمجتمعات شرقية مترعة بالتقاليد والموروث الذي لا يمكن تغييره بين يوم وليلة كما يزعم ويريد الأدب النسوي الذي لم يحقق حضوراً أدبياً حقيقياً. فقط المسألة انحصرت ببضعة مقالات مجاملة للكاتبة المرأة وليس لأدبها، واجتماعياً ظل هذا الأدب نخبوياً ولم يكن مقنعاً قط للناس أو حتى جاذباً لهم بل إن البعض يعتبرون كاتباته مرفوضات اجتماعياً وبرأيي الشخصي إن أبشع شيء يقدمه الأدب لصاحبه أن يكون منبوذاً اجتماعياً ومستهجناً وحتى في الوسط الثقافي النخبوي الأدباء «الرجال» يقولون شيئاً ويكونون شيئاً آخر أمام الكاتبة (النسوية) ويمدحون «انفلاتها الأخلاقي» واستهتارها بأنوثتها بذريعة التحرر وطبعاً هذا فهم خاطئ للتحرر وذاتهم هؤلاء الأدباء الرجال ينعتون بأحقر الصفات حين يدرن ظهورهن لهم. (ببساطة) المثقفون –معظمهن– يقولون مالا يفعلون وأنا شخصياً رأيتهم مع صاحباتهم

–ومعظمهم كاتبات نسويات– ولَسْنَ زوجاتهم. (ببساطة) الحركة الأدبية النسوية قاصرة وساذجة ومفتعلة.

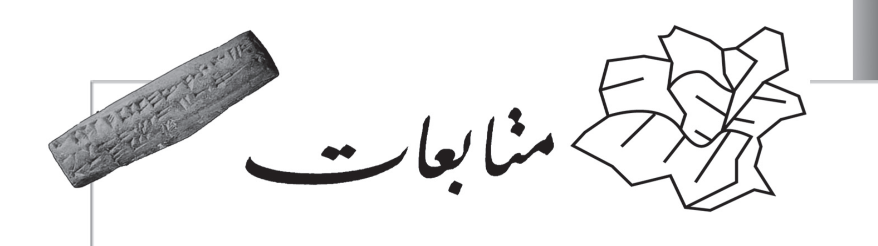
– من هم الأدباء السوريون الذين تقرأين لهم وما رأيك بنتاجاتهم؟

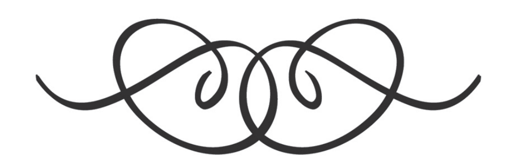
• قرأت للأدباء الغربيين أكثر من العرب أو المحليين لكنني طبعاً قرأت حنا مينه وزكريا تامر وأتابع جديد فواز حداد.

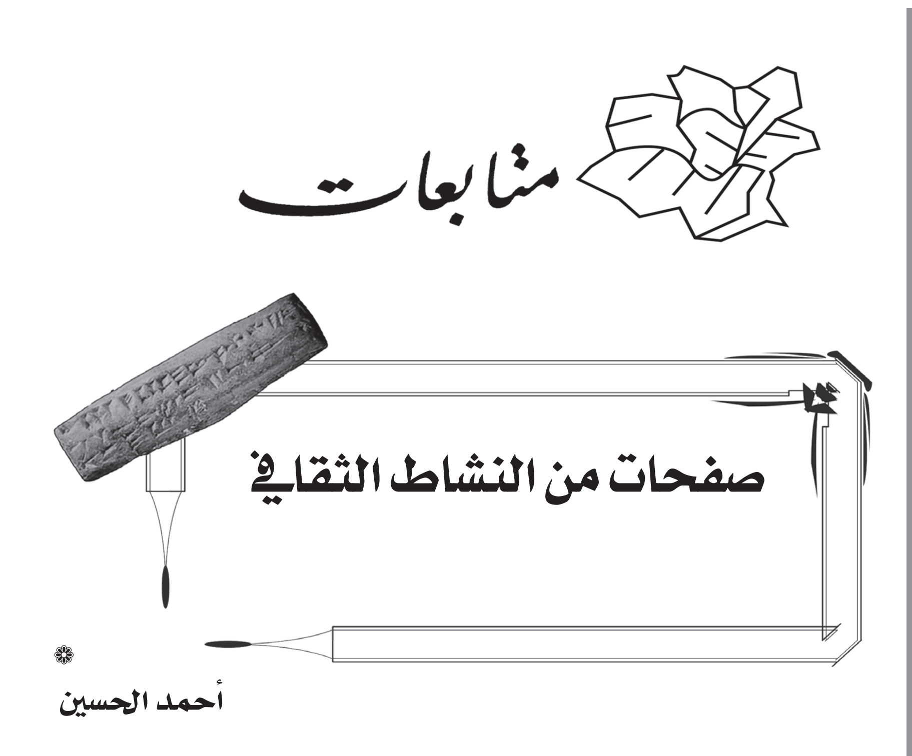
– ما هي مشاريعك الروائية والأدبية في المستقبل أم أن الزواج سينهي هذه الطلة الأدبية

• لن أقدم على زواج لا يكون دافعاً لتجربتي الأدبية ومشاريعي الأدبية كثيرة في المستقبل وطموحاتي كبيرة سأظل الصحرواية التي تعلمت من السراب تقنية اللعب والتعريش على الآفاق وصنع قصوره ومردته وكل تلك الجماليات الأزلية التي دوخ فيها البشر.




متابعات





❁ أحمد الحسين

التمكين للغة العربية:

في إطـــار الاهتمام الذي توليه سورية للحفاظ على اللغة العربية وتعزيز دورها ومكانتها على الصعـــد الثقافية والعلمية والتعليمية والإعلامية، أكد الدكتور محمود السيد رئيس لجنة التمكين للغة العربية أن اللغة العربية هي المقوم الأساســي لقوميتنا العربية والموحدة للعـــرب رغم جراحات التجزئة العميقة وذلك بسبب حيويتها ومرونتها وخصوبتها وقابليتها للتجدد وللتطور

❁ أديب وباحث في التراث العربي (سورية)

مع مختلف العصور التي مرت بها الأمة العربية.

وأشار السيد إلى الاهتمام الذي توليه القيادة السياسية باللغة العربية والتشجيع على انتشارها سليمة في جميع الصعد والمجالات، رمزاً لوجودنا وانتمائنا وكياننا القومي ووسيلة لفهم تاريخنا وعقيدتنا ومسيرة حضارة أمتنا، مشيراً إلى أن لجنة التمكين للغة العربية التي شكلها السيد الرئيس بشار الأسد عام ٢٠٠٧ لإنجاز خطة عمل وطنية تستهدف التمكين للغة العربية والحفاظ عليها والاهتمام بإتقانها والارتقاء بها تتابع حالياً خطوات العمل التي وضعتها وقطعت أشواطاً مهمة في مجال عملها.

وأوضح السيد أن لجنة التمكين قامت بإحداث لجان تمكين في الوزارات المعنية وفي المحافظات وإلقاء محاضرات في مجال التوعية اللغوية في المراكز الثقافية والجامعات والنقابات والأندية والجمعيات إضافة إلى عقد دورات تدريبية للعاملين في بعض الوزارات والمحافظات لتدريبهم على استعمال اللغة العربية السليمة وأسلوب التراسل وإجراء مقابلات ولقاءات إذاعية وتلفزيونية ونشر زوايا صحفية ومقالات في مجال التوعية اللغوية وإسهام بعض الجمعيات الأهلية والمنتديات في عملية التوعية اللغوية.

من جانبه بيّن الدكتور سهيل الملاذي عضو لجنة التمكين للغة العربية أن اللغة العربية تتعرض لكثير من التحديات وخاصة في التاريخ المعاصر وأن محاولات كثيرة جرت لإحلال العامية محل الفصحى لكنها فشلت ولا تزال المحاولات مستمرة وهي محاولات مشبوهة غايتها تهديم الأمة بتهديم لغتها، مستعرضاً طبيعة هذا الصراع وتلك المحاولات منذ نهاية القرن التاسع عشر وحتى الآن، مشيراً في الوقت ذاته إلى أن اللغة العربية استطاعت أن تكتب تاريخ العالم والتراث العربي بلغة سليمة وقويمة بما تتمتع به من مرونة وقدرة على الاشتقاق فهي قادرة على أن تمارس دورها الحقيقي وتتصدى لكل التحديات التي تستهدف طمسها والإقلال من أهميتها.

وتركزت مداخلات الحضور حول أهمية اللغة العربية وضرورة تكريسها في وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية وفي الإعلانات والمسلسلات وكافة المراسلات وغيرها إضافة إلى أهمية تنمية لغة الطفل منذ مراحل الدراسة الأولى ومتابعة ذلك على مدى المراحل الدراسية والجامعية وفق استراتيجية واضحة ومدروسة.

ما تجدر الإشارة إليه في هذا المجال أن القمة العربية في دورتها العشرين التي انعقدت في دمشق عام ٢٠٠٨ تبنت الاقتراح السوري بإيلاء اللغة العربية اهتماماً ورعاية خاصة باعتبارها وعاء للفكر والثقافة العربية ولارتباطها بتاريخنا وثقافتنا وهويتنا، حيث أكدت توصيات القمة على ضرورة الاهتمام باللغة العربية والنهوض بها، ودعت إلى ضرورة تبني سياسات لغوية تلتزم التعليم باللغة العربية، ودعم حضورها في الشبكة العالمية للمعلومات وفي الوسائل السمعية والبصرية، وطالبت بتنمية اللغة العربية في ارتباطها بالتنمية الاقتصادية، وتنمية مجتمع المعرفة والالتزام باستخدام اللغة العربية في المحافل الدولية، وشددت على دور الدول ومسؤولية المجتمعات في استخدام اللغة العربية لغة رسمية في مختلف الميادين المعرفية والثقافية والحياة العامة، والأنشطة الفنية والإعلامية والإعلانية.[1]

العربية تشكو قومها:

على صعيد متصل وفي مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية ألقى الدكتور أحمد عبد الله فرهادي محاضرة: اللغة العربية في مواجهة التحدّيات.

وتناولت المحاضرة أسباب انحسار الاهتمام باللغة العربية في موطنها، فيما يعلو شأنها في الغرب يوماً بعد يوم، والإقبال الكبير من جانب الطلبة في الولايات المتحدة على متابعة دراستها، بدعم من وزارة الخارجية الأميركية وتشجيع منها، من خلال المنح التي تقدّمها الوزارة للراغبين في متابعة دراسة اللغة العربية في بلدان عربية أو إسلامية.

وأشار المحاضر إلى أن موافقة الرئيس الأميركي باراك أوباما على إجراء مقابلة مع «قناة العربية» كان لها وقعها على المشاهدين في الولايات المتحدة، باعتبارها القناة الأولى التي انفردت بالحوار مع الرئيس الجديد، حيث أسهمت كتابة التعليقات على الموضوعات المنشورة على صفحات الإنترنت، خاصة مقابلة الرئيس أوباما مع القناة، في زيادة نشر الكتابة باللغة الفصحى.

كما أشار إلى أن اللغة العربية الفصحى انتعشت وتوسّعت رقعة استخدامها عبر الفضائيات التي أتاحت لمشاهديها ومستمعيها فرصة التواصل المباشر معها عبر الهاتف من شتّى أرجاء المعمورة، موضحاً أن اللغة العربية الفصحى لم تعد لغة المناسبات الرسمية ولغة المحاضر والخطيب والمذيع الذي يقرأ نشرة الأخبار فقط، بل تعدّتها

إلى لغة يتكلّمها الفرد العادي، ولكن صواب هذه اللغـة يعتمد على مدى دراية المتحدّث بما فيها من نحو وصرف.

وقـارن فرهادي بـين الإقبـال الفاتر على دراسة لغة الضـاد وتدريسها في العالم العربـي، والإقبال الكبير علـى دراستها في العـالم الغربي، فقد تضاعـف عدد طلاب الجامعـات الأميركيـة الذيـن يقبلون على دراستهـا، وارتفع العـدد بنسبة ١٢٧٪ منذ خمس سنوات، علماً بأن تدريس اللغة العربية إلزامي في معظم أقطار العالم العربي، فيما يختارها طلاب الجامعات والمدارس الثانوية في الولايات المتحدة بمحض إرادتهم.

وأوضح المحاضر أن اللغة العربية دخلت لائحة اللغات العشر الأكثر دراسة في الولايات المتحدة، على الرغم من صعوبة تعلّمها مثل اللغات الأخرى كاليابانية والصينية والكورية، إذ تعـدّ ذات «صعوبة استثنائيـة» بالنسبة للناطقين باللغة الإنكليزية، ولا يختلف الأمر كثيراً من وجهة نظره في كندا وبلدان أوروبة الغربية، مما يبعـث على الدهشة والمفارقة العجيبة بـين عالمين ينحسر اهتمام الشباب باللغـة العربيـة في أحدهما وهـو موطنها ومهدها، بينما يعلو شأنها ويتواصل الإقبال والتهافت عليها باطراد في الآخر.(٢)

أيام الفرانكفونية في دمشق:

شهـدت دمشـق انطلاق فعاليـات أيام الفرانكفونيـة في سوريـة ٢٠٠٩ بتنظيـم ورشـة عمل كتابة ومعرض للملصقات حول عشـر كلمـات للتعبير عن الغـد من خلال كتابـة قصيـدة باللغة الفرنسيـة يستوحى موضوعهـا من التعريـف الفضائي لإحدى هذه الكلمات.

وقد قامـت لجان تحكيم محلية باختيار ومكافـأة ثلاثـة رابحين مـن كل مدينة ثم ترسل الأعمال إلى المركز الوطني للدراسات الفضائيـة وذلك في كل من دمشق وحمص، ودعا مركز التوثيق التربوي بدمشق الطلاب الناطقـين بالفرنسيـة في دمشـق وحمص واللاذقيـة وحلـب إلى المشاركة في مسابقة الجاذبيـة الشعريـة التي ينظمهـا المركز الوطني للدراسـات الفضائية انطلاقاً من إحـدى الكلمات العشر المعتمـدة في أسبوع اللغة الفرنسية.

وكانـت قد افتتحـت في محطة الحجاز القديمة بدمشق فعاليات أيام الفرانكفونية في سوريـة للعـام ٢٠٠٩ بحضـور ممثلي سفـارات بلجيـكا وكندا وفرنسـا والمغرب ورومانيـا وسويسـرا وتونـس والمؤسسات الثقافيـة والجامعيـة الفرانكفونيـة في سورية.

وقال ديرك م. لونك سفير بلجيكا بدمشق في كلمة له خلال حفل الافتتاح: إن حب اللغة الفرنسية ليس غريباً على أصدقائنا العرب المعروفين بحبهم للغتهم الأم، وأضاف أن الفرانكفونية هي أكثر من مجرد لغة إنها ثقافة وحضارة، ودليل ذلك هو برنامج أيام الفرانكفونية الغني الذي سيقام في سورية الذي لا يمكن حصر فعالياته في أسبوع، مشيراً إلى أن مفهوم الفرانكفونية الحضاري يعتمد على الالتزام بالتنوع الثقافي والحوار ويركز على مبادئ التنمية والتضامن والتعاون.

من جانبه قال ميشيل دوكلو سفير فرنسا في دمشق: إن الروابط التي تجمع بين الشعبين السوري والفرنسي تنبع من القلب والمراكز الثقافية تسهل مثل هذه الروابط ومنها المركز الثقافي الفرنسي بدمشق، وأضاف أن الأيام الفرانكفونية فرصة مناسبة جداً لتقاسم مشاعر الحب بين الفرنسيين والسوريين وجميع الشعوب التي تتكلم الفرنسية مشيراً إلى أن الشعب السوري يكن حباً كبيراً للغة الفرنسية وتعلمها لهذا السبب ستحظى جميع التظاهرات الثقافية التي تنظم في إطار أيام الفرانكفونية من معارض ومسرح وغيرها بقبول شعبي وجماهيري كبير.

بدوره قال مارتن أوشباكر السفير السويسري بدمشق: إن خصوصية أيام الفرانكفونية في سورية تأتي من أن سورية ليست عضواً في المنظمة الفرانكفونية لكن هناك الكثير من الناطقين باللغة الفرنسية في سورية إضافة إلى أن الشعب السوري ميال للثقافة الفرانكفونية.

وتضمنت فعاليات الأيام الفرانكفونية في نشاطات غنية تتنوع بين إقامة معارض وعرض أفلام ومسرحيات وحفلات غنائية وورشات عمل ومسابقات ومحاضرات وغيرها، يشار إلى أن أيام الفرانكفونية التي تحتفل بها كل عام دول أعضاء المنظمة الدولية للفرانكفونية هي مناسبة لتعريف الجمهور بالغنى الثقافي للفرانكفونية عبر تظاهرات ثقافية وفكرية مرتبطة باللغة الفرنسية وبالثقافة الفرانكفونية حول العالم. (٣)

الانكليزية تتحدى الفرنسية في معقلها:

على صعيد مواز تشير بعض المعطيات أن اللغة الإنكليزية تقدمت خلال العقود الأخيرة في لبنان فأزاحت اللغة الفرنسية عن عرشها في بلد يعتبر معقل الفرانكفونية في الشرق الأوسط.

وأكد في هذا المجال أستاذ الأدب الفرنسي في جامعة البلمند الخاصة البروفسور جورج دورليان أن لبنان على المستوى الثقافي ما يزال يعتبر بلداً «فرنكوفونياً»، لكن اللغة الفرنسية كأداة تواصل هي التي تراجعت لمصلحة اللغة الانكليزية، وأشار دورليان إلى أن الإقبال على الجامعات التي تعتمد اللغة الانكليزية ازداد منذ سنوات عديدة وأن أنظار طلاب المدارس الفرنكوفونية نفسها موجهة إلى الجامعات الأميركية، لافتاً إلى أن اللغة الانكليزية تعني بالنسبة للطلاب وأهلهم المستقبل وتسهل الدخول إلى ميادين العمل المستقبلية.

يذكر في هذا الجانب أن المدارس اللبنانية التي تعتمد اللغة الفرنسية لغة ثانية تشكل من حيث العدد ما نسبته نحو ٦٠٪ من مدارس لبنان، لكن عدد طلابها في تراجع مستمر خلال عشر سنوات من ٧٣٪ إلى ٦٢٪، وفق أرقام المركز التربوي للبحوث والإنماء التابع لوزارة التربية، ويقول دورليان «في الماضي، ارتكبت مدارس البعثة العلمانية الفرنسية خطأ بتهميشها دروس اللغة الانكليزية، فكانت النتائج كارثية، لكن هذه المدارس ذاتها تعطي حالياً في لبنان مكانة مهمة لتدريس اللغة الانكليزية».

ويقر مستشار التعاون الثقافي في السفارة الفرنسية في بيروت دنيس غايار بأن «شريحة اللبنانيين» الذين يتكلمون اللغة الفرنسية دون سواها في طريقها إلى الاندثار، مشيراً إلى جهود تبذلها السفارة الفرنسية. ورغم ذلك، فإن اللغة الفرنسية تتراجع في وسائل الإعلام وفي الإعلانات والموسيقى والسينما وخصوصاً على شبكة الانترنت، لافتاً إلى أن اللغة الانكليزية لها حضور أكبر في هذه المجالات،حيث تقدر نسبة اللبنانيين الذين يتكلمون اللغة الفرنسية - جيداً أو بشكل أقل جودة - بنحو ٣٨٪، فيما يتكلم خمس هذه النسبة ثلاث لغات.

وتبلغ نسبة الشباب العامل الذي يتمكن جيداً من اللغة الفرنسية ٣٧,٥٪ مقابل ٣١,٤٪ يتكلمون جيداً اللغة الانكليزية، وفق دراسة نشرتها عام ٢٠٠٣ جامعة القديس يوسف الفرانكفونية وعنوانها «دخول الشباب اللبناني إلى ميادين العمل والهجرة»، وفي المقابل، يرى البعض أن وضع اللغة الفرنسية في لبنان ليس وضعاً ميئوساً منه. [٤]

شيكاغو أفضل رواية عند الإماراتيين:

بعد أكثر من ٥ آلاف ترشيح، تلقتها شركة

أبــو ظبي للإعلام، فــازت رواية «شيكاغو» للكاتــب المصــري عــلاء الأســواني بلقب «الروايــة المفضلة في الإمــارات». وتفوقت «شيكاغو» على روايات عالمية ذائعة الصيت مثل «المليونير المتشرد» و«شيفرة دافينشي».

وقال أحــد الفائزين بجائــزة تصويت الجمهــور: إنه قام بترشيــح رواية شيكاغو للأســواني بعــد أن شاهــد فيلــم «عمارة يعقوبيــان» للكاتب نفسه، مــا شجعه على قراءة روايــة شيكاغو، واصفــاً إياها بأنها رواية عظيمة، وأنها من الروايات الهامة وقد تمت صياغتها بعنايــة ورُسمت شخصياتها بدقة متناهية.

وتعرض رواية «شيكاغو» لعلاء الأسواني صورة المصريين في مدينة شيكاغو الأميركية والانقسامات الثقافية التي يواجهونها، وقد تمكن محبو القــراءة من التصويت لروايتهم المفضلــة مــن قائمــة تضمنــت ٤٠ كتاباً اختــيرت وفقاً لأرقام المبيعــات في المنطقة واستطلاعــات الرأي. كمــا أتيحت أمامهم فرصــة ترشيح روايتهــم المفضلة من خارج القائمــة، من خــلال مــلء التفاصيل على الموقع الالكتروني الخاص بالمسابقة.

أمــا رواية ألف شمــس رائعة لصاحبها خالــد الحسيني التي فــازت بلقب الرواية المفضلة باللغة الإنكليزية فإنها تتحدث عن مجموعة من الأحداث المتقلبة في أفغانستان خــلال الثلاثين عاماً الماضية، تبدأ أحداثها من الغزو السوفياتي مــروراً بحكم طالبان وانتهاء بإعادة الإعمار مــا بعد طالبان، إذ تتعرض الرواية لنــواح إنسانية لسكان هذا البلــد الذين يعيشون بــين العنف والخوف والأمل والإيمان.

وقالت فيدا رزق، كبيرة مسؤولي التسويق في شركة أبوظبي للإعــلام «إن البحث عن الروايــة المفضلة في الإمــارات شيء عظيم يــدل علــى أن الناســ جزء لا يتجــزأ من الأجندة الفنية والثقافية للعاصمة أبوظبي. كمــا أن الروايات الفائزة تعطي فكرة رائعة عن ما يفضله الناس من القراءات، كما تؤكد سعي منظمي معرض أبوظبي للكتاب لجعل المدينة مركزا للنشر والثقافة في المنطقة».

ووصفــت كلوديــا كايزر، المديــر العام لشركــة «كتاب» معرضــ أبوظبــي للكتاب بالمعرض الأضخم لهذا العام، وقالت: «نحن سعداء للمشاركة الواسعة في اختيار الرواية المفضلــة في الإمارات، خاصــة وأن جميع الكتب المرشحــة هي من الأعمــال الأدبية الرائعة وإنه لشــيء عظيم أن يرى المؤلفون كتبهم تنافس لتكون واحدة من أهم المؤلفات في العالم». (٥)

أبـو ظبـي تحـتـفـي بـيـوم الـتراث العالمي:

أكـد محمد خلف المزروعـي مدير عام هيئـة أبوظبي للثقافــة والـتراث أن دولة الإمارات ما تــزال تواصل جهودها الحثيثة في دعم خطط وبرامج منظمــة اليونسكو، وذلك من خلال إنجاز قوائم الجرد المتعلقة بالتراث المعنوي، مشيراً إلى أن الدولة قطعت في هذا المجــال أشواطاً كبــيرة فيما يتعلق بالصقارة وبالعادات والتقاليد الأصيلة عبر تصنيفاتها ومضامينها المختلفة.

وقال المزروعي في افتتــاح ندوة التراث مــن الصــون والتوثيق إلى الترويــج والنقل لأجيال المستقبل، التي نظمتها هيئة أبوظبي للثقافــة والتراث احتفــالاً باليــوم العالمي للتراث، وبمشاركة عدد كبير من الشخصيات الثقافية والفكرية والأكاديمية على المستوى المحلي والإقليمــي والــدولي: إن العاصمة أبوظبــي سوف تحتضــن في سبتمبر/أيلول القادم مؤتمراً دولياً لتقييم ما تم إنجازه في برنامج قوائم الجــرد على المستوى الدولي، بمشاركــة أكـثر من ١٠٠ دولــة من مختلف أنحاء العالم.

ولفت المزروعي إلى أن الاحتفاء اليوم في العاصمة أبوظبي باليوم العالمي للتراث ليس وليد اللحظــة، فأبوظبي تحتفي بتراثها كل يوم وعلى مدار السنة من خلال ما تخططه وتستثمر فيه وتنجزه من مشاريع رائدة وفق أعلى المعايير العلميــة الدولية، وبتوجيهات من قيادتها، وبإرادة مجتمعها الحريص على خدمة ذاكرتــه الجماعية، بما يحمي هويته الوطنية وتطلعاته المستقبلية في إطار ثقافة التسامــح والتحــاور بين الشعــوب، وبدعم قوي من الحريصــين على التراث والمؤمنين بمدلولاتــه الرمزية والثقافيــة الأصيلة من خبراء وباحثين.

وأكـد المزروعي للمشاركــين والحضور أهميــة وضرورة استرجاع القيم النبيلة التي دعا إليها ورسخهــا الراحل الشيخ زايد بن سلطــان آل نهيــان، بهدف حمايــة التراث وصونــه والبحــث فيه، مشــيراً إلى أن تلك الجهــود الكبــيرة، كانت محــل تقدير العالم أجمع بمؤسساتــه الدبلوماسية والأكاديمية والبحثيــة، لافتــاً إلى أن الشيــخ زايد رسم لدولتنــا الفتية بقيادتها الرشيدة منهج حب الــتراث والحرص علــى حفظــه للأجيال الجديدة، مؤكداً أن هيئــة أبوظبي للثقافة والــتراث تواصل اليوم رسم خططها وتنفيذ مشاريعها في إطار إستراتيجية الحفاظ على التراث الثقافي الغني لإمارة أبوظبي.

من جانبه أكد د. ناصر علي الحميري مدير إدارة التراث المعنوي في هيئة أبوظبي للثقافة والتراث خلال افتتاح الندوة العلمية الدولية، حرص الهيئة على أن تتضمن الندوة محورين أساسيين بارزين يحظيان باهتمام دولة الإمارات ومنظمة اليونسكو وكافة المؤسسات والهيئات المعنية إقليمياً ودولياً، الأول نقل التراث لأجيال المستقبل، والثاني محور الحكاية الشعبية.

وقال: إن إدارة التراث المعنوي تسعى من خلال هذه الندوة إلى توسيع مساحة الحوار وتبادل الأفكار بين المهتمين بالشأن البحثي التراثي، خاصة وأن موضوع الصقارة والحكاية الشعبية يدخلان ضمن الجهود المبذولة، والتي وثقت حتى الآن الكثير من الخبرات العريقة وأساليب التكيف الموروثة، إضافة إلى عدد كبير من البحوث التطبيقية التي انطلقت من الجمع الميداني وتصنيف المعلومات.

وكانت فعاليات الندوة تضمنت عدة جلسات عمل، حيث شهدت الجلسة الأولى تقديم أربع أوراق عمل، الأولى حول «التأكيد على تطبيق التراث المعنوي.. من التوثيق إلى النقل» وقدمها فرناندو بروجمان، والثانية تناولت «الترويج للتراث.. نموذج منهاج.. عبدالله الشيخ البشير» وقدمها البروفيسور عبدالله علي إبراهيم، أما الورقة الثالثة والتي قدمتها د. سعاد زايد العريمي فتتعلق بتفعيل التراث ونقله خطوات لأجيال قادمة، فيما تناولت الورقة الرابعة والتي قدمها نايف النوايسة قضية التراث الشعبي العربي الخاص بالطفل ودور الصناعات الثقافية في ترويجه، ثم اختتمت الجلسة الأولى التي أدارتها شيخة الجابري، بمداخلات عامة ومناقشات بين المشاركين.

وشهدت الجلسة الثانية التي أدارها د.نيكولاس فوكس تقديم ورقة عمل حول «الصقارة في الإمارات» وقدمها راشد بن سالم بن فطيمة المنصوري، ثم حلقة نقاشية لثلاثة من المشاركين، حيث تحدث مشاركان من دولة قطر، الأول ناصر بن غانم المعاضيد وتناول جمعية القناصين، وعلي بن خجيم المري وألقى الضوء على القناصين (الصقارين)، ثم كان الختام في الحلقة النقاشية حول الصقارين في تونس، حيث تحدث هشام بن حميدة عن الصقارة هناك، وتم فتح باب النقاش والمداخلات بين الحضور والمشاركين ومقدمي أوراق العمل.

وتم على هامش الندوة العلمية افتتاح معرض روائع الصور واللوحات التراثية، وورشة العمل والمرسم الحر للأطفال والفنانين التشكيليين. (٦)

الفنان الحداد يعلن عن مشروع يحقق الحفاظ على التراث الثقافي:

أعلن الفنان الكويتي عبد العزيز الحداد عن مشروع تمت دراسته لابتكار عمل فني يليق بتحقيق هدف الحفاظ على التراث الثقافي ويتناسب مع مكانة الكويت الثقافية وإمكاناتها الكبيرة.

وقال الحداد: إن المشروع يتلخص في إنشاء وبناء مسرح فولكلوري يدعى «مسرح كويت الحنين» ويهدف إلى عرض مسرحية واحدة ثابتة لا تتغير ومستمرة على مر السنين وتعاقب الأجيال،وأضاف أن المشروع يحتاج إلى دعم ومشاركة كبيرة من جميع جهات الدولة الرسمية وغير الرسمية مقترحاً أن يكون مقر المشروع في القرية التراثية وأن يبدأ أولى عروضه في الأول من يناير عام ٢٠١٣ تزامنا مع احتفال الكويت بمرور ٤٠٠ عام على تأسيسها.

وذكر الحداد أن المسرحية تحمل اسم المسرح نفسه وهو المسرحية الفولكلورية «كويت الحنين» مبيناً أنها ذات قصة تسلسلية تصور أجزاء مهمة من الحياة في الكويت قبل قرن ويصحب أحداثها فنون فولكلورية شعبية وغنائية وموسيقية، قائلاً: إن أحداث المسرحية مبنية على قصة حب شاعرية تنتهي نهاية سعيدة ومحكمة بأسلوب رفيع غني بالتراث الأدبي النثري والشعري يمزج بين كل الفنون الأدبية والشعبية بدءا من احتفالات قدوم المولود إلى إتمام الكتاب ودخول البحر والعودة منه وحتى الخطوبة والزواج، تتخللها أغان شعبية وموسيقى لكل مناسبة وكل الفنون من أغاني أطفال ورقصات العرضة والسامري والزفة وأنواع وأوزان الغناء البحري والبري، وتستعرض أحداث المسرحية مراحل تاريخية مهمة في تاريخ الكويت منها بناء السور والمعارك البرية والبحرية وبيعة الشيوخ والجراد والمطر الغزير والهدامة والطبعة والحرب العالمية الأولى، إلى جانب تسليطها الأضواء على طريقة الحياة الكويتية في ذلك الزمان في المدينة والبادية وتستعرض الأزياء الكويتية الفولكلورية لكل مناسبة كما تستعرض المهن البحرية والتجارية وألقاباً مهنية ومواسم العمل والأطعمة الخاصة بكل مناسبة والأدوات والمواد المستخدمة في الأثاث والطبخ والحياكة والبناء. (٧)

متحف لفن الكاريكاتير بمصر يؤرخ لأجيال من الساخرين:

يسعى الفنان التشكيلي المصري محمد عبلة للحصول على مجموعات كاملة من

الرسوم الكاريكاتيرية لأجيال مختلفة من الساخرين الذين أثروا الصحافة المصرية في القرن العشرين بعد أن أسس أول متحف للكاريكاتير ويقع في قرية تونس بمحافظة الفيوم جنوب غربي القاهرة.

ومتحف الكاريكاتير الذي افتتح أول مارس/ آذار الماضي يعد جزءاً من مركز الفيوم للفنون الذي أسسه عبلة منذ ثلاث سنوات ويطل على بحيرة قارون في الفيوم الواقعة على بعد نحو ١٠٠ كيلومتر جنوب غربي القاهرة.

وقال عبلة: إن المتحف الذي يضم رسوما منذ بدايات القرن العشرين «هو الأول من نوعه في العالم العربي» حيث يضم مجموعة نادرة لأصول رسوم الكاريكاتير في الصحافة المصرية منذ بدايات القرن الماضي.

وصدر عن المتحف بمناسبة افتتاحه كتاب يقع في ٧٢ صفحة يضم مختارات من مقتنيات المتحف لرسامين منهم الفلسطيني زهدي العدوي والكسندر صاروخان المنحدر من أصل أرمني ومن المصريين محمد عبد المنعم رخا «الأب المؤسس لفن الكاريكاتير العربي» وصلاح جاهين وأحمد طوغان الذي اختار له الكتاب رسما تبدو فيه صورة امرأة معلقة على جدار بالقرب من زوجها الذي يقول لصديقه بتأثر «معذور في مبلغ.. الناس اللي خطفوا المدام بيهددوني إذا ما كنتش أدفع لهم ح يرجعوها لي..».

كما يوجد عمل قريب من هذا المعنى لرؤوف عياد الذي يرسم اثنين من المصريين في حالة سخط حيث يقول أحدهما للآخر «مرآتي يا أخي من النوع النكدي» فيرد عليه صاحبه «غريبة.. هو فيه نوع تاني..»..

ومن الأعمال التي يضمها الكتاب رسم لخريطة مصر وفيه يتدلى فرعا نهر النيل من البحر المتوسط ويلتقيان عند القاهرة ثم إلى الجنوب يمتد النهر لكن اثنين من اللصوص الملثمين يسحبان النهر كأنه حبل ليغيرا اتجاهه ويرى طفلان مصريان هذا الأمر فيسأل أحدهما صاحبه «واخدين مصر على فين..»..

وشعار المتحف الذي اختاره عبلة عبارة عن عامل يكنس الأرض وينظفها وفي رسم لعبد الغني أبو العينين يقول عبلة لمذيعة تلفزيونية «رسام الكاريكاتير بيتعامل مع الفاسدين على أنهم زبالة علشان كده اخترت الكناس شعار للمتحف».

وقال عبلة في مقدمة الكتاب: إنه يهدي المتحف «إلى روح الفنان زهدي العدوي» مضيفا أن المتحف فرصة لإعادة الاعتبار

إلى الكاريكاتير «المهضوم حقه» حيث تعامل الرسوم «باستهتار بعد نشرها في الجريدة أو المجلة». (٨)

العرب يكرسون ثقافتهم للمرأة في باريس:

في حفل كبير وبحضور عدد من السفراء العرب تم في باريس افتتاح «أسبوع الثقافة العربية» بحضور جمهور كثيف من البلدان العربية كافة إضافة إلى الفرنسيين الذين توافدوا لحضور الافتتاح الذي شاركت فيه فرق من ١١ بلداً عربياً، تقرر وضع الأسبوع الذي يشهد دورته الأولى هذا العام تحت علامة المؤنث وتكريسه خصوصاً للمرأة العربية من خلال كافة الأنشطة والفعاليات المقدمة.

ويهدف المهرجان الذي يقام برعاية الدبلوماسيين العرب في باريس والقائمين على الشأن الثقافي في البعثات الدبلوماسية إلى التعريف بتنوع وتعددية الثقافة العربية من خلال تقديم أعمال فنية ومعارض تشكيلية وأمسيات موسيقية متنوعة وأفلام روائية ووثائقية.

وقبيل الحفل الفني تم افتتاح معرض «أزياء تقليدية» الذي تضمن أزياء من كل من الجزائر والسعودية ومصر والأردن والكويت ولبنان والمغرب وفلسطين والسودان وسورية وتونس واليمن، أما الحفل الافتتاحي الفني الفولكلوري فأقيم بمشاركة فرق ومغنين كثر تصدرتهم «فرقة رضى» من مصر وفرقة «ادهابلان» الجزائرية التي تجاوب معها الجمهور وفرقة لعازفي الربابة من الأردن وفرقة القدس من فلسطين التي حظيت بتصفيق حاد، وحضرت فرقة لميا صفي الدين للرقص من لبنان بينما قدم غاندي آدم من السودان عزفا جميلا على الناي وحضر ثنائي «صوت الشرق» من سورية الذي أعجب بدوره الجمهور، كما تضمنت فعاليات الأسبوع عروضاً متبادلة بين المراكز الثقافية العربية ومعهد العالم العربي وأمكنة أخرى كما تشمل الأنشطة طاولات مستديرة وندوات إحداها بعنوان «الكتابة بالمؤنث»، ومن ضمن الندوات كذلك ندوة يحاضر فيها أحمد جبار في المركز الثقافي الجزائري وتتناول العلوم عند العرب.

وبهذه المناسبة قدم المركز الثقافي السوري معرضا للفن التشكيلي النسائي المصري بينما قدم المركز الثقافي المصري معرضاً مماثلاً للتشكيليات السوريات، وعرض المركز الثقافي السوري أفلاماً مصرية محورها المرأة مثل «دعاء الكروان» لهنري

بركات مع فاتن حمامة واحمد مظهر، عرض المركز الثقافي المصري فيلم المخرج السوري غسان شميط «شيء ما يحترق».

وشارك المكتب الثقافي لسفارة الكويت في تقديم بعض العروض الوثائقية عن مصر مثل فيلم «مصر تاريخ وحداثة» وشريط «التنورة»، كما قدم فيلم جزائري بعنوان «حدود» للمخرج مصطفى جمجم، ومن الأفلام التي عرضت أيضاً ضمن هذه التظاهرة فيلم «رؤى حالمة» للسورية واحة الراهب وفيلم «حب البنات» للمصري خالد الحجر، وفيلم «الكتبية» التونسي لنوفل صاحب الطابع، فيما نظم في المتحف الوطني للفنون والتقاليد الشعبية معرض يخص الفنون التقليدية في العالم العربي، واختتمت الفعاليات بحفل أقيم في دار بلدية الدائرة الخامسة عشرة من باريس بحضور ومشاركة فرق فولكلورية من مختلف البلدان العربية هي نفسها تقريبا التي أحيت الافتتاح. [٩]

خبراء ينفون أن تكون لوحة «المارد» للرسام فرانشيسكو غويا:

قال خبراء في متحف البرادو في مدريد: إن «المارد» اللوحة الشهيرة التي تنسب إلى الرسام الأسباني فرانشيسكو غويا، رسمها في الواقع تلميذه اسينسيو خوليا على الأرجح.

ونشر المتحف نتيجة أبحاث خبراء استبعدوا أن يكون غويا رسم هذه اللوحة التي ترمز إلى حرب الاستقلال الإسبانية ضد قوات نابليون، وكان الخبراء في المتحف استبعدوا منذ حوالي ستة أشهر، أن يكون غويا رسم هذه اللوحة وقالوا إنهم سينشرون قريباً نتائج أبحاثهم، وقالوا في نتائج أعمالهم إن اللوحة التي وصلت إلى المتحف في ١٩٣١ قبلت وتثير إعجاباً على أنها واحدة من أعمال غويا الحديثة، وفي ذلك الوقت كانت الدراسات المتعلقة بالفنان بالكاد بدأت والمعلومات المتعلقة بتلاميذه ومقلديه قليلة، وبعد سبعين عاما عاد الخبراء إلى الوثائق والأوراق التي سمحت بالاعتقاد أن اللوحة رسمها غويا فعلا، كما قاموا بتحليل الصفات التقنية للوحة وأسلوبها وتكوينها بمقارنتها ببقية أعمال الرسام الإسباني.

وقال الخبراء: إنه عند تسليط ضوء ملائم عليها يتبين فقر التقنية والضوء والألوان وحتى الاختلاف الواضح بين المارد والأعمال الرئيسية التي تنسب بشكل موثق إلى غويا، وكان هؤلاء الخبراء شككوا في ١٩٩١ للمرة الأولى عند إعدادهم معرضاً لغوياً في هذه

اللوحة، وسمح العثور على حرف «آ خ» في أسفل اللوحة بالاعتقاد أن رسام اللوحة هذه اسونسيو خوليا الذي عرف في نهاية القرن الثامن عشر على أنه المساعد الرئيسي لغويا في مرسمه، لكن المتحف قال إنه يجب في المستقبل دراسة الأعمال «المشتتة جدا» لهذا الرسام الإسباني وتلاميذ آخرين لغويا لتحديد من رسم «المارد».(١٠)

توقيع أضخم كتاب وثائقي مصور عن المسجد الأقصى:

شهد معرض أبو ظبي الدولي للكتاب في دورته التاسعة عشرة حفل توقيع أضخم كتاب وثائقي مصور عن المسجد الأقصى لمؤلفه المؤرخ محمد غوشة.

ويتألف الكتاب الذي يعد واحداً من أهم الكتب المطبوعة عن مدينة القدس من ٣٠٠ صفحة من القطع الكبير تضم صورا خلابة عالية الجودة غير منشورة من قبل لكل المعالم الإسلامية القائمة في المسجد الأقصى من تصوير مؤلف الكتاب، الذي أرفق كتابه بصور تشعر المتصفح وكأنه في زيارة شاملة للمسجد الأقصى، يستطيع من خلالها أن يتأمل فيه كل أثر وحجر.

ويتطرق الكتاب ذو الغلاف الجلدي المذهّب إلى المسجد الأقصى المسقوف وقبة الصخرة المشرفة والمصلى المرواني والأقصى القديم والقباب والمآذن والمدارس والزوايا والأسبلة القائمة في المسجد الأقصى، وتعد صوره من أجمل ما تم التقاطه للمسجد الأقصى حيث إنها أخذت من المؤلف أكثر من عام تقريبا وهو يلتقطها بغية أن تنشر ضمن كتابه الذي يعمل على ترجمته إلى اللغة الإنجليزية.(١١)

مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي:

بالرغم من كل أشكال الحصار والتضييق الشديد الذي تفرضه إسرائيل على المجتمع الفلسطيني، ولاسيما المؤسسات التعليمية والتربوية والثقافية، التي لم تسلم من قذائف الدبابات وصواريخ الطائرات الإسرائيلية، وآخر مثال حي عليها هو قصف مدرسة الفاخورة في غزة واستشهاد عدد من طلابها وطالباتها، فقد فازت مؤسسة تامر لتعليم المجتمع الفلسطينية بجائزة «استريد ليندجرين» التذكارية السويدية لعام ٢٠٠٩، والتي تعد واحدة من أكبر جوائز أدب الأطفال والشباب.

وأعلن فوز المؤسسة الفلسطينية بالجائزة في بلدة فيميربي جنوبي السويد، حيث قضت ليندجرين طفولتها، وبذلك أصبحت المنظمة التعليمية الفلسطينية بذلك ثاني مؤسسة

تشجع على القراءة، تفوز بتلك الجائزة التي تبلغ قيمتها خمسة ملايين كرونر (٦٢١ ألف دولار)، وتأسست مؤسسة تامر عام ١٩٨٩، وتعمل في الضفة الغربية وغزة.

ومن المتوقع أن تترأس الأميرة فيكتوريا ولية عهد السويد مراسم تسليم الجائزة في متحف سكانسن المكشوف بالعاصمة ستوكهولم خلال شهر حزيران الجاري، حيث كان عدد المرشحين للجائزة الأدبية لهذا العام، قد بلغ ١٥٣ مرشحاً من ٦٠ دولة مختلفة بينهم مؤسسات تعمل على التشجيع على القراءة.

وأعدت الحكومة السويدية هذه الجائزة عام ٢٠٠٢ تقديراً للكاتبة السويدية استريد ليندجرين التي ابتكرت العديد من الشخصيات الخيالية التي حظيت بشعبية وبينها شخصية بيبي لونجستوكينج، قبل أن توافيها المنية عام ٢٠٠٢ عن عمر يناهز ٩٤ عاماً، ويذكر أن الكاتبة الاسترالية سونيا هارتنيت فازت بجائزة استريد ليندجرين لعام ٢٠٠٨. [١٢]

الندوة السنوية السادسة للآثار - أبو ظبي:

بدأت ي أبو ظبي فعاليات الندوة السنوية السادسة للآثار بعنوان «جيل جديد من الآثار» التي ينظمها مركز زايد للتراث والتاريخ التابع لنادي تراث الإمارات على مدار يومين بمشاركة سورية وعدد من كبار الباحثين والمختصين في التنقيبات الأثرية من مختلف دول العالم.

وقدم الدكتور علي القيم معاون وزير الثقافة خلال هذه الندوة ورقة عمل عرض خلالها تجربة سورية في ترميم وإصلاح الجامع الأموي التي رعاها الرئيس الراحل حافظ الأسد والتي استمرت سبع سنوات شملت أكثر من ١١٠ أعمال، كما قدم عرضاً عن هذه المرحلة والمراحل التاريخية والمعمارية للجامع.

وأكد معاون وزير الثقافة أن جميع هذه الأعمال تمت بكوادر وطنية سورية دون الاستعانة بأي خبرات أجنبية فكانت تجربة رائدة ليس على مستوى سورية بل على مستوى الوطن العربي.

وتم عرض فيلم سينمائي سوري وثائقي عن هذه الأعمال والترميمات من سيناريو وإعداد الدكتور علي القيم.

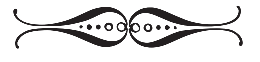
من جانبه قدم الباحث الدكتور محمد محفل أستاذ التاريخ في جامعة دمشق ورقة عمل بعنوان «دور الكتابة الثمودية واللحيانية والصفوية في تطور القلم العربي»

تتـــاول فيها إشكالية أصــول الخط العربي اعتباراً من القرن الرابع وحتى القرن السادس الميلادي.

وتهــدف الندوة التي شـــارك فيها عدد مـــن كبـــار وأهم علماء الآثـــار في عدد من الجامعات والمؤسسات البحثية المتخصصة مـــن مختلـــف دول العـــالم إلى التعرف على أحـــدث النتائـــج واستخلاصـــ المزيد من المعلومـــات عن تاريـــخ الإمـــارات إضافة لمناقشة دور الجامعـــات والمعاهد التعليمية ووسائل التكنولوجيا الحديثة في نشر المزيد مـــن الأبحاث والمزيد من النتائج حول الآثار في المنطقة.[١٣]

إحـــــالات

١- وكالة الأنباء العربية السورية «سانا» WWW.SANA.ORG
٢- موقع ميدل ايست أن لاين WWW.MIDDLE-EAST0ONLINE.CO
٣- موقع العرب أونلاين WWW.ARABONLINE.CO
٤- موقع القناة WWW.ALQANAT.COM
٥- وكالة أنباء الخليج WWW.JAMAHIRIYANEWS.NET
٦- وكالة أنباء الإمارات WWW.WAM.ORG.AE
٧- وكالة الأنباء الكويتية «كونا» WWW.KUNA.NET
٨- وكالة أنباء الشرق الأوسط WWW.MENA.ORG.EG
٩- موقع البوابة WWW.ALBAWABA.COM
١٠- وكالة رويترز WWW.REUTERS.COM
١١- موقع نسيج WWW.NASEEJ.COM
١٢- شبكة المعلومات العربية المحيط WWW.MOHEET.COM
١٣- وكالة الأنباء العربية السورية «سانا» WWW.SANA.ORG





الهجرة إلى المجتمع الرقمي

عرض وتقديم: محمد سليمان حسن ❁

يتمحـــور هذا الكتاب حول مجالات الحاسوب وتقانات المعلومات. يتناول بالتحليل والتعليق طيفاً واسعاً من شؤون الحياة العامة في سورية، من وجهة نظـــر المراقـــب الممحّص الذي لا يكتفي بعرض المشكلـــة، بل يقدم تصورات مختلفة للحلـــول الممكنة. ويتجاوز المؤلف صيغة العرضـــ النظري نحو نقد للمسلمات المألوفة، ويثير تساؤلات تعيد تفكيرنا، وطرق نظرنا لعملنا.

❁ باحث سوري.

وتعتبر سورية في هذا الموضوع مثقلة بمنظومات تشريعية إدارية مالية، على درجة من التواضع في مجال المجتمع الرقمي. وتفتقد إلى العناصر الوطنية العالية الكفاءة والرفيعة المستوى. وقد تصدى المؤلف لهذا الأمر في مجالين: تردي الواقع التعليمي في سورية، وهزال استيعابنا لتقانات المعلومات في العمل الإداري والحكومي والمصرفي.

ويمكننا تلخيص المنطلقات الفكرية لمؤلف الكتاب في عبارة وردت في سياق تحليله لواقع الاقتصاد السوري عندما طرح السؤال التالي: ما الذي يمكن أن نتوقعه من اقتصاد يعتمد نصفه على ناتجه المحلي من النفط، وثلثه من الزراعة، والباقي من صناعات زراعية وثروات باطنية؟ وما هو أفق تحقيق تنمية اقتصادية في ظل عدم إدراك أهمية المركبة التكنولوجية في أي اقتصاد؟ وإلى أي مدى يمكننا جذب استثمارات في مجالات زراعية؟ وما الانعكاس الذي نتوقعه لهذه الاستثمارات على الاقتصاد الوطني؟

هذا التقديم هو مضمونية الكتاب الذي نقدم عرضاً له. وهو من تأليف الأستاذ المهندس محمود عنبر، تحت عنوان: الهجرة إلى المجتمع الرقمي. قدّم له الدكتور عماد مصطفى وأصدرته دار الأولى للنشر والتوزيع، ويقع في /٣٠٢/ صفحة من القطع الكبير.

❁ ❁ ❁

١- العصر الرقمي..

إنه مجتمع جديد سيؤدي إلى تغييرات واسعة على المستوى العالمي، قد تفوق التغييرات التي حصلت عند اكتشاف القارة الأمريكية، أو عند هبوط أول إنسان على سطح القمر. كما سيتم تصنيف العالم إلى مجتمعين كما فصلته الثورة الصناعية. مجتمعات غنية بالمعلومات، ومجتمعات فقيرة بها. كما لابد من التمييز بين هجرة الأفراد وهجرة المؤسسات إلى المجتمع الرقمي. وعلى طالب الهجرة أن يتمتع ببعض المزايا التي تناسب هذا المجتمع: معالجة النصوص وبرامج التصفح وبرامج البريد الإلكتروني. وانضمام المؤسسات يتطلب: المرونة والقدرة على التعلم الذاتي من البيئة المحيطة، واكتساب المعرفة ومواكمتها. إن العصر الحالي هو العصر الرقمي الذي يتطلب ليس فقط إعادة توزيع الثروة، بل تحفيز توليد الثروة في المجتمع.

حظيت المعلوماتية بنظرة إيجابية منذ

البدايـة. وبدأ التحفـز والتهيؤ لها من قبل المجتمعات والأسـر. وهناك حماس لتعلمها من قبل الأسر عن طريق الدورات المتخصصة في هـذا المجـال. وفي مجال القطـاع العام والخاص، مـا زال الصراع قائماً بين البنية الإدارية المتخلفة والاستخـدام المعلوماتي. الـذي أثر علـى قدرة هـذه القطاعات في المنافسـة الداخليـة والخارجيـة مع دول العـالم. كما أنه لابد من إعـداد بنية تحتية (قاعـدة معلوماتيـة) تتيح للجهـة مواكبة أحـدث التقنيات والتطورات الحاصلة لهذه التقنيات حتـى تستطيع الدخـول إلى عالم المنافسـة. لذلك لابد من تعديـل القوانين المعمول بهـا في المؤسسات العامة والخاصة لإتاحـة الفرصة للاستخـدام الأمثل لنظم المعلوماتية في إداراتها.

والمجتمـع الرقمـي بما فيـه من نظم رقميـة أداة طيّعـة للاستخـدام في كل المجالات حتـى في مجالات الحرب والسلم. فقـراءة رقمية للاجتيـاح الأمريكي للعراق يؤكد لنا الاستخـدام الرقمي لهذه الحرب من خلال عـددٍ من المصطلحـات التي تم استخدامها كشيفـرات رقمية مثل: الخطة المرنة، التخطيط الإجمالي ومتابعة التنفيذ،



النـيران الصديقة.يمكننا توقـع أن العديد مـن القرارات السياسية أو العسكرية قد تمّ اتخاذهـا استنـاداً إلى الوقائع التكنولوجية المذكورة سابقاً.

❁ ❁ ❁

٢- الخدمات الرقمية..

تتمحـور الخدمـات الرقميـة حـول القضايا التالية: الموبايل. الإنترنت. مؤسسة الاتصالات. الحاسب الشعبي.

- مـا زلنـا حتى الآن نستخـدم مفهوم الرفاهيـة في المكان غير المناسب. فالمستوى الضعيف لأي خدمة في طريقة تشغيل هذه الخدمـة وإدارتها يعكس خلـلاً، وتحسينه

ينعكس إيجاباً على كل من مقدم الخدمة والمستفيد منه. إن مشروع الحاسب الشعبي سيؤدي دون شك إلى زيادة عدد الحاسبات المستخدمة في القطر، وسيؤدي إلى زيادة عدد مشتركي الإنترنت. لقد تنبهت الدول المتقدمة إلى أهمية وسهولة انتشار الهاتف المحمول، وبدأت بتعديل خططها وفقاً لذلك. وهناك مشكلة الهاتف الثابت وإمكانية توفيرها للجميع، أو المنافسة قائمة بين الهاتف المحمول والثابت، سواء من حيث الجودة التقنية أم الكلفة المالية لاستخدامه.

- النقطة الثانية هي استخدام الإنترنت الذي أطلق عمله في سورية. وأهداف هذا المشروع تتمحور حول النقاط التالية: حماية المواطن من المواقع المسيئة ثقافياً وأخلاقياً. عدم الاكتفاء بالاستخدام بل المشاركة. مراقبة المعلومات الصادرة والواردة. اختراع التشريعات المناسبة. تدريب كوادر المؤسسة على استخدام التقانات الحديثة.

- رغم ذلك نتساءل عن أسباب تدني عدد المشتركين في الإنترنت في سورية مقارنة مع بعض الدول العربية /٤٠٠/ ألف مشترك في سورية فقط، بما فيه المؤسسات الحكومية. أما مصادر الإعاقة في الإنترنت فهي: الإنترنت في سورية لا تنقل الصوت. لا ترسل المعلومات. لاتسمح بإرسال واستقبال الفاكس. لايوجد خدمات إنترنت للتطبيقات.

- وبالتالي: هل سيؤدي تنظيم مهنة الاتصالات إلى دور أكثر فاعلية لمؤسسة الاتصالات، أم أنها ستستمر بالمستوى الحالي للعمل الإداري والذي ينعكس على مستوى الخدمة التي تقدم للمواطنين.

- إن تطوير منظومة الخدمات الرقمية لا يتم عبر تحقيق انتشار الحاسبات وشعبية الإنترنت والهاتف المحمول فقط. بل لابد من التحول إلى المجتمع الرقمي، وفق سوية تنظيم مهنية تعتمد معايير محددة.

❀ ❀ ❀

٣- الحكومة الإلكترونية..

هل الحكومة الإلكترونية مجرد مصطلح جديد؟ يعتبر خفض تكاليف تقديم الخدمات الحكومية، وتنفيذ هذه الخدمات من أهم مبررات الحكم الإلكتروني. ولوجود هذه الحكومات الإلكترونية لابد من تجاوز مراحل عدة: الإصلاح الإداري. أتمتة أعمال المؤسسات الحكومية. ورغم ذلك فإن

الحكومة الإلكترونية بنظر المؤلف ما زالت تجربة فاشلة تحيط بها عدة من الوقائع المانعة هي: اعتماد المؤسسات على الخبرات الداخلية. الرغبة في شراء التجهيزات. إعادة اختراع العجلة. نُظم العمل.

ولمعالجة هذا الخلل لابد لنا من: تشكيل مديرية للنظم المعلوماتية. الوسيط الاستشاري. ولإيجاد حكومة إلكترونية تقدم خدماتها لابد لنا من: أتمتة الأعمال الداخلية. وضع هذا النظام قيد الاستثمار. تطوير وأتمتة الدورة المستندية. طرح بعض الخدمات الحكومية إلكترونياً.

❁ ❁ ❁

٤- الخدمات الحكومية..

يمكن للدولة عبر حكومتها الإلكترونية تقديم الكثير من الخدمات في حقول الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية. من هذه الخدمات نذكر:

١- الإدارة المعلوماتية لمنظومة الطوارئ في سورية.

٢- نظم معلومات الجغرافية ودورها في تجميل الفشل الإداري.

٣- الدور الجديد للرقابة المالية والتموينية.

٤- مشروع السكن الشعبي.

٥- إدارة القطاع الصحي المجاني.

٦- طوق النجاة للمصارف الحكومية.

❁ ❁ ❁

٥- التطوير الإداري:

- لماذا لم يتم التحسن في مؤسساتنا الحكومية رغم تطبيق نظرية الإدارة بالأهداف؟ وما دور المعلوماتية في تطبيق النظريات الإدارية الحديثة؟

إن الإدارة بالأهداف شكل مفاجأة لمعظم المختصين في مجال الإدارة. إن هذه الطريقة تعتمد على مفهومي: الجودة والكلفة. لكن تم تجاوز ذلك إلى مفهوم: معايير الأداء المتوازنة.

- ماذا فعلنا في مجال الإصلاح الإداري؟ إن وزاراتنا تعاني أساساً من خلل وتداخل في الدورة المستندية التي من المفترض أن تتناسب مع الهيكلية الإدارية الجديدة. ولإيجاد إصلاح إداري ناجح لابد من: رؤيا إدارية واضحة. تعديلات في الهيكلية. تطوير الجودة. إجراءات العمل. مكونات النظام الإداري المتكامل.

- رغم ذلك فإن مشروع التطوير الإداري فقد نفسه لأسباب تعود إلى الاكتفاء بترديد

هذا الشعار وإصدار تعميمات حكومية.

- ولكن هل يتم التطوير الإداري دون حكومة إلكترونية؟ لابد من تأمين كوادر بشرية مؤهلة لتطبيق قوانين الحكومة الإلكترونية. والمساهمة في وضع الخطط العامة لبرنامج التحوّل للحكومة الإلكترونية في كل وزارة.

❁ ❁ ❁

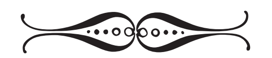
٦- صناعة المعرفة..

ماذا ستصدّر سورية بعد النفط؟ اعتقد (المؤلف) أننا لسنا في وضع علمي وتكنولوجي يسمح بتحقيق صناعة تكنولوجية، إلا أنه على المدى الاستراتيجي أرى هذا الخيار هو الوحيد. ولذلك لابد من اتخاذ الخطوات الكفيلة بتحقيق قفزة علمية وتكنولوجية خلال فترة معقولة نسبياً، وجعل هذا الهدف في قمة أولوياتنا. ولإنجاز ذلك لابد من: الصبر في مجال نقل التكنولوجيا. الاستفادة من التجارب العالمية (مثال الهند). معالجة معوقات الصناعة المعلوماتية في سورية.

أهمية إنشاء ثقافة إلكترونية، تحديد الجهات الوصائية بإنتاج صناعة المعرفة. دور نقابات العمال والصناعة والتقنية في إنتاج المعرفة التقنية وتصديرها.

❁ ❁ ❁

ما قدمناه هو نماذج ودراسات أولى في مجال الهجرة إلى المجتمع الرقمي. والصناعات التكنولوجية، وبناء حكومات إلكترونية رقمية. وهي دراسة جادة بحق، وتستحق الدراسة والتمحيص والتطوير، إذا كان لابد من دخول عالم التكنولوجية والاتصال سواء على المستوى الوطني أم الإقليمي أم القومي أم الدولي.





مسيرة التاريخ هل هي إلى الأمام؟

رئيس التحرير

في عام ١٧٨٨ (قبل الثورة الفرنسية بعام) كتب المؤرخ العالمي آرثر ينج يقول: «إن قراءة التاريخ الحديث هي أسوأ ما يمكن للإنسان أن يعمله.. إن الإنسان يبتلى بالقراءة عن أعمال طائفة من الناس يسمى أفرادها فاتحين وأبطالاً وقواداً، وأنت تمضي في هذه التواريخ خلال صفحات حافلة بالتفاصيل الحربية، ولكنك عندما تريد أن ترى تقدم الزراعة والتجارة والصناعة، وأثر هذا التقدم في شتى

مناحي الحياة وأثرها على الناس، وعندما تريد أن تعرف مقدار ما تحصّل من ثروة، وكيف كان توزيع هذه الثروة، وكيف كانت تستخدم، وما ترتب على ذلك من أثر في السلوك، فإنك لا تحصل على شيء..».

قراءة التاريخ تقودنا إلى القوة التي تسيّر التاريخ والدراسات التي تؤدي إلى تغيّر المجتمعات، وتأخر التطور الثقافي والفكري والمعنوي حيث تبرز حقيقة تقول إن سبب تلك الكوارث التي تصيب الإنسانية، يكمن في التقدم المادي الذي يضرّ بالكيان الإنساني ويخرجه عن طبعه، وهذه الظاهرة تبدو في أيامنا هذه بأوضح مما ظهرت فيه في أي حقبة ماضية من أحقاب التاريخ، وهي في صميمها انعدام التوازن بين التقدم المادي الشاسع المدى، والتقدم الإنساني الأخلاقي الذي لايتم منه إلا شيء قليل في ظواهر الأعمال والتصرفات في الغالب..

عامة المؤرخين –اليوم- يقولون إن ما يسمّى بالتقدم أو مسيرة التاريخ والحضارة إلى الأمام أو إلى الأحسن إنما هو وهم، لأن غرائز الإنسان وأخلاقياته المركبة في طبعه باقية، كما هي، بل زادت حدّة وضراوة، ومازال الوحش راقد تحت جلد الإنسان المتحضر، ويذكرنا هذا الرأي بأقوال ابن خلدون الذي حمل في مقدمته الشهيرة، على الحضارة، التي يرى أنها تضعف من يملك أسبابها ويطمئن في مهادها ويستسلم لنعيمها، فيضعف فيه النزوع إلى القوة ويقل حماسه للجهاد والصراع، وتفسد الحضارة طبعه، ويستولي عليه الترف، فيفسد ويضمحل، ونرى أن ابن خلدون يخطئ هنا خطأً أساسياً، لأن التحضّر والتدرج في مراتب الحضارة لا يضعف الإنسان أو الجماعة بل يقويه ويقويها، لأن الحضارة علم ومعارف وخبرة وتجربة، وكل هذه تزيد ملكات الإنسان إرهافاً، وتفجّر في كيانه ينابيع جديدة من القوة.. ولكن الذي يضعف البشر هو سوء استخدامهم لنعم الحضارة، ولا

بأس على الإنسان من التحضّر والترقي في مراتب العمران، ولكن أهل الأمم الدابرة كانوا يسيئون استخدام ما ملكوه من أسباب التمدن فيسرفون في التنعم ويخلدون إلى الراحة والدعة، ويزهدون في العمل والجهد، فيكلون الأعمال والمتاعب لغيرهم ويمضون في الاستمتاع بما قسم لهم من نعيم العيش، ويسرفون في الطعام الشراب، فتضمحل قواهم ويتمهد الطريق لغيرهم للتغلّب عليهم وانتزاع الملك والسيادة من أيديهم.. وتتلخص هذه الظاهرة فيما يسميه المؤرخ الكبير حسين مؤنس: «سيطرة أدوات الحضارة على الإنسان بدلاً من سيطرته عليها».

ولكي يستطيع الإنسان الإفادة من أي أداة أو ظاهرة حضارية ينبغي أن يكون قادراً على السيطرة عليها، وإلا سيطرت هي عليه وأصبحت ضرراً ووبالاً عليه، وتسمى هذه الظاهرة من حقائق الحضارة بـ«القبض» أي القدرة على القبض على الأشياء، ومعرفة كيفية استعمالها، ودون هذا «القبض» لا يستطيع الإنسان الإفادة من أي أداة أو ثمرة من ثمرات الحضارة التي توضع بين يديه، وموقف الإنسان من الحضارة وأدواتها تحدده ثقافته وتجاربه وذكاؤه وقواه العقلية والمعنوية، أو تحدده كذلك تربيته وما نشأ عليه من قواعد أخلاقية وسلوكية.

